
روايات الهلال
طيور العنبر
إبراهيم عبد المجيد

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة
شهرية
لنشر
القصص
العالمي

تصدر عن
مؤسسة دار الهلال
الإصدار الأول:
يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٧٥٠٠ ليرة - الاردن ٣ دنانير - الكويت ٢ دينار - السعودية ٢٠ ريالا - البحرين ٢ دينار - قطر ٢٠ ريالا - دبي/أبو ظبي ٢٠ درهما - سلطنة عمان ٢ ريال.

العدد ٦١٣
يناير ٢٠٠٠ ● شوال ١٤٢٠هـ
No - 613 - JAN - 2000

الاشتراكات
قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفي لامر مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت : ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا : المصور - القاهرة ج . م . ع
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

عنوان البريد الإلكترونى ●
darhilal@idsc . gov . eg

طيور العنبر

تأليف :
إبراهيم عبد المجيد

●
دار الهلال

الغلاف للفنان:
حلمى التونى

« لى من الذكريات أكثر مما لو كان عمرى ألف سنة. »

• بودلير

« إنها أكثر من سكندريتنا، إنها سكندريتنا التى صنعناها، التى خلقناها من الروائح والأزهار والمحسوسات والخيال والحب والتى هى باقية، لأنه إذا افتقدت هذه الإسكندرية فماذا يتبقى لى..؟ »

هارى تزالاس

إلى فاطمة

...

إبراهيم

القسم الأول ...

(١)

لا أحد أمامه على امتداد البصر. ترعة المحمودية خالية من المراكب الكبيرة والصغيرة. ليس هناك ترام واحد يتحرك على الضفة الأخرى، وعلى يمينه ليس إلا طوب وأسمنت لبناء مدرسة جديدة تشغل جزءا من الخلاء الواسع الذى تحتله مخازن قسطنطين سلفاجو. مشهور سلفاجو اليونانى هذا فى الاسكندرية. مخازنه تشغل بقية الفضاء العريض من ترعة المحمودية حتى سور السكك الحديدية، وتمتلىء ببراميل الزيت والشحم وبالات الخيط ودوائر من الأسلاك والسيور الجلدية القديمة والحديدية وأشياء أخرى متنوعة وغريبة من معادن صدئة ومعادن تبرق فى ضوء الشمس. سلفاجو يمتلك حصصا كبيرة فى شركة الغزل الأهلية المصرية القريبة فى كرموز، والشركة المساهمة لتنظيف وكبس الأقطان التى تقع قريبا من مينا البصل فى الاتجاه المعاكس لكرموز، وفى شركة مصانع النحاس المصرية بسيدى جابر، وشركة الترام وغيرها، وهذه الأرض الفضاء الرحبة هى مخزن الخردة التى تلفظها كل هذه الشركات. يا الله، لا يوجد ناس الآن فى هذا الخلاء غيره هو. حتى عمال بناء المدرسة غير موجودين وليس اليوم عطلة، ولا الوقت مساء.

الوقت صباح، ضحى، وليس ثمة أحد غيره. هو وحده الموجود فى هذه الدنيا. هل هذا معقول؟ هذا الإحساس الغامض الذى قفز فجأة فى تجاويف رأسه، ثم وقف داخلها منتصباً، ها هو يقفز ليقف أمامه بين عينيه، فوق أنفه مباشرة، ويبتسم له فى سخرية. انه يراه ويكاد يهشه بيده ليسقطه أمام قدميه لكنه لا يفعل. يتوقف وينظر خلفه فلا يجد غير امتداد الشارع الأسفلتى الذى حال سواده. لم يعد أحد يأتى يعتنى

بالشارع. قبل ذلك كان العام لايدور إلا وقد جاء «وابور الظلط» يبلِّط الشارع بالزفت الأسود والحصى الأسود البازلتى. هل لاتزال السماء مكانها؟. سؤالى حط عليه لايعرف مصدره . ليرفع عينيه شيئا فشيئا. وجدها مكانها كما يجدها كل يوم. لو اختفت ماذا كان يمكن أن يحدث له؟ لا أقل من أن يموت فى الحال. يرتعش جسمه ويتفتت وينهار لحمه حول قدميه ثم يتلاشى هيكله العظمى . يصير ترابا أبيض. ابتسم. أين يمكن أن تختفى السماء يا عربى؟. حتى الحرب لم تقم بعد، قد لا تقوم بالمرة، – كانت قوات إسرائيل قد عبرت حدود سيناء أمس ولم يكن يعرف حتى الآن – ولاحظ أن السماء اليوم بعيدة بعض الشىء. بل بعيدة أكثر من كل يوم. يستطيع أن يراهن على ذلك. سحب رمادية وسوداء جاءت تجرى من الشمال والشمال الغربى معطلة ضوء الشمس للحظات فاتحة الباب لهبة ريح خفيفة باردة. لكن على عكس ما يحدث فى مثل هذه الحالات، لم يشعر باتساع الدنيا. أحس أنها ضيقة مثل علبة باردة ، مثل صندوق سمك زجاجى. هو إذن سمكة وإن كانت غير ملونة تتحرك فى مساحة صغيرة وتصطدم «ببوزها» كل حين فى الجدران الزجاجية. سمكة مسكينة لا تكف عن الحركة ولاتتفادى الاصطدام، والبرد يدخل إليه منعشا من الكم النصف للقميص الأزرق السماوى الواسع الذى يحرص على كى ياقته بالنشا كما يحرص على فرد شعره بالصابون وعمل «بوف» ينكسر فوق جبهته العريضة اللامعة تماما كما ينكسر «بوف» چيمس دين. «الچيليه» الخفيف فوق القميص لا يكفى لصد البرد المفاجىء. ليس ذلك مهما على أي حال. لا يذكر يوما واحداً شعر فيه بالدفء. حتى عند «كاتينا»، فى اللحظات الجميلة التى ينفردان فيها معا، لم يكن يفارقه الصقيع. لا تحبه كما يحبها، ومصيرها

الرحيل ذات يوم. تقول دائما.

ما يخيفه ، الآن، بحق، هو هذا الإحساس بأنه وحيد فى الدنيا، وأن العالم صغير يبدأ وينتهى بعد خطوة، وأنه قد يسقط بعد هذه الخطوة فى حفرة.

ولم يسقط. انتبه إلى أن الأرض مستوية وجامدة. لقد انشقت فقط منذ قليل وأخرجته. انه مخلوق فى التو، لايذكر شيئا من ماضيه ولا يعرف أين يقصد بالضبط. وإذا لم تكن الأرض هى التى انشقت وأخرجته، فإنه الله هو الذى قذفه من السماء. أجل. أمسكه من قفاه و«بنترة» صغيرة من إصبعه قذفه إلى الأرض فاخترق كل هذه الحجب والسموات الطباق، و لما رآه مسكينا حائرا فى الفضاء قال له انزل يا عربى إلى الأرض بسلام! هنا فى شارع قنال المحمودية حيث لايوجد أحد غيرك الآن! . ليس خلفه إذن ثلاثون سنة من العمر ، فهل أمامه شىء؟ لقد حمله الهواء العجيب إلى هذه الدنيا من حلم عميق، بئر، حلم كالبئر، بئر كالحلم، وصار موجودا وإن لم يشعر أحد بوجوده. كيرك دوجلاس، الممثل القوى الرشيق ذو النونة العميقة فى ذقنه خدع الوحش الرهيب ذا العين الواحدة بعد أن كان حبسه وبحارته فى المغارة وراح يأكل واحداً منهم كل يوم. سقاه خمرا فأسكره ولما سأله عن اسمه قال له «لا أحد» ، ثم فقأ عينه الوحيدة بعد أن غلبه السكر وفر من المغارة هاربا ومعه رجاله. ملأ زئير الوحش الجبال وهو يبكى خلفهم حتى اجتمعت حوله الوحوش وسألته من الذى فعل بك ذلك ؟ فقال «لا أحد» فوقفت عاجزة ولحق كيرك دوجلاس وبحارته بالسفينة وعادوا إلى بلادهم. سليمان شاهد الفيلم وقال إن كيرك دوجلاس كان موجودا، لكن الوحش لايراه، فهو إذن غير موجود. وهكذا الواحد لايكون حيا إلا إذا

رآه الناس وتعاملوا معه وإلا سيكون مثل «لا أحد». لكن العربى لايقتنع بهذا الكلام الصعب لسليمان رغم إنه يشعر بأن له قيمة كبيرة هذا الكلام!. ما يضايقه الآن ليس أنه وحيد فى الشارع، لكن خوفاً غريباً أن تنشق الأرض وتبتلعه إلى حيث كان، إلى الحلم أو البئر، أو يأخذه الله إلى السماء فى طرفة عين. بقسوة أو بلين فهو الله يفعل ما يشاء. بيد من نار أو بيد من ماء!. وقد يسمح له أن يراه مثل سيدنا موسى عليه السلام، أجل. يمكن أن يكافئه الله برؤيته، هو العربى المسكين التعيس الخائب.

كادت دموعه تطفر منه، وجاهد ليمنعها. صار رأسه فارغا وراح فمه يبحث عن كلام. الصمت يكاد يخنقه، فليتكلم بأى شىء حتى ولو إلى لا أحد!.

راح يحرك شفتيه لكن لاصوت يخرج منهما، وحين خرج الصوت وسمعه لم يفهم ماذا يقول. كان نصف الكلام قد مضى فى الصمت!. أجل . قال النصف الأخير من الجملة فلم يعرف لها معنى. سليمان قال إن كيرك دوجلاس قام بدور «أوليس» . استقام للعربى الكلام، «أوليس» بطل يونانى مكار شديد الحيل كما قال سليمان، لكن كاتينا لم تحدثه أبدا عن أوليس، واليونانيون فى الاسكندرية طيبون يعملون بجد ولا يبدو أحد منهم مكاراً شديد الحيل.

ياعربى ! كيف تعرف؟ نعم كاتينا طيبة جدا وليست ماكرة أبدا كأوليس.

«لازم أرابى بعد ليل فيه نهار» تقول دائما. لابد يا عربى من فرصة كبيرة لك يوماً ما. أنت شخص حلو. تقول وهو يعرف إنه وسيم لاينافسه فى الرشاقة إلا رشاد الذى التحق بالقوات البحرية وراح يختال ببدلته

البحرية البيضاء والشرائط الزرقاء، لكنه فى النهاية عسكرى تافه. لطفى السائح يحاول أن يكون وسيما مثله لكنه لايستطيع، يبالغ فى كى ملابسه ووضع الفازلين على شعره لكن العربى يظل الأكثر أناقة دائما، لذلك لم يتطوع ليكون جنديا فى البحرية كرشاد، وهو للاسف لايستطيع أن يكون ضابطا، فهو لا يحمل أى شهادات، ولا يستطيع رغم الأناقة أن يكون مدرساً ابتدائيا مثل لطفى. لطفى يتفوق بالعلم إذن، لكنه مسكين لم يمنع العلم أن تنكسر عظامه فى أى لحظة كلما اصطدم بشىء.

لقد توقف لطفى من زمان عن اللعب معهم بالكرة الشراب، لأنه فى كل ماتش كانت رجله تنكسر، وتوقف عن الهزار مع أى شخص لأن أى شخص يستطيع إذا لوى ذراعه أن يكسرها. اعتزل لطفى الجميع وانكب على المذاكرة فصار مدرسا. منذ سنوات خرج فى مشوار غرامى مع إحدى زميلاته وجلسا بحدائق الشلالات قرب تمثال نوبار باشا. وهما يغادران المكان كانت هناك بقعة فى الأرض عارية من النجيل، وكانت زلقة بفعل الأمطار التى هطلت فى الصباح فانزلق لطفى وسقط على مقعدته فانكسر فخذه. توقف بعدها عن الحب والغرام!

لا لطفى ولا رشاد لديهما إمكانياته فى القوة والجمال. لكنه أمر محزن حقا لو مات رشاد فى الحرب. منذ أيام قيل إنه ممنوع من العودة إلى البيت بسبب حالة الطوارىء العسكرية المعلنة فى البر والبحر والجو. محمود الملاح أيضا تم استدعاؤه إلى الجيش. ظهر «المدّثر» شيخ الحارة فهتف محمود الذى كان يجلس مع العربى، كلاكيت أخر مرة يا محمود . ثم قال ظهر الفساد فى البر وأبلغه المدّثر بضرورة تسليم نفسه لمنطقة التجنيد فى الحال.

لطفى لم يخدم فى الجيش بسبب هشاشة عظامه. هل كان ممكنا؟

كان التدريب يفجره عشرات القطع في الفضاء. العربي أيضا لم يخدم فى الجيش. بسبب فى أن قدميه «فلات فوت». الجيش كان سيحرمه كثيرا من كاتينا، الحرب كان من الممكن أن تحرمه منها إلى الأبد. أتيليه كاتينا جميل تعوّد على العمل فيه منذ عشر سنوات الآن. يجلس بالباب يستقبل النساء الداخلات ويودع الخارجات، يفتح لهن الباب ويغلقه خلفهن. كثيرا ما يصحبهن إلى بيوتهن حاملا فساتينهن الجديدة. النساء باهرات الجمال كألوان القماش الذى يحملنه لهن رائحة جديدة مثل القماش دائما. كلهن يحببن أن يقدم العربى لهن القهوة بالحبهان والشاى بالنعناع، وكلهن يأخذن رأى العربى فيما يرتدين عند البروفة وهو في الحقيقة لاينظر إلى القماش، بل إلى ماتحت القماش ويبدو أنهن يدركن ذلك من نظراتهن وابتساماتهن، أكثرهن أجنبيات فلا يجدن مشقة أن ينظر إليهن رجل كالعربى يتفحصهن ويمضى بقية اليوم صامتا. إنه لا يتكلم معهن أبدا، لكنه لا يكف عن توزيع ابتساماته عليهن وهن يتحركن أمامه كالفراشات.

يجمع آخر النهار ماتناثر على الأرض من قصاقيص، وينظف المكان، وتنصرف الخياطتان، چورچيت المسيحية، وأسمهان الإيطالية التى لايستطيع أن يصدق أبدا أن اسمها أسمهان!. تبقي كاتينا وحدها. إنها تعيش فى الغرفة الصغيرة فى طرف الشقة الكبيرة بحيث لايبدو من اتساع الاتيليه أن هناك هذه الغرفة وأن كاتينا تعيش فيها. تجلس متعبة على الفوتيه والعربى يقعى تحت قدميها فوق الأرض يصب لها قدحا من النبيذ القبرصى الأحمر، ويشوى لها «أبو فروة» على الموقد الكحولى فى أماسى الشتاء، ويصب كأسا لنفسه ويتهيأ لسماع القصة التى لا تملها كاتينا.

«عارف عربى، ياناكيس كان حبيبى. زوجى لكن حبيبى أكثر. عارف عربى. ياناكيس كان يساريا. أنت لا تعرف ماذا تعني كلمة يسارى؟. يسارى عربى تعنى شيوعى ، تضحك. أنت لا تعرف ماذا تعنى كلمة شيوعى، يعنى لايحب الملك، ملك يونانى ملك مصرى ملك إنجليزى، ملك أى بلد. كان يحب العمال. يحب ستالين. يكره هتلر ، يكره النازى. النازى دخل أتينا عربى ياناكيس سافر يحارب مع العصابات . عصابات يعنى جيش صغير مثل عصابة اللصوص لكن لايسرق . يظهر ويختفى بسرعة بعد أن يضرب قوات النازى . هذا كان فى الحرب العالمية الأخيرة عربى . ياناكيس مات فى جبال اليونان.

زميله حضر هنا وأعطانى محفظة ياناكيس كان فيها صورته وصورتى وصورة بنتنا الصغيرة فيدرا. فيدرا الآن عربى فى أتينا مع زوجها سيفيريس. أنا هنا وحيدة عربى».

– وأنا أيضا وحيد كاتينا.

قال لها ذلك بالأمس كما قاله مرات كثيرة سابقة . قالت.

– لا. هناك معجبة تريد تتزوجك عربى.

– من؟

– راشيل زهاف.

لم تقل ذلك من قبل. أمس فقط قالت ذلك. صدمته المفاجأة.

– راشيل . راشيل زهاف عندها خمسون سنة كاتينا!

ضحكت وقالت.

– لكنها تحبك عربى.

– أنا أحبك أنت كاتينا.

– أنا أيضا عندى خمسون سنة عربى.

- أنا أراك فى العشرين كاتينا.

- أنت واحد مجنون عربى. أنا لازم يأتى يوم أسافر فيه أتينا.

- لكن لن أتزوج غيرك كاتينا.

-خلاص عربى أسافر أنا وتبقى أنت من غير زواج. أنا أيضا لن أتزوج فى اليونان. أنا تزوجت مرة. كان ياناكيس حبيبى عربى. كان يسارى. أنت لا تعرف معنى يسارى . يعنى شيوعى عربى. أيضا لا تعرف معنى شيوعى. كان يكره الملك. ملك مصر ملك يونان ملك إنجلترا، أى ملك فى أى مكان. كان يحب ستالين. كان مجنونا، أنت أيضا مجنون عربى.

وجذبته من شعره الناعم واضعة رأسه فى صدرها. كانت زجاجة النبيذ قد فرغت فنهض بصعوبة ليأتى بغيرها لكنها طلبت منه أن يضع فى البيك أب أسطوانة لأم كلثوم التى يحبها. وضع اسطوانة تحمل أغنية الآهات فقالت كاتينا.

- غيِّر الأسطوانة عربى. لا داعى للآهات الليلة. سمعنى على بلد المحبوب ودينى.

صدحت أم كلثوم فراحت كاتينا تتمايل طربا، وابتهجت، وقالت:

- تعرف عربى لو حصل انى تركت مصر لازم أعطيك ساعتها خمسين جنيها تبدأ بها مشروعا كبيرا فى حياتك.

لكنها سرعان ما استغرقتها الأغنية واندفعت في البكاء. ارتبك العربى لكنه استطاع أن يقف من جديد ويحملها إلى سريرها. أنامها وغطاها كما يفعل فى معظم الليالى وقبلها فوق جبينها لكن يبدو أنها لم تعد تشعر به. تسلل خارجا من الغرفة ثم من الاتيلييه، حين لامست قدماه أرض شارع الكنيسة الإنجيلية، تطلع إلى الكنيسة القريبة من

البيت، وإلى هدوء الشارع بالليل الذى لا يختلف كثيراً عن هدوئه بالنهار، وفكر لو أن كاتينا غادرت البلاد حقا فى يوم ما وتركت له الخمسين جنيها لن يبدأ بها أى مشروع، سينفقها كلها فى الملاهى على الكورنيش، المونسينور والأجلون والاكسلسيور وعطيات حسين وميراماو واللؤلؤة الزرقاء وذا شيب وغيرها، وسيخرج من آخر ملهى يسهر فيه صافقا الباب خلفه قاطعا الهواء ورذاذ الموج إلى سور الكورنيش، صاعدا فوق السور ثم يقف لحظات يأخذ فيها نفسا عميقا، ويتأمل فيها البحر الهائج، ثم.. ثم.. يلقى بنفسه وسط ظلام الماء. أجل. الكثيرون يفعلون ذلك بالليل هذه الأيام!!

(٢)

بين أشجار الكافور والكازورين والسدر المحيطة بسور مستشفى الأمراض الصدرية يمشى إبراهيم مرسى الهوينى مع نادية سلام. أمامهما مساحة من الخلاء الأسفلتى الرائق تنسكب عليه الأضواء الواهنة للشمس الهاربة من بين السحب السوداء والرمادية تصنع خيالات تتراقص لأوراق الأشجار الصغيرة الصامدة للخريف.

مساكن عمال وموظفى البلدية ذات القرميد الأحمر والأصفر تبدو قوية نظيفة وعلى اليسار الحديقة الصغيرة التى سيجلسان بها بعد قليل.

نادية فارعة الطول بالنسبة لفتاة فى سن السادسة عشرة، عالية الرقبة كالزرافة! رشيقة القد ترتدى فستانا طويلا، شانيل و إن لم تعرف

ذلك، وفى يدها «بوك» نقود صغير أسود ومنديل أخضر به ورود بيضاء.
لنادية وجه مستطيل وشعر أسود غزير تركته طويلا خلفها، عيناها سوداوان واسعتان وبشرتها خمرية رائقة وصدرها مرتفع تحت الفستان غير متسق بارتفاعه الزائد مع رشاقتها. لا يعرف أحد ان نادية تتعمد زيادة ارتفاعه بما تضعه أسفل نهديها من قطن داخل السوتيان!.

تمشى نادية واسعة الخطى بسبب ساقيها وتبدو دائما جادة فى الطريق تعرف أن عيون الرجال تتعلق بالنساء وان بين الرجال والشباب طائفة «وسخة» ليس لهم من شغل غير تلقيح الكلام على البنات والنسوان فى الطرقات. هكذا سمعت أمها تتحدث كثيرا ولم تعرف أبدا كيف عرفت أمها ذلك فلم يحدث أن رأتها تخرج من البيت!. الآن تمشى نادية الهوينى أيضا مع إبراهيم الذى استحم اليوم بصابونة بريحة كان مرفقا معها صورة لمارلين مونرو تضحك ويكاد يسمع صوت ضحكتها فى الحمام. لقد وضع على يديه وشعره قطرات من كولونيا الياسمين التى يخبئها فى مكان لا تصل إليه أيدى أخواته البنات كما سمع لطفى السائح يتحدث مرة عن كولونيا الشبراويشى خمس خمسات التى اشتراها وكان أول من أدخلها إلى المكان بين الشباب . لإبراهيم مرسى وجه مستدير منفوش وبشرة صفراء قليلا وباهتة وشعر أسود وعيناه عسليتان. قالت نادية بصوت هادئ.

- لماذا تأتي إلى هنا دائما يا إبراهيم؟

- أمان. هنا أمان يا نادية.

بدا لها الأمر مثل اللغز. ألا يوجد بالاسكندرية مكان آخر يتسم بالأمان؟ من قبل أخذها إلى نهاية ترعة المحمودية، بعد كوبرى التاريخ

حيث الخلاء الكبير، لكنها خافت من المبانى ذات النوافذ الكبيرة المغلقة بشباك السلك الضيقة لا يظهر خلفها شىء من فرط ما علق بها من ندف القطن. قطن قديم اصفرّ لونه وقطن جديد شديد البياض وقطن أشد قدما سوّد من لونه الغبار المتراكم. من على شاطىء المحمودية المهجور هنا كان يمكن أن ترى أعالى السفن فى الميناء، سفن بيضاء المداخن وسوداء بعضها، صواريها تحمل أعلاما ملونة تحيط بها رءوس الأوناش العالية التى تبدو مثل حيوانات خرافية قديمة. قال إبراهيم ذلك اليوم إن المكان أمان، فعمال مستودعات القطن الضخمة هذه لايظهرون إلا فى ساعات محددة باليوم، السابعة صباحا والثالثة بعد الظهر والحادية عشرة فى المساء، مواعيد الورديات، بين ذلك ليس غير الصمت وبعض طيور تسبح فى الفضاء . الساعة كانت حوالى السادسة والوقت كان صيفا، وبدا المكان الصامت متسعا بالخوف الواسع وسع الكون . قال إبراهيم لها ذلك اليوم إنه قد يأتى «عيال صيَّع» قطاع طرق من باب الكراستة أو سوق الجمعة أو كوم الناضورة فيضايقونهما ويأخـذون ما معهما، لكنه استعد لذلك بمطواة بسستة أخرجها أمامها وضغط على زرار عند رأسها فانفتح سلاحها الأبيض حادا أمامها فانكمشت من الرعب، لكنها ابتسمت وقالت ساخرة..

– وماذا معنا ليأخذوه؟

ارتاحت قليلا للهواء المنعش الودود المتحرك بتؤدة قادما من الميناء ساريا بين المبانى الرطبة، لكن الهواء الوديع هذا وحده لايكفى للمغامرة بالحضور إلى هنا دائما. لقد تركا خلفهما «مَرْسى» الفلائك، الملونة عند

كوبرى التاريخ، تاقت نفس نادية لاستئجار إحداها، لكن إبراهيم خشى أن يراهما أحد يتنزهان فى الترعة. قال لها اذا أردنا أن نفعل ذلك فعلينا أن نذهب إلى المرسى البعيد هناك فى الناحية الأخرى عند حديقة الحيوان، لم يكن أمامهما إلا الإيغال فى الصمت، صمت المبانى وصمت الأزقة البازلتية الضيقة بين المستودعات وصمت الفضاء الكبير وصمتهما معا.

فجأة برز شاب وفتاة أمامهما لكن على مسافة بعيدة. قبل أن تعلق نادية بكلمة أو إبراهيم رأيا الشاب يركن الفتاة على جدار أحد المستودعات ويضغط عليها بجسده كله ويقبلها وهى الفتاة التى اختفت وراء جسده، بدورها أحاطته بذراعيها، ثم لاحظت نادية إنهما شيئا فشيئا ينزلان معا إلى الأرض. لقد أمسك إبراهيم بيدها وضغطها بقوة لكنها سحبتها منه بسرعة وطلبت أن يعودا على الفور. لم تنتظر رده، جفلت واستدارت عائدة وهو يلهث ليلحق بها. شعر أنها أقوى منه على المشى، حتى إذا ابتعدا كثيرا وقفت غاضبة تتسع عيناها بالشر وهو خائف حقيقة من غضبها، لكن صورة الفتاة والشاب وقد تمددا على الأرض لم تكن قد فارقتها بعد، وجدت نفسها تبتسم، واتسعت ابتسامتها شيئا فشيئا، حتى ضحكت وطلبت منه ألا يأتى بها إلى هنا بعد اليوم!.

اختار إبراهيم الحديقة الصغيرة أمام مستشفى الصدر. حديقة متسعة بها أكثر من شجرة توت وسنديانة قديمة ضخمة وعدد من أشجار اللبخ.

قال لها إنه بالإسكندرية توجد حديقة الشلالات الجميلة لكنها فى العادة تمتلىء بالعشاق وقد يكون هناك من يتعرف عليهما، وتوجد حديقة الحيوان. أو النزهة كما يسميها الناس فى الإسكندرية، ولا يختلف امرها عن الشلالات، أما حدائق المنتزه فهى بعيدة جدا وممنوعة حتى الآن على الشعب. ليس ثمة حديقة آمنة إذن إلا هنا حيث لا يأتى غير بعض الفلاحين يزورون مرضاهم، يجلسون بالحديقة، يأكلون، ويثرثرون، ثم يختفون بعد قليل ولا يظهر إلا رجل متعب جاء يستريح بعض الوقت قبل أن يستأنف سيره، وربما امرأة مجهدة، وعادة كلب وحيد لا يكف عن الدوران فى لا مبالاة، وغالبا قطة بائسة.

قالت نادية:

– كلما جلست هنا رأيت رجلا ينظر ناحيتى من نافذة الدور الأخير.

نظر إبراهيم ليرى الوجه الشاحب لرجل زائغ النظرات.

– انه لاينظر إليك يا نادية. انظرى إلى كل النوافذ ستجدين وراءها مرضى ينظرون فى الفضاء البعيد.

– مساكين.

قالت نادية ولم يرد إبراهيم فعادت تقول:

– أنا أعرف أن السّل مرض قاتل وأن هذا مستشفى للسل.

وسكتت حتى قال إبراهيم.

– دعينا من الكلام فى الأمراض. حدثينى ماذا فعلت أمس؟

لكنها لم تتكلم . ظهرت قطة تمسك بفأر صغير بين أسنانها وتمشى على مهل تتلفت يمينا ويسارا ثم اختفت تحت الأشجار القصيرة لسور الحديقة رفعت نادية رأسها جافلة إلى الفضاء فوقعت عيناها من جديد

على الرجل الذى ينظر إليها لا يزال من أعلى نافذة بالمستشفى. لقد تأكد لها الآن ذلك فهو يبتسم وترى ابتسامته، بل يلوح بمنديل أبيض. أغمضت عينيها وأطرقت.

– فى مثل هذه الحالة لا تتابعى المشهد.

كان يقصد القطة، وكانت تتشرب مشهد المريض فى حالة هى مزيج من الدهشة والغبطة ولم تشعر بإبراهيم وهو يضع ذراعه حول كتفيها حتى أن سخونة صعدت فى جسدها فجأة ولم تعرف سببها الحقيقى، صدمة مشهد القطة أم غرابة مشهد المريض أم ذراع إبراهيم. بينما إبراهيم نفسه راح يفكر على نحو مفاجئ أن نادية هذه قد تكون بنت عبيطة، فهى أطول من بقية البنات، وتمشى مسرعة، وإذا ضايقها أحد هزت كتفها، وقالت «سم» ثم مطت شفتيها، لكنه يحبها ولا يعرف السبب!

– هل تعرف ماذا يمكن أن يحدث يا إبراهيم لو رآنا أحد؟

– أعرف. قريبا سأجد عملا بالدبلوم وأتزوجك.

– أنا خائفة يا إبراهيم. أهلى صعايدة وأهلك فلاحين.

– لكنى متعلم ولن يرفض أهلك.

ضايقتها إجابته. لم تستمر فى التعليم. لم يوافق أبوها قط. فى المساكن كلها لا تجد بنتا قد استمرت فى التعليم غير مريم القبطية التى هى أصغر منهن جميعا والتحقت بالمدرسة الإعدادية هذا العام، ونوال التى تخرجت فى مدرسة التمريض وتعمل فى المستشفى الأميرى . كل البنات اللاتى التحقن بالمدارس تركنها وهن بالكاد فى السنة الثانية الابتدائية. كان هو قد أخرج صورة كارت بوستال من جيب قميصه،

ووضعها أمام عينيها فهتفت.

- الله! عبد الحليم حافظ. الله. أنت أيضا معه! كيف؟

- هذا سر.

تهدج صوت نادية وهى تقول.

- نفسى أشوف فيلم لعبد الحليم.

- تعالى معى غدا إلى سينما ركس. فيها فيلم «أيام وليالى».

- هل تريد ان يقتلنى أبى؟

سكتا قليلا بينما هى التى صارت الصورة معها الآن راحت تتأملها مندهشة من كون إبراهيم يحتل مربعا صغيرا عند كتف عبد الحليم حافظ، وقال إبراهيم..

- عملية تكنولوچية معقدة.

- نعم!؟ ماذا تقصد؟

- لقد دفعت لكاكايان ربع جنيه كاملاً ليفعل ذلك.

- كاكايان. من هو كا.. كا.. يان.

- مصوراتى أرمنى ابن هرمة عند أبو الدرداء.

- اسمه كاكايان.

- أجل.

- يعيش كاكايان.

هتفت نادية واندفعت فجأة فقبلته بسرعة على شفتيه فأسكرته القبلة والدهشة معا ولم يستطع الكلام. جرت المتعة، البهجة العجيبة الممزوجة باللذة، من شفتيه إلى جسمه كله. بهجة عارمة دارت بالجسد بحق فقد كانت هذه اول قبلة في حياته. لقد انطبعت شفتاها على شفتيه وانتقل تيار من العسل إلى دمه فتشبعت روحه بالسُكْر والنشوة حتى لكاد

يطير، هو نفسه، أمام عينيه ! وظل واقفا متسع العينين فى ذهول كامل! كانت قد اتجهت إلى شجرة السنديان الكبيرة ووقفت تحتها تنظر إليه فى خجل حقيقى.

كيف حقا فعلت ذلك.؟ لقد كانت أول مرة أيضا تقبل فيها رجلا.

لم تكن تعرف أن القُبلة تأتى بكل هذا الفرح الذى يكاد يشع من مسام جسدها، ولا أن القبلة تطلق كل هذه العصافير من صدرها. مشى هو كالتائه نحوها حتى إذا اقترب منها عاد يحيط كتفها بذراعه، فقالت بصوت خفيض وألم حقيقى:

- هل ستكرهنى يا إبراهيم. ستكرهنى. أليس كذلك؟

ولم يكن قد علا من أرض النشوة بعد. قالت:

- هيا نعود.

ثم بهدوء أبعدت ذراعه عن كتفيها ومشيا لدقائق صامتين حتى سمعته يقول بصوت خفيض «الله» . كانت تعرف أنه لايزال منتشيا من أثر القبلة، هى كذلك لاتزال، لكنها لاتستطيع أن تعلن هذا الانتشاء، لم تكن هى التى قبلته، قوة خفية دفعتها لذلك، وهى لن تغفر لنفسها أبدا هذا الضعف. سألته.

- أنت شفت فيلم أيام وليالى؟

- طبعا.

- من الممثلة؟

- آمال فريد.

- حلوة؟

- صوتها حلو مثل صوت الأطفال.

سأل نفسه لماذا سألته هذا السؤال ما دامت لا تعرف الممثلين ولا الممثلات ولا تذهب إلى السينما.

- أنا أقصد شكلها.

تردد وتلعثم. أدرك انه لا يستطيع بحق أن يصف جمال امرأة. لم يسبق له أن فكر فى ذلك . لا يستطيع أن يقول أكثر من حلوة أو وحشة! وبدأ يتذكر كلمات المتنطعين الصيّع الجالسين على الدَرَج عند مدخل القبو المؤدى إلى الملاحة وهم يصوبون كلماتهم إلى النساء ويتغزلون فيهن. حديثهم دائما وقح عن الأرجُل والبطن والسوّة والعيون والأرداف!. إن أحدا لا يعرف من أين يأتى هؤلاء المتنطعون يترددون على المكان، يعرف الناس اسماءهم لكنهم لا يعرفون أين يختفون أخر النهار ولا إلى أين يذهبون، ويعودون دائما فى اليوم التالى.. أدرك فجأة على نحو غامض ومثير أن الممثلة آمال فريد هذه ذات الصوت الطفولى، ضئيلة الجسم ضيقة الخصر بارزة الصدر رغم اكتناز كتفيها، والأكثر إثارة فيها حقا هما شفتاها الممتلئتان. ها. لقد صار خبيرا بالشفاه بعد القبلة الأولى بدقائق! كما أن لآمال فريد بشرة خمرية مريحة وأهداباً طويلة ونظرة بريئة ثاقبة ، لكن أجمل ما فى هذه الممثلة بحق هو الحذاء ذو الكعب العالى الذى يتيح لها الحركة كفراشة بفستانها الطويل واسع الذيل، الكلوش. لكنه تردد أن يقول لنادية ذلك. قال:

- شكلها معقول.

سمع أباه مرة زمان يصف قريبة له أمام أمه فسألته كيف حقا عرف ذلك كله إن لم يكن ينظر إليها بعينين شرهتين. ولمح نادية تبتسم فى سعادة، ربما زهو ، لعلها أدركت أن الممثلة ليست جميلة، وكانت بالفعل

تفكر فى ذلك، لكنها قالت لنفسها، ومن أنا حتى أقارن نفسى بها؟ وران على وجهها شيء من الكدر فتساءل إبراهيم:

- ماذا بك يا نادية؟

لم ترد. قالت لنفسها تريدين إبراهيم وها هو معك فلماذا تفكرين فى عبد الحليم حافظ وتريدين منافسة آمال فريد فيه؟ ثم أن عبد الحليم الحقيقى مريض وفى لندن يعالج كما يقولون والفيلم كله تمثيل فى تمثيل. قالت بهدوء.

- إبراهيم . يظهر إنى جننت. تصور غرت على عبد الحليم حافظ من آمال فريد. خفت أن يتزوجها.

سكت إبراهيم ولم يعرف ماذا يقول ثم فجأة هتف:

- سأمنع هذه الزيجة بأي ثمن.

فانطلقا يضحكان فى الفضاء الواسع بين سور المستشفى الخلفى وورش ترام كرموز. لقد ابتعدا عن الحديقة فى طريق عودتهما. جريا إلى جوار سور الورش العالى الذى تعلوه قطع من الزجاج تمنع اللصوص من الصعود فوقه والقفز داخل الورش. توقفا وقال إبراهيم:

- عبد الحليم يغنى فى الفيلم أغنية جميلة جدا.

لكن انفجارا دوى فجأة فى الفضاء. ظهرت عربة جيش عالية قادمة فى سرعة من ناحية المحمودية محملة بصناديق من الذخائر، وخلفها ثلاث عربات أخرى على كل منها مدفع طويل رفيع وعدد من الجنود، التفت إبراهيم ونادية ليريا إلى أين تذهب هذه العربات فوجدا أنهاراً من الأطفال تأتى من كل ناحية إلى الحديقة كأنهم سيول أمطار تجرى من فوق الجبال إلى الوديان تملأها هديرا. لقد امتلأ الفضاء بحق بهدير

الأطفال وهم يصيحون:

«حنحارب. حنحارب كل الناس حتحارب» ارتعدت نادية ،أمسكت بيديها فى ذراع إبراهيم.

– ماذا جرى يا إبراهيم؟

– يبدو أن الحرب قامت يا نادية.

– من أين جاء هؤلاء الأطفال!؟

– منْ المدارس. لابد أن الحكومة أغلقت المدارس اليوم بسبب الحرب.

ظلا يتابعان الحديقة التى تمتلىء بالأولاد والصياح، هو فى دهشة وهى فى ذعر.

– طيب وعساكر الجيش أين يذهبون؟

– لا أعرف يا نادية، العربات وقفت أمام الحديقة. ربما هى مدافع مضادة للطائرات سينصبونها فوق المستشفى.

– أنا خائفة يا إبراهيم.

– لا تخافى. هذه احتياطات مهمة. لا أظن إن إنجلترا تقدر ترجع مصر مرة ثانية.

– أنا أكره الإنجليز يا إبراهيم . هيا نسرع.

– وأنا أيضا يا نادية.

قال ذلك وأسرعا فى الطريق الذى عاد إليه الهدوء كلما ابتعدا حتى اذا صارا وحدهما فى الكون الواسع من جديد قالت له فجأة وقد أمسكت بذراعه وتطلعت إلى عينيه.

– غنها لى يا إبراهيم. غنى لى أغنية عبد الحليم حافظ. الأغنية التى سمعتها فى الفيلم.

نظر حوله فلم يجد أحدا فى هذه المساحة الكبيرة من الخلاء بين سور الورش وسور المستشفى ومساكن البلدية . دائرة واسعة من الفضاء البهى وخضرة الأشجار. أغمض عينيه وأتى صوته خفيضا ناعما..

«كـــفـــاية نـورك علـىّ»

«نـورلـى روحـى وقـلـبـى»

«خـلاّنـى شـفـت بـعـينـىّ»

«اللى انكتب لى فى حبى»

ولأنها سمعت الأغنية كثيرا بالإذاعة اشتبك صوتها بصوته.

«قـــريـت علـى ضـــيـك»

«كـــلام جـــمـــيـل زيـك»

«كـــفـــايـة نـورك علـىّ»

وانطلقا ضاحكين ، لكن ظهرت المحمودية قريبة جدا منهما فقال إبراهيم.

– لقد وصلنا إلى الحدود يا نادية.

كانت هذه آخر نقطة يمكن له أن يصحبها إليها . عليها الآن أن تكمل الطريق وحدها إلى المعدية تنقلها إلى البر الثانى حيث «المساكن»، أما هو فسيعود إلى حيث كان ثم يدخل كوم الشقافة مواصلا المشى فى شارع باب الملوك حتى تقاطعه مع شارع عامود السوارى فينحرف يمينا إلى كوبري كرموز حتى يعبره ثم ينحرف يمينا مرة أخرى ليقطع الكيلو متر الذى يفصل المساكن عن الكوبرى، تكون نادية قد عادت قبله بكثير إذ تستغرق دورته هذه أكثر من نصف الساعة. هذه هى الطريقة

الوحيدة للتمويه على الآخرين!

وقف قليلا ينظر إليها كأنه لن يراها مرة ثانية. كانت هى أيضا تفعل ذلك.

– إبراهيم. لا بد نتقابل فى مكان آخر بعيداً عن المستشفى.

– أنا أيضا أفكر فى ذلك يا نادية.

تركته مسرعة وأخذت تخب المسافة القليلة الباقية من سور الورش ثم الفضاء الواقع بين الورشة والمعدية والذى يمكن فيه لأى شخص فى البر الثانى أن يراها. لكنها وحدها الآن. لاخوف إذن. وإن كانت تصل إلى المعدية دائما لاهثة الأنفاس فذلك من أثر السرعة والتوتر. لكنها سرعان ما تهدأ، حين تضع قدمها فى المعدية، وتقول لنفسها، كل شىء كما هو، الصبية يلعبون، وعمال شركة الملح والصودا يجلسون بدكانتى العنيبسى و السيد خليل، ووردة في المعدية تأكل هريسة وتبتسم. لاتكف عن أكل الهريسة ولا تكف عن الابتسام . كل شىء صامت ولا أحد يدرى بأحد وإبراهيم المسكين لايزال يسرع الخطى فى كوم الشقافة. لعله لم يدخل شارع باب الملوك بعد. لكنها مسافة ليست طويلة على رجل على أي حال، ثم إنها كلها تقع فى شوارع مأهولة يقول عنها إبراهيم إنها لا تخلو أبدا من رائحة الماء والصابون الذى تلقيه النساء فى الصباح على الأرض من الشرفات، وهى لا تعرف لماذا تلقى النساء فى الأحياء الشعبية حقا ذلك الماء والصابون.

(٣)

ماذا يفعل عيد بالنظر فى وجوه الفتيات؟. لا أحد يعرف ، هذا سر.

صار مشهده وهو يتابع النساء والفتيات فى الطرقات لايدعو لغير الابتسام. يرى المرأة قادمة من بعيد متجهة إلى«الملاحة» لشراء السمك، أو خارجة من القبو المظلم الواصل بين الملاحة وطريق المحمودية بعد أن اشترت السمك، يراها فيتجه إليها لا يشغل نفسه بشيء غير عينيها. لايتجه إلا إليهما ، لايهمه إذا كانت المرأة قد خرجت من القبو وقد تهدلت ملاءتها اللف، أو ظهرت ذراعاها عاريتين وكتفها أحمر، أو اتسعت قبة جلبابها حول عنقها فى جوف الظلام. لاتخطر هذه الاسئلة على بال عيد وإن خطرت على بال «الصنيَّاع» الجالسين جوار دكانة العنيبسى إلى جانب السلالم المؤدية إلى القبو مجهولو الهوية الذين يأتون كل يوم يأتنسون بمحمود القزعة بائع الثلج وصبيانه وتاجر البهار، فلفل مطحون كما يسمى نفسه. عيد ينتظر حتى إذا اعتدلت الواحدة منهن وسوت ملاءتها وثيابها، ثم ينطلق بسرعة إليها حتى إذا صار أمامها نظر فى عينيها وابتسم.

فى البداية ترتبك، بعضهن يصرخن أو يجرين من أمامه، بعضهن يشتمنه أو يوجهن إليه لكمة خفيفة على كتفه، لكنهن سرعان مايتماسكن ويبتسمن أو يضحكن، وعيد يوليهن ظهره ثم يضرب كفا بكف، تماما مثل طفل صغير يقلد الكبار، وتتهلل عيناه بالسرور، ويضحك. لقد صار عيد معروفا للكثيرات من المترددات على الملاحة من نساء كرموز وغيط العنب وكفر عشرى وكوم الشقافة... عم يبحث الولد الأشقر الجميل حافى القدمين فى عيون النساء ووجوههن؟ لا أحد يعرف. ولما سأله

«عربي» عن ذلك مرة تأمله طويلا ثم ابتسم وأعطاه ظهره وانصرف. وقف عربى حائرا ومندهشا ثم ابتسم بدوره ولم يعد بعد ذلك لهذا السؤال. أدرك عربى أنه لن يصل إلى شيء، كما أدرك ذلك والد عيد نفسه. لقد ضربه كثيرا حتى ينتظم فى الدراسة، لكنه كان إذا وصل إلى باب المدرسة، وقف يتأمل كروان وهو يدخل ثم يعود هو يبحث عن النساء. لا يزال عيد يفعل ذلك كل يوم ينهض فيه مبكرا. يصحب كروان لكنه لا يدخل معه المدرسة أبدا. يئس أبو عيد ويئست أمه، وركب كليهما الحزن.

- أخاف أن يعتدى على عيد أحد، شخص ما يكون مع امرأة.

- أخاف أكثر منك.

تنحدر دمعه على خد الأم، ويتمتم الأب «لله فى خلقه شئون»، ويتذكر شقرة عيد وعينيه الخضراوين، ويقول هذا ولد جميل غير جدير بهذه البهدلة!؟. لقد كف عن ضربه منذ تلك الليلة التى قفز فيها عيد من داخل البيت إلى الخارج كما لو كان يقفز من فوق السطح إلى الأرض، ثم جرى فى الشارع الوسطانى الذى يتوسط المساكن، هاربا إلى الفضاء على المحمودية ، ولم يجدوه إلا بعد ثلاثة أيام. لم يكن بعيدا أبدا كما تصوروا، كان قد صعد إلى السطح بالليل من خلف البيوت ، تسلق الجدار المواجه لخطوط السكك الحديدية، جدار أملس تماما لكنه تسلقه، وتمدد فوق السطح بلا حركة. لم يأكل شيئا ولم يشرب فلم يعد قادرا على الحركة. أوشك على الموت الحقيقى من العطش. لم يفكر فى النهوض، ولا العودة ولم يسمع له أحد صوتا، أنينا أو استغاثة، رغم أن أسطح كل عشرة منازل متصلة، والنساء والفتيات عادة يصعدن إليها لينشرن الغسيل. لم تلتفت واحدة منهن إلى ذلك الشيء الممدد جوار

الجدران المهملة هل هو عيد أو كائن حى من أى نوع.

كان قد غطى نفسه بخروق قديمة وجدها فوق السطح واطمأن ونام حتى اليوم الثالث حين صعدت «الچونى» وراحت تتمشى على السطح فى الأصيل وتعبث بالطوب الصغير والزلط الذى لايعرف أحد مصدره، وتقذف بعضه فى استرخاء وهى تعرف أن خير الدين على السطح الآخر يتابعها بشغف. سقطت منها «زلطة» فوق عيد ولم ترتد، اقتربت الچونى من هذا الشىء الطرى الذى اصطدمت به «الزلطة» فرأت كف عيد ظاهرة صفراء من تحت الهدوم فصرخت «قتيل قتيل» وجرت تصرخ من كل ناحية على السطح فى هستيرية حقيقية فصعد إليها الرجال والنساء وشباب وصبية المساكن جميعا وراح عيد ينظر إليهم بإعياء شديد. كان قد جلس ولم يستطع النهوض. ظلت أمه تضع له لحم الدجاج فى فمه، وتسقيه الشوربة الساخنة طول الليل، بينما لم ينقطع أبوه عن البكاء فى صمت.

يذهب عيد مع كروان إلى مدرسة القبارى الابتدائية ، يقطعان الطريق بين قضبان السكك الحديدية، وفوق «رصيف الباشا» الذى تأتى إليه البضائع من داخل البلاد بالقطارات، وما يكادان يخرجان من البوابة، ويكون معهما مصطفى وعبده اللذان يسبقانهما فى التعليم، حتى يتخلف عيد عنهم. لكنه لا يعود من الطريق نفسه. يأخذ ناحية كفر عشرى ويعود من شارع قنال المحمودية بعد أن يمر من شارع التجارة الرطب ويشم رائحة الغلال، ويقرأ لافتة مدرسة الشيخ عبد الله النديم الابتدائية ويضحك. لقد ألحقه بها أبوه فى أول سني الدراسة لمدة عام واحد قبل أن يحوله إلى مدرسة القبارى، ولقد حبسه أحد الشيوخ كثيرا فى حجرة الفئران لأنه كان كلما قرأ سورة الفاتحة قال «بسم الله

الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين ولا الضالين آمين صدق الله العظيم!». من هنا تأتى نساء كثيرات لشراء السمك، والنساء العاملات فى محالج القطن أمام كوبرى التاريخ يأتين زرافات فى الصباح الباكر من الجحور الفقيرة للقبارى وباب الكراستة وكوم الشقافة. عيد يحار من أين يبدأ وأين ينتهى بالنظر في عيونهن وتحمله سعادة غريبةٍ إلى سماوات علُى وهو يرى وجوههن البيضاء المستديرة جلية وسط السواد السابغ الذى يلوّن جلابيبهن والطرح فوق رؤوسهن، كما تلمع عيونهن بالضوء الباهر وسط بياض وجوههن المحاطة بالسواد! حوالى الحادية عشرة صباحا يكون هو قد انتهى من النظر فى وجوه النساء ويصل إلى البيت. يقول لأمه باسما.

– لو كنت فى المدرسة الآن كان زمانى فى الفسحة!.

تتألم صامتة وتعرف أنه بعد قليل سيخرج ولا يعود إلا فى المساء. لم يفلح الشيوخ فى علاج عيد وقالوا سينتهى وحده حين يكبر ويتزوج، وتأسف أبوه قائلا لنفسه، وما السبيل إلى ذلك يا خلق هوه، عيد لا يزال فى العاشرة ويحتاج ليكبر ويتزوج عشرة أخرى من الأعوام والأهوال!

عيد اليوم لم يترك كروان عند باب المدرسة. دخل معه إلى الفصل وكان منظره غريبا وسط التلاميذ. رآه مدرس الحصة الأولى فابتسم :

– ما الذى فكرك بالمدرسة يا عيد ؟

لكن عيد لم يرد. نظر حوله كأنما يبحث عن شخص آخر وجه إليه المدرس السؤال . تركه المدرس وراح يتحدث عن احتمالات الحرب التى بدأت بالليل أمس واحتمال دخول بريطانيا الحرب ضد مصر فى أى لحظة. لقد وصلت المفاوضات إلى طريق مسدود بين عبد الناصر والدول المنتفعة بالقناة، كان يتحدث بجدية والتلاميذ يصغون إليه باهتمام. إنهم

لم يروا حربا من قبل، وفوجئ المدرس بعيد يرفع أصبعه السبابة يطلب الكلام. وضع التلاميذ أيديهم على أفواههم يكتمون الضحك وتساءل المدرس:

– ماذا تريد يا عيد؟

– أنا أعرف جمال عبد الناصر.

وانفجر التلاميذ بالضحك . هدوء. سكوت، طلب المدرس.

– طيب يا عيد متشكرين.

لكن عيد لم يسكت. تساءل مبتسما.

– هل تعرف جمال عبد الناصر؟

كاد الأولاد يضحكون بقوة أكبر لولا أن أشار إليهم المدرس بالصمت، ثم تقدم من عيد وانحنى فوقه مقتربا من وجهه وقال :

– يا عيد كلنا نعرف جمال عبد الناصر لأنه رئيس البلاد، رئيس مصر.

لكن عيد لم يسكت.

– لقد مر جمال عبد الناصر مرة فى القطار خلف بيوتنا، واسأل كروان صح يا كروان ، صح أم لا؟

– صح يا أستاذ.

قال كروان . كان عبد الناصر عائدا من يوغسلافيا عن طريق البحر وركب القطار من الميناء حتى القاهرة. لقد وقف يومها فى العربة المكشوفة في القطار الملكي الذي كان مخصصا قبل الثورة للملك فاروق وصعدت النساء والرجال والأطفال فوق الأسطح يحيونه بالتصفيق والزغاريد والهتافات. لكن عيد أضاف:

– بعد ذلك جاء مرة إلينا في البيت وتعشى معنا، أى والله. أكل كثيرا جداً.

هنا لم يستطع التلاميذ السكوت، انطلقوا فى الضحك، صفقوا، ودبدبوا بأرجلهم على الأرض، والمدرس ينظر إلى عيد مبتسما محاولا بكل جهده ألا ينفجر فى الضحك، لكن ضجة كبيرة سمعت فى الطرقة أمام الفصول، رأى التلاميذ زملاءهم يجرون بعد أن خرجوا من فصولهم ودخل أحد المدرسين إلى الفصل قائلا.

– انتهى الدرس. الحرب قامت يا أولاد. اسرائيل هاجمت قواتنا فى سينا والإنجليز والفرنسيين وجهوا إنذارا لمصر!.

اندفع التلاميذ بقوة خارجين من المدرسة، انسكبوا فى الشارع الضيق أمامها فامتلأ عن أخره، قبل أن ينظموا أنفسهم فى مظاهرة كبيرة تندد بإيدن وبن جوريون وموليه ويخرجون فيها إلى الشارع الكبير المتجه إلى مينا البصل أو المكس، نظر عيد إلى كروان فى غاية السعادة وهو يقول:

– أول يوم أحضر إلى المدرسة قامت الحرب.

اختفى بعد ذلك بين الزحام. أخذ كروان ومصطفى وعبده طريقهم إلى المساكن عبر السكة الحديد. هى فرصة يصطاد فيها عبده ومصطفى العصافير «بالنبل» من تحت الاسقف العالية للأرصفة، وكروان لا يستطيع أن يفارقهم فهم الأكبر، وعادة ما يتركون كتبهم معه أثناء الصيد. لم يستمر التلاميذ طويلا فى شارع المكس وهم يندون بإيدن وموليه وبن جوريون، بسرعة تفرقوا جماعات صغيرة ضاحكين ذاهبين إلى بيوتهم. مشى عيد مع جماعة منهم ناحية كوبرى التاريخ، طريقه

المعتاد فى العودة، عند الكوبرى تركهم وانحرف إلى «كفر عشرى» يهتف فجأة وحده فى وجوه بعض المارة «طز فى بن جوريون». ولم يدخل عيد شارع التجارة اليوم. جذبته الفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين الواسعتين والوجه المستدير الأبيض الريان والابتسامة السحرية كمرآة من بللور. كان قد اقترب منها يتطلع في عينيها. لم يبد انها خافت أو ارتبكت. ابتسمت.

– وبعد ذلك ماذا ستفعل؟

وقف مبتسما بدوره. قالت :-

– ولد. كتير أشوفك فى الشارع ماشى تبص فى عيون النسوان . لماذا؟

ظل مبتسما مثبتا عينيه على عينيها، كادت الملاءة السوداء تنزلق من على كتفيها، فرفعتها وأحكمتها فوق رأسها وأمسكت بطرفها وهمست له:

– تحب تشوف عيون؟

اتسعت ابتسامته أكثر.

– تعال ورائى.

مشت وهو خلفها، وكلما تقدمت التفتت تتأكد من وجوده فتراه مبتسما.

– لاتقترب منى. لاتفضحنى يا عبيط.

وهو يزداد سعادة وابتساما، دخلت به شارع عبد النبي الضيق القصير لكنه بدا طويلا ملتويا لاينتهى، أكثر رطوبة من شارع التجارة، لا تشم فيه رائحة الغلال المخزونة كشارع التجارة لكن تشم فيه رائحة الانفاس المكتومة للبشر المنسيين، ورائحة تزكم الأنوف من النفايات

الملقاة طوال الطريق، عند نهاية الشارع انحرفت الفتاة لتدخل في زقاق ضيق، فدخل خلفها، في وسطه لم يعد هناك غيرهما فوقفت وهو جوارها.

- هات يدك يا مضروب.

ترك لها يده. أحس بدفء أصابعها، صار يضحك كأنما يدغدغه أحد، ونزلت به درجا بدا له لا ينتهى أفضى بهما إلى باب خشبى عالٍ وكبير راحت تدق عليه دقات خفيفة بالسقاطة القديمة التى على شكل يد بشرية.

انفتح الباب فقالت «خطى برجلك اليمين يا عيد»، لما نظر إليها مبتهجا قالت «عارفة اسمك. كلنا هنا عارفين اسمك يا ولد» دخل عيد برجله اليمنى فوجد نفسه أمام ساحة مضاءة بنور لا يعرف مصدره، وقف مبهوتا يقول الله! منشرحا من فرط البهاء المنسكب حوله، فقالت «أنت لم تر شيئا بعد يا عيد، الجنة على بعد خطوتين من هنا» وانفتح أمامهما باب آخر أقبلت منه روائح بخار الماء الممزوج بماء الورد، رأى خلف الباب فراغا من سحب بيضاء مشوبة بزرقه خفيفة، قالت له أدخل ولا تخف ودخل ومشى بين البخار لايعرف علامَ يدوس بقدميه، تراب ناعم أم مخمل أم نجيل طرى أم حرير، كانت هى تبتعد عند وسط البخار ، ولولا الملاءة السوداء ما كان قد رآها وهى تبتعد، شيئا فشيئا غلب البياض السواد، وغلبته الروائح الجميلة العجيبة للمسك والعنبر والكافور والبلسم التى تجعل الدنيا واسعة كبيرة، سحابة ولا أقل تحمله وتطير به بين السحب وبين المطر أيضا!!

ظل يمشى، يمشى لأنه غير قادر على الوقوف وبخار الماء يشف لكن غرفا على الجانبين تمتلىء بالبخار الكثيف وتهل منها الروائح العجيبة وأجساد بيضاء وحمراء تسبح بين البخار ويسمع ضحكاتها، نساء تضحكن ضحكات كسلانة ورجال يهمهمون، إخلع هدومك يا عيد، سمع الصوت وامتدت اليدان الطريتان النديتان تخلعان عنه قميصه وفانلته ثم تحمله الروائح العجيبة فيتعلق فى الفضاء، وتُنزل عنه اليدان الحانيتان بنطلونه وسرواله الداخلى بعد أن نزعت حذاءه الذى يلبسه دون جورب. لا يضع عيد جورباً فى قدميه. تعوَّد أن يعود إلى البيت يخلع الحذاء ثم يخرج ماشيا حافيا فى الشوارع. تعال معى ياعيد، وسحبته اليد الحنون، خطّى العتبة، ورفع قدمه بخطوة نزل بعدها فى ماء تاركا اليدين الجميلتين تمشيان على جسده كله من عنقه حتى قدميه.

انه يرى الوجه الجميل للفتاة، التى تفعل به ذلك، انه يرى وجوها كثيرة لفتيات جميلات، وتمر على جسده الآن أيادٍ كثيرة حانية.

ترى كم يداً وكم وجهاً؟ لا يعرف. كأنما مرآة تعكس مئات الأيادى والوجوه، وعلى جسده مشت أيادٍ باللوف الخشن والصابون وفعل الماء الساخن فعله فانتعش عيد وارتخى جسده وأحس براحة سحرية وأوشك أن يضحك والأيدى الندية تمشى بين فخذيه، وضحك ولم يرتفع صوته واهتز جسده بالضحك والنشوة واقتربت شفتان من شفتيه وراحتا تسقيانه عسلا مصفى فبدأ يغيب عن الوعى. ما الذى شق صدره وأدخل فيه نورا وراحة وطمأنينة وحبا لأبيه وأمه وكروان والأولاد جميعا فى المساكن. لقد رأى قبل أن يغيب عن الوعى وجوه بنات المساكن، الچونى وشوقية وبدرية ومشيرة وحسنة ونوال ونادية وحكمت وفاطمة على أجساد البنات اللاتى يحطن بجسده. علم هذا أم حلم؟. لقد أحبهن

جميعا الآن، ويراهن وقد تحولن إلى فراشات بيضاء وصفراء وزرقاء ويطوف فى الحدائق التى لم يذهب إليها من قبل قط وحول جداول المياه الشفافة الرقراقة. إنه يركب الآن زورقا رقيقا تحمله مياه جدول دافق وهو يصرخ ويضحك ويقف ويجلس فوق الزورق الذى لا يتوقف حتي رأى نفسه وسط شارع عبد النبى، وعدد من الرجال ينظرون إليه فى دهشة. هو الآن يرتدى جلبابا أبيض نظيفا فوق ملابس داخليه نظيفة وجسده كله نظيف تشع منه الروائح المبهجة، وعلى رقبته تعلقت مخلاة بها ثيابه التى خلعتها عنه الفتيات الجميلات. أخذ طريقه إلى البيت صامتا وطوال الطريق تجذب روائح المسك والبلسم والكافور والعنبر أنوف المارة من الرجال والنساء وتكاد تحركهم من أماكنهم، لم يفكر فى النظر إلى عيون النساء اليوم. وصل إلى البيت فهتفت أمه فى دهشة وفزع.

- أين كنت يا عيد؟

نظر إليها مبتسما وقال بصوت خفيض كأنه هسهسة الشجر.

- شفت الجنة!

سكتت أمه. خلع المخلاة المعلقة على رقبته وتركها تسقط على الأرض..

- هل تريد أن تأكل ياعيد؟

تاملها فى دهشة. لم يستطع أن يقول لها إنه لاحاجة به إلى الطعام بعد اليوم.

(٤)

كلاكيت آخر مرة يا محمود...

إلى أين تذهب به هذه العربة المحملة بالجنود؟. لقد نسى الجيش والسلاح فمن الذى وشى به؟ هى الحرب والنظام والقانون يامحمود. لدى الحكومة سجلات تعود إليها لجمع الجنود الاحتياط عند اللزوم ولقد تم استدعاء الاحتياط من طول البلاد وعرضها فلماذا يتركونك!؟. ضحك الضابط وهو يطلب منه أن يلحقه بقسم الإعلام. لماذا يا عسكرى؟ لأن لديّ فكرة ممتازة يا افندم عن الإخراج السينمائى وأريد أن أصور الحرب. لكنك فى السجلات جندى مشاة عادى لا تحمل أى مؤهلات علمية أو فنية، عسكرى ميح يعنى والإخراج علم وفن وشهادات ؟! يا أفندم إلى متى تظل مصر بلد شهادات ، لابد من إعطاء فرصة للخبرة!. تمعن فيه الضابط مندهشا من جرأته . للحظة شك فى سلامة قواه العقلية فطلب منه أن يقترب ثم يستدير دورة كاملة أمامه ثم راح الضابط يضحك عاليا ويقول:

– مخرج سينمائي مرة واحدة. طيب، من أين حصلت على الخبرة يا عسكرى مشاة يا ميح ؟

– اشتغلت يا أفندم مع حسن الإمام فى فيلم لك يوم يا ظالم..

– ومع من أيضا؟

– مع يوسف شاهين فى فيلم ابن النيل .

– وماذا فعلت فى الفيلمين؟

– يا افندم أعطنى الفرصة وأنت ترى.

– طيب اركب يا عسكرى مع زملائك وسوف نرى!

ركب محمود مع الجنود الذين جيىء بهم من البلاد. هل جمع المدثر كل هؤلاء الجنود؟ ياله من رجل هذا المدثر، أسود كأنه قطعة متحركة من الليل ويظهر دائما بالنهار! شيخ حارة كرموز الذى يظهر أمامك فجأة حاملا لك مصيبة من قسم البوليس، وفى الوقت نفسه يكون جالسا فى مقهى «سلامة الغلق» فتوة كرموز يكتب العرضحالات للناس. المدثر هو أول وآخر شخص يظهر فى مكانين فى وقت واحد!

وسلامة الغلق، صاحب المقهى، يجلس دائما صامتا لكنه لا يُنزل بصره عن المدثر، ضئيل الحجم جدا الذى يقف أمامه هذا الطابور من طالبى الحاجات من قسم البوليس. لقد ولى زمن الفتونة الجميل. كان شيخ الحارة موجودا دائما، لكنه الفتوة هو الذى كان رجل الحى.

من يتخيل بحرى دون حميدو أو السيالة دون منصور أبو شجرة أو المنشية بدون أبو خطوة. من يتخيل كوم الشقافة القريب بدون أحمد فايد، أو الباب الجديد بدون محمد النجرو، وأين ذهب صيت على الفلاح فى النزهة، وما أبأس النهاية التى انتهى إليها جابر النشار فتوة شارع فرنسا قبل الثورة. قطع ثدى المرأة المومس التى يحبها فى كوم بكير ليمنعها من الدعارة فقطع القوادون ساقه، وفى دكانه، دكانه لحم الرأس والكوارع. ماتت المرأة بعد أسابيع ولحق هو بها بعد أيام. قصة حب مثل روميو وچولييت لكن أبطالها فتوات وعاهرات وقوادون فلابد أن تكون النهايات مفزعة. الموت وحده لا يفزع، لكنها الطريقة التى يموت بها الناس. قضت ثورة يوليو على الفتونة والفتوات وأصبح «أجعص جعيص» يعلق فى قسم البوليس كالذبيحة وتوضع العصا فى مؤخرته، أو يركب فى الفلقة ويُمد على قدميه. وهل ينسى الفتوات نهاية محروس أبو راس فتوة باكوس الذى جعلوه يمشى عاريا تماما فى شارع السوق

وفى إليته رأس فجل تهتز فروعها الخضراء وعساكر البوليس تحوطه من الجانبين، وكلما وقعت رأس الفجل أعادوها مكانها وهو يمشى والدموع تسح من عينيه والضابط الشاب والجنود يطردون الناس المتجمعين ليقفوا بعيدا على الرصيفين. لم يكن الناس متعاطفين مع البوليس، وكادت تحدث ثورة لولا أن محروس أبو راس جرى من وسط الجميع بسرعة مذهلة ليلقى بنفسه، أمام القطار القادم من محطة باكوس فى طريقه إلى سيدى جابر. لقد سمع صوت صفارة القطار قبل أن يتحرك فأسرع قبل أن يمر عابرا المزلقان وانتهى النهاية التى تليق بالرجال . هكذا قال الرجال، لقد انتهى عصر الفتوات، وأضافوا فى عجب!

لقد لاذ سلامة الغلق بمقهاه ولم يتوقف عن النظر بأسى إلى المدثر الحاكم الأوحد الآن فى الحى، بقميصه الأبيض الوسخ دائما وفوقه الصديرى الأسود المزيت وببنطلونه الصوف الازرق الواسع وبالمنديل المحلاوى يربط به رأسه صيفا وشتاء. اسمه المدثر رغم أن أحداً لم يضبطه أبدا متلبسا بالنوم. شيخ حارة عجيب يتكلم فلا تسمع صوته لكنك تعرف ماذا يريد، ويقبل الإكرامية من التعريفة حتى الخمسة قروش ولايكرهه أحد فى كرموز. رآه محمود منذ أيام قادما من ناحية كوبرى كرموز يشق سواده اللامع بياض النهار فأدرك إنه إنما جاء من أجله هو ولا أحد آخر.

– مطلوب فى الجهادية يا سي محمود.

– عارف يا مدثر لكن هل قامت الحرب؟

– ستقوم غدا يا سى محمود. أسهل شيء على بنى آدم انه يشعل الحرب!.

لو ان الأرض كانت انشقت وبلعت أحدهما ذلك اليوم. لكن لا بأس، خبرة جديدة ستضاف إلى حياته بعد أن يعود. يعود ؟!. ألا يمكن ألا يعود!

يموت!. لا. إنه يشعر بالاطمئنان. لم يحدث ان فكر فى الموت من قبل فلماذا يفكر فيه الآن؟ هناك مشروعات كبيرة فى الدنيا تنتظره، وهو منذور لأهداف عظمى لم تتحقق بعد، هو إذن مطمئن من ناحية الموت هذه!

الآن هم فى مدينة الاسماعيلية. كانوا ينتظرون الأوامر لعبور القناة إلى سيناء فصدرت الأوامر للقوات فى سيناء أن تنسحب إلى الغرب والغارات لاتتوقف على بور سعيد. وضحت المؤامرة لسحق الجيش المصرى. لماذا إذن يحتفظون به وزملائه؟ هل سيكون دورهم فقط استقبال الجنود المنسحبين ؟ الغارات الإنجليزية والفرنسية على بورسعيد تشى بأن إنزالا جويا سيحدث فوق المدينة. من هناك تتقدم القوات المعادية لاحتلال مدن القناة كلها، لذلك يسرع الجيش بالانسحاب قبل ان يُحاصر بالكماشة في سيناء، الانجليز والفرنسيون من الغرب، والاسرائيليون من الشرق. ربما يحتفظون بهم لصد أى قوات يمكن أن تتقدم فى القناة إذا حدث ونزل الانجليز والفرنسيون فى بور سعيد. الأخبار القادمة من بور سعيد لاتسر. حرائق وتفجير للبيوت ورحيل مروع إلى القرى المجاورة. لكن هل حقا سيعطيه هذا الضابط فرصة الإخراج السينمائى، فرصة صنع فيلم حى، لايف، عن الاحداث؟ لا يظن .كلاكيت آخر مرة يا محمود. ستعود الى الاسكندرية دون ان تصنع فيلما عالميا عن الحرب مثل الأفلام عن «طبرق» أو «العلمين». سيناء أيضا صحراء مثل الصحراء الغربية التى جرت فيها وقائع الفيلمين العالميين اثناء الحرب العالمية الماضية، ممكن جدا أن يعانى الجنود فى الخنادق من الفئران كما عانى جنود فيلم «طبرق» وممكن جدا ان تهاجمهم دبابات الأعداء فيصوبون إليها قذائفهم الخارقة للدروع فتتعطل وتحترق فى اللحظة التى يبدو فيها أنها ستهدم الخندق على من فيه،

يطل الجنود من فوهة الدبابات يحاولون الهرب أو الاستسلام فتحصدهم الرشاشات ويتدلون قتلى على فوهة الدبابات منكسى الرؤوس تتهاوى خوذاتهم معلقة حول رقابهم وينسكب الدم من صدورهم وأكتافهم على الدبابات الصفراء. ينصب بسرعة مستشفى ميدان كبير فى الخطوط الخلفية تأتى إليها ممرضات جميلات مسلمات من الهلال الأحمر وقبطيات من الصليب الأحمر. سيعشق الجنود الممرضات وتعشق الممرضات الضباط المصابين ولا يصل الجنود للممرضات ولا تصل الممرضات إلى الضباط ويحمل الجميع مناديل الوداع يلوحون بها والحزن على وجوههم والدموع فى عيونهم وصوت المذيع الجهورى القوى يعلق على المشهد «هذه هي الحياة لقاء وفراق، حب وألم ، وتقدرون فتسخر الأقدار! ينتقل الفيلم بعد ذلك من حروب المشاة والمدرعات إلى حروب البحرية. رشاد على ظهر المدمرة «نصر» التى تطلق قذائفها على مدمرة للعدو. غواصة إسرائيلية تظهر من بعيد قادمة فى خبث تحت الماء. تغوص أكثر مثل حوت يضمر الشر. تطلق طوربيدها الذى يجرى يشق الماء الأزرق فيجعله أبيض على الجانبين، «يلبس» الطوربيد للأسف فى المدمرة التي يقفز جنودها إلى الماء فى رعب. رشاد يقفز أيضا مصابا فى فخذه والدم يلون الماء الأزرق كنافورة. لايعود رشاد المسكين إلى فاطمة. يأخذ هو فاطمة إلى المقبرة الرخامية وسط المقابر التى يعلوها نبات الصبار الأخضر والبنفسجى.

تضع فاطمة باقة من القرنفل الأحمر متشحة بالسواد وعلى وجهها بيشه سوداء شفافة وترف أهدابها قليلا وتنزل على خدها دمعة هادئة. موقف جليل حقا، والمقابر الرخامية لامعة وسط الشتاء، على شاهدها نقش يقول هنا يرقد زهرة شباب الوطن رشاد الذى كان يحب فاطمة،

الجليد يغطى الأرض والثلج الطائر ينزل من السماء خطوطا بيضاء هشة فيزداد ارتفاع الجليد، وأشجار البلوط والكستناء العالية سقطت أوراقها واحترقت من البرد فوقفت سوداء عارية يتعلق بها الجليد الأبيض حول المقابر. لا اله إلا الله هل تأكل عقله؟ من أين سيأتى الجليد فى مصر؟ ليعد بسرعة إلى فيلمه عن المشاة فى الصحراء. ليترك تصوير المعارك الحربية إلى مخرج كبير مثل صلاح أبو سيف ولمصور بارع مثل وحيد فريد. الأفضل أن تكون مقبرة رشاد فى الصحراء وسط الرمال والشمس اللاهبة وفاطمة فى زى الحداد الأسود الخفيف. تضع على رأسها برنيطه فرنسية مائلة وعلى وجهها خمار خفيف. لاحول ولاقوة إلا بالله. رشاد فى البحرية فكيف يموت فى الصحراء؟ رشاد هذا سيفسد الفيلم كله. ثم لماذا يصر على استشهاد رشاد مع إنه لاينافسه فى شىء؟ الأفضل أن يعود رشاد بعد الحرب إلى المساكن ويجلس معه على الرصيف الممتد خلف البيوت أمام شارع قنال المحمودية وأمامهما الصبيان والبنات يلعبون وتمر النساء الجميلات بالملاءات اللف والفتيات الأجمل قادمات من كرموز وكوم الشقافة وكفر عشرى لشراء السمك ولا مانع أن يشاركهما سليمان الجلوس ويحدثهما كالمعتاد عن أزمة الإنسان المعاصر التى لم يفهماها منه أبدا، كما يشاركهم نسيم ويحدثهم عن حلم حياته فى السفر إلى كندا بعد أن ينتهى من التعليم ويتفرجون على محمود القزعة وهو يتفرج على النسوان مبحلقا فى سيقانهن وأردافهن التى تتحرك بسرعة لا تقل عن سرعة أفواههن وهن يمضغن اللبان ! عادة يجلس محمود القزعة بين صناديق السمك الفارغة والسيجارة «المعدن» الرفيعة لاتفارق أصبعيه ولا يكف خلال متابعته للنساء عن تحريك فكه الأسفل كأنه يحولهن إلى شىء يمضغه. أجل،

كثيرا ما تأتى نساء إلى الملاحة ولا تعود. يختفى أصلهن وخيالهن. أين يمكن أن تذهبن؟ لابد أنه هو محمود القزعة قد مضغهن ولابد انه ابتلع كثيرا جدا من النساء على مر السنين.

كلاكيت آخر مرة محمود...

لقطة كبيرة للجنود فوق العربات المصفحة يعبرون شوارع المدينة حنحارب، حنحارب، كل الناس حتحارب. الشوارع ممتلئة بالزينات تدعو للنصر. الناس من البلكونات وعلى الأسطح والأرصفة يصفقون ويزغردون. الفتيات تقبِّلن الجنود. جمال عبد الناصر يتقدم الجنود رافعا ذراعيه ملوحا للجماهير بعلامة النصر التى اخترعها تشرشل ملك الانجليز!! يعبر جمال عبد الناصر قوس النصر فى شارع الشانزليزيه، وتنطلق الصواريخ الملونة والورود ويطير الملح والأرز فوق الرؤوس وتتقاطر الفتيات من كل ناحية لتقبيل الجنود ويلقين بأنفسهن فى أحضانهن.. ما هذا.. هذا فيلم عن دخول باريس. المشهد كله مسروق من عودة ديجول إلى فرنسا بعد غزو نورماندى. فرنسا تحاربنا الآن. فرنسا إذن غير جديرة بأن أستعير منها شيئا. أريد فيلما مصريا مائة بالمائة. قال لنفسه. فلنعد إذن إلى الصحراء. طائرات المستير الفرنسية والكانبيرا البريطانية تغير على الجنود الذين ينبطحون على الأرض فى مساحات شاسعة. اللهب يمسك فى الخيام والأكشاك. النار ترتفع إلى السماء. انفجارات هائلة. ودخان يملأ الفضاء . الانفجارات تتوالى . إنه مخزن الذخيرة نفسه الذى انفجر. العربات المجنزرة والعربات النقل تحترق وتنفجر وتطير شظايا أمام عينيه. اللهم ارحمنا . لم ير حربا من قبل. حين أدى الخدمة العسكرية الإجبارية كان ذلك بعد حرب فلسطين بعامين. من الذى قال إنه يريد أن يصنع فيلما؟. لكن الطائرات تبتعد ولا

يبقى فى الفضاء غير الصمت ورائحة البارود والدخان. يقفز جنود الخنادق، والذين انبطحوا أرضا ولم يصابوا بأذى لإنقاذ زملائهم . يحملونهم ويجرون بهم إلى الخلف لتحملهم السيارات إلى المستشفى داخل المدينة. ترتفع الأصوات وتتداخل. يا إلهى. لقد كانت غارة حقيقية.

لم يكن ذلك فيلما يا محمود. مات الكثيرون والجرحى أيضا كثيرون يصرخون ويئنون حوله. كلاكيت آخر مرة يا محمود. رأى الضابط يقترب أغبر الثياب مصفر الوجه. لقد كان هو نفسه كذلك وأكثر.

– تعال ورائى يا عسكرى.

كان يريد أن يجلس فى مكان بعيد، وحده، وينفجر فى البكاء . أجل، لم يحتج للبكاء حاجته إليه اليوم. يا للضابط ذى القلب الحديد القاسى. رأى الضابط يمشى حتى ينزل إلى خندق تحت الأرض، مقر القيادة، لايزال سليما لم تهدمه الغارات. وجد خمسة جنود وضابطاً أصغر رتبة.

– استعدوا غدا للسفر إلى بور سعيد.

– ....

– الضرب شديد على بور سعيد وهناك توقع لإنزال جوى بالمدينة.

– ....

– سيكون عليكم المساهمة فى تنظيم المقاومة الشعبية.

– ....

– سيكون قائدكم الملازم نجاتى.

وأشار إلى الضابط الذى يقف معهم واستمر يتحدث.

– من الآن حتى الغد تجهزون الذخائر والأسلحة التى ستأخذونها معكم. ستركبون السيارات حتى المطرية. هناك سيقابلكم شخص اسمه

«الخميسى» طويل كأنه باب، يتحدث كثيرا بمناسبة وبدون مناسبة ، لكنه وطنى وسيسهل لكم الأختباء بالمدينة حال حدوث إنزال جوى.

ثم نظر إلى محمود نظرة طويلة وقال.

– سيحضر الإنجليز والفرنسيون معهم كاميرات كثيرة، تستطيع إذا استوليت عليها أن تصنع الفيلم الذى تريده...

لكن ذلك لم يعد الفيلم الذى يريده محمود. طيران إلى الأسكندرية. أين هى الآن وما السبيل إليها. كلاكيت آخر مرة يا اسكندرية . لقطة عامة كبيرة للمدينة من البحر تستعرض القوس الكبير الذى يحتضن البحر والعمارات الكلاسيكية وأشجار النخيل من قلعة قايتباى حتى قصر المنتزه. الكاميرا تقترب من وسط المدينة. ترتفع وتتجاوزه إلى ميدان الشهداء، ميدان الجمهورية، أمام محطة مصر، تصور البيوت القديمة المتساندة على بعضها، تمشى الكاميرا فوق المدينة. يستطيع أن يمر على جميع الأحياء والشوارع. إنه يحفظها لكن يريد بسرعة أن يعود إلى البيت. هواء الاسكندرية الجميل يحمله طائرا مع الكاميرا بسرعة عابرا فوق شارع عمر بن الخطاب داخلا فى شارع مسجد السلطان إلى البياصة إلى باب سدرة إلى شارع عمود السوارى إلى كوبرى كرموز طائرا فوق المحمودية إلى منتصف المسافة بين كرموز وكفر عشرى وينزل الأرض حاملا الكاميرا. هنا مساكن السكة الحديد، أمامها ترعة المحمودية والمعدية التى تنقل الناس إلى محطة الترام وإلى كوم الشقافة وخلفها خطوط السكك الحديدية بالقبارى ، أكثر من خمسة وثلاثين خطا تدخل وتخرج من الجمارك. السكك الحديد التى فوقها القطارات التى كم حملت من معدات الحرب الإنجليزية أثناء الحرب العالمية الثانية ، وكم حملت من الأسرى الألمان والطليان، السكك الحديدية التى يعمل فيها

أبوه وكل الآباء هنا، والتى يعمل الديب فوق قطاراتها مقضيًا أكثر عمره فى الفضاء، وإلى اليمين الدكاكين الثلاثة للعنيبسى والسيد خليل والسيد الأعرج. الأولان يبيعان كل شيء من البقالة إلى العلافة، الأخير يبيع الخضر والفاكهة ولا يشترى منه أحد والكاميرا تقترب من تصوير غلام يخرج هاربا من تحته وهو يحاول النزول به إلى الأرض! على المحمودية يقف حبشى عاريا يصرخ صرخة طرزان وحوله أطفاله الحقيقيون واللقطاء، ثم يتقدمهم قافزا إلى الماء. على جدران المساكن كتابات بخط ركيك. حج مبرور وذنب مغفور. لم يذهب أحد منهم أبدا إلى الحج. فقراء لا يستطيعون إليه سبيلا !.

لو ترك الكاميرا تستعرض المكان والناس لاحتاج إلى عشرة أفلام. لايريد فيلما الآن. يريد أن يأخذ طريقه إلى البيت لينام بعد أن نزل الأرض بسلام. يشم رائحة البيوت المكتومة، والشوارع المخنوقة بالعشش التى أقاموها أمام البيوت وملأوها بالماعز والدجاج. انه يفتح صدره يتنشق فى سعادة الروائح القديمة المقبضة للمكان الذى صار بعيدا جدا الآن. لقد تقرر ذهابه إلى بور سعيد ولا جدال فى الجيش، يبقى الأمر فى يد إنجلترا وفرنسا فهل تبغيان ؟ أغلب الظن إنهما ستهاجمان المدينة. إذن ليس أمامه إلا النصر.. سيحارب بشجاعة ولن يفكر مرة أخرى في الأفلام.!

(٥)

وضع سليمان كل الصحف والمجلات التى اشتراها أمس من محطة الرمل أمامه فوق المنضدة القديمة، وجلس على المقعد الخشب القديم، فوق السطح فى الصباح يقرأ ويقلب فيها. لقد دفع فيها مبلغا محترما

هو حصيلة الضفادع التى باعها للطلاب طوال الأسبوع. إنه يصطاد الضفادع فى الأماسى من البحيرة ويبيعها لطلاب القسم العلمى بالمدرسة يقيمون عليها تجاربهم فى التشريح. الأهرام، الأخبار، المصور، روز اليوسف، والإيچيبشيان جازيت وكلها تقريبا تتحدث بأسلوب واحد عن تطورات الهجوم العسكرى على مصر. كل ذلك حتى لايرى چين بانكروفت!؟ يا الله؟ كان يمكن ان ينقطع عن اللقاء معها دون حاجة إلى كل هذا العدوان على البلاد. لقد وقع الاعتداء الاسرائيلى فى مساء الاثنين تسعة وعشرين أكتوبر، وكان يجلس معها فى كافيتريا على كيفك مساء الأحد ثمانية وعشرين أكتوبر.

كانت تنظر إلى المارة أمامها فى محطة الرمل، كأنها تملأ عينيها من المكان والناس قبل أن ترحل. ترحل!؟. وهل رحلت حقا؟ قالت له ألا يحاول الاتصال بها إذا وقعت الحرب، وانها سوف تجد طريقة للاتصال به. كيف صدقها؟. كان عليه أن يحاول الاتصال. قال لها انه لايتوقع حرباً، وإن الأمم المتحدة ستجد مخرجا للأزمة فقالت له إنها تعرف بلدها جيدا، وتعرف أن إيدن يريد عملا يدخل به التاريخ، تلميذ لتشرشل، لكنه تلميذ خائب، أخرق، وإن جمال عبد الناصر ايضا يريد أن يدخل التاريخ، بل لعله قد دخله بالفعل بقرار تأميم القناة هذا. قرار تأميم القناة أخطر من قرار الثورة نفسه، جمال عبد الناصر متهور، واذا التقى أخرق ومتهور فماذا تنتظر غير الحرب. قال لها إنه يكره السياسة والسياسيين، قالت هى كذلك تكرههم لكن للأسف هم الذين يحركون العالم. انظر كم هو عالم تعيس هذا الذى نعيشه. ولم يكن هو فى حاجة إلى من يقنعه بتعاسة العالم، لكنه كان يرى أسبابا أكثر عمقا، أسبابا

تتعلق بالوجود الإنساني. بسوء الفهم الذى يكتنف الوجود الإنسانى ويؤدى إلى كل هذه الصراعات . لقد قرأ فى الفلسفة الوجودية، أحب على وجه الخصوص البير كامي. وكان مبتسماً وسعيدا كمن لا يعنيه شيء فسألته وهى فى غاية الدهشة..

– ألا تعرف حقا ماذا يمكن أن يحدث لو قامت الحرب بين مصر وبريطانيا؟

– ربما تحتل بريطانيا مصر لكن الشعب المصرى سيقاوم بشدة.

– مع بدء الهجوم سيقوم عبد الناصر بطرد كل الإنجليز من مصر، وإذا اشتركت أى دولة فى الهجوم مع إنجلترا سيلاقى رعاياها المصير نفسه.

انتبه فى تلك اللحظة إلى ما يؤدى إليه الكلام . قال.

– تقصدين إننى لن أراك؟

– أجل. لن تستطيع حتى أن ترسل خطابا لى، لأن كل الخطابات التى ستذهب إلى إنجلترا أو ربما أوربا كلها، أو تأتى منها، ستخضع للمراقبة أنت لا تعرف بلدك يا سليمان!

لم يضايقه ذلك . هو لا يعرف إلا هذه البقعة الهامشية من الاسكندرية، وچين هى التى أخذته إلى الاسكندرية كما يجب أن تكون. لكن ما يضايقه هو إنه لم يفكر فيها من قبل كأجنبية أبدا. دائما كان يراها مصرية، وبعد كل لقاء معها وسط الأجانب كان بعد ان يتركها ويعود لا يفكر فيها إلا كمصرية يعرفها من زمن قديم وتعرفه، رغم اسمها الصعب، بانكروفت، الذى قال لها إنه يصلح ماركة سيارة أو كرافته فلم تتوقف عن الضحك لأيام عديدة بعد ذلك. مدّ يده أمسك بيديها وراح يتأملها كمن يتأمل شيئا يوشك على فقده.

– لن نعود معا بالترام هذه الليلة . لا داعى أن توصلنى إلى البيت. الشارع والناس كلها ضد الأجانب. انظر، حتى الجالسين فى «على كيفك» وأكثرهم يونانيون وإيطاليون ينظرون إلىّ.

كان قد تعود بعد كل لقاء أن يركب معها الترام حتى القصر الذى تسكنه مع عائلتها فى بولكلي.

–لا أحب أن أودعك سليمان ، لكن....

نهضا، لم يتركها إلا عند السيارة الرولز رويس التى تنتظرها أمام اتينيوس في الزقاق المؤدى إلى الكورنيش. لم يكن يعرف انها تحبه أبدا. لم يتصور نفسه أكثر من نزوة إنجليزية. قليل من الشطة فى الطعام البارد. لكنه اكتشف ذلك المساء أن الأمر مختلف.

لقد تطورت الأمور بسرعة بعد الهجوم الإسرائيلى على مصر، وبدا واضحا ان اسرائيل تستهدف سيناء كلها، جرت معارك باسلة فى الكونتيلا ونخل و أبو عجيلة و كانت القوات الاسرائيلية، على طريقة روميل فى الحرب العالمية الثانية، تترك المواقع المصرية خلفها وتتقدم مسنودة من البحر بقذائف البارجات الانجليزية والفرنسية. لقد وجهت إنجلترا وفرنسا إلى اسرائيل ومصر إنذاراً بوقف القتال والانسحاب عشرة أميال على جانبى خط القتال، كان واضحا منه ان تحتل اسرائيل سيناء وهى المعتدية، كما احتوى الإنذار ضرورة قبول مصر قوات إنجليزية وفرنسية فى مدن القناة، بور سعيد والاسماعيلية والسويس، وأن تتلقى الدولتان إجابة خلال اثنتى عشرة ساعة.

لقد صرخ «أرمان دو شايلا» سفير فرنسا السابق فى مصر بأن ما نسجته فرنسا فى مصر طوال قرن ونصف القرن، بهدوء وعلى مهل،

أضاعته ساعة واحدة من يوم ٣١ أكتوبر . و هو اليوم الذى بدأ فيه العدوان بعد أن رفضت مصر الإنذار واعتبرته موجها لصالح اسرائيل.

تقرر سحب الجيش المصرى من سيناء على عجل حتى لايتم تدميره من الغرب بانجلترا وفرنسا ومن الشرق باسرائيل، وتم سد منفذ القناة من ناحية بور سعيد حتى لايتكرر خطأ عرابى عام ١٨٨٢ حين خشى من غضبة الدول الأجنبية فترك القناة مفتوحة للقوات البريطانية، وخطب عبد الناصر طالبا الصمود من الشعب، وان الحياة الذليلة هى العبودية والموت خير من الذل، وقررت وزارة الصناعة الاستيلاء على شركات البترول الانجليزية والفرنسية وممتلكاتها وأموالها، شل والانجلو ايجيبشيان وسب، واستقال انتونى ناتنج وزير الدولة البريطانى من الوزارة احتجاجا على الهجوم وعرض داج همر شلد استقالته من سكرتارية الأمم المتحدة احتجاجا أيضا . قال فى أسف «لقد ضاعت كل الجهود الضخمة التى بذلناها للوصول إلى تسوية» وهاجمت الطائرات البريطانية القاهرة فى غارات متتالية فاصابت مبنى الكلية الحربية ومطار ألماظة الدولى. وبعض الأماكن فى شبرا، ونددّت روسيا بالعدوان، وكذلك أميركا ، والهند، والدول العربية، وفتح باب التطوع فى البلاد للقتال، لكن المحلات أعلنت عن الأوكازيون الشتوى الكبير الذى بلغ فيه سعر متر الكستور أربعة عشر قرشا.وتقاطر الناس لمشاهدة فيلم «كوڤاديس» بسينما مترو بالاسكندرية ولم يخشوا الغارات. لقد تحصنوا ضدها بغارات الحرب العالمية الثانية التى لاتزال فى الذاكرة ، ولايظن أحد أن غارات هذه المرة ستكون بتلك الكثافة التى كان يأتى بها الألمان والطليان. تلك كانت غارات دول فتية قوية، الآن غارات دول جار عليها

الزمان، انتصرت فى الحرب الثانية حقا، لكنها فقدت كل نفوذها فى المستعمرات . أما إسرائيل فليست بالدولة التى تصل طائراتها بعد إلى أعماق البلاد. لكن أميركا بدأت فى ترحيل رعاياها من مصر، ووصف شبيلوف وزير خارجية الاتحاد السوفيتى الهجوم بأنه عمل من أعمال العصابات، وقبض رجال البوليس فى المعادى على يهودى يرسل إشارات ضوئية للطائرات الانجليزية، وقررت محكمة مصر حصر إيراد حفلات أم كلثوم فى القضية المرفوعة من الفنان زكريا أحمد ضدها وضد الإذاعة المصرية. وفى سيدى بشر أوقف شاب جالس فى سيارة جندى بوليس وطلب منه مشاركته فى تدخين سيجارة حشيش فقبض عليه الجندى فى الحال، وثار جدل حار بين الجالسين على جانب، دكان أحمد العنيبسى على يسار السلم المؤدى إلى القبو الذى يفضى إلى الملاحات، ويزداد النقاش ويحتدم أكثر اذا وقعت غارة نهارية للطائرات طاردتها المدافع المضادة المنصوبة فوق المساكن ومن كل مكان فى المدينة حتى تبتعد أو تسقط بعيدا.

- إنجلترا لا تريد أن تعترف بأنها شاخت.
- الامبراطورية التى كانت لاتغيب عنها الشمس تريد العودة إلى مصر.
- إلى الشمس.
- ها. ها. هيهات.
- المثل الفرنسى يقول «شيرشيه لا فام»، فتش عن المرأة عند وقوع أى جريمة، وأنا أقول فتش عن إنجلترا إذا وقعت أى حرب.

قال ذلك تاجر البهار «فلفل مطحون» كما يسمى نفسه والذى لا يعرف أحد كيف لا يجد لنفسه عملا فى أى من دكاكين العطارة بالمدينة.

ولا من أين جاء أو أين يمضى كل مساء. ومحمود القزعة يتابع الحوار متأففا، فهو غير قادر على هضم أن رجلا مثل جمال عبد الناصر يقف ضد الإنجليز. تضايقه هذه المسألة ويشعر بأنه، عبد الناصر، يعطى لنفسه ما هو أكبر من حجمه، وأحيانا يتخيل أنه يريد ان يغيظه هو شخصيا بطوله الفارغ وسلوكه الجرىء. لكنه لا يستطيع ان يكذب على نفسه، فهو معجب بوطنيته وشجاعته وإن لم يصرح بذلك.

وقال واحد:

– كل هذه الحرب من أجل تأميم القناة. ماذا كانت ستفعل إنجلترا لو كنا أخذنا منها شيئا فى بلادها هى؟

وقف تاجر البهار يقول بجدية شديدة..

– لاتندهشوا من هذه الحرب. لقد حاربت إنجلترا، إنجلترا وليس دولة أخرى، العالم كله من أجل البهارات.

– نعم!؟. بهارات . يقول بهارات. أى بهارات يا رجل يامطحون الرأس أنت؟

– أنتم جهلة. جهلة حقيقيون. إن أى تلميذ فى المدرسة يعرف أن إنجلترا احتلت الهند للحصول على البهار.

بدت عيناه حمراوين وسط وجهه الأسود. وبدا شكله مضحكا فى ثيابه الشتوية القديمة، خاصة بنطلونه شديد الضيق عند الحذاء. لكنه كان نظيف الوجه واليدين حريصا على ألا يفتح الطريق لأى شعرة بيضاء، فدائما يوالى شعره بالصبغة السوداء التى يقوم بتصنيعها بنفسه. استمر يتكلم وقد أمسك نظارته ذهبية الإطار بين أصابعه.

– لقد وصلت البرتغال أولا إلى الهند أيها الجهلة منذ أكثر من

أربعمائة سنة، لكن انجلترا ظلت تحلم بطرد البرتغال ..

كانوا مندهشين جدا من حديثه بمن فيهم محمود القزعة وسليمان حتى ان أحدا لم يعد ينتبه لمرور النساء من أمامهم.

– لقد بدأ العصر الحديث كله فى اللحظة التى اكتشفت فيها بلاد التوابل . فى البدء حاولت اسبانيا والبرتغال. البرتغال هى التى نجحت ووصلت سفنها إلى سواحل الهند، أسبانيا تعثرت فى أميركا وانشغلت فى اكتشافها وتقتيل الهنود الحمر. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

كان سليمان معجبا بحق من ثقافة الرجل العجيبة، فهز رأسه بالموافقة والإعجاب.

– كانت التوابل تصل قديما قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عن طريق البر عبر ايران والشام، والبحر حتى سواحل عدن ومنها إلى السويس ثم براً إلى الإسكندرية ودمياط ثم البندقية، فينيسيا التى غنى لها عبد الوهاب قصيدة الجندول، وچنوا وغيرها من بلاد الطليان. ماذا أقول لكم أكثر من ذلك يا بهائم. إنها تجارة «الكارم » التى احتلت مكانا كبيرا فى التاريخ. هل تعرفون معنى هذه الكلمة. ليس ذلك مهما. المغاربة يعرفونها إذ لا يقدّر قيمة البهار أحد مثل المغاربة أهل الأسرار، والعطارة أسرار فيها من نفحات الرحمن الكثير فلا تسخروا من الفلفل مطحونا أو غير مطحون ففيه فوائد جمة، والفلفل، ولاتقاطعونى، إما أسود وهو ما تعرفونه، واما أبيض وهو ما لا تعرفونه. الأسود الذى يجفف دون أن ينزع جلده والأبيض ينزع جلده، والأبيض أقل لذعا وأخف على المعدة لكن نحن شعوب الشرق نحب الأسود الحامى، وغيطان الفلفل تكثر فيها الافاعى فيحرقونها فيسوَد الفلفل!. ما رأيكم؟!

كانوا ينظرون إليه جميعا بإعجاب ويشعرون أن ما يقوله شىء

حقيقى فاستمر يتحدث. هذا ما كان يعتقده الناس زمان لكن ابن بطوطه جاء من المغرب ووصل إلى الصين وفى الطريق مر بساحل مليار بالهند ورأى كيف يضعون بنور الفلفل على الحصير تحت الشمس فيسود ويتكرمش، وكذلك فعل ماركوبولو الايطالى الذى جاء أيضا ليزور الصين. أى نوع من الناس كانوا فى زمن لم تكن فيه قطارات ولا طائرات ! ثم وصل البرتغاليون إلى ساحل مليار كما قلت لكم ونقلوا الفلفل بكميات كبيرة إلى أوربا، لقد وصلت قيمته يوما ما إلى أن اليهود اندفعوا يتاجرون فيه وانتم تعرفون أن اليهود لايتاجرون فى شئ خاسر. لقد صار الفلفل مثل العملة يدفع منه التجار الجمارك كما يدفعون الفضة، وأحيانا كانوا يدفعون الفلفل فقط. أصبحت تجارة الفلفل كبيرة وأصبح كل بيت. فى العالم فيه فلفل يا فلفل، قال الكلمة الأخيرة بصوت خاص لامرأتين سمينتين تمران أمامهم ثم اتجه إلى الجالسين وقال، فهل تسكت إنجلترا؟ جاءت وراء البرتغال وحاربت جيوشها على ساحل مليار بالهند وطردتها وأخذت مكانها، بل أخذت الهند كلها فأصبحت درة التاج البريطانى، وكل ذلك من أجل السيطرة على مزارع وأسواق الفلفل فكيف بالله لا تريدونها أن تعلن علينا الحرب لاستعادة قناة السويس التى هى ليست أقل من الفلفل!.

ظلوا ينظرون إليه غير مصدقين أن لديه كل هذه القدرة على الحديث، بدا أنهم مستسلمون تماما لقدراته فى الوقت الذى كان فيه الأولاد يحيطون بمجنون الغناء الذى صار يظهر كل يوم منذ بدأت الحرب وكانت العادة أن يظهر مرة كل أسبوع أو عشرة أيام. أصاب المجنون ذعر شديد يصيبه كلما أحاطوا به. انكمش وتراجع إلى الحائط. بدا جلبابه نظيفا رغم كثرة الرقع التى خلفه. هذا يعنى أن أحدا لا يزال يعتنى به.

لقد ظهر كالعادة قادما من ناحية كفر عشرى متجها إلى كرموز. لم يره أحد عائدا فى الطريق المعاكس أبدا. يمشى بضعة أمتار ثم يقف يحك ظهره فى الحائط بقوة، يظهر الألم واللذة فى عينيه وعلى وجهه وهو يفتح فمه ويكز على أسنانه ويبدأ يغنى «ياريتنى طير وأنا أطير حواليك» لايتقدم عن هذه الشطرة أبدا. يعود للمشى من جديد عدة خطوات ثم يقف يحك ظهره ويغنى. أسنده مصطفى إلى الحائط كما يفعل كل مرة ولم يعطه فرصة لهرش وحكٍّ ظهره فظهر الضيق شديدا على وجهه والألم حتى بدا أن روحه سوف تهرب منه، فأطلقه مصطفى فى اللحظة المناسبة ليبتسم ويعود يحك ظهره ويغنى بصوت رفيع فاتحا شفتيه ضاغطا على أسنانه فيخرج الغناء وكأنه أنين عجيب . ياريتنى طير وأنا أطير حواليك . ياريتنى طير وأنا أطير حواليك.

– هل تعرف أن الحرب قامت يا روح أمك؟

لم يرد. لم يزد على الابتسام.

– طيب. هل تحب أن تتطوع فى الجيش؟

يبتسم.

– تعرف يا فريد، أنت الوحيد القادر على هزيمة أولاد القحبة.. ضحكوا. لم يكن اسمه فريد ، لكن الاغنية فى الأصل يغنيها فريد الأطرش. تركوه يمضى لحال سبيله وعادوا إلى جلستهم المعتادة عند سلالم الماكينة الحمراء، وهى حمراء للون الطوب المستخدم فى بنائها، وهى ماكينة رفع المياه من المحمودية لا يعرف أحد إلى أين، يديرها الخواجة «بطسو» اليونانى الذى يغلقها الساعة الثالثة بعد الظهر ويمضى إلى بيته. علاقة الخواجة بَطْسو بالجميع محدودة هنا. لا يثيرهم فيه إلا وجهه شديد الاحمرار. نادرا ما يتكلم مع الكبار، وإذا تكلم مع الصغار فهو يطلب من أحدهم أن يشترى له بيضتين أو ثلاثاً من أحد

بيوت المساكن. لا يشترى أبدا من الدكاكين، وأهل المساكن لا يبيعون إلا له فهو غريب. بدءا من العصر يتجمع الأولاد على الدرجات الثلاث التى تؤدى إلى باب الماكينة وأمامها ، بعضهم يجلس على الدرجات نفسها والبعض على الأرض، وإذا اشترك سليمان أو غيره من الكبار يحضر كل منهم كرسيا من الخيزران معه من البيت. لقد فاجأ محمود القزعة سليمان بعد حديث تاجر البهار قائلا...

– ألم تجد لى طريقة بعد يا أستاذ سيلمان فى استرجاع اليوم الذى ضاع؟

دهش سليمان، ذلك موضوع قديم كان قد نسيه... فى شهر رمضان الماضى سأله محمود القزعة..

– الإنسان إذا أفطر فى رمضان غير قاصد لذلك يستطيع بعد رمضان أن يعوض أيام الإفطار بصوم مثلها. أليس كذلك يا أستاذ سليمان؟

– أجل يا معلم محمود. الدين يسر.

– طيب ماذا يفعل الإنسان إذا صام يوما وأراد أن يعوضه بالإفطار؟.

– لا أفهم ماذا تقصد بالضبط.

– كيف تفهم الأولى ولا تفهم الثانية؟

– صدقنى أنا غير قادر على فهم قصدك. على أى حال تستطيع أن تفطر أى يوم.

– يا أستاذ كيف أفطر وأنا طبيعى فاطر؟ شف لى طريقة لاسترجاع اليوم الذى صمته الله يخليك.

ازداد اندهاش سليمان وقال..

– ولماذا ترهق نفسك وترهقنى هكذا، ألست مسلما يا رجل؟

هنا اندفع محمود القزعة قائلا.

– مسلم. واسمى محمود على محمود لكنى ابن ديك كلب جبان لا ينفع معى دين ولا إسلام وأريد ان يعذبنى الله أبشع تعذيب لما ارتكبت من آثام. لقد صمت يوما أريد أن أستعيده ولا أستطيع. لقد هرب منى فى قلب الزمن يا سليمان افندى يا متعلم..

وقف سليمان ذلك اليوم فى غاية الحيرة، وها هو محمود القزعة يعيد السؤال بعد حديث تاجر البهار فتعود إليه الحيرة القديمة، زائدة هذه المرة بسبب ما يجرى فى البلاد، وبسبب افتقاده چين بانكروفت أكثر ترك المكان ومشى ناحية الأولاد عند الماكينة الحمراء وارتفع صوت محمود القزعة خلفه «عليه العوض فى التعليم والمتعلمين» .

لكن ذلك لم يكن كل ما جرى منذ بدأت الحرب. لقد عاد الديب من رحلته فوق قطار البضاعة فى اليوم الثالث للمعركة، رأى الأولاد جالسين أمام الماكينة الحمراء فأراد ألا ينتبهوا إليه ومشى على الرصيف لا ينظر ناحيتهم. رأوه فنادوه، كان بينهم سليمان مشغولا بتلميع حذائه. عادة يفعل سليمان ذلك كل يوم. وإذا لم ير أحد معه حذاء يلمعه يكون معه كتاب يقرؤه. قال لهم الديب.

– حكاية اليوم لن تصدقوها أبدا..

الديب يعمل «مُسَفّرا» على قطارات البضاعة الخارجة من ميناء الاسكندرية إلى طول وعرض البلاد. والمسفر هو حارس ليلى ونهارى يجلس دائما فوق العربة الأولى أو الأخيرة يمنع السطو على القطارات. والمسفّر لقب أطلقوه عليه من كثرة الأسفار.

– كيف تكون غير قابلة للتصديق؟

– لأنكم لن تصدقوا أن القطار خرج عن القضبان.

– لماذا لا نصدق؟ القطارات كثيرا ما تخرج عن القضبان.

– أنا لا أقصد ما تعنيّه أنت. أنا أقصد أنه خرج عن الكرة الأرضية ذاتها.

نظروا إلى بعضهم فى وجوم بينما استمر سليمان يلمع حذاءه مبتسما فى خبث وعاد الديب إلى الكلام.

– كان القطار يمشى فوق الأرض بهدوء حتى بدأت الحرب وطاردتنا طائرات الأعداء فأسرع السائق بالقطار لايقف أبدا حتى انتهت الأرض من تحته. لايقاطعنى أحد، قال ذلك حين لمح الضحك يكاد ينطلق من بين شفاههم واستمر يتحدث ، لقد صار القطار مثل الطائرة وأنا فوقها أنظر إلى الناحيتين، فلا أرى إلا فضاء يموج فيه الضباب والسحب والبخار وعمق سحيق. قال مصطفى:

– وطبعا قفزت تاركا القطار.

نظر إليه ساخراً ومتململا . قال.

– أقفز إلى أين؟ تريد أن تقتلنى، قلت هذا قضاء الله وانتظرت النهاية صابرا حتى لمحت قطاراً آخر قادما من الناحية الأخرى

ضربوا أكفهم ببعضها وانطلقوا ضاحكين، انطلق الولد الأسود «بَلَكْ» فى الكلام..

– طبعا قفزت إلى القطار الآخر الذى عاد بك إلى الأرض.

قال الديب مبتهجا.

– رغم أنك أسود واسمك بَلَكْ وأبوك ولا مؤاخذة لايفهم أى شىء في شغل السكة الحديد إلا أنك ولد شاطر..

عادوا يضحكون لكن مما قاله عن أبى بلك هذه المرة. عاد سليمان مبتسما إلى تلميع الحذاء وظل مصطفى يتأمل الديب بدهشة بالغة ثم قال:

– طيب، صدقناك، أين إذن ذهب قطارك؟ وكيف لم تسأل عنه المصلحة، والسائق هل عاد مثلك أم اختفى؟

– القطار لم يعد ، والسائق طبعا، والمصلحة لم تسألنى عن أى منهما وهذا هو ما يغيظنى فى هذا البلد، ليس للإنسان أى قيمة حتى لو كان سائق قطار!

وقف مصطفى بعيدا عنهم بخطوات ورفع يديه إلى السماء هاتفا.

- يارب أنت شاهد وشايف، انجلترا وفرنسا واسرائيل من ناحية، والديب من ناحية، عليه العوض في ثورة يوليو!

نهض الديب ثائرا وانصرف عنهم غاضبا. وبعد عدة خطوات توقف ينظر إليهم وهتف قائلا.

- لو كان الشعب كله مثلكم غاوى كلام على الفاضى وفاكر نفسه هو وحده الذى يفهم كل شىء فالله يكون فى عون ربنا على الشعب!!

كان اليوم هو الجمعة وكان مقررا أن يخطب جمال عبد الناصر بعد الصلاة فى الجامع الأزهر. تجمع الرجال والشباب والأولاد فى دكانة العنيبسى وأمامها يستمعون إلى الصلاة المذاعة. صلوا جماعة بسرعة. أمَّهم تاجر البهار!. كانوا يريدون ان يسمعوا صوت عبد الناصر، وحتى يأتيهم صوته راحوا يتحدثون فيما جرى، كيف أغارت المدمرة «إبراهيم» على ميناء حيفا أول أمس بالليل وأشعلت الحرائق فى أكثر من مكان وكيف انها فى طريق العودة اشتبكت معها ثلاث مدمرات فرنسية فأصابتها وأسرتها، وكيف رفضت المدمرة دمياط الاستسلام للمدمرات البريطانية فى خليج العقبة وقاتلت بشرف حتى الغرق وعليها قائدها الصاغ محمد شاكر حسين واليوزباشى مدحت الزيات، لكن المدمرة رشيد نجحت فى الإفلات من حصار المدمرات الإنجليزية فى شرم الشيخ وعادت سالمة، وقطعت مصر تماما علاقاتها السياسية مع إنجلترا وفرنسا، كذلك فعلت سوريا، وتم تعطيل البنوك الانجليزية والفرنسية حتى يتم توقيع الحراسة عليها، وهدد نهرو بالانسحاب من دول الكومنولث، وقام العمال العرب فى سوريا بتدمير أنابيب البترول التى تنقل البترول من العراق إلى البحر المتوسط إلى أوربا، حدث ذلك فى البحرين أيضا، خسارة فادحة تلقتها شركات البترول الانجليزية، وكان

واضحا من الكلام ان العالم كله مع مصر، اليونان منعت دخول سفن الأعداء إلى مياهها الاقليمية، والجمعية العامة ستنعقد بناء على طلب أميركا ومصر بعد أن أوقفت انجلترا وفرنسا قرار وقف إطلاق النار بمجلس الأمن، وسكتوا جميعا فى خشوع وأرهفوا السمع، هاهو صوت عبد الناصر يأتى اليهم.

فى اللحظة التى تهدج فيها صوته، قائلا سنقاتل إلى آخر قطرة من دمائنا، سنقاتل ولن نستسلم أبدا، انفجروا بالهتاف، الله أكبر، يسقط ايدن، يسقط موليه، يسقط بن جوريون، نموت وتحيا مصر، وأخذوا طريقهم ناحية كوبرى كرموز ،، رجالا وشبابا وأطفالا، من المساكن وغرباء ومارة بالصدفة، وعلى الشاطىء الأخر تجاوب معهم عمال وكمسارية ورش الترام، ولم ينقطع هتافهم طوال الطريق إلى الكوبرى وكان واضحا أن أبناء المدينة كلهم قد خرجوا فى مظاهرات حماسية تطلب الموت فداء للوطن وكان واضحا أيضا أنهم سيلتقون بهم عند الكوبرى ولن يعودوا إلا بالليل، الكبار، والصغار معا. كانوا مستعدين بالفعل أن يموتوا فداء الوطن، لكنهم كانوا بعيدين جدا هنا على هامش الاسكندرية لايسمعهم أحد ذلك اليوم الذى لن ينسوه أبدا بعد ذلك.

(٦)

ما الذى جعل العالم كبيرا هكذا فجأة؟ الحرب وليس غيرها هى التى جعلته جلبابا واسعا خشنا يتعثر فيه صاحبه، عالم بايخ حقا وغير جميل..!

كن يجلسن حول أبلة نرجس، الست الطيبة مستديرة الوجه والجسد تخر النعمة من وجهها البسيم! التى اذا تكلمت حطت الألفة على المكان.

السيدة القصيرة الممتلئة للزوج الطويل الفارع مفتول العضلات. هى اسكندرانية أصيلة وهو صعيدى من نوع خاص، ترك لها عالمها الصغير، خياطة الثياب للجيران وتعليم الفتيات. وتركت له عالمه الكبير، العمل بالسكة الحديد نهارا والتجارة ليلا فى السمن والأحرمة الصوف والجزارة . هو تاجر شاطر وهى خياطة ماهرة، وعمل كل منهما لايترك لهما فرصة للكلام إلا قليلا لذلك تمضى الحياة لينة سهلة، وبسلام!.

فى المساء، كل ليلة..، تتحلق البنات حول «أبلة نرجس» ويدخل «عم على» إذا كان موجودا، إلى الغرفة الداخلية لينام. يطلب أن يلحق به كروان ،الذى يحب أن يتلكأ و يجلس بين البنات، لكن بعد قليل تقول أمه.

– قم نم ياكروان عندك مدرسة فى الصباح.

تحسده البنات لأنهن لا يذهبن إلى المدرسة، مريم فقط هى التى تذهب ولا تأتى لتتعلم الخياطة هنا، تذهب إلى مدارس ڤيرا بالمنشية.

أمه تقول إن القبط شاطرين، ومدارس ڤيرا تعلم الخياطة على أصولها ، على الباترون.

تشتغل أبلة نرجس على الماكينة السنجر قليلا ثم تتركها للبنات وتنشغل بالتفصيل والقص. البنات دائما مفتونات بألوان القماش ورائحته الجديدة مثل ملمسه الناعم. الزفير خشن والبوبلين طرى والباتستا مفرح والشانتونج بيكب كده ألوان!. الله الله على الكريب، الواحدة عايزة تحطه على خدها وتنام! و أبلة نرجس تجلس فلا تنهض من مكانها إلا بعد أن ينصرفن جميعا، تقف وتنفض بيديها القصاقيص الكثيرة التى لصقت بجلبابها والخيط وتندهش كيف تركت كل هذا يلصق بها وتنظر إلى ما أنجزته مع «بناتها» وتشعر بالسعادة ليس لما يعود عليها من مال، فهو بسيط، لكن لما يعود عليها من بهجة الأنس بالبنات الجميلات الطيبات ، والإشباع العظيم الذى يمكن أن تفوز به معلمة

لتلميذات مطيعات . الراديو دائما جوارها مطفأ حتى العاشرة حيث تمتد أكثر من يد لتشغيله. بعد العاشرة تبث المحطات دائما أغنيات جميلة، لكن أفضل الليالى هى الليلة، موعد برنامج ما يطلبه المستمعون، الذى يذاع مرة واحدة فى الأسبوع وتدخر الإذاعة فيه باقة من أجمل الاغنيات كما تقول المذيعة ذات الصوت الحلو الناعم. مطر خفيف الليلة يتساقط يسمعن صوت التقاء حباته بالسطح، بالذات بسطح العشة الخارجية الصفيح. انه الخريف فى الاسكندرية والأمطار تأتى مبكرة عن موعدها دائما لكن برقة واعتدال.

العالم حتى أمس كان هذه الحجرة الصغيرة التى تساقطت قشور طلائها الجيرى الذى كان أزرق فصار أبيض! الحجرة التى ليس فيها غير كنبتين صغيرتين نظيفتين، وكليم صوف ناعم مرسوم عليه قوافل جمال بنية على أرضية بيج وتكاد الجمال تخرج تمشى على الأرض من دقة الرسم وطزاجة الألوان.

بين الكنبتين ماكينة سنجر برجل!. وكرسيان من الخيزران وفى الركن منضدة صغيرة لايزيد طول ضلع سطحها على نصف متر فوقها الراديو الوحيد فى المساكن والموصل بالكهرباء. الراديو هو الذى يربط هذه الغرفة بالدنيا، والدنيا أغنيات حب وهجر وعذاب ينتظرنها أكثر الليالى ويعولن عليها كثيرا فى التفاؤل بما ستأتى به الأيام...

- الأغانى ستتغير الليلة يا بنات.

قالت ذلك أبلة نرجس فى شبه أسف. كانت حسنة الطويلة الهشة مشغولة بصورة عم على زين العابدين بملابس الإحرام أمام الحجر الأسود فى الكعبة المشرفة والموضوعة فى برواز أنيق ومعلقة أمامها على الحائط. كانت تسأل نفسها عن المصور الذى يستطيع أن يفعل ذلك فى الحج وأمام الكعبة وهى تعرف أن التصوير حرام!.

لكنها سمعت أبلة نرجس فقالت.

- كيف يا أبلة؟

- لن يكون هناك أغانى حب الليلة. الأغانى كلها وطنية.

قالت حسنة.

- ألا يكفى طول النهار؟

وقالت حكمت ذات العينين الزرقاوين، الشقراء، الجميلة، التى لاتحضر إلا قليلا.

- لم يكن ينقصنا غير هذه الحرب. أيام العلمين هاجرنا من الاسكندرية إلى طنطا. كنت صغيرة لكن فاكرة. كانت بهدلة.

قالت أبلة نرجس.

- كانت حربا صعبة الله لا يعيدها، وربنا يستر علينا فى هذه الحرب.

ظهرت غيمة على وجه مشيرة فقالت لها شوقية.

- لا تزعلى يا مشيرة، الحرب مصيرها تنتهى والأفراح تعود..

سكتن جميعا للحظات ينظرن إلى مشيرة وأيديهن لا تكف عن العمل واحدة تقيس وأخرى فى السراجة وثالثة تسند القماش أمام الماكينة ورابعة ترص ما انتهين منه وتفرزه، فتعزل الرجالى عن الحريمى، وما يخص الكبار عن الصغار، . قالت مشيرة.

- كامل سافر مع الجيش . ودعنى من أسبوع وقال لى انه مسافر إلى سينا،. قال لى ادعى لى يا مشيرة أعود..

لم تستطع ان تكمل. اختنق صوتها لكن حسنة الطويلة الهشة الضحوك هتفت قائلة:

- هل رأيتن عم حمزة؟ تطوع فى الحرس الوطنى. يلبس شورت كاكى وقميص وعلى كتفه بندقية أطول منه.

ضحكت الفتيات ولم تفلح جدية أبلة نرجس التى كتمت ضحكها فى

أن تجعلهن يتوقفن عن الضحك بسرعة. زوجها مسافر إلى الصعيد منذ يومين للاتفاق على صفقة سمن بلدى، ويمكن لها أن تضحك بشدة، لكنها لا تريد أن تُعَوِّد البنات على السخرية من الرجال! قالت بدرية الحمراء مثل دجاجة.

– الجزمة التى فى قدميه أثقل منه.

فقالت حكمت.

– لكنه رجل طيب، ويكفى أنه أبو نوال.

قالت أبلة نرجس..

– عم حمزة هذا له قصة عجيبة فى الحرب الماضية. سنة كاملة ضاع فيها بين الانجليز والالمان والطليان وشاف الموت بعينيه ألف مرة .

كانت الأغنيات الوطنية قد بدأت تنهمر من الراديو الذى أشعله كروان.

تكررت أغنيات دع سمائى فسمائى محرقة، دع قناتى فمياهى مغرقة. والله أكبر، وأنا النيل مقبرة للغزاة ، من كل المحطات التى كان كروان يبحث فيها عن أغنيات عاطفية، والبنات ينظرن إلى بعضهن فى يأس.

لم يكد يمر اسبوع واحد على الحرب ولم تعد الدنيا هى الدنيا. كانت كل منهن تنتظر برنامج ما يطلبه المستمعون طوال الأسبوع حتى ترى حظها فجاءت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل معا من أقصى الدنيا لتحرمهن من ذلك رغم أن أياً منهن لم تسىء إلى أىّ دولة منها بل لا تعرف واحدة منهن أين تقع هذه البلاد!. كن يسمعن فى طفولتهن شيئا من القصص عن الانجليز المخمورين على الكورنيش لكن أيا منهن لم تلتق بعسكرى انجليزى وجها لوجه. إنهن، ببساطة، لم يكن يذهبن إلى الكورنيش ولازلن، إلا مرات قليلة فى الصباح الباكر فى صحبة أمهاتهن لشرب دماء الترسة فى حلقة السمك بالأنفوشى. كل منهن كانت مشغولة دائما بالبحث عن عبد الحليم حافظ فى البرنامج ، والهرب من فريد الأطرش

الذى لايحببن نواحه، ويرضين بشادية ونجاة وفايزة أحمد ومحمد قنديل وعبد الغنى السيد وكارم محمود، ويتركن الأغنية الأخيرة التى تكون دائما لأم كلثوم، يتركنها لأبلة نرجس . حكمت كانت أكثرهن حظا مع عبد الحليم. يندهشن من حظها والحقيقة أنها كانت تعمل ذهنها قليلا. لقد أدركت من التكرار أن البرنامج لايثبّت إلا فريد الأطرش وعبد الوهاب ثم أم كلثوم . هم دائما آخر الأغنيات . قبل ذلك خمس أغنيات أو أربع تتغير فيها مواقع المطربين، لذلك كانت تمارس نظرية الاحتمالات دون ان تعرف أن هناك نظرية للاحتمالات، فإذا طلبت أن تكون الأغنية الثالثة فى أحد الأسابيع لها وكانت لعبد الحليم حافظ تأتى الأسبوع التالي لتطلب الأغنية الأولى فتكون لعبد الحليم حافظ أيضا أو فى أكثر الأحيان. ثم تأتى الأسبوع الثالث وتختار الأغنية الخامسة فتنجح فى اصطياد عبد الحليم وتتصاعد آهات وزفرات البنات واعجاب ابلة نرجس. فى النهاية صار معروفا أن لكل واحدة تقريبا حظا شبه ثابت. شوقية يأتى حظلها غالبا مع أحلام وأغنية «ياعطارين دلونى الصبر فين أراضيه» أو مع عبده السروجى وأغنية « غريب الدار علىَّ دار زمان قاسى وظلمنى» وتمصمص شفتيها حسرة على حظها مع اليأس والبؤس هذا. أحيانا يسعدها الحظ فتكون أغنية نجاة على «فاكراك ومش ح أنساك» ومرة فوجئت بدويتو راقية إبراهيم وعبد الوهاب. صرخت راقية إبراهيم «آى سنتى» فضحك الجميع وابتهجت هى وكانت هذه هى المرة الوحيدة التى ظهرت لها أغنية غير بائسة فى البخت!

فى الأسبوع الماضى ابتعدت عن جميع الأماكن الأولى واختارت الأغنية السادسة راضية بصوت عبد الوهاب الرخيم فغنى لها عبد الوهاب أغنية «طول عمرى عايش لوحدى غريب وراضى بحالى» فبكت شوقية بحق ولم يستطعن إيقافها عن البكاء إلا بعد وقت طويل أطفأن

فيه الراديو ورحن يواسينها ويذكرنها أن هذا كله لعب وهزار ولم تتوقف عن البكاء حتى نهرتها أمها، أبلة نرجس، محتجة على هذا الدلع الزائد!

مشيرة حظها فى الغالب يكون مع ليلى مراد أو فايزة أحمد. كثيرا ما تغنى ليلى «الحب جميل» أو تغنى فايزة «أنا قلبي إليك ميال».

يتورد وجه مشيرة السمراء بالفرح والرضا. انها تعيش قصة حب حقيقية مع كامل الذى لم تعرفه قبل الخطوبة لكنها الآن كمن يعرفه منذ عشرات السنين. البنات لهن رأى آخر فى كامل ويندهشن من هذا الحب فهن لا يرين كامل مغريا فى شىء، هو أبيض الوجه مائل إلى الحمرة، أشقر، عسلى العينين، له شارب رفيع محفوف بعناية يقول عنه إنه مثل شارب كلارك جيبيل، وهن لا يعرفن من هو كلارك جيبيل هذا، وما إذا كان وسيما أم لا؟ كامل أيضا يعمل «مزين»، صحيح فى محل كبير بالمنشية لكنه فى النهاية «مزين». ثم أن رجلا شديد البياض والحمرة والنظافة وبارد أيضا أمر يغيظ!. لا يعرفن كيف يكون الرجل أبيض. ماذا تكون المرأة إذن؟. الرجل اسمر والمرأة بيضاء، هكذا خلق الله الدنيا أو هكذا رأين فى حياتهن.. لكنهن قط لم يقلن شيئا من ذلك لمشيرة، ويتمنين لها السعادة التى ترجوها ويستمرون فى ذلك الرجاء!

توقفت الأغنيات، وانطلقت المارشات العسكرية ثم أعلن المذيع فى أسى عن بدء الإنزال الجوى البريطانى الفرنسى على بور سعيد بعد أن تم ضربها بالنهار بالمدافع من البحر والجو، ثم صرخ المذيع بأننا أبدا لن نركع ولن نستسلم وطالب شعب بور سعيد بالصمود ومن الشعب المصرى التطوع للدفاع عن الوطن ومن الشعوب العربية المؤازرة والاستمرار فى تدمير الممتلكات الإنجليزية والفرنسية وانطلق بعده نشيد الله أكبر يزلزل أركان الفضاء.

– الحرب صارت بجد يابنات..

قالت أبلة نرجس بينما كان البنات ينظرن إلى بعضهن غير قادرات على فهم هذا الإنزال الجوى بالمظلات، فشرحت لهن معنى المظلات، وكيف كان للألمان فى الحرب الماضية جيش من المظلات يبهدل فى الدنيا كلها، وزاد الرعب على وجه مشيرة خوفا على خطيبها كامل وازداد توتر بدرية الحمراء كدجاجة فلقد تم استدعاء خطيبها أيضا إلى المعركة منذ أيام وإن بدت من قبل متماسكة ولم تعلن لهن ذلك إلا الآن. ابتسمت حسنة وقالت.

– لذلك لم تأت إلينا بالهريسة معك.

خطيب بدرية حلوانى يعمل فى محل عند محطة الساعة بالورديان لايزورهم إلا وعلبة الهريسة بالبندق فى يده. وقالت حكمت..

– أخذوا الحلاقين والحلوانية وتركوا باعة السمك . هل باعة السمك لايصلحون للحرب؟

لم يرد أحد. يعرفون أنها تقصد خطيبها صفوت الجعفرى، تاجر السمك العايق أبو سنة دهب. الصعيدى الشاب الذى دفع فيها مهراً مقداره مائتا جنيه لكنها، ولدهشتهم الدائمة، لاتحبه. إنهن يحسدنها على هذا التاجر الشاب الأنيق الوسيم وهى لاتحبه. تعلق قلبها به فى أحد مشاويرها مع أمها إلى حلقه السمك بالملاحة. أعجبها هندامه العصرى، فهو لايرتدى زى الصيادين الاسكندرانى، اللباس الواسع أبو حجر ، الطويل ، والصديرى الأسود تحته الفانلة البيضاء ذات الأكمام الطويلة. يرتدى بنطلوناً وقميصاً على طريقة چيمس دين ونظارة الشمس ريبان، وفى معظم أصابعه خواتم ذهبية.

خطف عينيها وهز قلبها ذلك اليوم، وهى أيضا استغرقته عيناها الزرقاوان وبشرتها البيضاء لامعة النضرة وشقرة شعرها. أدمنت شراء السمك مع أمها، وأدمن هو البيع لهما بأسعار رخيصة وأسماك طازجة،

ولم يستمر طويلا فى ذلك. تقدم لخطبتها ففقدت وعيها من الفرحة. لم تمض أسابيع حتى كرهته بنفس القوة. لم تستطع أن تعلن رغبتها فى فسخ الخطوبة. كيف حقا ترفض عريسا شابا أنيقا غنيا. لن يصدقها أحد إذا روت القصص عن مغامراته العاطفية وغرامياته مع الأخريات. أدركت إنها ليست أكثر من نزوة، قصة عابرة قد تستمر بعض الوقت، لكنها لن تدوم، لكن لا قدرة على التراجع، هو غنى وأهلها فقراء، دفع المهر كاملا أكثر مما يتوقع واشترى لها شبكة بعشرين جنيها كاملة ويصحبها لتشترى أجمل الفساتين من هانو وعمر أفندى وعلمها الجلوس فى ديليس وتريانون وكيف تشرب الشاى مع الكيك، دخلت معه السينما وتركت يده تحوطها بهدوء وتركته يقبلها بهدوء ولم يلاحظ انها لاتنفعل معه. قالت لنفسها إنه طالب متعة أنانى لا أكثر. أخذها إلى محلات الأحذية الشهيرة بشارع الفلكى وصحبها إلى الشلالات فجلست معه بين العشاق فى كازينو الشجرة، ولم تحبه. شربا معا الخروب البارد اللذيذ فى الصيف من العربة البيضاء الجميلة التى تشيع البرد حولها عند الأصيل وفى المساء جوار نقطة باب شرق ولم تحبه. كان انجذابها الأول مثل ومضة كهربية سرعان ما انتهت. سيتزوجها ليضعها فى البيت دمية جميلة بينما ينطلق هو فى الهواء يلبى نداء نزواته، ولن تستطيع الاحتجاج. ستذوى إذن على يديه هذا السجّان الجميل الذى قطع طريق حياتها. وبدأت تفقد كثيرا من وزنها ورونق بشرتها وبريق عينيها ولم تتزوج بعد.. فجأة انطلقت في البكاء بين صمت الجميع. هتفت أبلة نرجس.

– كوب ماء يا كروان.

راحت تسقيها الماء بهدوء. كانت تعرف أن البنت الجميلة لم تتحمل فكرة أن تتمنى الموت لخطيبها فى الحرب. لاشك أن البنت الرقيقة أحست كا لو كانت قتلته بالفعل.

شربت حكمت الماء والدموع معا. وقالت أبلة نرجس.

- اسمعوا يا بنات. الحب الحقيقى لا يأتى إلا بعد الزواج. والزوجة الشاطرة هى التى تقدر على ترويض زوجها. وكل الرجال فيهم عيوب، لكن كل الرجال فيهم مميزات كذلك. وإياكن تصدقن الأغانى.

سكتن جميعا. كن يعرفن أنها تخفف عن حكمت. قالت حسنة.

- مادامت الحرب قامت، والإذاعة منعت الأغانى العاطفية، ما رأيكم أغنى أنا، الغناء ضاغط على قلبى، منهم لله الإنجليز.

ضحكن ، ضحكت حكمت بلا صوت، ومسحت آثار دموعها براحتيها. قالت مشيرة فى حزن.

- قلبى على أهالى بور سعيد.

فقالت بدرية.

- ربنا إن شاء الله ينصرهم وينصرنا..

لم يكن يدركن حجم المعركة، وحتى أبلة نرجس التى عاشت فى الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الماضية لم تكن تدرك حجم الهجوم، كان الأمر بالنسبة لهن معركة لبضعة أيام وتنتهى، وبدا أنهن ذاهلات عن الراديو الذى يبث نداءات النصر والقوة لأهل بور سعيد وللشعب المصرى. قالت حسنة.

- إذا كان صوتى لا يعجبكم تختار كل واحدة أغنية وتغنيها.

قالت أبلة نرجس.

- اقتراح جميل يا بنات . هيا.

سكتن جميعا للحظات، كل منهن تنتظر أن تعلن الأخرى البداية ، ففاجأتهن حكمت

- سأبدأ أنا..

تركزت عيونهن على وجهها، كانت هى قد أغمضت عينيها وتنهدت.

قالت أبلة نرجس.

- صوتك يا حكمت جميل من قبل أن أسمعه.

وإذا بصوت دافىء شجى ناعم عذب معذّب يسرى هادئا من بين شفتيها معبأ بالعتاب والشجن.

مــالك ومــالى يا أبو قلب خـالى
ريّحـت قـلـبك وشــغـلـت بـالى
يــا أبــو قــلــب خــــالــــى

أشارت لهن أن يعدن «الكوبليه» وظلت صامتة حتى انتهين ثم واصلت الغناء. كان فى إعادتهن شىء من المرح الخفيف.

أيام بتــبــعــد، وأيـام بتــوعــد
ولابعــد يـغـنـي، ولاوعــد يســعــد
قــلــبك غَـــــدَرْ بــى قــلــبك
وأنــا قــلــبــى حـــبــك قــلــبــى
لـيــه بس قــلــبى مـش زى قــلـبك
مــــا لــوهــش غــــالـــى
يـــابـــو قـــلــب خـــــالـــى
يـــابـــو قــلــب خـــاااا لـــى..

أعدن «المذهب» من جديد ، لكن شيئا من الحزن الحقيقى تسلل إلى أرواحهن، وتوقفت حكمت عن الغناء لأن صوت صفارة الانذار انطلق فى سماء المدينة.

تشبثن بأماكنهن من الذعر، اندفع كروان يطفىء النور وسمعن خطواته فى الظلام وهو يقفز إلى الخارج. هتفت شوقية كروان! لكن أمها، أبلة نرجس، طلبت أن تتركه. الوقوف فى الفضاء أفضل من البقاء فى البيت... الحقيقة إنه كان قد تعود عند وقوع الغارة أن يقف عند

المحمودية مع أصحابه يتابعون القذائف المضادة وهى تنطلق نحو الطائرة. راحت أبلة نرجس تحكى لهن عن الغارات الحقيقية فى الحرب الماضية. غارة الست ساعات، أشهر الغارات على المدينة، التى بدأت فى المساء وانتهت فى منتصف الليل بأن دمرت حى باب سدرة كله وجزءا كبيراً من كرموز.

ماتت خلق كثيرة فى الأسكندرية فى تلك الحرب وهاجر الباقون حتى كادت المدينة تفرغ من السكان، لكنها رفضت الهجرة إلى الصعيد حيث أهل زوجها، أو إلى محافظة البحيرة التى بنت فيها الحكومة أكبر المعسكرات للمهاجرين «لن أترك الاسكندرية أبدا. قلت لزوجى، وهذه المرة لن أتركها أيضا. العمر واحد و الرب واحد يا بنات وكما انتهت الحرب السابقة ستنتهى هذه الحرب» وانطلقت أصوات المدافع فى الفضاء، منها مدفع موجود فوق السطح مباشرة هز البيت فالتصقت البنات ببعضهن، ولسوء الحظ كان اليوم هو الرابع من ربيع الأول فلم يكن هناك قمر و لا هلال فى السماء يمكن ان يضىء لهن شيئا. قالت أبلة نرجس، انه من حسن الحظ لا لسوئه لأن الطائرات أيضا لا ترانا، لكن فجأة امتلأ الفضاء بالضوء . صواريخ صواريخ!

استمعن إلى صوت الرجال الذين تجمعوا فى الأزقة بين البيوت.

كانت الطائرات تلقى شرائط الفوسفور فوق المدينة لتضىء فضاءها المعتم، ازداد انطلاق المدافع وخوف البنات وسمعن صوت «الچونى» بالباب. ادخلى على مهلك. قالت أبلة نرجس وكانت الچونى قد دخلت بالفعل ووقفت قريبا جدا منهن فى الظلام لايرينها وإن كُنَّ يسمعن صوتها المميز ذا البحة الجميلة . قالت.

– كنت نائمة وحلمت حلماً فظيعاً. حلمت برجل يحملنى على رأسه يصعد بى إلى جبل عالٍ ثم يلقى بى على الأرض. قمت من الكابوس

مفزوعة على صوت صفارة الإنذار. كانت أمى توقظنى بفزع وسمعت أبى يصلى..

مدت حسنة يدها أمسكت بها فى الظلام.. وسحبتها جوارها:

– تعالى هنا لا تخافى يا حبيبتى..

تسكن الچونى مع أسرتها فى البيت المجاور لأبلة نرجس، وهى أيضا شقراء مثل حكمت إلا أن عينيها خضراوان، ورغم أنها أصغر، بالكاد فى الخامسة عشرة فقد أطلقوا عليها لقب «الچونى» ، كما كانوا يطلقونه على الانجليز.

سمعن بالباب صوت نوال يطلب الدخول، فضحكن ولم يعدن يسمعن صوت المدافع وأزيز الطائرات رغم انه لم ينقطع. هتفت شوقية لاينقصنا الآن غير نادية فقالت نوال «إنها قادمة خلفى»، سمعن بالفعل صوت نادية يطلب الدخول فى الظلام. قالت حسنة.

– هل تصدقين يا نوال أننا كنا نغنى؟. أى والله. وجدنا منافساً خطيراً لك. حكمت.

قالت نوال.

– حكمت صوتها جميل فى الغناء أو فى الكلام.

قالت مشيرة.

– صحيح يا نوال أنك تغنين فى المستشفى؟

قالت نوال.

– صحيح. عندنا دكتور جرّاح مجنون كل عملية يطلب منى أدخل معاه غرفة العمليات ولا يكلفنى بأى عمل . يقول لى أن أجلس على الكرسى فى ركن من الحجرة وأغنى. يقوم هو بالعملية تساعده المرضات والأطباء الشبان وأنا أغنى، واذا توقفت لحظة ينظر لى فى غيظ من خلف القناع فيرعبنى فأغنى.

قالت أبلة نرجس.

– أول مرة أسمع شيئا كهذا.

وقالت حسنة.

– هذا بدل أن يساعدك فى التقدم الى الإذاعة. عشنا وشفنا.

قالت نوال بطفولة.

– اسمى فى المستشفى مطربة العمليات، لم يعد حتى أحد يقول لى سستر نوال ولا الحكيمة نوال..

هتفت شوقية فى الظلام.

– فشر. أنت ولا كوكب الشرق أم كلثوم وبكرة تشوفى بس ياريت تغنى لنا حاجة لغاية الليلة دى ما تعدى!

ضحكن وقالت نوال.

– طيب اسمعوا.

حط عليهم الصمت، حتى المدافع بدا أنها صمتت أيضا وربما كانت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة. لم يعدن يسمعن شيئا خارج المكان.

بدأ صوت نوال القوى الرنان يسرى فى الظلام بهدوء وعلى مهل وبعذوبة فائقة.

يا حلاوة الدنيا يا حلاوة
يا حلولو يا حلاوة

فاجأتهن الأغنية لكنها ألهبتهن كثيرا من البهجة والحماس فرحن يرددن خلفها كلما توقفت.

حلاوتها لما تصفى لى
أنا وانتم واللى فى بالى
يصفى لى كل مطلوبى
وكفاية وجه محبوبى
والباقى كله يتساوى
يا حلاوة الدنيا يا حلاوة

كان الرجال والنساء والأطفال المتجمعون فى الزقاق القريب قد بدأوا يسمعون الغناء غير مصدقين . اقتربت النساء والأطفال من البيت بينما

قال أحد الرجال. «مسخرة البنات حتى في الغارة».
وأتى صوت نوال القوى العذب الرنان.

ومادام الدنيا ماهش دايمة
وقيامة على العالم قايمة
حَلّوها وافرحوا بيها
والطيب اعملوه فيها .

وراحت البنات تُعدن معها الغناء، بدأ بعض الأطفال ممن اقتربوا من البيت يرددون معهن، ثم بدأت بعض النساء ، ازداد الصوت الجماعى قوة فى الداخل والخارج ووصل إلى الرجال الواقفين فى الأزقة والرجال المتجمعين فى المسجد الصغير وسط البيوت ولم يعلق هذه المرة أحد. أرهفوا السمع الآن. كل على حدة. بل لم يعد أحد يتكلم مع أحد. ملأ صوت البنات داخل بيت أبلة نرجس ، والنساء والأطفال فى الخارج، فضاء الليل الأسود حتى كاد يضيؤه بعد أن كفت الطائرات عن إلقاء شرائطها الفوسفورية.

(٧)

كانت الحركة بالنهار اليوم غير عادية فى الأتيلييه . كثيرات جئن يطلبن من ماريانا الانتهاء بسرعة من حياكة ثيابهن. لم تظهر زبونة جديدة. أمضت جورجيت القبطية اليوم تتحرك وتعمل وتضحك بلا سبب بينما امضت «أسمهان» الايطالية اليوم صامتة، اقترب منها العربى قبل أن تنصرف بقليل .

- مالك مدموازيل أسمهان اليوم كله حزينة؟
- الحرب قامت عربى.
- أعرف اسمهان. الحرب مع المصريين والحرب أيضا بعيد فى بورسعيد. هنا غارات بسيطة، ليست كالغارات التى كان يقوم بها الايطاليون على الاسكندرية فى الحرب العالمية.
- عربى، غارات الحرب العالمية كانت بسبب الدوتشي، موسيلينى.
نحن شنقنا موسيلينى. أنا لا أخاف الغارات. المشكلة فى انطونيو.
- البوى فريند؟!
- أخى عربى، يريد أن يتطوع للدفاع عن مصر.
- بطل. رجل محترم.
قالت جورجيت التى كانت تسمع وتبتسم..
- حقا يا عربى لماذا لا تتطوع؟
- ذهبت. قالوا انهم أخذوا العدد المطلوب، تركت لهم اسمى وعنوانى لوقت الحاجة..
كانت كاتينا قد اقتربت منهم أيضا. قالت.
- عربى لا تتطوع، من يبقى معى؟. انا أخاف من الغارات. ممكن أموت.
ثم نظرت الى أسمهان وقالت..
- اليونان ايضا تطوعوا.. اكتر من مائتى يونانى من الاسكندرية تطوعوا للدفاع عن بورسعيد..
قالت أسمهان.
- انطونيو يقول إن الشيوعيين الايطالين واليونانيين اتفقوا على التطوع من أجل مصر ضد الامبريالية.

قالت جورجيت:

- في الكنيسة أيضا طلب البابا من الشباب القبطى التطوع.

قالت كاتينا.

- أمس فى كنيسة سان سابا كان زحام فظيع. هتاف ضد انجلترا وفرنسا من كل اليونانيين.

جلس العربى وسطهم مندهشا مما يسمع . لم يفهم ما قالته أسمهان عن الشيوعيين والامبريالية. قالت كاتينا.

- الشيوعيون دائما يا اسمهان، ذكرتنى ياناكيس. ياناكيس كان يسارى - أغمض العربى عينيه متوقعا الحديث الذى لاتمله ومنتظراً أن ينتهى فى ملل! - أنت لا تعرف عربى ماذا يعنى يسارى، يعنى شيوعى. شيوعى يعنى لايحب الملك. ملك انجلترا ملك اليونان. ملك مصر. ياناكيس تطوع ليحارب النازى عندما احتل اليونان. ياناكيس مات فى جبال اليونان عربى.

أدرك العربى حجم الكارثة فى أن يجلس رجل وسط ثلاث نساء لديهن مشاكل غامضة وفى زمن الحرب! لكن ماذا يفعل. هنا عمله، وهنا المرأة التى يحبها برغم انها لا تحبه.

بدت له أسمهان فى حيرتها أكثر جمالا. هى فى الأصل جميلة، شعرها الأصفر دائما منكوش مجعد وتقول إنها هى التى تجعله كذلك شفتاها مكتنزتان عليهما دائما روج ثقيل وسط وجهها الأبيض، وطولها غير عادى بالنسبة لامرأة لكنها دقيقة الخصر بشكل مثير. قابل أبواها المطربة الشهيرة أسمهان عام ١٩٣٨ فى رأس البر، وتحدثت معهما، أبدى أبوها إعجابه لأسمهان بصوتها الرنان فقبلته وقبلّت زوجته أيضا وأهدته أسطوانة عليها أغنيات لها وعليها توقيعها. لايزال أبوها يحتفظ

بالاسطوانة فى فخر، لقد وعد أسمهان إذا أنجب فتاة يعطيها اسمها. عارضت الأم بعض الوقت ثم استسلمت . هى أيضا تحب صوت أسمهان. ولقد جاءت تحمل شامة صغيرة على ذقنها مثل أسمهان أيضا. لكن مأزق أسمهان ليس كمأزق راشيل اليهودية التى قالت كاتينا عنها إنها تريد أن تتزوجه. العواطف متأججة ضد اليهود بسبب اشتراك اسرائيل فى العدوان على مصر.

لم يجد العربى شيئا يقوله لأسمهان غير الأمل فى عودة أخيها سالما، وفكر فجأة فى هذه البهجة التى تشعر بها المرأة جورجيت طول اليوم وقال هذه امرأة ظل زوجها طول الليل ينكحها بلا هوادة..

انصرفت أسمهان وجورجيت فى الخامسة ولم يبق غيره لتنظيف المكان، ما كاد يفرغ من ذلك، ومن إعداد المكان لاستقبال اليوم التالى حتى دق الجرس. فتح الباب فرأى راشيل أمامه وجهها شديد الاحمرار حتى يكاد يحترق، كانت ترتدى معطفا أسود خفيفا فوق بلوز اسود وجوب اشد سواداً أيضا.. كانت شبه منهارة. الإيشارب الاخضر متهدل حول عنقها وتكاد تقع مغشيا عليها.

- إلحقنى عربى.

ألقت نفسها على صدره فتلقاها بثبات وتراجع بها بهدوء إلى الخلف حتى أجلسها على أقرب فوتيل. أقبلت كاتينا فى هلع.

- مالك راشيل.

وضعت يدها على جبهتها فوجدتها باردة ، بينما كان عرق كثير يتفصد من مسام وجهها وجبينها ورقبتها، أسرعت كاتينا واحضرت كأس نبيذ أحمر دلقته فى جوف راشيل على مهل وهى تمسك بفكها ثم جلست أمامها على مقعد خيزران تتأملها والعربى يتأملها واقفا. فتحت

راشيل عينيها وهى تقول فى ألم.

- خلاص كاتينا كل شيء انتهى فى مصر.

كانت تكلم كاتينا وتنظر إلى العربى فى حزن واضح، واستمرت تتكلم.

- اليوم قال لى حاييم إنه لم يعد لنا بقاء هنا.

حاييم هو أخوها. العربى يعرف ذلك ويعرف محل الدخان الذى يملكه فى العطارين.

- حاييم فتح الدكان ساعة واحدة. كل زبون يأتى يشترى دخاناً يقول له خلاص حاييم انتم ظهرتم على حقيقتكم.

قالت كاتينا.

- مشكلة . مشكلة كبيرة راشيل. اسرائيل سببت لكم مشكلة كبيرة للأسف.

- لكن أنا لست اسرائيل. حاييم كذلك. كثير من اليهود . ربما كلنا هنا فى اسكندرية رافضين الحرب. الحاخام فى المعبد استنكر العدوان...

قالت كاتينا فى أسف..

- حكاية حزينة حبيبتى.

عاد الصمت من جديد. كانت راشيل قد استعادت شيئا من قوتها فاعتدلت فى جلستها. كانت لا تزال تنظر الى العربى الذى بدوره رآها جميلة جمالا يليق بامرأة فى الثلاثين وليس فى الخمسين. اندهش لهذا الإدراك المفاجيء . لكن راشيل لم تكن تعنيه أبدا فى أى يوم. لم يشعر حتى انها تميل إليه. قالت كاتينا.

- هل سيهاجر حاييم؟

- طبعا. وسيأخذنى معه.

- إلى إسرائيل.

- لا . لا كاتينا . إلى البرازيل.

انكمش العربى للحظة. البرازيل دولة بعيدة جدا. كان يظن انها صاحبة محل البن البرازيلى فى شارع سعد زغلول حتى قالت له كاتينا ذات يوم «عربى أنت دائما معلوماتك غلط. البن البرازيلى محل ملك واحد يونانى فتحه من خمسين سنة..»

تنفس مرتاحا. ها هى الحرب ستحمل راشيل بعيدا عنه آلاف الأميال.

لكن ما ذنب الناس فى بور سعيد حتى يتعرضوا لهذا الموت من أجل أن ترحل راشيل ! اذا كان زواجه منها يمنع الحرب فلديه الاستعداد لذلك. لكن.. لا الحرب قامت لتمنع هذا الزواج ؟ ولا الزواج سيمنع الحرب يا عربى، انما هى الحياة وآلاعيبها التى لايفهمها أحد.

قالت راشيل.

- تعال عربى ، أجلس جوارى.

تردد للحظة ثم تذكر أنها ذاهبة إلى نهاية العالم فجلس جوارها فاستدارت تتكلم .

- أنت عارف عربى أنى أحبك من زمان. أنت رجل ممتاز عربى وجميل لكن مسكين غير متعلم. أنت لا يمكن أن تجد عملا بسهولة عربى. أنا الآن سأرحل عن مصر كلها . حاييم وجد مشترى لمحل الدخان. مشترى سورى . حاييم سيبيع المحل برخص التراب، وأنا أحب أعطيك هذا المبلغ البسيط كتذكار منى. سوفينير صغير عربى.

قالت ذلك وهى تخرج من حقيبة يدها مظروفا صغيرا.

– بهذا المبلغ، خمسون جنيها عربى يمكن أن تبدأ حياتك . تتاجر فى أى شىء.

كانت لاتزال تمد يدها بالمظروف بينما هو يفكر فى أمر هاته النسوة اللاتى يعرضن عليه الأموال بدلا من الحب. ابتسم وقال فى نفسه هذا سبب ثانٍ للانتحار فى البحر يا عربى. تساءل:

– ولماذا تهاجرين راشيل؟ يمكن أن تبقى.

– مستحيل عربى. اليهود لم يعد لهم مقام فى مصر. الثورة مع فلسطين واسرائيل مع الانجليز ونحن اليهود ندفع الثمن.

سكتا قليلا ثم تساءلت.

– لماذا لاتقبل هديتى عربى. أنا يهودية لكن غير بخيلة. أنا أحبك.

اندهش هو من هذه الصراحة وظل غير قادر على ان يمد يده. لاحظ شيئا من الامتعاض على وجه كاتينا. إنها لا تسمح لأحد من زبائنها بزيارتها بعد الساعة الخامسة شتاء. لكن ليس هذا هو السبب. لابد أنها خافت أن يبدأ بالخمسين جنيها مشروعا تجاريا ويتركها. انها بالنسبة للعربى كتاب مفتوح رغم أنها لا تبادله الحب. قالت كاتينا:

– ما رأيك راشيل أن تنامى عندى الليلة. أخاف تخرجى تحدث غارة.

لم تكن هذه غير دعوة للانصراف، لكن راشيل المرتبكة لم تفهمها فيما يبدو إذ طلبت كأسا آخر من النبيذ وقالت وهى تنظر إلى العربى..

– سأترك الفلوس هنا ، وأنت حر، أنا لن أعود بها.

وضعت المظروف على منضدة مستديرة صغيرة جوارها. ثم عادت للحديث.

– هتلر فى الحرب الماضية خلانا نترك اسكندرية الى جنوب أفريقيا اسكندرية هى بلدنا تماما مثل المسلمين والمسيحيين. تأتى اسرائيل

تجعل الناس يكرهوننا . أيضا لابد أن يقول أحد لعبد الناصر ألا يسمح لأحد أن يشتمنا. نحن مصريون عربى. من هنا وليس من اسرائيل:

بدا العربى مرتبكا لا يعرف بما يجيب. طبعا هم مصريون لكنه لا يستطيع ان يفعل شيئا، المشاعر متأججة ضد اليهود بسبب هذ الحرب، كل حين يتم القبض على جاسوس يهودى يرسل إشارات للانجليز فيزداد عداء الناس. هو يعرف انه ليس كل اليهود جواسيس وليس كل الناس ضد اليهود لكن المشكلة فيما يبدو ليس لها حل، أو على الأقل أكبر من قدرته على الإدراك.

طال سكوته حتى وقفت راشيل تتأمله وهو يقف يودعها. قبّلت كاتينا بسرعة، ثم أخذت العربى فى حضنها بقوة . بدت له أقوى منه. أدهشه ذلك جدا وهو يترك لها نفسه تضمه إلى صدرها كطفل. انفجرت بالبكاء وخرجت جارية ولم يتحرك ليغلق الباب خلفها. وقف حائرا. وسط الصالة أكثر من مانيكان من الجبس الملون عارية من الثياب بدت له كائنات حية مبتورة السيقان لم يبق منها غير النصف العلوى فقط. كانت كذلك فعلا ومرفوعة على مواسير حديدية كالخوازيق. بدت له كائنات شديدة البشاعة. رأى المظروف فى مكانه على المنضدة فبدا له شيئا غريبا يحاول جاهدا أن يتذكر أين رآه من قبل.

ألقى بنفسه فى ركن من الصالة على مقعد قديم وأشعل سيجارة وراح يدخنها بهدوء. هل حقا هناك دنيا خارج؟. هذا الاتيليه. لماذا حقا كلما جاء هنا لايشعر أن ثمة شيئا فى الخارج. لمح كاتينا وهى تغلق الباب بالمفتاح من الداخل. لن تتركه يعود إلى البيت اليوم أيضا. تركته

فى مكانه ودخلت إلى غرفتها البعيدة وتمددت على كنبة عريضه مواجهة للسرير النحاس ذى الناموسية البيضاء وقالت بصوت واهن، عربى. عربى. سمعها فنهض متلكئا إليها..

فى حوالى الساعة العاشرة كانا قد انتهيا من شرب زجاجتين من «الميتاكسا» ذى السبع نجوم، ذلك البراندى اليونانى الفاخر الذى تقول كاتينا عنه إنه لا يوجد إلا عند الدبلوماسيين ونجوم الفن اليونانيين. قال العربى وقد لعبت الخمر برأسه.

– تعرفى كاتينا أنا نفسى فى إيه!؟

– لا.

– اسمع أغنية ليت للبرّاق عينا.

– هذه أغنية عربى؟

– قصيدة تغنيها أسمهان.

– هذه أغنية صعبة هل تفهمها؟

– لا.

– عجيب أنت عربى. لاتفهم الأغنية وتريد أن تسمعها.

– بالضبط كاتينا، مثلما أحبك أنت التى لاتحبينى ولا أفهم لماذا أحبك.، ومثلما تحبنى راشيل ولا أحبها ولا أفهم لماذا لا أحبها مع أنها جميلة.

سكتا طويلا حتى قالت كاتينا.

– اسمع عربى. الآن أبواب السماء مفتوحة للمظلومين. أنت مظلوم كتير عربى. أهلك لم يعلموك. تحبك النسوان العواجيز وأنت تحب أيضا

امرأة عجوز. إدعى إلى ربنا أنه يوقف هذه الحرب حتى يظل كل واحد فى مكانه في اسكندرية. إدعى عربى ربنا لازم يسمع منك. صدقنى عربى. أنا أعرف ربنا تماما برغم أنى عملت أشياء كثيرة غلط.

(٨)

على شاطىء ترعة المحمودية، على السطح وقرب الماء، داخل الكشك الصفيح، جلس «حبشى» و«بدرة» يحتسيان الشاى ويدخنان «الجوزة» . الأولاد والبنات ناموا بلا نظام متفرقين على الحصير حولهما. بعضهم تعرى جسده، وبعضهم انقلب على الآخر. لحم أبيض لحم اسمر ولحم بين بين. رائحة بخر ماء المحمودية لاتفارق المكان. رائحة بخر ماء مغلى رغم برودة الخريف. حبشى يدخن الجوزة باستغراق، ويفكر فى انه سيحتاج قريبا إلى توسيع هذا الكشك، لقد كثر الأولاد والبنات، ورائحة المعسل العنتبلى تنعشه. بدرة تقاسمه التدخين فى الجوزة وتخرج الدخان من منخاريها وفجأة ضحكت بلا سبب. كان هو قد أخذ يتأملها وقد تكومت مثل قطعة واحدة صغيرة من الثياب القديمة. يتعجب كيف كان له هو الطويل من دون الرجال أن يتزوج هذه المرأة القصيرة من دون النساء . هو ذو الوجه القوى المشرق والشعر الناعم الذى يطلقه خلفه تماما مثل طرزان وهى ذات الوجه الخشن البشرة الملىء بآثار حب شباب غزير والشعر الخشن الأكرت!. هو ذو العينين الواسعتين وهى ذات العينين الصغيرتين، الأصغر من عيون اليابانيين الذين يراهم فى أفلام الحروب.

لكنه يحبها ولا يقدر على فراقها. خمس سنوات وهى تعيش معه هنا على الشاطئ فى هذا الكشك وهو رجل بلا عمل ولا أهل ولا أقارب. هو ليس لقيطا، يذكر جيدا أباه وأمه. كانا يعيشان بالكشك نفسه حين كان أقل من ذلك مساحة بكثير. نشأ بينهما وبين الترعة والسفن العابرة واللصوص ومطاردات البوليس والمعدية التى يمارس فيها المعداوى الجنس مع نساء لايعرف من أين يأتى بهن بالليل بعد أن ينقطع مرور البشر. لاينسى كيف استيقظ وهو فى الخامسة عشرة من عمره ليجد أمه وأباه ميتين متعانقين. شىء لايحدث إلا فى الأفلام للعشاق. حبشى يهيم بأفلام طرزان، وقبل أن يسبح فى المحمودية يصرخ صرخة طرزان الطويلة رغم إنه لا غابة حوله ولا حيوانات.

انتشر خبر موت أبيه وأمه متعانقين بين عمال السكة الحديد على الشاطئ وعمال ورش الترام على الشاطئ الأخر وعابرى المعدية والجالسين بدكانتى أحمد العنيبسى والسيد خليل، وكذلك دكانة السيد الأعرج الذى لا يجلس عنده أحد. تحدثت الاسكندرية كلها عن هذا الموت العجيب. بكت نساء كثيرات، لايعرفهن حبشى ولا يعرفنه. امتلأت جنازة أبيه وأمه بخلق كثير. ولاينسى المقبرة التى دفنا فيها بين مقابر الصدقة فى مدافن عامود السوارى. هو إذن على يقين بانه ليس لقيطا رغم انه ان يسمع أباه كثيرا وهو يضرب أمه يعيرها بأنها عاقر، وكان يسمعها كثيرا تصرخ فيه بأنه ليس رجلا كالرجال!. ربما لذلك لم يبك ساعة موتهما. بعد أسبوع كامل، بالليل وهو يجلس على شاطئ المحمودية بكى بكاء له عويل، ونزل الترعة بجلبابه يسبح كالمجنون مرة ناحية الميناء ومرة ناحية كرموز ويفكر أن يظل سابحا حتى يدخل فى فرع النيل ثم

يستمر حتى يقطع البلاد كلها واصلا إلى أسوان ويتجاوزها إلى السودان يصارع التماسيح كما يفعل طرزان فى الأفلام. لكنه تعب وعاد مهدود الحيل إلى الكشك، نام ليصبح الصباح فيجد الدنيا قد تغيرت، وأن هناك حربا قد اشتعلت فيها وان الميناء صار باب المدينة الذى تأتى منه الدبابات والمدافع. لقد تحارب الانجليز والالمان. وها هى حرب جديدة، فيها الانجليز ومصر هذه المرة. يبدو أن الانجليز يحبون الحرب فى مصر حتى ولو مع المصريين!

- مالك ياحبشى؟
- لاشىء. تذكرت الحرب الماضية.
- فقط؟
- وماذا عندى لأتذكره يابدرة؟

سكتت . هى أيضا مثله لا أهل ولا أصحاب وهذا الذى يجعلها تبقى. أين تذهب ؟ خمس سنوات مضت على اليوم الذى رآها فيه أول مرة مع رجل كهل ينتظران وصول المعدية ليعبرا الى البر الثانى.

تكرر حضورهما كل يوم فى الموعد نفسه. فى يوم كانت المعدية متوقفة بسبب مرور عدد من «الصنادل» القادمة من الميناء. رأى التعب على وجه الرجل الضرير الذى تسحبه بدرة كل يوم. دعاه الى الجلوس فى الكشك ليستريح، خاصة أن مطرا خفيفا بدأ يهطل.

ما إن جلس الرجل داخل الكشك حتى قال «شكرا ياحبشى» يعرف اسمه. إنه يأتى كل يوم منذ عدة أيام ولابد انه سمع أحدا يناديه. انتهى عبور الصنادل وعادت المعدية للعمل. لم ينقطع الرجل الضرير وبدرة عن الحضور. في كل مرة يلقى التحية على حبشى، وإذا تعطلت المعدية

بعض الوقت، جلس وبدرة معه فى الكشك أو أمامه، حتى أتى يوما وبدرة معه كالعادة، لكنها كانت تحمل كيسا من القماش به طعام، وطلب الرجل من حبشى أن يشاركهم فى الغداء.

داخل الكشك أخرجت بدرة من الكيس دجاجتين مطهوتين وأرزاً معمراً وخبزا وبرتقالا. أكلوا وجلسوا يشربون الشاى الانجليزى الذى اختفى من البلاد منذ قامت الثورة ولاتجده إلا عند حبشى الذى يأخذه من نوتية السفن النيلية الذين يأخذونه بدورهم من بحارة السفن البحرية فى الميناء.

يتاجر حبشى سرا فى الشاى الأصلى، ويمسك بالعلبة منه ويقول فى نفسه هل يعرف الناس طول المسافة التى قطعها هذا الباكو البروك بوند ليصل إلى حبشى؟. تاجر البهار فلفل مطحون قال لى إن موطن هذا الشاى الهند وسيلان. كنت أعرف ذلك من أيام الحرب. كان الجنود الهنود كثيرين فى المدينة. تاجر البهار فلفل مطحون قال إن الذى اكتشف نبات الشاى نبى استغفر الله. نبى هندى كان يمشى فى الغابات ويأكل فلا ينام فعرف أن هذا النبات يساعد على السهر. وقال إن الانجليز حين عرفوا بذلك تركوا بلادهم الباردة وأخذوا سفنهم وجيوشهم واحتلوا بلاد الشاى . تصور يا محترم أن انجلترا احتلت الهند حتى يستيقظ الانجليز من نوم القيلولة فيجدوا شايا يشربونه . شاى العصارى يا محترم . دنيا كبيرة وكلها أسرار. هكذا قال تاجر البهار الذى يتكلم عن الفلفل هذه الأيام!.

- هذا شاى معتبر يا حبشى لم يعد موجودا فى البلاد.
- كل ماهو غير موجود موجود عندى يا والدى.

– هؤلاء الأولاد الذين يتحركون حولنا أولادك يا حبشى.

– طبعا.

– كلهم صبيان.

– ثلاثة صبيان وثلاث بنات. الولد الكبير والبنت الكبيرة ابنائى.

زام الرجل ولم يتكلم. أدرك حبشى انه أخطأ فى الكلام . لابد ان الرجل الآن يسأل نفسه عن الأربعة الآخرين ، ربما يسأل نفسه أيضا عن أم الولد والبنت.

– لكنهم صغار يا حبشى . واضح من حركتهم وأصواتهم.

– الولد خمس سنوات والبنت أربع والآخرون أربعة و ثلاثة لا أذكر بالضبط.

نام الرجل بعد الغداء قليلا. ترك حبشى الكشك وراحت بدرة تلعب مع الأولاد. أقبل المساء ولم ينصرف الرجل ولابدرة. طلب منهما حبشى أن يمضيا الليل عنده فوافق الرجل، ولم يندهش حبشى. قال فى نفسه كلانا يعرف الآخر. كما توقع حبشى بالضبط أصبح الصباح فوجد بدرة ولم يجد الرجل. كيف انصرف وحده وهو ضرير؟

سأل بدرة.

– أين أبوكِ؟

– لم يكن أبى.

– أين ذهب؟ من أين كان يأتى؟

– لا أعرف.

– طيب إلى أين كنت تمشين معه؟

سكتت.

– لقد كان ضريرا ...

– لم يكن كذلك.

سكت . طال سكوته.

– أين تذهبين إذن الآن؟

– لا أعرف.

سكت لمدة أطول.

– تودين البقاء معى؟

– أجل .

– لعلك تريدين أن تتزوجينى؟

– أجل.

قالت ذلك وهزت رأسها فى سعادة.

نظر حبشى إلى الدجاجة الثانية. قام وأخذ بدرة فى يده إلى مأنون كرموز الذى أيقظه فى الصباح الباكر. أخذ معه شاهدين من أمام سينما النيل حيث يعرفه باعة الحلوى ولاعبو الثلاث ورقات. صارت له زوجة جديدة ظل ينكحها طول الليل ويضحك مما تفعله به الأيام. لما استغربت ضحكاته سألته.

– لماذا تضحك هكذا طول الليل؟

قال.

– منذ خمس سنوات أتت هنا امرأة ضريرة ومعها فتاة جميلة كان اسمها مهجة. تركت لى مهجة واختفت. ولما سألتها قالت لى إن المرأة لم تكن ضريرة ولم تكن أمها.

ابتسمت بدرة.

- هى أم الولد والبنت؟
- بالضبط. لكنها للأسف اختفت بعد خمس سنوات من الزواج.
كما استيقظت من النوم فلم أجد أمها، استيقظت فلم أجدها.
نظرت إليه بألم . قالت.
- مسكين أنت يا حبشى.
قال.
- ممكن ألا تكون المرأة أمها، لكنها، مهجة، كانت أم الولد والبنت فكيف تتركهما؟ .
سلّطت عليه عينيها بشدة أدهشته. قالت.
- هل أنت تعرف كل شىء فى الدنيا؟
ظلت تنظر إليه فوجد أن معاودة النكاح أفضل. عودها على الاستحمام معه فى الترعة بالليل بعد أن ينقطع مرور البشر. لاينسى اليوم التالى للزواج كيف وقف فى الصباح الباكر ليرى شيئا أمامه أبيض، والبياض يمتد بين السماء والأرض. لقد سمع ذلك الصباح صوت الماء وهو يتنفس وتخيل أن الماء صار طبقات هواء ترتفع إلى السماء وأنه قد خلع ثيابه وصار يسبح بين السماء والأرض.
كانت بدرة ذلك الصباح نائمة مستغرقة فى الهناء. فكر أن يذهب إلى سوق سيدى كريِّم بغيط العنب أو الساعة بكرموز أو باب عمر باشا أو محطة مصر أو إلى أى سوق قريب تجتمع فيه النساء ليستأجر امرأة تأتى معه فتدخل على بدرة الكشك حاملة صينية عليها طيور مشوية وأرز معمر وبرتقال وموز وتفاح وتجلس جوار بدرة تسألها كيف مرت الليلة وتترك لها جنيها كاملا كما تفعل الأمهات فى صباحات الزواج مع

بناتهن. أدرك أنه لايملك فى جيبه غير خمسة قروش. لم ييتئس. أسرع إلى حلوانى جزر فى غيط العنب واشترى بها كلها هريسة وعاد قبل أن تستيقظ بدرة. لما استيقظت راحت تأكل الهريسة كالحالمة، كانت لا تزال بين اليقظة والنوم. كان الأطفال جميعا، الكبار والصغار، يلهون فى الماء. جميعا علمهم حبشى السباحة. لكنها لمحت شيئا ملفوفا فى خروق على الأرض. إنه طفل حديث الولادة. نظرت إلى حبشى فى دهشة. قال.

– وأنا عائد بالهريسة وجدته على الشاطىء.

– ....

– لقيط مسكين أحضرته معى. سأربيه مع إخوته وضحك.. هكذا صرت أما قبل أن تحملى! رزق من الله!.

سألته وهى لاتزال غائبة فى الدهشة..

– هل بقية الأولاد لقطاء؟

– بالضبط. أجدهم دائما على الشاطىء. إنها خطايا المدينة يا بدرة يقذفونها علينا.

– لماذا لاتتركهم فيأخذهم شخص آخر؟

– مادمت رأيتهم فهذا يعنى أن الله وضعهم فى طريقى. ثم من يضمن أن يراهم أحد. من يضمن لى ألا يموتوا؟

– طيب لماذا لا تأخذهم إلى قسم البوليس أو الملاجىء؟

– فى هذه الحالة سيموتون لامحالة.

سكتت. بعد قليل انصرفت إلى اللقيط. ها هو الآن فى الخامسة من عمره. هو النائم بعيدا فى الركن. وجد حبشى بعده اثنين آخرين، أبناؤهما الآن عشرة لأنها أنجبت بنتين!. ضحكت فسألها وهو يشد

نفسا من الجوزة.

- ماذا يضحكك الآن؟

ظلت تضحك وتقول.

- هل أنا ضحكت فعلا؟

- ماذا جرى يا امرأة. تستغفلينني؟

- لا والله ياطرزان.

كان لايحب منها ان تقول له ذلك بالليل بالذات لأنه كان يتذكر على الفور أنها تشبه القردة شيتا و هو يريد ان ينسى شكلها الذى لم يتعود عليه رغم مرور خمس سنوات. لكنها اقتربت منه ودفست نفسها فى صدره.

- دفينى يا حبشى.

مد ذراعه وأحاطها وراح يضغط عليها فى صدره ويقول.

- بدرة أكثر من مرة قلت لك الضحك من غير سبب قلة أدب.

لكنها عادت تضحك وتهتز فى صدره وهو بدوره استجاب لضحكها وراح يهتز معها. قالت.

- انت حاطط حشيش فى الجوزة يا حبشى؟

- هل تشمين رائحة حشيش؟

- لا.

- إذن أنا لم أضع حشيشا.

ضحكا معا واهتزا معا، هو بدوره فكر فى هذه الحالة من الانسجام هل سببها المعسل فقط؟ . قال:

- تكون شركة المعسل وضعت حشيشا للشعب؟

لكنها لم ترد . سكتت لحظات ، ابتعدت عنه قليلا وقالت:

– أنا محتارة فى الدنيا يا حبشى.

– نعم؟!

فوجىء بالكلام. لكنها استمرت.

– كل يوم بعد أن ينام الأولاد والبنات وتنام أنت بعد أن تقوم بعملك المجنون معى، وينقطع من الدنيا النفس، أسأل نفسى إحنا فين ومين اللى حاططنا هنا؟

أمسكها من كتفيها وراح يحملق فى وجهها وسط الضوء الهادىء للمبة الكيروسين نمرة (١٠) الموضوعة فى ركن بعيد.

– بدرة! جرى شىء لعقلك؟. ربنا هو اللى حاططنا هنا!

– أعرف لكن كان ممكن يحطنا فى مكان تانى.

لم يرد. سكت غير مصدق ما تقول.

– انت زعلت؟

– أزعل ليه. هل أنا ربنا؟! . ربنا هو اللى حيزعل منك.

سكتا طويلا بعد ذلك ،. كانت تفكر فى هذا الإحساس الذى باحت به الليلة وكيف يداهمها كل ليلة بعنف، وكيف يسرى إليها بالخوف بأن الليل لن ينتهى إلا ويحملها معه إلى الآخرة مع أول خيوط الصباح. كان حبشى قد أدرك كلامها فى رأسه وأعجبه ذكاؤها. هو أيضا كلما تقدم الليل وأطبق عليه الظلام من كل ناحية ووجد نفسه وحده جوار الترعة فكر أنه يمكن جدا ألا يطلع عليه نهار جديد، وان هذا الظلام الكثيف يمكن أن تعجز الدنيا عن زحزحته، بل يمكن لهذا الظلام أن يبلعه فى

جوفه ولا يتبقى منه أى أثر، لكنه لايعطى لعقله فرصته فى الاستمرار فى الأفكار، ذلك يفتح الطريق للجنون. هو يعرف سكة الأسئلة. هكذا علمته الوحدة وشذّاذ الآفاق الذين عبروا أمامه عبر السنين. وسمعا خروشة خارج الكشك وصوت شيء يسقط فى الماء.

- فأر.

قالت بدرة بهدوء ودخلت فى صدره من جديد. قال.

- غرق. مسكين. حاول أن يمسك فى الشاطىء وفشل. خدينى فى حضنك يا بدرة!

صار كل منهما فى حضن الآخر. لم تكن هذه أول مرة يسمعان خروشة الفئران ولا سقوطها غرقى. لقد تعودا على ذلك، وعلى الثعابين التى كثيرا ما تظهر على الشاطىء بالنهار وعلى القطط الضالة والكلاب وعلى جثث الحيوانات النافقة وهى تعبر فى سلام فوق الماء! وعلى القتلى المرسلين من الريف إلى الاسكندرية فى الأجولة مقطوعى الأطراف مشوهى الوجوه، وعلى نقيق الضفادع وصرير الجنادب وقفزات القراميط فوق الماء وهمسات الأسماك بالليل، ودوّت صفارات الانذار فارتعبت بدرة ودخلت فى صدره أكثر.

- أطفىء اللمبة يا حبشى.

- اتركيها. لا أظن انهم يضربوننا. ماذا فعلنا لهم؟

لكنها انتفضت وقفزت إلى اللمبة ونفخت فيها فانطفأت وعادت إليه دون أن تتعثر فى الأطفال. كان هو قد فتح الباب وخرج إلى الشاطىء فخرجت تقف جواره. قال.

- أيام هتلر حصلت غارات كثير على المحمودية عند كوبرى كرموز. كانت القنبلة تنزل هناك تهزنا هنا.

- أنت خائف يا حبشى؟

- أنا عمرى ما خفت لكن الانجليز أبالسة عارفين كل مكان فى مصر، وأنا تاريخى معهم لايسر. كنت أذهب إلى المنشية أيام الحرب أسرقهم . أخطف عصاه، برنيطة، كاب، لفة ورق أو شنطة مع واحد منهم وأجرى ولا يلحق بى أحد، وإذا قابلت بالليل واحد سكران آخذ كل ما فى جيبه حتى ساعة يده.

- ما هذا النور!

تساءلت بدرة فى فزع.

- لا تخافى. لا تخافى. صواريخ.

كانت الطائرات البريطانية والفرنسية قد ألقت فوق المدينة الشرائط الفوسفورية الملونة ، وكانت القذائف تطارد الطائرات من كل مكان على الشاطئين، من فوق المساكن وفوق ورش الترام وفوق مصانع الزيوت والصابون وفوق جبل كوم الشقافة. أتى إليهما صوت الأولاد الذين خرجوا من المساكن وتجمعوا على الشاطىء أمام الماكينة الحمراء يتابعون الطائرات ومطاردتها. أحس حبشى بالفخر وأحست هى بالاطمئنان وهى تسمع صوت الأولاد، كان أبناؤهم قد استيقظوا من أثر صوت المدافع وخرجوا يبحثون عنهما.

- تعالوا. تعالوا هنا تفرجوا على خيبة الانجليز.

كانت طائرة تحترق فى السماء وتهوى بعيدا مشتعلة وسط الظلام.

(٩)

- أنا فاكر فى الحرب أيام هتلر ان أبو الدرداء كان يوقف القنابل فى الجو. فى هذه الحرب أبو الدرداء زعلان.

قال عيد ذلك فنظر الأولاد إليه مندهشين. كروان وبَلَكْ ومصطفى وعبده وغيرهم من الذين تجمعوا خارج المساكن فى منتصف هذه الليلة يشاهدون مطاردات المدافع المضادة للطائرات المغيرة على المدينة.

اندهشوا من كلامه، خاصة أن عيد مثل معظمهم وُلد بعد الحرب العالمية الثانية أو على الأكثر بعد معركة العلمين. كانوا ما بين جالس على سلالم الماكينة الحمراء أو أمام الكوخين اللذين صنعهما بلك وكروان والصبية من أفرع الأشجار . لقد أشعلوا أخشابا بعد انتهاء الغارة والنار الآن تلتهب فى الظلام وتلقى بالنور على وجوه بعضهم.

قال مصطفى.

- أنت شفت الحرب أيام هتلر يا عيد؟

- طبعا وشفت ابو الدرداء وهو رافع يديه إلى السماء تحملان الطوربيد الذى ألقت به الطائرة لحجزه عن المدينة..

بعد ذلك دارالحديث عن تلك المعجزة التى حدثت حقا بالاسكندرية اثناء الحرب العالمية الثانية. كانت ليلة ألقت فيها الطائرات الألمانية قنابل كثيرة حتى ضج الناس فى كل مكان ورفعوا أيديهم إلى السماء طالبين العون من الله، وجاءت طائرة كبيرة ضخمة تئز أزيزا متواصلا ثقيلا عميقا وعريضا يملأ الفضاء ، كان واضحا انها ستهدم المدينة على من بقى فيها، ألقت طوربيدا ضخما ثقيلا بعد أن اقتربت كثيرا من الأرض فإذا بذراعين من ضوء يخرجان بسرعة من مسجد أبو الدرداء الصغير

ويرتفعان حتى يصلا إلى الطوربيد الهابط فيتلقيانه ويمنعانه من السقوط فوق المدينة.

توقف الطوربيد فى منتصف المسافة إلى الأرض، وظل ذراعا النور ينبعثان من المسجد. رآهما الناس الذين خرجوا من بيوتهم فتنادوا وهتفوا فى الظلام الله أكبر الله أكبر وجرى النبأ من «العمرى» إلى كرموز وكوم الشقافة من جهة، ومحطة مصر وباب عمر باشا وراغب من جهة أخرى، ومينا البصل والقبارى والمكس من جهة ثالثة والمنشية الصغيرة والميدان وشارع التتويج وبحرى والأنفوشى من جهة رابعة، هرع الناس من كل فج عميق ليروا هذه المعجزة الإلهية لأبى الدرداء، لم يهتموا بعودة الطائرات الألمانية و تزاحموا رجالا ونساء و شبابا وفتيات وشيوخا وأطفالا. كان النور المنبعث ذراعين من أبى الدرداء يضىء ظلام الليل ببهجة سحرية والطوربيد الأعمى الأسود ممدداً فوق ذراعى النور، لم ينقطع تهليل الناس وتكبيرهم الذى راح يزداد والضوء يتراجع شيئا فشيئا والطوربيد يقترب من الأرض وكلما اقترب من الأرض ازداد الهياج الله أكبر الله أكبر وصار الصوت من القوة حتى هز أركان الفضاء، جاءت فرق الإنقاذ تبعد الناس الذين لايريدون الابتعاد حتى نزل الطوربيد إلى الأرض بسلام فعلا الصياح والتهليل و التكبير وارتفعت الأصوات من مكبرات الصوت تطلب من الجماهير الابتعاد حتى لاينفجر الطوربيد، وأفسح الناس طريقا لرجال الانقاذ الذين تقدموا من الطوربيد الممدد على الأرض مثل حوت ميت ووصلوا إلى جهاز التفجير الخاص به ونزعوه فصار مثل الجثة لايخيف أحدا. رفعوه على إحدى العربات الكارو ومشوا به بعيدا والناس وراءهم يهتفون الله أكبر ويضحكون وبعضهم يتقدم ويضرب الطوربيد بيده أو يبصق عليه

والأطفال تهتف خلف العربة بكرة من ده بمليمين، ثم بدأوا يعودون إلى بيوتهم مطمئنين إلى أن حياتهم منذ هذه الليلة ستكون فى حمى أبى الدرداء الذى سيشاركه بالتأكيد القطب الاكبر أبو العباس المرسى وسيدى ياقوت وسيدى على تمراز وسيدى العدوى، فلن تسقط قنابل أبدا على بحرى أو الانفوشى أو منطقة الميناء، وكذلك سيشاركه سيدى العجمى وسيدى القبارى فلن تسقط القنابل غربا، أما شرقا فسيتكفل سيدى جابر وسيدى بشر بالدفاع عن المدينة ضد الأعداء.

دوّت صافرة الانذار مرة ثانية. بسرعة أهالوا التراب فوق النار. سمعوا صوت أزيز الطائرات يقترب من المدينة قادما من ناحية الغرب. انطفأت الأنوار على الشاطىء الآخر. ازداد اقتراب ازيز الطائرات فامتلأت السماء بالجحيم الصادر من المدافع المضادة من كل مكان فى الاسكندرية وسمعوا صوت انفجار قوى.

- فشنك.

هتف مصطفى ضاحكا ثم أضاف.

- هناك فى الملاحة سقطت القنبلة.

ودوى صوت انفجار آخر. هذه المرة وسط المدينة. لكنهم بعيدون فلن يسمعوا صوت عربات الإنقاذ أو الإسعاف ، والوقت الآن بعد منتصف الليل. قال مصطفى.

- ولد يا عيد . أنت فيك شىء لله. قل يا رب الطيارات تقع.

سكت عيد لحظات وأشار إلى السماء.

- هذه الطياره ستقع .

كانت أضواء خافتة متقلبة تظهر فى السماء، هى أضواء الطائرات التى لم تلق بشرائط الفوسفور الليلة. ومضت الطائرة ومضة كبيرة واشتعلت فيها النار. إنها تقع بعيداً أمام أعينهم.

هتف الولد بلك.

– الولد عيد فيه شىء لله بصحيح.

ضحك عيد وضرب كفا بكف وقال..

– وهذه أيضا ستقع..

ما هى إلا لحظة وانفجرت الطائرة البعيدة أمامهم فى الظلام السحيق..

هتف عيد وهو يضحك.

– أبو الدرداء لم يعد زعلان.

أحاطه الأولاد.

– هيا يا عيد قل إنها ستقع، قل عن الطيارات إنها ستقع ياعيد.

لكن عيد ظل واقفا سعيدا غير مصدق، كانت الطائرات قد ابتعدت عن المدينة، توقف صوت المدافع المضادة فقال عيد.

– أنا عائد إلى البيت، الطائرات لن تعود.

تركهم ومشى لا يلتفت كأنما كان عليه مهمة وأنجزها. عاد الأولاد لإشعال النيران فى الحطب. انصرف مصطفى وعبده عائدين إلى بيتيهما معتبرين ما يفعله الأولاد شيئا لا يليق إلا بالأطفال. كان كروان ويلك قد قررا منذ أيام أن يديرا حربا كالتى تحدث فى البلاد. أخذا عددا من الصبية إلى «المرعى» وقطعوا عددا كافيا من أغصان أشجار الكافور والخروع والجوافة والتوت والكازورين والسدر تكفى لبناء كوخين على الشاطىء. الدخول إلى المرعى، أو الحديقة الصغيرة المهملة وسط فضاء السكة الحديدية، يحتاج لعبور البوابة التى تفصل المساكن عن السكة الحديد، وهذا سهل، والعودة كذلك سهلة فلن يمنعهما الشرطى الجالس بالبوابة لا فى الذهاب ولا فى الإياب. ثم إن هذه الحديقة المهملة يذهب

إليها كل صباح قطيع الماعز الذى يربيه أهاليهم ويمضى القطيع يومه هناك حتى المساء فى أمان ولا يعود إلا مع أصحابه العائدين من العمل. أخذوا طريقهم منذ أيام ومعهم عدد من الأولاد وسط قضبان السكة الحديدية، فوقهم فضاء رائق وحولهم ضوء أبيض غامر باهر عجيب شفاف يرون بعضهم من خلاله !. أما السماء فكانت شديدة الزرقة لا سحب تحتها كأننا لسنا فى الخريف ونقترب من الشتاء. فى المرعى، أو منطقة الأشجار الشيطانية الكثيفة، راحوا يقطعون الأغصان التى أسقط عنها الخريف أوراقها كالتوت والجوافة والتى تصمد طوال العام كالكافور والكازورين. قال بلك وهو يرى قطيع الماعز يرعى ويأكل من كلأ الأرض ويقترب من أوراق الأغصان القريبة ليأكلها.

– كيف يأمن أهالينا ويتركون الماعز هكذا وحدها، أكثر من مائة ماعز وجدى.

لكن أحداً لم يرد. انشغلوا بجمع الأغصان وربطها فى حزم صغيرة بالدوبار.

فور عودتهم إلى الشاطىء راح بلك وكروان يعلمان الصبية كيف يقيمون الكوخ كما شاهدوا فى السينما فى أفلام طرزان.

قبل الظهيرة كانوا قد أتموا إقامة كوخين صغيرين . قسموا الاولاد فريقين. فريق الإنجليز وفريق المصريين، استقل كل فريق بكوخ. «ملك أم كتابة» ألقى كروان بقرش الصاغ، فظهرت الكتابة وهذا يعنى انه سيكون قائدا لفريق المصريين، أما بلك الذى اطلقوا عليه هذا اللقب لسواد لونه فسيكون قائدا للإنجليز!

إنهم لايقصدون الكلمة الانجليزية «بلاك» بل الزفت الذى يستخدم فى سفلتة الأرض والذى يطلقون عليه كلمة بَلَكْ. والتى لا تعنى غير الكلمة

الانجليزية بلاك! وقال بلك؟

- الانجليزى لازم يكون أبيض.

قال كروان.

- أجرينا قرعة وانتهى الأمر.

كانت الأسلحة التى أعدوها هى الحجارة والمقاليع والإبر ذات الريش، تلك التى رأوها فى الأفلام تنطلق من قطع البوص الصغيرة بعد أن ينفخ فيها الزنجى من ناحية فتصيب هدفها وتقتله فى الحال، ليس لقوتها، لكن لأنها مسمومة. إنهم من عشاق أفلام طرزان و «نايوكا» ومغامرات الأدغال. أعجبهم انطلاق الإبر فى الأفلام من أعالى الأشجار وبين الآكام على الأعداء. لكن المكان هنا مفتوح فكان على حامل البوصة أن يخفيها بسرعة. لقد جربوا سلاحهم علي الخيل والحمير والبغال التى تمر جارة عربات الكارو قادمة من كفر عشرى إلى كرموز . يقترب الواحد من الحيوان ثم ينفخ فيه الابرة فيرتعش الحيوان للحظة ثم ينهق أو يصهل والعربجى المسكين يتوقف بعد أن يضربه كثيرا بالكرباج، ثم يأخذ فى مسح جسده بيده بهدوء فيصطدم بالابرة ذات الريشة فى الخلف فيتلفت حوله فى غيظ فلا يجد أحدا.

لم تكن البغال تهتز أو تصدر صوتا من أى نوع. كان تمشى فى طريقها والإبرة مغروزة فى جلدها.

كيف سيطعمون الجنود من الصبية والأطفال. قال كروان:

- يأتون بطعامهم من بيوتهم.

قال بلك.

- هذا لايكوًن جيشا. الحكومة تطعم الجيش ونحن الحكومة الآن.

بدا الأمر صعبا . كيف سيطعمون عشرين طفلا. قال كروان:

– نشترى من عند العنيبسى شكك!

– سيعرف أهلك وأهلى آخر الشهر، إنهم يشترون فى حدود معلومة لا يزيدون عليها.

وقفا حائرين حتى لمعت عينا بلك السوداوان . قال..

– عندى فكرة بمائة جنيه، نذهب نشترى ما نريد للجنود من عم أحمد العنيبسى فى الوقت الذى لا يكون فيه بالدكان ابنه أنور، سيعطينا دفتر الشكك الذى فيه صفحة لكل شخص . نكتب ما نشترى فى صفحة عم أبو الحسن.

– أبو الحسن . لماذا؟

قال كروان مندهشا فقال بلك.

– لأنه يشترى كل يوم زجاجة سينالكو بقرش صاغ وقطعة «معمولة» بقرش تعريفة فقط. هكذا سمعت أبى يقول.

– لكن هذا حرام يا بلك.

– هل يموت الجنود من الجوع يا كروان؟

– طيب وإذا طالت الحرب.

– يكون أبو الحسن حظه سيئا.

– ياللا بينا!

قالا ذلك وهما يضحكان، يقلدان أنور وجدى حين يكون مقبلا على عمل من أعمال الشهامة. اشتريا جبنا وحلاوة طحينية وخبزا وقطع حلوى وأقراص طعمية ووزعوها على الجنود الصغار.

عند العصر بدأت المعركة. جرى الإنجليز أمام المصريين الذين حملوا عليهم بالحجارة الكثيفة. كان الانجليز قد بدأوا من قبل بهجوم قوى بالحجارة أيضا. انتهت المعركة بعد نصف ساعة لا أكثر حين اكتشفوا أن الإصابات لم تترك منهم أحدا. لقد تشابكوا أيضا بالأيدى حين لحق

المصريون بالإنجليز الذين كانوا قد فروا أمامهم، كل ذلك والناس فى دكانة العنيبسى وجوارها يتفرجون ولا يتدخلون. أصيبوا إصابات متنوعة فى الوجوه والرؤوس والأذرع والسيقان وجلسوا معا على شاطئ الترعة غير مصدقين ما فعلوه إذ رأى كل منهم الاصابات فى وجوه الآخرين فانطلقوا ضاحكين. وقال بلك.

– الحرب صعبة بحق.

قال كروان.

– هذه بالحجارة، ماذا لو كانت بالمدافع؟

قال بلك.

– الانجليز نزلوا بور سعيد بالمظلات.

– أعرف.

– ما رأيك أن نعلم الجنود الهبوط بالمظلات؟

تأمله كروان مندهشا واستمر بلك يتحدث.

– أنا أعرف كيف تصنع المظلة. لقد صنعت واحدة وقفزت بها اليوم فى الصباح.

ودخل الكوخ وأخرج شنطة زوزو الورقية وأخرج منها ملاءة سرير موصلاً بها دوبار كثير من أطرافها وأماكن على محيطها ومتصلة نهاياته كلها فى عقدة كبيرة.

– هذه هى المظلة، يمسك الواحد فى الدوبار ويقفز، أو يربطه فى وسطه فترتفع الملاءة فوقه ويملأها الهواء وينزل بسلام.

تأمله كروان غيرمصدق وسأله.

– أنت قفزت بالمظلة؟

– أجل، من فوق السطح. فى الصباح حيث يوجد هواء.

سكت كروان الذى تشكك فى الأمر كله بعض الوقت ثم سأل.

– من الذى نزل بالمظلات فى بور سعيد؟

- الإنجليز والفرنسيون.

- إذن لماذا تريد من جنودى المصريين الهبوط بالمظلات؟

وافق بلك ان ينزل جنوده فى اليوم الأول، ويزيد من عددهم ويقلل من عدد المصريين الذين سيقاومونهم. كان الموعد هو صباح الغد. أحضر الأطفال، سرقوا فى الحقيقة، ملاءات سرير من بيوتهم، وامضوا الليل مع بلك يصنعون المظلات، كان أهاليهم قد تعودوا على غيابهم فى الخارج منذ بدأت الحرب، فهم يسمعون صراخهم ولهوهم فى أى وقت يصل إليهم من النوافذ المطلة على المحمودية . فى الصباح الباكر، قبل أن يبدأ الرجال فى الخروج الى العمل دافعين الماعز أمامهم كان الأولاد، الإنجليز، يقفون فوق السطح المطل على شارع القنال يتوسطهم بلك وقد أمسكوا بالملاءات، بينما وقف كروان وسط العدد القليل من جنود المصريين في أيديهم العصي والأحجار. هوب واحد اثنين ثلاثة وصرخ بلك صرخة الموت وقفز الأطفال معه رافعين المظلات التى لم تنفتح ولم يملأها الهواء. لحظة وكانوا جميعا قد ارتطموا بالأرض. سلط عليهم المصريون الأحجار والإبر ثم انهالوا عليهم ضربا بالعصي. صرخات بلك والأطفال كانت عالية وحقيقية فتوقف كروان وجيشه ونظروا إلى زملائهم ليشاهدوا الألم الفظيع على وجوههم العرق الذى يتفصد من بشرتهم، وبعضهم الذي فقد الوعي. وصل صراخهم إلى النوافذ فخرج الأهل في فزع ليروا أبناءهم ممددين على الأرض مهشمين كسرت أقدامهم جميعا، وبلغت الإصابة أشدها في بلك واثنين آخرين حيث أصيبوا بكسر في الحوض، كان بلك ينظر إلى كروان نظرة مليئة بالغيظ والاتهام بالغدر والخيانة بينما أدرك كروان أن الحرب ليست لعبة أبداً ولن تكون ..

(١٠)

وقف تاجر البهار «فلفل مطحون» يخطب فى الجالسين على جانب السلالم المؤدية الى القبو قائلا:

- أنا حفيد أكبر تجار الكارم في التاريخ، الحاج عمر بن محمد بن سليمان نجم الدين القاضى الدمامينى، من دمامين بالصعيد، الذى توفى عام ٧٠٧ هجرية، أى منذ سبعة قرون تقريبا. وكانت له قيسارية، يعنى وكالة يا اخوانى تشغل نصف شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا ، وكانت مليئة بالعنبر والعصفر والبهار ولها ستة أبواب أربعة منها ناحية الجهات الأربع واثنان منها مفتوحان على السماء ، كان له بالاسكندرية فنادق الدمامينى فى مواجهة الميناء ينزل بها الجنويون من جنوا، والبيزيون من بيزا والفلورنسيون من فلورنسا، والفرنسيون من مارسيليا، والقبارصة من قبرص والاتراك والشوام و المغاربة يتفقون معه على حصصهم من الكارم التى ستحملها السفن إلى كل الدنيا. هذا تاريخ أجدادى منذ الدولة الفاطمية وانتم تجهلونه يا أخوان وأحب لكم أن تعرفوه قبل أن يأتى اليوم الذى تندمون فيه على ذلك!

كان محمود القزعة ينظر بدهشة ممزوجة بالإعجاب إلى هذا الذى يتحدث جادا فى أمر هزل!، فى الوقت الذى يلعن فى سره الحرب التى قللت من حضور النساء إلى حلقه السمك بالملاحة خاصة فى اللحظات الأخيرة للنهار، تلك التى كان فيها ضوء الشمس الواهن يسقط وهو ينسحب على ربلات سيقان النساء من الخلف فتتألق برقة وتهمس بالأسرار. كان سليمان قد تأكد من أن چين بانكروفت قد غادرت البلاد. كل الصحف تحدثت عن طرد رعايا الدولة البريطانية والفرنسية، لكنه لم

يستيقن حتى ذهب بنفسه الي بولكلى، ورأى القصر الجميل مغلقة بوابة حديقته بسلسلة سميكة من الحديد وقفل ضخم وأمامه اكثر من جندى حراسة شاكى السلاح . عاد حزينا، لم يشعر حتى بصوت أمواج البحر الهائجة وهو يمشى على الكورنيش فاتحا صدره لعل الهواء البارد الذى فى الدنيا يثلج روحه التى تكاد تنفجر بين الحين والحين كان يفطن لأصوات الموسيقى التى تنبعث من خلف أبواب الملاهى الليلية لكنه لايتوقف.

يشير إليه رجل ضخم أن يدخل ، وأحيانا امرأة، لكنه لا يكلف نفسه حتى بالابتسام ويظل ماضيا فى طريقه وعلى مهل حتى وصل إلى المنشية. مشى مسافة طويلة حقا ذلك اليوم. من المنشية قرر أن يركب الترام إلى كرموز، نهاية الترام أمام المعدية مباشرة ولن يحتاج الأمر إلا إلى عبور المعدية ليصل فى ثوان بعد ذلك الى البيت. لكنه مشي قليلا فى ميدان المنشية . النوافذ مغلقة، يبدو أنها لم تفتح منذ أيام، غبار كثير على النوافذ، يبدو أن أحدا لم يعد يعتنى بها، حتى نوافذ البورصة العالية مغلقة، والمحلات فى الأدوار الأرضية مغلقة فى معظمها، وعليها أقفال ضخمه تشى بأن أصحابها لن يفتحوها فى القريب العاجل، وعلى الأرصفة ليس ثمة صيارفة، واحد أو اثنان قرب قهوة اسكندرية، منزويين فى الممر كأنهما لا يريدان أن يراهما أحد ربما لاننا ندخل فى المساء. هنا الاسكندرية يا سليمان. ميدان المنشية هو الاسكندرية. أنشأه محمد على باشا، وبدأت فيه قنصليات الدول فى الظهور وقامت حوله العمارات البانخة، المسرفة في الحليات والكرانيش والزخرفة، وسكنها الصفوة من التجار ورجال الأعمال، فى اوائل هذا القرن انشأت القنصلية الفرنسية الحديقة الفرنسية تفتح الميدان على البحر، حمل

الميدان اسم محمد على باشا، مؤسسه، والذى وضع فيه الخديوى اسماعيل تمثاله الذى صممه المعمارى الفرنسى آمبرواز بودرى بين عامى ١٨٧١ - ١٨٧٣ وتكلف مليونين من الفرنكات بحساب ذلك الزمان. قيل إن حكومة الثورة كادت تصهره لتصنع منه نقودا معدنية بسبب الأزمة الكبيرة فى العملات الصغيرة التى واجهتها العام الماضى، لكن الحكومة كانت أكثر تعقلا، تركته مكانه، لم تصهره، وإن رفعت تمثال اسماعيل باشا الذى كان يطل على البحر أمام الحديقة الفرنسية ولا يعرف أحد إلى أين ذهبوا به. لايمكن ان يكونوا قد صهروه أبدا. ربما فعلوا ذلك حقا، مسكين اسماعيل باشا، جنت عليه النقود فى حياته وجنت على تمثاله بعد ذلك. لكن يظل هذا أمرا بعيد الاحتمال . لقد احتاج وضع تمثال محمد على فى ميدانه إلي فتوى من الإمام محمد عبده . كانت هذه أول مرة يوضع فيها تمثال فى مدينة عربية. كان جريئا ذلك الشيخ. المنشية الكابية الآن التى يكاد يصرخ فيها الهواء هى التى شهدت صعود عائلات البورجوازية الاجنبية اليونانية واليهودية والايطالية وغيرها من الملل والأنيان. كل شيء كان يبدأ من المنشية وفيها ينتهى يا إسكندرية. منشّة. سورسول، كرم، ساويرس، رولو، نوبار، امبروزو، سلفاجو، بيناكى، بسترودس، روسيتى، إيفيرينو.

الايطاليون تركوا أثرهم فى العمارة.. ثراء ما قبل عصر النهضة فى الواجهات شديدة الزخرفة، والأوكالات okale، العمارات الراسخة الكبيرة التى يشغل فيها كل طابق أسرة واحدة.

تاريخ المنشية هو تاريخ الاسكندرية يا سليمان. انظر إلى أين انتهت. هجرها صفوة التجارة والرأسمالية الأوربية مرة من قبل إلى الرمل ومحرم بك، والآن لا أحد يعرف إلى أين يذهبون. أصاب المنشية

طائر النحس منذ أطلقت فيها النيران على جمال عبد الناصر، لم يفلح تأميمه للقناة من فوق شرفة البورصة فى أن تستمر حيويتها.لم يعد أحد فيما يبدو يحبها من الأجانب. وربما من المصريين أيضا، فلم تعد البلدية تعتنى بنظافتها، وليست الحرب أبدا سببا كافيا لذلك.

أين هى المنشية التى مشى فيها، حتى أيام قليلة فقط، مع چين، يتحدثان أحيانا بالانجليزية، وأحيانا بالفرنسية وتغلبه جين في معرفة اللغات فكانت تتحدث نيابة عنه بالايطالية واليونانية وكل ذلك فى ثلاث ساعات هى التي يقابلها فيها. كثيرا ما كان يسأل نفسه لماذا حقا تختفى اللغة العربية، ولايستطيع أن يستخدمها إلا مع الشحاذين والمتسولين والأطفال الحفاة العراة جامعى أعقاب السجائر، إنهم كثيرون بدرجة مدهشة حتى ليخيل إليك انهم تركوا الاسكندرية كلها وتركزوا هنا فى الميدان الجميل. أحيانا يشعر بالضيق ثم يقول لنفسه إن چين تعرف ذلك عن المصريين وأكثر فلماذا يتضايق ، ثم يقول لنفسه من المؤكد ان الثراء الذى يرفل فيه أولئك الأجانب هو سبب الفقر الذى يغرق فيه هؤلاء المصريون ويشعر بالضيق من چين ذاتها، لكنها تبتسم أمامه فينسى كل شىء وتأخذه إلى شريف باشا وهو مسحوب الروح معها، مسحور، كأنما ندهته النداهة، فتدخل محل «أولد إنجلاند» الكبير الفخم فيشعر كما لو كان فى فيلم سينمائي. خيال كل ما حوله خيال، بشر مضيئون والمكان يكاد يرقص من الإضاءة ولغات أجنبية فى كل ركن وباعة يتقنون كل لغات الأرض. هذا المحل يذكرني بمحلات بيكاديللى فى لندن. تقول چين. لم يذهب إلى لندن ولم ير بيكاديللى. تدور على الأقمشة الجميلة، التويد والڤيلا، يقابلها الموظفون بحفاوة، لاتشترى فى الغالب، تطوف على أقسام الروائح وأدوات المطبخ، شوك وسكاكين من شيفلد

وأواني ودجود وهو مأخوذ ومطيع ، تخرج فيخرج خلفها ويظل يمشى فى الشارع المسحور، لاميزون دى كادو، لاميزون فرانسيه، ويكاد يغمى عليه فى إيتام للملابس الداخلية والجوارب، وينكس رأسه وهى تشعر به وتراه، ايچيبشيان!، وتبتسم ويستمر معها فى التجوال فيرى محلات هو روڤيتش وزيف فرير وجراند مجازين وشالون وأوريكو حتى يصل إلى صيدناوى على ناحية سيدى المتولى فيشعر أنه اقترب من دنياه، وانه كان غارقا فى دنيا فرنسية وانجليزية من المجوهرات والبارڤان والثياب والأثاث والحلوى وتعود به إلى هانو في نهاية شارع توفيق فى المنشية الصغيرة فيتناولان الحلويات ولاتنسى في النهاية أن تدخل قليلا فى فيكتوريا ستيشنرى آند بوكس ستور لكن أسعار الكتب غالية، لقد تعود على الاستعارة من المكتبة المدرسية، أو شراء الكتب القديمة من مكتبات مثل الاستنارة واخوان الصفا بالعطارين ومحطة مصر، تشترى هى عادة مجلة لايف الامريكية ومجلة الموضة الفرنسية چاردان دى مود، وطوال الطريق دائما يطاردهما الشحاذون الأطفال الذين يقل عددهم مع دخول الليل، يركب معها الترام حتى بولكلى، أحيانا يعود، وأحيانا تدعوه للدخول، يمشى مأخوذا فى حديقة القصر ذى الشرفات اليونانية، الابيض وسط الخضرة والزهور، بالحديقة ملعب للتنس أجبرته يوما أن يلعب معها فيه ولم يشأ أبدا أن يخلع ثيابه ويرتدى اليونيفورم الذى قدمته إليه .. أحواض صبار من أنواع غريبة ملونة ومصابيح زيتية على أعمدة يونانية ورومانية قصيرة والأشجار داخل السور القرميدى الأحمر عالية وقصيرة بونسيانا وارفة الظل ذات زهور حمراء وأشجار استوائية تتجه جذورها الخارجة من الأغصان إلى الأرض وأحواض من البانسيه والبنفسج والبتونيا والجلوكسينيا واليسم المنتشر على الأرض بين النخيل

بألوانه، الأبيض ، والمائل إلى البنفسجى. هو لايعرف أسماء النباتات. لايعرف إلا الورد البلدي والفل والريحان والتمرحنة والياسمين، وكل هذا موجود وأسماء أخرى. يكتشف قدرة چين المذهلة على حفظها والتحدث فى خصائصها، رغم انها مدرسة لغة انجليزية صغيرة لم تتجاوز الثانية والعشرين من عمرها فى الكلية الانجليزية للبنات حيث بنات الجاليات الأجنبية. قالت له مرة ان فى المدرسة حمام سباحة فلم يصدق ، وطلبت منه أن يزورها، لكنه كان قد اكتفى باللقاءات الباهرة التي جعلت الأشهر الثلاثة التى مضت حلما. فوق الجسر شاهدها مع رجل متوسط العمر عرف فيما بعد انه والدها الذى يعمل فى القنصلية البريطانية، وصبى مصرى يتجهون إلى فلوكة صغيرة مربوطة فى الجسر. رآهما ينزلان من عربة چيب يقودها سائق زنجى تعود بعد ذلك وتتركهما.

كانا في ملابس الصيف، على رأسها قبعة كبيرة وكذلك كان والدها الذى يحمل مثلها على ظهره مخلاة كاكى بها ما يحتاجه الصيادون من مؤن وعلى كتف كليهما بندقية صيد طويلة. ستقلهما الفلوكة إلى جزيرة كبيرة وسط البحيرة حيث يتجمع الصيادون ينتظرون مرور أسراب البط فى وسط الهيش والبوص الذى يملأ أرض الجزيرة.

كان الوقت مبكرا، نسمة منعشة تهب على الجسر من مياه البحيرة التى تتحرك فى كسل، كان هو واقفا يمد شصه إلى الماء فأحس كما لو أن شخصا ينظر إليه. التفت ليجدها تتأمله باسمة.. ابتسامتها وشعرها الأصفر و عيناها الخضراوان ووجهها الصغير دقيق الملامح وأهدابها الطويلة، وسط هذا الفضاء من البياض والزرقة المائية شىء لم يستطع نسيانه ابدا. هل تصطاد جيدا؟ سألته : فقال على الفور أجل بصوت عال. حظ سعيد قالت وقفزت إلى الفلوكة خلف أبيها وراح الولد الصياد

يدفع الفلوكة بالزانة التى كانت أطول وأثقل منه.

لم يبرح سليمان المكان فى الظهيرة كما تعوَّد. لقد التفتت تنظر إليه وتبتسم فى اللحظة التى علقت فيها بالشص سمكة ملونة. رأى ابتسامتها تملأ الفضاء وارتبك وهو يحاول الإمساك بالسمكة وضحكت هى ضحكة صغيرة لم يسمعها، لكنه رأى تيارا من البهجة يسرى فى الكون حوله. لقد جلس حتى آخر النهار، لا ليصطاد، ولكن ليراها عند العودة.

لم تعد ذلك اليوم. أخذت فى العودة طريقا آخر، يؤدى إلى محرم بك. هكذا قال له الولد الصغير العائد وحده فى المساء. سليمان لا يخرج للصيد كثيرا، عرف أنها تأتى أيام الآحاد. فى الأحد التالى ذهب مبكرا. أتت وألقت عليه تحية الصباح. تجرأ وسألها هل ستعود من المكان نفسه. اندهشت وابتسمت وأجابت بالإيجاب. عادت مع والدها مبكرة ذلك اليوم. وجد أنه من الشهامة ان يقف يمسك بيد الأب وهو يقفز الى الشاطىء ثم بيدها. كان الولد يحمل مخلاة مليئة بالبط المذبوح. سألته. هل اصطدت جيدا. رفع «المشكاك» المغروس فى المياه، تلك الإبرة الطويلة ،المسلة، المتصل بها دوبارة طولها يزيد على المتر، والتى يدخلها فى خيشوم الاسماك ثم يتركها فى الماء حتى لاتفسد بعد أن يغرس المسلة فى الطين تحت الماء. أوه ووندر فول . قالت. وسألته ما إذا كان يحب أن يأخذ بطة مما اصطادوه اليوم فقال لا. قد لا يناسب الطريقة الاسلامية، البط يهبط فاقد الحياة. تأملته مندهشة، بدا انها تتذكر شيئا نسيته. قالت أيام سورى، وات إذيورنيم. سليمان ، سيلمان عبد الباسط. ثانك يو سليمان، ماى نيم إذ چين. چين بانكروفت . قال مبتسما بانكروفت اسم غريب يصلح ماركة لسيارة. ضحكت وأقبل أبوها يشارك

فى الحديث. كان سليمان يتحدث على استحياء خجلا من أبيها وهى تتحدث بجرأة . تأخرت العربة الچيب التى ستقلهما فكانت هناك فرصة أن تسأله عن عمله، أدهشها انه طالب توجيهية يدرس العلوم ويقرأ الأدب العالمى بنهم. حدثها كثيراً عن توماس هاردى وروايته الجميلة تس سليلة الدر برڤيل. سألته هل يقرأ بالانجليزية قال نعم لكن هذه الرواية بالذات قراها بالعربية . اندهشت من كون الرواية مترجمة للعربية فحدثها عن المترجم فخرى أبو السعود، الشاعر السكندرى الذى انتحر فى حديقة بيته بعد أن ماتت زوجته الانجليزية وابنه فى انجلترا تحت غارات الالمان . كان اندهاش والدها أكبر. قال فى النهاية إن العالم صغير. حدثهما سليمان عن عمه الذى كان مشروع روائى كبير، لكنه أخفق، وسافر إلى أواسط أفريقيا. لماذا أواسط أفريقيا؟ قال ان المصريين أقاموا هناك امبراطورية عند منابع النيل ولقد ذهب يبحث عن آثار هذه الأمبراطورية ليكتب رواية غير عادية. سألته هل كتب الرواية. قال إنه لم يعد ولقد مر على ذلك أكثر من عشر سنوات. قال لها إنه أيضا صار يهوى كتابة القصص، لكنه لا يتعجل النشر ولا الشهرة مثل عمه.

صارا يلتقيان بعد ذلك فى كافيتريات محطة الرمل، «على كيفك» أو حديقة تريانون الصغير بشارع سعد زغلول. إنها تحب هذين المكانين أكثر من غيرهما. قالت له إنها يمكن أن تساعده كثيرا فى السفر إلى انجلترا بعد حصوله على التوجيهية والالتحاق بإحدى جامعاتها، فلوالدها نفوذ كبير فى الخارجية، وهناك منح لايعرفها الكثيرون تعطى لأشخاص من الدول الأفريقية والآسيوية للدراسة فى انجلترا. هؤلاء هم الذين ينهضون ببلادهم بعد ذلك.. لم يكن هو يفكر فى النهوض بالبلاد فذلك شىء أكبر من طاقته. فقط يريد دراسة الأدب الانجليزى والأدب

العالمى. قامت الحرب وأظلمت الاسكندرية التى لم تظلم من زمان. منذ طاردت قوات الحلفاء قوات روميل فى الصحراء بعد معركة العلمين. كان انتصار الفيلد مارشال مونتو جمرى ذلك الوقت سبب عودة النور الى الاسكندرية. أضيئت بعد ثلاث سنوات من الظلام . الآن القوات البريطانية ذاتها تتسبب فى إظلام المدينة، ومعها القوات الفرنسية التى فتحت الاسكندرية ذراعيها لفيالق الأحرار منها حين استسلمت حكومة فيشى للالمان فى الحرب الماضية. أصدقاء الأمس أعداء اليوم. السياسة لا تعرف الصداقة ، لقد وجد شعب الاسكندرية أمامه قضايا كبيرة لم تخطر بباله من قبل. مساعدات مصر العسكرية لثوار الجزائر، مصر تعقد صفقة أسلحة مع المعسكر الشيوعى، البنك الدولى يمتنع عن تمويل مشروع السد العالى، عبد الناصر يؤمم شركة قنال السويس من شرفة البورصة هنا في الإسكندرية. عبد الناصر يخطب من هنا كل عام فى السادس والعشرين من يوليو، العيد القومى للاسكندرية، واليوم الذى غادرها فيه الملك فاروق. تفجيرات فى سينمات الاسكندرية يقوم بها جواسيس إسرائيليون. التوتر بين مصر والدول المنتفعة بالقنال. الحرب. أعمال المقاومة لم تنته من بور سعيد رغم وقف إطلاق النار. سيأتى يوما محمود الفلاح ويخبرنا، وربما يصنع فيلما، يقول تاجر البهار للجالسين.

يتحدثون عن أمجاد كتيبة المشاة التى كانت مسؤولة عن ستر انسحاب القوات العسكرية من العريش ورفح وكيف ظلت فى مواقعها تؤدى واجبها حتى تم الانسحاب ، ثم نجح أفرادها فى العودة مشيا على الاقدام، مسافة لاتقل عن مائة وخمسين كيلو مترا يحملون أسلحتهم الخفيفة بعد أن دمروا خلفهم كل الاسلحة الثقيلة. ولا تخلو الدنيا من

عجب، ففى كرموز، فى شهر نوفمبر هذا تزوجت سيدة فى الثامنة عشرة من عمرها من رجلين فى وقت واحد. تركت البيت بعد زواجها من الأول لعدة أيام وتزوجت بآخر ولما سألها الضابط قالت لم أكن أعرف أن ذلك ممنوع أو حرام، لم يعجبنى زوجى الأول، يشتمنى ويضربنى ، هو حضرتك لما تشترى شىء ويطلع وحش مش بترجعه وتشترى غيره؟. أنا عملت كده...

ونزلت أفلام جديدة فى السينمات، القلب له أحكام لفاتن حمامه، المتمرد لچيمس دين للكبار فقط ودخل البوليس الدولى إلى بور سعيد، وتنحى ايدن عن الوزارة مؤقتا لاحتياجه إلى راحة نفسية وعصبية ليتولى الوزارة خلال ذلك زعيم الأغلبية بمجلس العموم وبدأ انسحاب القوات الاسرائيلية والإنجليزية والفرنسية، وعرضت سينما مترو بالاسكندرية فيلم أمهر الرماة لجلين فورد وخصص الموسيقار فريد الأطرش إيراد فيلمه الجديد مع شادية «ودعت حبك» لأسر شهداء بور سعيد فتقاطر الناس فى زحام منقطع النظير على الفيلم بسينما ريتس بالاسكندرية وديانا بالقاهرة وتبارت المحلات فى الاوكازيونات الشتوية مبكرا فوصل سعر البالطو الفرو الفاخر ٧٥٠ قرشا وقميص النوم الفاخر ٨٥ قرشا والسوتيان الساتان ١١ قرشا والكيلوت ٧ قروش والكيلوت الانترلوك ٩ قروش وشراب الموسيلين ١٥ قرشا وشراب النايلون ٤٥ قرشا أما الجوارب الفيليه الاميركى فيتراوح سعرها ما بين ٨٥، ٥٥ قرشا بمحلات القاضى وحسين، وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد فى المدينة هذا العام بلغ ألفاً وخمسمائة مولود بينهم خمسون من الأجانب، وأن تعداد المدينة بلغ اربعمائة وخمسين ألفا من المصريين وخمسة وستين ألف أجنبى يحتل اليونانيون فيهم المرتبة الأولى ثم اليهود

فالايطاليون وجاليات صغيرة من الأرمن والقبارصة والشوام ودول أوربية أخرى، وأن أحدا لم يغادر المدينة عن طريق البحر بسبب توقف الملاحة فلم تسجل ادارة الموانى أى رحلة بحرية منذ العدوان وغاب الديب فى رحلة طويلة وعاد فى يوم جمعة. كانت المدارس قد عادت إلى الدراسة، واحتفلت بعيد النصر فى الثالث والعشرين من ديسمبر، وامتلأت الاسكندرية بالزينات، ولم يعد محمود الملاح ولارشاد من الحرب بعد، لكن الديب عاد من رحلته ليناديه الجالسون حول الماكينة الحمراء. يجلس هذه المرة مع الأولاد خير الدين ونسيم وسليمان، خير الدين كثيرا ما يأتى مبكرا ليجلس منفردا ينتظر صعود الچونى على السطح ليغمض عينيه ويزداد حبه للدنيا وفرحه بها. يحبها خير الدين الچونى في صمت . أفسحوا للديب مكانا بينهم، قال وهو يجلس .

- دائما تصطادوننى قبل أن أدخل البيت.

قال سليمان ضاحكا.

- نحن نحس بك يا ديب ولو فى أبعد جحر!

ضحكوا . فى الحقيقة هم يحبون الديب، رغم انه أكبر منهم وفى عمر آبائهم، إلا أنهم يشعرون به واحدا منهم. سأله مصطفى.

- إيه يا ديب القطار رجع أم لا.؟

- أى قطار؟

- الذى خرج عن الكرة الأرضية . هل نسيت؟

- آه. هذا قطار قديم انتهت أخباره من الدنيا.

ضحكوا وصفق بعضهم بيديه. قال.

- هذه المرة كنت فى مهمة غير عادية. هذه المرة لم يخرج القطار عن

القضيب إنما انحرف فقط عن الطريق. كان القطار عائدا من الصعيد محملا بالقصب ، عند مدينة دمنهور أخطأ موظف البلوك وفتح له طريقا آخر لايصل إلى الاسكندرية . ظل القطار يمشي ثلاثة أيام في أرض خلاء لاطير فيها ولازرع ولا إنس ولاجن. كنت نائما فوق القطار، نزلت عليّ حالة من الرضا و السعادة أنستني الدنيا، كنت مثل السكران فلم أنتبه إلى ما يجرى، إذا جعت نزل إليّ اكل من السماء، أي والله، واذا عطشت مصمصت أعواد القصب. لكني بعد ثلاثة أيام انتبهت فزحفت فوق العربات حتى وصلت إلى «العفريته» ونزلت من السقف إلى السائق والعطشجي الذي كان أسود في لون الفحم. كان يضع الفحم في النار بجنون حتى لا يتوقف القطار. سألتهما هل تعرفان نهاية لهذا الطريق؟ قالا لا.

اذن لماذا لاتتوقفون ؟. لا نستطيع . القطار لايتوقف . قلت للعطشجي هل أنت حمار؟ توقف عن تغذية القطار بالفحم يتوقف القطار. بعد ساعة توقف القطار في خلاء من الأرض البور. نزلنا نحن الثلاثة في خوف ننظر حولنا نترقب مصيبة تنزل علينا وحدثت المصيبة. انشقت الأرض وخرج منها رجال كثيرون طوال ضخام يتقدمون ناحيتنا في بطء من كل جانب كأنهم يحملون صخورا على ظهورهم. اقتربوا فرأينا الحقيقة. كل رجل هو إثنان، رجل و امرأة التصقت بظهره..

انطلقوا يضحكون بشراسة. صوت خير الدين أجش خشن رغم نحافته. قال ساخرا.

– أنت كنت تحشش فوق القطار ياديب، ها ها ها.

تأملة الديب في طيبة ثم قال.

– السينما لحست عقلك يا خير الدين. يا ابني الحياة فيها عجائب أكتر من السينما.

قال نسيم برزانة مصطنعة ..

- اسكت يا خير الدين، دعنا نسمع القصة العجيبة المؤلمة للديب.

رحلات الديب، مثل رحلات جاليفر. ديبز ترافيلز.

كانت رحلات جاليفر هى القصة المقررة على طلبة التوجيهية مثل نسيم وسليمان، وكانت معروفة أيضا لطلبة التجارة مثل خير الدين . قال الديب.

- تقاطعوننى دائما ولا تعطوننى فرصة. أنتم لاتفهمون. موقف مثل هذا يحتاج إلى صبر. هناك عبرة وعظة يريدها الله من هذه المخلوقات التى وضعها فى محافظة البحيرة بالذات - ضحكوا بشدة - اسمعنى يا سليمان، انت دائما مشغول بتلميع حذاءيك. فلسفة أو تلميع احذية. لاتؤاخذنى يعنى. أنت المفروض مثقف وتفهمنى.

كانوا لايزالون يضحكون إلا أنهم سكتوا و قال سليمان.

- عندك حق يا ديب. استمر فى القصة.

- القصة! لقد انتهت . رجال فى ظهورهم تلتحق نساء فلا يستطيع الرجال ان يروهن ولا النساء يستطعن ذلك أيضا .

قال نسيم ساخرا.

- كان حقك فصلتهم عن بعض يا ديب.

عادوا الى الضحك وهو يتأملهم صامتا ثم قال بهدوء.

- حاولت . فشلت. جلسوا يبكون وجلست أنا والسائق والعطشجى نبكى معهم.

هتف خير الدين.

- كيف يجلسون فى هذا الوضع يا ديب؟

قال الديب.

- سيأتى اليوم الذى تقعون فيه فى هذه البلاد وتتذكروننى. لقد هربنا حين شعرنا بأن شيئا ثقيلا يحاول الخروج من ظهر كل منا، أنا والسائق والعطشجى، جرينا بأقصى سرعة وتركنا القطار.

- هذا ثانى قطار يا ديب تتركه يضيع.

- وثالث ورابع. كلها أخطاء عمل. الحمد لله أننا هربنا قبل أن تنبت لنا نساء فى ظهرنا، الواحد غير قادر على امرأة واحدة يراها أمامه فى البيت فهل سيقدر على امرأة لا يراها أبداً؟

توالت ضحكاتهم، وما إن اختفى الديب حتى ظهر مجنون الغناء قادما من بعيد فهتف مصطفى الله يكون فى عون ثورة يوليو. سمعه الديب فالتفت وهتف «الله يكون فى عون ربنا على الشعب الذى يضم أمثالكم من المتعلمين الفالصو!» لكن أسرع الأولاد إلى مجنون الغناء المسكين الذى تلبسه الرعب، وشوهد تاكسى يقف أمام المساكن فتأملوه بدهشة، نزل منه لطفى السائح على عكازين وقد وضع إحدى ساقيه فى الجبس. كتموا ضحكاتهم.

سمعوا صوت تاجر البهار يهتف فى محمود القزعة فاقتربوا، نسيم وخير الدين وسليمان.

- كان حقك تشكرنى يا معلم محمود.

- أشكرك ! أجل. لكن المشكلة انه لاينام منذ أمس يا رجل.

- وهل هذا يضايقك؟. انا عملت لك وصفة لا توجد إلا فى جبال الهيمالايا.

- لكن أنا غير قادر على الحركة. أنا خملان يا رجل.

- خلاص. أعمل لك وصفة تانية ينام فيها طوال العمر.
- الله يخرب بيت امك. من أى مكان أتيت إلينا يا فلفل يا مطحون؟
- أنا جئت من السماء، من الانس والجن، أنا ستعرفون قيمتى يوما.

أهلى تجار الكارم الكبار فى الشرق دار عليهم الزمن لكن تاريخهم محفوظ، علموا أوربا معنى العطور فامتلأت صدور النساء برائحة البلسم. كانت الفرسان تمشى فى العصور الوسطى تشم رائحة البلسم فتقف تحت شرفات البيوت، يلقون إلى النساء بالورد وتلقى النساء إليهم بزجاجات البلسم الصغيرة. كم من حصن منيع لامرأة فتحته زجاجة بلسم أخذها الفارس من امرأة أخرى كانت أخذتها من فارس آخر كان قد اشتراها من چنوا أو بيزا أومارسيليا أو نابولى أو اسطنبول وكلها اشترتها من الاسكندرية، من قيسارية الدمامينى في شارع فرنسا قبل أن يكون هناك شارع فرنسا، أو حتى فرنسا الحرة نفسها..

....

القسم الثانى ...

(١)

انتهت الحرب. امتلأت البلاد بالزينات لخروج الإنجليز و الفرنسيين من بور سعيد وإتمام انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء

انتهت الحرب ولم يعد محمود الملاح ، لكنه لم يمت، يرسل خطابات لأهله يقول إنه سيتأخر تسريحه من الجيش قليلا لأمر غير مفهوم. لم يعد كامل خطيب مشيرة. لم يمت ولم يعثر عليه حيا. قيل إنه فى قوائم المفقودين.

انتهت الحرب ولم يعد رشاد. لم يمت ولم يفقد. أصيب برصاصة طاشت من سلاح زميل له فوق ظهر المدمرة البحرية. هو الآن يرقد فى المستشفى العسكرى لذلك سيتأخر زواجه من فاطمة كثيرا .

انتهت الحرب وانشغلت الاسكندرية بالخروج الجماعى للجالية الانجليزية والجالية الفرنسية واليهود.

لم يكن رحيل الفرنسيين يعنى أحدا فى مساكن السكة الحديد وأيضا ولا رحيل الانجليز، لكنه سليمان وحده قد أيقن أنه لاسبيل إلى عودة چين بانكروفت. حتى لو تحسنت السياسة، وهى غالبا تتحسن بين الدول بعد فترة، فسيكون والد چين يخدم فى موقع آخر فى بلد آخر، وستكون چين نفسها قد تغيرت حياتها. سافرت چين بلا رجعة وعليه أن يتأقلم مع ذلك. العالم الذى صار شبه فارغ حوله لابد أن يملأه شىء. قرر أن يكتب رواية كبيرة عن الاسكندرية هو الذى كان يتردد فى ذلك كثيرا.

انتهت الحرب وامتلأت الاسكندرية بالقصص التى تنفجر فى فضائها كل يوم عن الفزع الذى أصاب اليهود، وخروجهم المتسارع، رغم أن الدولة لم تطرد إلا من رأت تورطه فى نشاط معادٍ لها.

حمل الهواء إشاعات عن نية الحكومة فى مصادرة أملاك اليهود، وأن المعتقلات ستفتح لهم جزاء ما ارتكبته إسرائيل.

لم يقل أحد إنهم مصريون لهم هنا مئات السنين. حدث الخروج شبه الجماعى الأكثر كثافة مما حدث حين اقتربت القوات النازية من الاسكندرية أثناء الحرب العالمية الثانية. تلك المرة خرج أثرياء اليهود. الآن يخرج الجميع، كل حسب قدرته على إنهاء أعماله. تاريخ طويل من العيش بسلام فى مدينة تتنفس التسامح مع الهواء، وهاهو قد تبخر فى أيام ، كأنما لم يتاجر اليهود مع بقية الشعب مسلمين ومسيحيين، وكأنما لم يعمل المسلمون والمسيحيون فى متاجرهم، ولم يصاحبوهم سهراتهم فى النادى الاسرائيلى أو يترددوا للعلاج فى المستشفى الاسرائيلى، كأنما لم يتسكع الشباب أمام مدارس البنات اليهوديات ، وكأنما لم يعرف الكثير منهم طعم الهوى لأول مرة على أيدى هاته الفتيات المتحررات.

تحولت المدينة عن اليهود، بدأ ذلك بسيطا مع التفجيرات التى قامت بها عناصر يهودية تابعة للموساد الإسرائيلى قبل الحرب، وازداد مع اشتراك اسرائيل فى العدوان على مصر. اتسعت مساحة الشك فى اليهود بعد أن كانت نوعا من الفولكلور لايتجاوز حدود النكتة. رغم ذلك لم يصل الأمر أبدا إلى اعتبار يهود الاسكندرية من رعايا دولة إسرائيل!. لكنه الهلع الذى استبد باليهود. صار أكثر اليهود تفاؤلا يؤمن بأنه إذا لم يخرج اليوم سيخرج غدا وإذا لم يخرج هذا الأسبوع سيخرج الأسبوع القادم. لم يفكر أحدهم أبدا فى العام!. لم ينتظروا مرور العام.

انكمش عدد الصيارفة فى المنشية قليلا، تدهورت أسعار الأسهم فى البورصة من جراء البيع السريع لها من قبل أصحابها اليهود، أغلقت جميع محلات «الرهن» التى لم يكن يديرها غير اليهود، حتى إذا أدارها مسلم مثل «أحمد حسن» صاحب محل الرهونات فى كرموز كان يتكلم كاليهود من أنفه ويمشى ببطء فى الدكان منحنيا مع إنه ليس عجوزا ويتطلع بريبة إلى القادم ليرهن ما يملكه.. يدعى فى البداية أنه لاحاجة له بما يحمله الزبون ، ثم بعد أن يتأكد من ارتباكه يقدم له أقل مبلغ فيوافق. يمشي الزبون يشتم فى أحمد حسن اليهودى وهو فى الحقيقة مسلم!.

ظهرت علامات ثراء فاحش على مصريين كانوا يعملون عند اليهود. الخواجة شالوم ترك كل ثروته فى الاسكندرية للسائق الخاص به، خميس الصايع الشهير بمحطة مصر الذى يعمل حمالا بالمحطة بالنهار وبالليل قاطع طريق صار صاحب مقهى كان فى الأصل باراً لسمعان اليهودى، مرسى القهوجى صار صاحب وكالة ملابس قديمة فى العطارين لأنه كان يقدم أحسن شيشة لأصلان اليهودى صاحب الوكالة الذى سافر مع عائلته إلى كندا . بشر حمزة الجزمجى الذى أسس مصنعا للأحذية الشعبية مساهمة مع خمسة من كبار التجار اليهود وجد نفسه فجأة المالك الوحيد لأسهم المصنع كلها وللمصنع بعد أن غادر التجار الخمسة البلاد على عجل إلى إيطاليا ليفتتحا هناك مصنعا لدباغة الجلود. وكذلك الشبان الثلاثة من بحرى الذين سافروا مع البنات اليهوديات الجميلات الثلاث من عائلة ليقى التى سافرت كاملة إلى توليدو بأسبانيا.. ترددت أسماء دول كثيرة، الأرجنتين. البرازيل ، جنوب

أفريقيا، الحبشة، المغرب، أميركا، كندا..

اندهش الناس من هؤلاء اليهود الذين عاشوا مئات السنين فى الاسكندرية يخرجون إلى كل هذه الدول ببساطة كانما هناك من ينتظرهم ويعرفهم. قالوا إنها قوة المال. واستراحوا لأن اسم إسرائيل لم يتردد كثيرا. وإذا كان ممكنا للبعض من الذين خرجوا أن يجعل اليونان أو إيطاليا أو المغرب محطة فى الطريق إلى إسرائيل ، فالأغلبية سافرت إلى أميركا شمالا وجنوباً، وجنوب افريقيا، ولايظن أحد أن هذه البلاد يمكن أن تكون محطات فى الطريق إلى اسرائيل.. لكن لم يكن السكندريون أو بعضهم هم الذين استفادوا فقط من خروج اليهود، فلقد اشتري عدد كبير من اليونانيين و الإيطاليين محلات وورشاً من اليهود، بل لعلهم اشتروا أكثر مما اشترى السكندريون.. لقد ساعدوهم على تهريب أموالهم خاصة تجار القطن من اليونانيين الذين كانوا يضعون أموال اليهود داخل بالات القطن المصدرة خارج البلاد. لقد حول أغنياء اليهود أموالهم إلى عملات ورقية فئة المائة جنيه تم تهريبها بسهولة داخل هذه البالات إلى أوروبا، كذلك حدث تهريب كبير للعملات الأجنبية داخل علب الشاى المعبأ فى مصر والمصدر إلى المغرب العربى. الحكومة كانت تعرف ذلك وتتركه يتم لتسهل لليهود طريق الخروج وكل هذا يعرفه الناس ويتحدثون فيه..

رحيل اليهود كان يعني العربي . يذكره دائما بالخمسين جنيهاً التى تركتها له راشيل .

قالت له كاتينا اليوم .

- لو كنت عربي تزوجت راشيل كان زمانك غني !

لم يكن العربي قد أخذ الخمسين جنيهاً بعد. تركها فى مكانها

فاحتفظت له بها كاتينا وقالت «تستطيع أن تأخذها فى اليوم الذى تقرر فيه ذلك». عادت تقول.

- راشيل كانت غنية.

تأملها العربى مبتسما ثم قال ببساطة.

- لم أحبها كاتينا.

قالت.

- كان ممكن يكون أقصر زواج فى العالم. أسبوع أو اثنين بعدها تغادر راشيل البلاد.

ظل مبتسما وقال.

- كان ممكن جدا ألا تغادر راشيل البلاد بعد الزواج. كيف أعيش معها وهى عمرها خمسون سنة؟

سكتت كاتينا لحظة ثم قالت..

- أنت مجنون عربى. أنا سبق قلت لك ذلك . تترك واحدة غنية عندها خمسين سنة، وتحب واحدة فقيرة عندها خمسين سنة. الغنية كانت تحبك والفقيرة تعتبرك أخوها. أليس كذلك عربى؟ - كان قد فتح عينه بشدة على معنى الأخوة الغريب هذا واستمرت هى - أنت إذن مجنون. تماما مثل ياناكيس زوجى.. ياناكيس عربى كان شيوعى . كان ..

واندفع العربى قائلا.

- خلاص كاتينا أنا أعرف كل شىء عن ياناكيس وأحبه مثلك تماما، الله يرحم ياناكيس كاتينا.

اتسعت عيناها تتأمله بدهشة بالغة ثم ابتسمت ومشت من أمامه داخلة حجرتها لتعود ومعها بالطو أسود ثقيل قدمته إليه.

- بالطو ياناكيس عربى. ممكن تقبله هدية. مركون فى الدولاب لأكثر

من عشر سنين ..

ارتاح قلب العربى لكاتينا كما يرتاح دائما حين تبدو ضعيفة أمامه. وضع البالطو على كتفيه وسأل نفسه ماذا يمكن أن يفعل الآن؟ هذه المرأة تربكه جدا. ليس عشيقا لها، ولاتوافق على الزواج منه، وهو يعرف أنها تطفىء غلتها الجنسية مع شباب يونانيين كثيرا ما يأتون الاتيليه آخر اليوم. يراهم ، بل يفتح لهم الباب قبل أن يغادر المكان. كلهم أقارب لها كما تقول دائما. رغم ذلك فلقد تركت نفسها له فى بعض الليالى، خاصة ليالى الغارات فى الحرب الأخيرة. لكنه حين حاول ان يفعل ذلك بعد الحرب، منعته وبدا كأنها لم تفعل ذلك معه من قبل. اليوم تعطيه بالطو ياناكيس الشيوعى فهل ستتركه يقوم بدور ياناكيس الزوج؟ لايظن. يجب أن يفهم طبيعة هذه المرأة. ما فائدة أن يفهم؟. لن يتغير شيء. فليظل قانعا كما هو راضيا كما هو! من أين اكتسب كل هذه القناعة وكل هذا الرضا؟ من والده عامل السكة الحديد الغلبان الذي يتكلم مرة واحدة في الشهر حين يأتي براتبه يضعه بين يدي زوجته، ام العربي، من أمه هذه التى تظل تتلفت بعينيها في البيت طول النهار بحثا عن شئ لا تعرفه، من أخته حسنة الجميلة فارعة الطول الصابرة على العنوسة، من حسنة حقا رغم أنها الأصغر سنا !!

نظر إلى المرآة فرأى نفسه داخل البالطو مثل رجال العصابات الأميركية ، المخبرين السريين أيضا. خلفه كانت كاتينا تقف تنعكس صورة وجهها من فوق كتفه. لقطة بديعة في المرآه لو رآها محمود الملاح لقال انها تصلح إعلانا لأحد الأفلام. منحه البالطو شعورا بالفخر والاعتزاز. هذا هو الوقت الذى ينفق فيه الخمسين جنيها. إنه ملك ولا أقل ، حتى رغم أن البالطو لشيوعى ميت، والنقود ليهودية ضائعة.

تطلع إلى كاتينا وابتسم ثم قال..

– أفضل شيء أفعله بالبالطو الآن هو أن أخرج أتمشى على الكورنيش.

تساءلت :

– الليلة؟

أجاب وهو يشير إلى البالطو.

– إنها ليلة مناسبة جدا لاستعماله ، مطر ونوةٌ. إنها نوة «عَوَّة» آخر نوة كاتينا، الريح تعوى كالذئاب.

قالت ضاحكة.

– تعرف عربى ، كأس كونياك وبالطو، ممكن بعدها تمشى فوق جبال الألب.

– فى اليونان؟

– فى إيطاليا عربى.

– أنا أريد أن أمشى فى جبال اليونان ولو عريان.

ضحكت كاتينا ببهجة طفلة ثم قبلته على فمه. دقائق بعد ذلك وكان العربى قد غادر شارع الكنيسة الانجيليكية الصامت يقفز قفزات صغيرة قاطعا شارع الشيخ على الليثى المغلقة محلاته على الانتيكات الفخمة داخل شارع العطارين فخرجت عليه رائحة شواء الطيور من ميدان السوريين الذى تصعد منه بالنهار عادة رائحة كل ما هو قديم من أثاث وبطاطين وعدد وأجهزة لا يعرف من يشتريها لكنه سرعان ما قطع شارع العطارين الذى أغلقت محلاته مبكراً بسبب المطر ودخل فى شارع المحطة لتصعد إليه رائحة فلافل محل البغدادى الشهير، لما صار قريبا من المحل على الرصيف صعدت إليه حرارة القلى ذاتها، ورأى داخل

المحل عددا قليلا من الرجال يأكلون فى صمت مهيب، «عيونهم زائغة وأفواههم تتحرك على مهل ويبدون لايدركون أنهم بعد قليل سيضطرون للرحيل من هنا». بسرعة عبر شارع فؤاد ليدخل شارع شريف المغلقة محلاته أيضا ليصل بعد قليل أمام البورصة فى المنشية.

الميدان الواسع لايزال كما هو، يتوسطه محمد على باشا فوق فرسه، لكن إحساس العربى بالمكان يبدو كما لو كان يراه لأول مرة . محلاته مغلقة ، والأضواء من خلف نوافذ العمارات قليلة. لاصرافون للعملات ولا بورصة بالليل. الجالسون «بمقهى الإسكندرية» لانوا بالداخل ولم يجلسوا فى الممر المحصور بين العمارتين. أضواء الميدان صارت أقل. ربما. وربما لم يعد أحد يعتنى بواجهات العمارات فلم تعد تعكس الأضواء بالقدرة القديمة. لم تكف مياه الأمطار لغسلها. لعلها مياه الأمطار جعلتها ندية رطبة لا تعكس الأضواء. الأضواء قليلة على أى حال. لكن التمثال لايزال يبدو قويا تحت المطر الخفيف الساقط تظهر خيوطه فى الضوء . صوت البحر يقطع المسافة بطول الحديقة الفرنسية ويصل إليه. صوت الريح عارم. ورق كثير يطير فى الطرقات وعلى الأرصفة يخشخش فى الأرض.

لكن البرد لاينفذ إليه. بالطو ياناكيس ثقيل ودافىء. عربة بنز يجرها حصان أسود قوى تأتى مسرعة من خلفه وفوقها شاب على رأسه طربوش لايعرف كيف ثبته وسط هذا الجو ومع هذه السرعة، الشاب يلهب الحصان بالكرباج فيقطع الحصان الميدان فى ثانية داخلا شارع فرنسا الصامت وصوت ضربات أقدام الحصان تظل تتردد فى الميدان الفارغ. لكنه لم يأخذ طريقه إلى الكورنيش. أخذته قدماه إلى شارع المغاربة. ساكن مصمت فارغ، مغلقة محلاته أيضا، لاصوت فيه. انعطف

إلى زنقة الستات. واجهات المحلات الخشبية الملونة وقليل من المصابيح أمام المحلات الصغيرة وهو يمشى بحرية . كيف حقا يتحمل هذا الزقاق زحام النساء بالنهار؟. كيف يبدو الآن وكأنه لا أحد يمشى فى الاسكندرية غيره هو. لكن لماذا يسرع عابرا الميدان ، وإلى أين يذهب. روائح الجبنة والزيتون تصعد إليه من نهاية الميدان بعد «الحقانية» . محلات البقالة المغلقة تنفذ من جدرانها هذه الروائح، مختلطة برائحة الرنجة والأسماك المدخنة. إنها الروائح التى بعد أن اغلقت المحلات ظلت راكدة فى الفضاء أمامها.

يكاد ينزلق على الأرض الزلقة وهو يتقدم مسرعا دون هدف، يبطىء فروائح أخرى تهل عليه، روائح مكتومة لجدران مهملة، بيوت مهملة، وقمامة بدأت تظهر على الجانبين. أضواء خافتة مخنوقة تطل من بيوت لاتزيد على ثلاثة طوابق، قديمة، متساندة، وأرضية مبلطة ببلاط عريض من البازلت ركنت المياه بينه ولم يكنسه أحد فصار زلقا، إنه يمشى على رصيف ضيق لا يزيد على نصف متر. لكن الحارة تقريبا مظلمة والأبواب كلها تقريبا مغلقة عليها اقفال فوقها شحم مما يعنى انها ستغلق كثيرا. على الأقل عاماً كما يفعلون مع أبواب الكبائن على البلاج. قطط وكلاب نائمة فى الأركان . حوائط كالحة. كل هذا حدث فى عدة أشهر. كيف كان اليهود يعيشون هنا؟ لابد أنهم كانوا يعتنون بحارتهم. لقد دخل حارة اليهود إذن وهو لايدرى، لايقصد. لكن محلا مضيئا على يمينه الآن.. علبة سجائر هوليود من فضلك. ناوله العلبة وأخذ الفلوس فى صمت. لايبدو يهوديا. بالحارة عدد قليل من المسلمين والمسيحيين يعدون على الأصابع. لعلهم لم يهجروها أيضا. النوافذ معظمها مفتوحة الشيش مغلقة الزجاج، مما يعنى انه لا أحد فى الداخل، وأن اصحابها

تركوها على عجل أو فى إهمال. الزجاج كله مطلى بالأزرق. لم يفكر أحد فى إزالة اللون بعد الحرب. لعله ظل كذلك منذ الحرب العالمية الأخيرة. لكنه يشم رائحة شواء عند نهاية الحارة. إنه محل تقديم السمان والعصافير الشهير الذى يملكه الخواجة ايزاك. لطالما سمع عنه ولم يأكل فيه. الآن سيأكل. جائع من البرد، ومعه خمسون جنيها. لكن الرجل الذى فى المحل يحمل وجها مصريا. ليس بالمحل غير متر واحد للجلوس.

– هل لايزال يأتى السمان؟

– آخر الأفواج. السمان الذى تخلف فى الطريق، أو بعض ما يحتفظ به الصيادون.

كان يأكل وهو واقف وجهه على الحائط وأمامه على رخامة طويلة مثبتة فى الحائط عرضها لايزيد على ثلاثين سنتيمترا وضع طبق السمان وطبق الطحينة وطبق السلطة والمخلل والخبز.

– سمعت انه يأتى من الصحراء، من مرسى مطروح.

ابتسم الرجل الذى كان يشوى عددا آخر من السمان ولاينظر ناحية العربى، قال الرجل.

– أكثر السمان يتم صيده فى مرسى مطروح، وفى العريش أيضا، لكنه فى الحقيقة يأتى من بلاد بعيدة.

وسكت قليلا ثم قال وهو يضع واحدة أخرى أمام العربى .

– إنه يأتى من أوربا. من البرد باحثا عن الدفء.

قال العربى.

– لكن هنا برد أيضا.

– هناك جليد يا أستاذ..

كان صوت أسنان العربى وهو يأكل السمان، لحمه بعظمه بدهنه، واضحا أكثر مما ينبغى وسط هذا الصمت . هز العربى رأسه وقال:

مسكين هذا السمان يسافر كل هذه المسافات وفى النهاية يأكله العربى!.

قال الرجل.

- من هو العربى . هل تعرفه؟

قال.

- أنا العربى.

- آه. ظننتك تتحدث عن شخص آخر اسمه العربى كان هنا يعمل فى المحل وسافر مع الخواجة ايزاك.

ترك العربى الأكل وتأمل الرجل الذى فى حوالى الخمسين، أحمر الوجه بشكل غير عادى من أثر النار. سأله العربى.

- هل أنت قديم هنا!

- أكثر من ربع قرن.

- تعرف واحدة اسمها راشيل.

سأله العربى مترددا فقال الرجل.

- أى راشيل؟ راشيل ليفى، راشيل ايزاك، ولا راشيل شمعون. راشيل التى سافرت إيطاليا أم التى سافرت إلى البرازيل أم التى لايعرف أحد أين سافرت؟

قال العربى.

- راشيل البرازيل.

- هذه سافرت مع أخيها حاييم وأبيها الخواجة إيزاك صاحب هذا المحل الذى تأكل الآن فيه. راشيل كانت تسكن هنا فى الدور الذى فوق رأسك.

اندهش العربى من المصادفة وتساءل الرجل.

- هل كنت تعرفها؟

- كنت سأتزوجها.

تأمله بدهشة. لابد أنه يقارن بين عمريهما. قال بعد تردد:

– ليتك فعلت ذلك. ؛كان معها فلوس تشترى اسكندرية . أخوها حاييم كان تاجر دخان كبير فى العطارين. كان يسافر تركيا يحضر الدخان بنفسه – وسكت قليلا – والله الواحد زعلان . الشارع كله تقريبا سافر خارج مصر. إرادة ربنا.

وسكت قليلا ثم عاد للحديث.

– هذا البيت كله صار خاليا، حتى القبطى الوحيد الذى كان يسكن فيه وجد نفسه وحيدا مع أسرته فترك البيت وراح سكن فى غربال. قبط كثير فى غربال كما تعرف.

أشار إليه العربى أن يضع أمامه سمَّانة رابعة ففعل.

– ألا يوجد بيرة أو نبيذ؟

تساءل العربى. فقال الرجل.

– لا. أنا منعت هذه المشروبات . لدينا بيبسى كولا وسباتس.

سكت العربى . لم يطلب شيئا . قال الرجل.

– لقد سمعت أيضا أن الطلاينة قد يتركون الاسكندرية.

– لماذا؟

– السياسة الجديدة، هذا الذى يسمونه التمصير. الدولة تشترى أسهم كثير من الشركات والبنوك الأجنبية. تعرف لو مشوا الطلاينة أزعل جدا، أنا ابنى تزوج من راقصة باليه إيطالية تعمل فى كازينو الشاطبى.

قال العربى فى نفسه «إذن سترحل أسمهان عاجلا أو آجلا» وتساءل.

– هذه كلها إشاعات وإلا كان اليونانيون أيضا يرحلون، انهم أكثر

من الطلاينة هنا ويملكون شركات كثيرة.

– لو ترك اليونانيون الاسكندرية تخرب يا أستاذ. نصف التجارة فى أيديهم . ثم. ثم. إنهم هم الذين بنوا المدينة. الله الاسكندر كان رجلا يونانيا.. الحق حق..

عقَّب العربى لنفسه «ونصف حياتى عندهم».

سكتا. طلب العربى زجاجة سباتس وراح يشرب فيها على مهل مقلبا كلام الرجل فى ذهنه. عاد الرجل للحديث.

– أنا اشتريت البيت من الخواجة ايزاك بخمسين جنيها. أى والله.

ايزاك كان بخيلا . قلت له جالك اليوم يا إيزاك أشوف الدموع فى عينيك. قلت لنفسى أزيده خمسة جنيهات لكنه رفض. قال إن عنده فلوس كتير. العجيب أن رغم فلوسه الكثير أخذ الخمسين جنيها يا أستاذ.. لكن هل معقول كان يبكى لأنه سيترك مصر؟

– جائز.

– حقاً كل شىء جائز. ايزاك مولود هنا وأهله مدفونين هنا وأنا اشتغلت عنده ربع قرن لم أزعل منه، لكن لماذا لم يبق؟ لم يطرده أحد.

لم يكن عند العربى رغبة فى سماع شىء آخر. أعطى الرجل جنيهين كاملين مما دفع بالفرحة إلى عينى الرجل المندهش فاقترب منه وقال.

– بالهناء والشفاء. تحب قطعة حشيش . الدار أمان.

– لا شكراً.

أجاب العربى فى ارتباك وأسرع تاركا المكان كله. لكن الرجل أمسك بذراعه لحظة وقال.

– أحسن انك لم تتزوج راشيل. غير معقول تدفن شبابك...

أسرع العربى يخب فوق البلاط وبقايا الماء المتجمع فى الشقوق

ووصل إلى شارع التتويج فلمع شريطا الترام وسط الظلام وسمع صوتا يشق الفضاء لايعرف مصدره بالضبط ولا من أى عمارة سقط فوقه يصرخ «السياسة وسخة يا جدعان فرَّقت الأحبة» . لايدرى لماذا كان يمشى فى طريقه إلى الانفوشى. ماذا يريد من هناك؟ عند منعطف شارع اسماعيل صبرى انحرف إلى مقهى «فاروق» . كان المطر قد بدأ يعود قويا وكثيفا ويسمع صوت ارتطام قطراته بالأرض فى زخات متتابعة فدخل المقهى بسرعة ليقابل بالدفء الذى كان كمن يبحث عنه منذ عشرات السنين. كان المقهى غاصاً بالرواد رغم البرد والمطر، وصوت الراديو، يملأ الفضاء مع دخان الشيشية والسجائر، بالألفة والونس.

– أهلا وسهلا .. طلبات سعادتك؟

كان الجرسون قد وقف أمامه وهو لايدرى . صوت عبد الوهاب القادم من الراديو الفيلبيس الكبير الموضوع على الرف العالى تصاحبه موسيقى أقرب إلى الموسيقى التى يرى اليونانيون يرقصون عليها فى الحفلات الصغيرة التى تقيمها كاتينا فى رأس السنة وبعض الأعياد فى بيتها. فى لحظة واحدة لم يعد العربى يشعر بالمقهى ولا بالرواد ولا بالجرسون الواقف أمامه.

طول عمرى عليك مشغول
وقساوتك مهما تطول
يغلبنى حنانى وأقول
مايهونش .

هل معقول سيترك الإيطاليون المدينة بعد اليهود؟ هل صحيح سيتركها اليونانيون؟ إن كاتينا الآن بين ذراعيه ويمشى راقصا بها بين المقاعد.

- طلباتك يا أستاذ؟

كل مـا أفـرح يوم فـى حـبـى
الـتـــقـى أيـام عـــذاب
وأنـت يـا ســاكـن فـى قـلـبـى
تـعــمـل إيـه لـو قـلـبـى داب.

لم يزل الجرسون واقفا لايدرى به، ولم يزل هو يرقص بكاتينا بين المقاعد، ورواد المقهى الذين انتبهوا إلى الجرسون الواقف طويلا أمام العربى بدأوا ينظرون إليهما. لكن العربى انتبه.

- سحلب.

- سلامتك يا أستاذ، أنت مازلت صغيرا على التوهان..

لم يرد العربى وإن أحس ببعض الضيق. التفت الجرسون موليا ظهره مبتسما لرواد المقهى. فكر العربى كيف حقا كان يرقص مع كاتينا منذ قليل. حضوره إلى حارة اليهود الليلة فأل سيىء.

ستخلو شوارع كثيرة من الأجانب فى الاسكندرية فى الأيام القادمة. هذا ما يشعر به، ويكاد يراه بعد حديث بائع السمان التعس. نهض واقفا فى ضيق، وضع على المنضدة ربع جنيه كاملاً، لم ينتظر عودة الجرسون ولا السحلب وخرج يواجه المطر والريح على الكورنيش وصوت الموج الغاضب. البالطو والسمان لايزالان يشيعان الدفء فى جسده لكن لاسبيل لتفادى المطر. ليس معه مظلة. فليقف تحت شرفات العمارة ساكنا حتى يلتقطه تاكسى، كان وشيش النخيل السلطانى يملأ الفضاء فوق الشارع وهو يهتز بفعل الرياح. الموج أمامه يرتفع بهاماته البيضاء ثم يتراجع مخلفا صوتا هادرا، ولنشات متفرقة ترتفع مع الموج ثم تهبط فيبدو أنها غرقت ثم تعود إلى الارتفاع والظهور من جديد. إنها قوارب

الصيد الصغيرة التى يتركها أصحابها فى الماء قرب الشاطىء مثبتة فى الرمال «بالهلب» الموصل بكل منها بحبل طويل. لحظات وتوقف تاكسى عريض ماركة ستروين الفرنسية. اندفع داخلا فيه.

ما كاد يجلس حتى جاءه صوت السائق الذى يضع حول عنقه كوفية حمراء.

– إلى أين إن شاء الله؟

لم يكن قد فكر بحق إلى أين يذهب. لا يمكن أن يعود إلى كاتينا فهى لا تسمح له بالمبيت عندها الآن. وهو لايريد العودة إلى البيت. البيت الذى إذا خرج منه فى الصباح نسيه ولايتذكره إلا عندما يراه بعد عودته فى المساء... سأل السائق..

– ما هو أحسن مكان يسهر حتى الصباح؛

– بلدى أم إفرنجى؟

– بلدى.

– ملهى عطيات حسين. ملهى ليلى ولا ملهى السفينة. أكيد حضرتك عارفه، الذى شكله بالضبط كالسفينة، واسمه الحقيقى «كوت دازور» ناس قليلة هى التى تعرف الأسماء الحقيقية للملاهى فى اسكندرية. هذه فائدة السواقة يا أستاذ. السفينة فى سوتر وعطيات حسين فى المزاريطة تعرف إن جمال عبد الناصر شخصيا يأتى ويسهر عند عطيات حسين.

كان العربى يجلس جواره يتأمل المطر الساقط على زجاج التاكسى الأمامى والمسَّاحتين النشيطتين فى طرده . قال فى سخرية.

– عبد الناصر بنفسه؟

– بالضبط. كما كان الملك فاروق يسهر فى السفينة.

سكت العربى تماما. أدرك أن طرق الحوار مسدودة مع السائق، أو

على الأقل غير مفهومة. لكن السائق لم يسكت..

– الملك فاروق كان لا يحب يسهر فى اسكندرية إلا فى السفينة أو فى الأوبيرج الأزرق. والاثنين فى «سوتر» ما أكثر ما رأيته هناك. فى إحدى المرات شاهدت الأميرة فايزة مع واحد مهم جدا خارجين من السفينة، سألت هل هو أخوها قالوا لى انه سكرتير كبير فى السفارة الأميركية بالقاهرة، بعد ذلك كنت أراها كثيرا مع هذا السكرتير هناك.

وجد العربى نفسه يقول.

– وأكيد طبعا شفت عبد الناصر بنفسك عند عطيات حسين.

اندفع السائق يتكلم من جديد.

– طبعا. أنت لا تصدقنى : طيب. ألم تفعل الثورة كل شيء عكس الملك. كان فيه ملك صار فيه رئيس جمهورية، كان فيه إقطاع صار فيه إصلاح زراعى، كان فيه رأسمالية أجنبية صار فيه تمصير، كان الملك يسهر فى السفينة إذن عبد الناصر يسهر عند عطيات حسين، السفينة أفرنجى وعطيات بلدى، صح يا أستاذ؟ اقتنعت؟

كان العربى يفكر على نحو مجنون أن السائق وهو يتكلم قد تغير وجهه وصار يحمل وجها غريبا، وجه سعيد اسكندر سفاح كرموز الذى تم إعدامه فى سجن الحضرة منذ عشر سنوات.

لماذا فكر على هذا النحو؟ لايعرف.

(٢)

أقيمت الأفراح فى المساكن. اليوم زواج رشاد من فاطمة. مضى وقت طويل حتى شفى رشاد من أثر الرصاصة. لقد نجا من الموت

المحقق وأمضى وقتاً طويلاً فى النقاهة. لم يعد بعد كامل خطيب مشيرة، لا يزال مفقودا. ولم يعد محمود الملاح الذى تم تسريحه بعد وقت طويل من الجيش لكنه سافر إلى القاهرة يبحث عن ممول لفيلم كبير قال إنه يريد أن يصنعه عن بور سعيد.

اليوم سيتزوج رشاد ابن المفتش الوسيم فاطمة الرشيقة كعصفور، بنت موظف قسم الحركة القديم الذى لم ينجب غير فتاتين ، تزوجت الأولى وانقطعت أخبارها وتأتى على مسافات زمنية متباعدة فى عربة ملاكى فورد بيضاء. تزوجت شخصا عظيما على حد قول الناس. عشقت فاطمة رشاد فلم يشأ أبوها المثقف الذى لايشاهد إلا والجرنال فى يده أن يكسر بخاطرها. وافق على زواجها من عسكرى البحرية الذى فتنت البنت ببدلته البيضاء وطوله الفارع. قال فى النهاية إن الولد طموح وفيه شهامة وهذا يعوض عن المال والمركز!

اختير للفرح مسرح شهرزاد بمحطة الرمل. استعدت معظم النساء للذهاب. ظهر انه يمكن للنساء أن يخرجن ويذهبن بعيدا ، أن يرتدين فساتين ملونة ضيقة الخصر واسعة الذيل ذات كرانيش، إن يضعن عطرا رخيصا، لكنه عطر، وأن يحملن حقائب من الجلد الصناعى! ساعدت أم الضابط الماشطة النساء على الزينة بالبودرة والأحمر الغزير والكحل الثقيل. لم تتضايق من رفض فاطمة ان تقوم هى «بتجهيزها» وذهابها من ثم إلى الكوافير فى محرم بك فكانت بذلك أول فتاة تفعل ذلك هنا.

«فاطمة طول عمرها عايقة وأنا بأحبها من قلبى» قالت ذلك أم الضابط لمن حولها. الحقيقة أن كل الناس هنا تحب فاطمة ولا يرون

ضرورة لأن تكون لذلك ثمة أسباب. هى ليست فى جمال حكمت أو الجونى. سمراء رشيقة القد شعرها أسود غزير عيناها واسعتان وفمها صغير. هى إذن جميلة أيضا لكنها ليست شقراء مثلهما! كروان كان الرسول السرى بينها وبين رشاد. لاتتركه إلا وقد احمرّ وجهه. طعم قبلاتها الدافئة على خده لايزال. فى البداية كانت تعطيه البونبونى، صارت تعطيه البونبونى مشفوعا بقبلة على الخد. كروان فرحان مثل كل الناس، زعلان وحده حين يفكر فى هذا الزواج لأنه لن يرى فاطمة بعد اليوم! البنات خلقهن الله ليخطفهن الرجال. يسمع أمه تقول ذلك دائما. أمه لم تذهب إلى الفرح لثقل حركتها. أخذته شوقية معها. ذهب أبوه مع الرجال ...

لم تخرج البنات بشكل جماعى من زمان. ذلك اليوم الذى خرجن فيه معا وذهبن يتفرجن على جمال عبد الناصر وهو يخطب فى المنشية بمناسبة جلاء الإنجليز عن البلاد فكان «يوم أسود!». أطلق شخص الرصاص على جمال وساد هرج شديد فكدن يقعن تحت الاقدام لولا أن جمال نفسه راح يصرخ فى الناس أن يقفوا صامدين «فإذا مات جمال فكلكم جمال» .. لكنهن فى النهاية، وبعد أن ابتعدن كثيرا عن المنشية فى طريق عودتهن، شملتهن البهجة بنجاة البطل الوسيم ذى الصوت الجهورى الرنان وإن لم يزايل الفزع وجوههن بعد..

عبرن هذا المساء المعدّية ليركبن الترام إلى المنشية، رآهن حبشى فوق المعدية ورأى الفضاء يتلألأ بضحكاتهن وثيابهن الملونة. نظر إلى بدرة وقال..

– شفت البنات يابدرة؟!

– مالهم!؟

لم يرد . فقالت بعد أن فهمت ما يقصد.

– بناتك أجمل ألف مرة.

كان اللقطاء من البنات أجمل من بنتى بدرة . قال.

– طبعا. ليس هناك أجمل من خلقتك وخلقة بناتك!

وخلع جلبابه ثم قفز فى الماء باللباس وراح يسبح كتمساح. نظرت البنات إلى الترعة حين سمعن صوت ارتطام جسمه بالماء . أشحن بوجوههن وصعدن يركبن الترام مبتسمات.

الجو ربيعى اختفت منه سخونة الخماسين منذ أمس. فى ميدان المنشية نزلن يمشين المسافة الباقية. حكمت تعرف الطريق إلى المسرح. فى ميدان المنشية الواسع ذى العمارات العريضة الرابضة فى جلال بنوافذها العالية وحلياتها الباذخة، وقفن يتفرجن على تمثال محمد على باشا. كان ثمة محلات مغلقة ، وعدد من النساء اليونانيات العجائز يمشين على الأرصفة وكثير من الشحاذين وعدد من الصبية يجمعون أعقاب السجائر وآخرون يبيعون الفل والياسمين. قال كروان الذى انتبهن إلى وجوده معهن.

– محمد على باشا هو جد الملك فاروق.

قالت حسنة.

– الملك فاروق هايص فى بلاد بره.

هتفت شوقية.

– هايص!؟ لقد طردته الثورة يا عبيطة. زمانه لايص ودايخ دوخة البلچيكى..

لاتعرف أى منهن معنى دوخة البلچيكى ، والحقيقة أنها مقولة أطلقها أحد الظرفاء على الترام الذى يتحرك فى الاسكندرية فى خط دائرى فلا

تعرف له بداية من نهاية، والترام تملكه شركة بلچيكية...

جرين للحظات بعد أن تطلعن طويلا إلى التمثال الذى يكاد يقفز من فوق قاعدته. حصان قوى فوقه رجل جبار! وأخذتهن حكمت إلى الكورنيش فاستقبلن هواء البحر المنعش. مكان تمثال إسماعيل باشا لايزال خاليا. يقال إن الثورة سترفع كل تماثيل أفراد أسرة محمد على من البلاد. البعض قال إنه شاهد تمثال اسماعيل باشا ملقى فى اهمال بحدائق انطونيادس. ستضع الثورة مكانه نصبا للجندى المجهول.

بدت الچونى فى الفضاء الواسع مثل عروس البحر التى خرجت للتو تتلألأ من الماء. ازدادت طولا وارتفعت فى الفضاء كآلهة سحرية. طالت رقبتها ولمع شعرها الكهرمانى وسطع النور من وجهها. بانت التقاسيم الدقيقة لوجه حسنة السمراء. لعلعت ضحكة البنت شوقية ولمعت عيناها العسليتان. لم يكن الضوء والهواء في جانب بدرية. بانت بحق مثل دجاجة بللها المطر، احمر وجهها وكادت ارنبة أنفها تشتعل. زواج فاطمة فأل حسن يفتح الطريق لزواجهن. قريبا جدا ستتزوج شوقية وبدرية. خطيب بدرية، الحلوانى، عاد من الحرب سليما وسيذهب بها إلى ليبيا بعد الزواج. لا أحد يعرف لماذا يسافر إلى ليبيا. يقول انه تعرف على أحد الليبيين المقيمين بحى الورديان، من الذين هربوا أيام عمر المختار من الطليان، وأن هذا الرجل قرر أن يعود إلى بلاده، وسيفتتح ضمن مشروعاته محل حلواني سيكون الأول فى بنغازى. حكمت أيضا ستتزوج قريبا. ربما تسبق الجميع ، مشيرة تعثّر حظها فكامل خطيبها لم يعد من الحرب، لم يقل أحد انه استشهد، ولم يقل أحد إنه أسير، هو فى عداد المفقودين وهى تنتظره. رابطة مهيبة !. تقول حسنة التى لم يتقدم لها أحد. لا أحد يعرف هل تقصد مشيرة أم نفسها. نادية سلام تقول

لهن دائما إنها لا تفكر أبدا بالزواج، تخفى قصة حبها مع إبراهيم مرسى، وتحلم به أكثر من مرة فى اليوم الواحد. كما تحلم الچونى بخير الدين الذى لايفتأ يجلس على سلالم الماكينة الحمراء يتابعها بعينيه كلما صعدت إلى السطح، أو يصعد على سطح بيته يتطلع إليها من بعيد، وفى كل الأحوال لايتكلم خير الدين ولايبدى أى إشارة.

ظهرت نادية سلام فى هذا الفضاء مثل مهرة حقيقية، هى أصغرهن لكنها أطولهن وأكثرهن غزارة فى الشعر. حكمت وحدها ظهرت مثل شعلة من لهيب فوق جبل بعيد كلما ابتسمت لمع فى الفضاء شهاب واختفى!.

قالت حسنة.

– العقبى لكم يا بنات حتى تخرجن من المساكن إلى الدنيا الحقيقية.

قالت شوقية لحكمت.

– أكيد أنت يا حكمت سوف تسكنين هنا فى محطة الرمل.

قالت حكمت.

– أنا قلت لخطيبى ألا يبتعد عن كرموز.

قالت شوقية.

– أنت يا حكمت غاوية فقر.

تساءلت بدرية.

– الواحدة بعد الزواج ألا تسكن فى مكان أفضل؟

قالت حسنة.

– طبعا. لو معها فلوس للايجار!

ابتسمت بدرية ثم قالت.

– أنا كنت فاكرة الشقة الجديدة شىء تابع للزواج؟

تساءلت حسنة.

- ماذا تقصدين بشيء تابع للزواج؟

- يعني لما الواحدة تتزوج المحافظة أو الدولة تعطيها شقة بإيجار رخيص.

نظرن إليها مندهشات. قالت حسنة.

- يقصف عمرك يابدرية، أنت هبلة وعبيطة لاتدرى.

انطلقن جميعا فى ضحك عالٍ وأسرعن الخطى إلى محطة الرمل. الساعة حوالى الخامسة. النهار يفارق الدنيا على مهل، البحر عند الافق يلتهب بالشمس الذاهبة، وبعض السحب السود تختلط بدم الشمس فيبدو الأفق فى حريق حقيقى. نار ودخان. أنفاس الموج تصل إليهن، يرين بعيدا هاماته البيضاء تترى خلف بعضها فى كسل. سفن وزوارق حربية تقف فى الميناء الشرقية متناثرة مابين لسان السلسلة وقلعة قايتباى. ظلالها تترجرج فوق الماء مع حركتها الهادئة. البنات تمشين أسفل شرفات العمارات تهفو نفوسهن إلى ركوب الحناطير التى تتهادى بالبنات اليونانيات والايطاليات والشباب الأفرنجى، ويسمعن صوت طرقات أقدام الخيل على الأسفلت. يا أولاد الكلب. قالت حسنة فى سرها وهى تتابع عربات الحنطور تحمل العشاق. لكن الذى خطف أبصارهن بحق كان الزجاج الأبيض للمطاعم والمقاهى. مقهى الكريستال، المقهى التجارية، مطعم نصار. المناضد البيضاء تتحرك بينها فتيات صغيرات جميلات، يونانيات وإيطاليات، ومصريات أيضا، فى ثياب أنيقة، جوبات زرقاء ضيقة على الأرداف والسيقان ، قمصان بيضاء وأربطة عنق زرقاء . جرسونات المقاهى وزيهن المميز ، البنطلون الأسود والچاكيت الأبيض وكل منهم قد وضع يده فى چيب الچاكيت

يحرك القروش «الفكة» داخله فى حركة لا إرادية..

رأين من بعيد أمام المسرح زحاماً من الشباب والأولاد، يقفون فى استعراض قوة يحدث عادة حين يتجمعون معا. تعودوا، شباب وصبية المساكن ، على الذهاب إلى السينما فى محطة الرمل دائما جماعة، يثيرون فى طريقهم المشاغبات يفضى أكثرها إلى معارك طائشة مع الآخرين. نادرا ما يذهب أحدهم إلى السينما وحده، إذا حدث يبدو فى ذهابه وإيابه حزينا صامتا لايصدق من يراه أنه هو نفسه الذى يتحول إلى جنى مع أصحابه. يعطيهم الفرح اليوم طاقة أكبر من التحفز. فى الاسكندرية تنتهى الأفراح غالبا بمعارك. «بسلو بلدنا!» هكذا يقولون.

كان واضحا أن الشباب قد كووا قمصانهم بالنشا، ووضعوا الفازلين أو الصابون على رؤوسهم فثبت الشعر ولمع! ولبسوا البنطلونات الووتر بروف ذات الوسط الساقط على طريقة چيمس دين!.

بالداخل كان العدد الذى وصل من الآباء، عمال السكة الحديد الذين لا ينزلون المدينة إلا فى الأعياد، يجلسون فى الصفوف الخلفية تاركين الصفوف الأولى للنساء والأطفال. لكن عددا منهم كان لا يزال قادما فى الطريق بينهم حمزة. كان حمزة لا يزال يحكي حكايات غريبة عن الحرب التى انتهت منذ عام، خاصة عن الطائرات التى سقطت فوق المدينة، والتى شارك هو شخصيا فى إسقاطها بعد أن تطوع فى فرق الحرس الوطنى، حيث تم توزيعه على بطارية مدفع مضاد للطائرات فوق جبل الطوبجية بكوم الشقافة. الموقع نفسه الذى كان فوقه مدفع انجليزى كبير فى الحرب العالمية الماضية ظلت طائرات الألمان لمدة عامين تحاول تدميره وتفشل حتى نجحت فى ليلة كادت فيها تدمر الاسكندرية كلها.

لقد تغير الزمن وصار المدفع مصريا والطائرات انجليزية! الانجليز

يعرفون الموقع جيدا لذلك حرصوا على تدمير المدفع منذ البداية، لكن كل الطائرات المغيرة تم تدميرها فى الفضاء. هكذا يقول حمزة، والناس جميعا تعرف أن عدد الطائرات التى سقطت فوق الاسكندرية لايصل إلى خمس طائرات. لم تحدث غارة كبيرة إلا مرة واحدة من إحداها سقطت القنابل على مبنى البوستة فى المنشية، وفى الثانية سقطت القنابل فى مينا البصل وفى الثالثة سقطت القنابل على بحيرة مريوط، طاشت يعنى!.

اليوم دخل حمزة وخلفه الرجال الذين يقودهم إلى المسرح يشم فى طريقه إلى الصف الأولى رائحة بارفانات تطيّر العقل! المسرح واسع والأضواء الخافتة تنبعث من أعلى الجدران وفى الواجهة، على خشبة المسرح، إضاءة بيضاء قوية وكوشة محاطة بلمبات الفلورسنت البيضاء والزهور. كوشة شديدة الإضاءة داخلها مقعدان من المخمل الأحمر خاليان إذ لم يصل العريس وعروسه بعد.

جلس حمزة ومن معه فى الصف الأول، ولأنهم يدخلون هذا المكان لأول مرة لم يحاولوا الالتفات والبحث عن زملائهم. فى الحقيقة أسكرتهم روائح البارفانات. جلسوا فى أدب كالأطفال غير مدركين الرجال والشباب الذين ينظرون إليهم. نساء جميلات معطرات شبه عاريات فى ملابس سهرة سوداء وحمراء وخضراء ورجال ببدل سوداء ووجوه حمراء وبابيونات ملونة ومناديل فى لون البابيونات والكرافتات وشباب نضر يصافحون الفتيات ويقبلونهن على الخدود وأطفال يانعو البشرة نظيفو الثياب يمرحون فى الطرقات التى بين المقاعد. سمن على قشدة على لبن. هكذا رأى حمزة النساء ولم ينتبه إلى المكان بعد !!

قال أبو عيد المشعور لحمزة:

- النسوان حلوة يا ولد.

فقال حمزة.

– هكذا الأفراح التى تقام فى المسرح دائما.

تساءل أبو عيد المشعور.

– يعنى هذه النسوان تابعة للمسرح.

– طبعا، وتجدها فى كل الأفراح.

هكذا أجاب حمزة واثقا. لم يجد سببا لوجود النساء غير هذا، على الأقل حتى الآن.

بين الحين والحين يظهر من ينظر إليهم من بعيد ثم يمضى ليقف يتحدث مع شخص آخر سرعان ما يأتى ينظر إليهم ثم يمضى وتظهر على الاثنين الدهشة والارتباك. لا أحد يتقدم يسألهم ، وهم الرجال الذين يرتدون الجلابيب البلدى والعمم أو البنطلونات الكاكى والجواكت الرخيصة، عن هويتهم. ظنهم أهل العروس من أهل العريس الذين ظهروا فجأة قادمين من الريف.

أهل العريس بدورهم ظنوا أنهم أهل العروس!. ظهرت امرأة طويلة قوية انحنت على طفلة صغيرة تحدثها، فاسرعت الطفلة حتى وصلت إلى حمزة وسألته.

– حضرتك من أهل العريس؟

اضطرب حمزة للحظة ثم قال.

– نعم كلنا أهل العريس.

نقلت الطفلة الرسالة إلى المرأة التى كشرت عن وجهها واحمر حتى كاد ينفجر وأسرعت تدخل إلى غرفة جانبية وتخرج منها فى يدها امرأة أخرى قوية أيضا لكن أقل طولا. خلفها راح رجل أنيق ينظر إلى حمزة وزملائه ويهز رأسه.

انتحت المرأة الطويلة بالأقل طولا وراحتا تتكلمان بحدة لكن بصوت غير مسموع . حمزة الذى كان يراقب ذلك أدرك أن شيئا ما غير طبيعى يحدث حولهم، فى الوقت الذى سمعت فيه الطبول والدفوف وأصوات الزفة الاسكندرانى داخلة من باب المسرح تحوط العريس والعروس فسكتت المرأتان وتابعتا المشهد لكن لم ينته غيظهما ولم يختف من على وجه كلتيهما. ما إن جلس العريس والعروس فى الكوشة حتى قال حمزة.

- هذا ليس رشاد ولا هذه بفاطمة.

قال أبو عيد.

- الله يكسفك يا حمزة دخلت بنا مسرح غلط.. وأنا أقول الناس رايحة جاية تبص لنا ليه؟ وتقول لى النسوان لزوم المسرح يا فشّار..

وقف حمزة ووقف الرجال واتجه بهم إلى الخارج لكن المرأة الطويلة كانت بدورها فى الطريق إليهم ومعها المرأة القصيرة . قبل أن تتكلما تكلم حمزة.

- لامؤاخذة يا مدام ظنناه فرح ابننا رشاد وبنتنا فاطمة. «هابى ماريدج» إن شاء الله..

أزالت الجملة الانجليزية صخور الغضب وانحلت أسارير المرأتين.

قال أبو عيد.

- حقك علينا .. واضح أننا وسخنا الفرح...

نظرت المرأتان إليهم بإشفاق حقيقى. قالت الطويلة.

- بالعكس. حضوركم شرفنا جدا. هذا فرح توتو وبيسة. كأنه فرحكم. نحن فقط لم نكن نعرفكم. سامحونا إذا كنا تصرفنا تصرفا غير لائق.

قال حمزة بهدوء وأداء تمثيلى.

- كلك ذوق يا مدام. اسمحى لنا بالانصراف.

- ليس قبل أن تأتوا معى.

قالت ذلك ومدت يدها أمسكت بيد حمزة الذى لم يصدق أن هناك فى الكون يد امرأة بهذه النعومة والدفء فترك نفسه لها يمشى جوارها كالمأخوذ والرجال خلفه حتى دخلت بهم غرفة واسعة مليئة بالتورتات والجاتوه والساندوتشات وفى وسطها يقف خادمان نوبيان. راحت هى بنفسها تعطى كلا منهم علبتين صغيرتين مغلقتين بشريط أخضر ووردة بيضاء بلاستيك عند عقدة كل شريط . قرأ حمزة كلمة «ديليس» على جوانب العلبة فابتهج وخرجوا جميعا غير مصدقين. فى الحقيقة كانوا محتاجين إلى هواء البحر المشبع بالندى بعد أن كادوا يختنقون من الحرارة التى ارتفعت فى أبدانهم مرة بسبب الإحراج وأخرى بسبب الابتهاج. وقال أبو الحسن.

- أكيد داخل هذه العلب بسطة.

فقال حمزة.

- داخلها جاتو يا حمار. البسطة هناك فى غيط العنب عند «الحلوانى جزر» لكن هذه من عند ديليس فهى جاتوه.

الاسكندرية كلها تعرف أنه لافرق بين البسطة والجاتوه، لكن هكذا جرت العادة، يستخدم أهل المناطق الجنوبية الفقراء كلمة «بسطة»، ويقول أهل الشمال الغنى «جاتوه»، والحقيقة أن الاثنين صنف واحد يبيعه الحلوانى والكلمتان معا أصلهما أجنبى!!.

(٣)

أقيمت الأفراح. بدت الدنيا أوسع. الراديو يبث أحاديث الانتصار منذ أكثر من عام. الوحدة بين مصر وسوريا قد أعلنت، وصلى جمال عبد الناصر وشكرى القوتلى، الرئيس السورى، معا فى الجامع الأزهر... الناس عموما تستطيل قاماتها!

لم تعد حكايات اليهود وخروجهم الكبير تصل إلى المساكن، لقد خرج من خرج وفاز من فاز ومصائب قوم عند قوم فوائد ثم ماذا يستفيد سكان المساكن من غنى «زعيط واختفاء معيط!» . الدنيا بعيدا عنهم لا تصل إليهم ولايصلون إليها..

أقيمت الأفراح بعد عام من التجهيز والاستعداد... رفض على زين العابدين إقامة فرح ابنته شوقية على عريسها التاجر فى المسرح. «لايجب شحططة الناس» هكذا قال. «سيقام السرادق فى الشارع الوسطانى» هكذا قرر...

حضر عمال الفراشة والكهرباء من كرموز. تدلت المصابيح الملونة على واجهة المساكن المطلة على شارع قنال المحمودية. تم توصيل الكهرباء بأعمدة نور الشارع العامة. الحكومة لا تأتى هنا إلا نادرا. امتدت الأنوار بطول الحائط فوق النوافذ فاشتعلت المساكن الممتدة لمسافة تزيد على الأربعين مترا وتحولت إلى مايشبه واجهة مدينة للملاهي... اشترك الصبية فى تنظيف الشارع الوسطانى، حبس الناس أغنامهم وماعزهم ذلك المساء، كذلك طيورهم من بط وأوز ودجاج . شيئا فشيئا بدأت تظهر معالم السرادق لكن رائحة الماعز والاغنام والطيور وبول الأطفال كانت لاتزال ترتفع من أرض الشارع رغم أن الأولاد

كنسوا الأرض ورشّوها بالماء. الرائحة النفاذة لعطور النساء الرديئة ستقضى على أى رائحة أخرى ساعة الفرح، ثم أن هذه الرائحة التى قد لايتحملها الغريب، يعيشون هم وسطها ليل نهار!.

فى البيت تجمعت البنات حول شوقية وأمها، أبلة نرجس. منذ شهر كامل لم ينقطعن عن السهر ، يجهزن الملابس للعروسة ويغنين ويطبلن ويرقصن أيضا. لقد جهزت ابلة حكمت ابنتها أحسن تجهيز. وكل يوم تندهش البنات مما تشتريه أبلة حكمت لشوقية، حرير برودريه، وبروكار بالقصب لزوم الفساتين، وبيكة سادة ومشجرة للجلابيب وتيل حرير أطلس وتيل ملايات ألوان وجوبلان روميو وچوليت وأربع أطقم سرير كتان مشغول وعشر فوط المحلة زهرة اللوتس وثلاثة أطقم سفرة المحلة وعشرة شرابات كاوتشوك أول سايز وعشرة قمصان نوم رمش العين وكمبينزونات شرميز وكمبينزونات ساتان جرسيه بدانتيللا وثلاثة أطقم نوم نايلون شفاف ثلاث قطع وعشرين كيلوت بليسيه وعشر سوتيانات واثنين سجادة صلاة وغير ذلك كثير. عدن إلى البرنامج الإذاعى وعاد إليهم. تغيرت حظوظهن كثيرا بعد الحرب. صار حظ شوقية غالبا مع محمد فوزى ذى الصوت المبهج الرنان، تعب الهوى قلبى وشحات الغرام، ويلك ويلك يا مشتاق وبعد بيتنا ببيت كمان حلو ساكن من زمان، ونسيت الحزن القديم مع أحلام وعبده السروجى وتفاءلت بالمستقبل . مع موسيقى وصوت محمد فوزى تنتعش البنات وترقصن وتغنين ولا يعرفن كيف يستطيع عم على زين العابدين أن ينام فى الحجرة الداخلية كل ليلة ولا يعترض ولا يحتج ، بل يسمعن صوته أحيانا وهو يشخر.. نزل عليهن الصمت فجأة ليلة جاءهن خبر زواج حكمت. لم يبد قبل ذلك أى استعداد لذلك، ولم تبد لهن أى إشارة ولم يبد فى ذلك اليوم أنها ستتزوج فى آخره! لم تدعُ أحداً إلى فرحها الذى أقيم فى المسرح. كان ذلك شرط

العريس. لعلها لذلك أخفت الخبر عنهن. لا يصدقن أبدا أنها تنكرت لهن. لكن حسنة قالت غاضبة.

– الفلوس تعمى الناس. بياع سمك جربوع أبوه بالكتير كان يسرح بغلق على رأسه بالقراميط الميتة أصبح تاجراً ويفرض شروطه على البنت الغلبانة حكمت التى هى أجمل من مريم فخر الدين ومارلين مونرو!.

وظلوا ساكتين. قالت بدرية.

– مسكينة حكمت. لابد أنها زعلانة. انها لا تستغنى عنا أبداً.

لم تظهر نوال تلك الليلة فلم يغن أحد.. لكن فى الليلة الثانية اجتمعن مبتهجات. ما الذى يجعل الناس هنا سريعى النسيان للحزن والغضب؟ هل هو المكان البعيد عن المدينة، هل هو الهواء القادم من المدينة، هل هو الفضاء الواسع حولهم. هل هو الصمت الذى لا يرتفع فيه غير أصوات الأطفال؟. هل هو التسليم والرضا بقضاء الله؟ لقد حملت إليهن الأنباء أن حكمت سكنت فى شقة جميلة بكامب شيزار قرب سينما أوديون بينما عدن إلى الطبل والرقص والغناء، ومنذ أيام لم يستطع كروان أن يكتم عن البنات ماسمعه من خير الدين الذى قال له كيف وهو خارج من سينما الهمبرا، وبعد أن أخذ يمشى فى شارع صفية زغلول فى اتجاه محطة مصر، كيف رأى حكمت وهى جالسة فى «تافرنا» وحدها تدخن سيجارة. لقد رآها من خلف الزجاج وكانت أصابعها ترتعش رغم أنها ترتدى بالطو أخضر والجو فى تافرنا مكيف ونحن فى الربيع. رآها شاحبة جدا غارت عيناها الجميلتان كثيرا إلى الداخل حتى كاد لا يصدق أنها حكمت. سألته شوقية .

– هل قال لك ذلك بنفسه؟

– سمعته يقوله لسليمان.

- طيب عرفت يعنى إيه تافرنا!!

هكذا تساءلت شوقية فضحكت نوال وقالت.

- كافيتريا اسمها تافرنا، مقهى أفرنجى يعنى، أنا عارفاها.

تساءلت شوقية فى دهشة.

- تعرفين المقاهى يانوال؟

استمرت نوال تضحك ثم قالت.

- أنا يا بنت دخلت كل كافتيريات اسكندرية ، تريانون وديليس وعلى كيفك وإيلييت وستريا حتى المونسينور والوندسور وباسترودس وسانتا لوتشيا..

لم يكن جميعا يعرفن شيئا من ذلك . قالت حسنة مندهشة..

- هل هذه أسماء مقاهى حقيقية؟ يهيأ لى انها اسماء عفاريت!

انطلقن يضحكن وقالت نوال.

- لى صاحبة من المغنيين اللاتى أسعدهن الحظ واشتغلوا فى الإذاعة تعزمنى كثيرا فى هذه المقاهى.

عادت حسنة تتساءل.

- وهل لابد للمغنية أن تعرف كل هذا؟

- للأسف اللقاءات الفنية والاتفاقات كلها تبدأ فى المقاهى.

سكتن للحظات حتى قالت بدرية.

- ربنا ينصرك يا نوال وأسمع صوتك فى ليبيا. ليبيا التى لا أعرف أين هى بالضبط!

ضحكن كثيرا تلك الليلة، ها هن اليوم سيودعن واحدة منهن، شوقية الجميلة بنت أبلة نرجس الطيبة.

ظهرت أم الضابط عند العصر وأخذت شوقية إلى الحجرة الداخلية.

اختفى على زين العابدين ذلك اليوم . سيظهر فى المساء فى السرادق نفسه بعد أن تكون كل الاستعدادات قد انتهت من البيت.رأى كروان دمعة تمشى على خد أمه. «خلاص يا كروان شوقية ستتركنا». كان هو بعد أن اختفت فاطمة قد استوعب فكرة أن يترك الشخص مكانه وأهله بعد الزواج.

لكنه اليوم، الآن فقط، عاد كما كان غير قادر على استيعاب الفكرة. أخته التى كانت تصحبه إلى مدرسة الشيخ عبد الله بكفر عشرى، تمشى به على طريق المحمودية المقطوع، وتعود به على الطريق نفسه بعد أن تكون قد انتظرته أربع ساعات أمام باب المدرسة. أخته التى ظلت تفعل ذلك ثلاث سنوات حتى انتقل العام الماضى فقط إلى مدرسة القبارى الابتدائية فراح يمشى مع مصطفى وعبده الأكبر منه بعامين، واللذان سينهيان دراستهما الابتدائية هذا العام. كيف حقا تمضى أخته وتتركه.

رأى البيت كله فى حالة حركة من أجل شوقية منذ أكثر من شهر. بالليل سهر مع البنات وحياكة ملابس شوقية وبالنهار تخرج امه مع شوقية أو مع أبيه لشراء أجزاء من «الشوار»، وأبوه كلما دخل إلى البيت نظر إلى شوقية مبتسما نصف ابتسامة ومسد شعرها بيده وقال «خلاص حنتحرم منك يا شوقية» وتطرق شوقية إلى الأرض حزينة بحق، إلا أن وجهها يحمر من جديد وتبتسم وتبتهج حين تسمع أبوها يقول «إن شاء الله ستعيشين سعيدة مع زوجك» لكن غلالة من الحزن رقيقة تظل دائما تغلف هذا الفرح فى الأسرة ولا تنجلى إلا فى المساء مع حضور البنات.

بعد أن حضرت أم الضابط طلبت من كروان أن يغادر البيت ليتابع أعمال الفراشة والكهرباء فى الشارع الوسطانى. وقف وسط العمال النشطين المعلقين على الأعمدة والواقفين على الأرض. الأطفال يختلطون

بالكبار والسعادة ترفرف فوق الجميع. ما هو سر سعادة كل هؤلاء الناس بذهاب أخته بعيدا عنه إلى الأبد. أخته التى لم يبد أن لها اهتماماً فى الحياة بغير راحته ومشاغبته بالهزار الجميل، اخته التى لم تكشر فى وجهه أبدا، ولم تنم قبل أن ينام هو وتغطيه ولم تأكل قبل أن تعرف انه أكل وشبع ولم تبخل عليه بالقروش تعطيها له سراً ولم تتركه يخرج مرة واحدة بثياب متسخة ولا قميص أو بنطلون غير مكوى. غياب شوقية عن حياته ليس أبدا كغياب فاطمة من قبل..

أخذ طريقه عائدا إلى البيت ووقف ينظر إلى أمه.

- أريد أن أرى شوقية.

- كنت معها منذ قليل.

- أريد أن أراها.

- لكنها بالداخل مع أم الضابط وعيب تدخل عليهما.

- لازم أشوفها.

كان الألم الحقيقى باديا على وجهه. البنات تتطلعن إليه متأثرات. «ياعينى يا كروان» . «زعلان علشان أخته حتسيبه» «روحه فيها». كانت أم الضابط بالحجرة الداخلية قد استمعت إلى الأحاديث فجاء صوتها من الداخل.

- تعال أدخل يا كروان.

دخل فلم يصدق أن هذه الحمراء الوجه مثل عروسة المولد هى أخته لولا أن نادته ومدت له يدها. قالت بصوت أجمل من صوت فاطمة ذلك اليوم.

- حتوحشنى يا كروان.

صوتها المختنق جعل أم الضابط تحذرها.

- إياكى تبكى يا شوقية . تفسدى الزواق.

ثم تحدثت إلى كروان قائلة ما سمعه من أمه كثيرا.

- كل بنت مصيرها لزوجها ياكروان.

لكنه لم يكن يسمع شيئا. لم يترك حتى ذكرى رؤيته لأم الضابط ذات مرة عارية تماما تقفز إلى ذهنه. كانت أمه قد أرسلته بجلباب خاطته لأم الضابط. وجد باب العشة مفتوحا فدخل دون أن يطرقه. وجد باب البيت مفتوحا فدخل خفيفا ليرى أم الضابط تقف أمامه فى الصالة وسط طشت كبير عارية تماماً. كانت عالية جدا فهى امرأة طويلة، عريضة الجسم ضخمة الثديين عظيمة الفخذين بيضاء مشوبة بالحمرة. وقف مبهورا أمام المشهد. تجمدت عيناه على الهضبة السوداء المليئة بالشعر الأسود بين فخذيها وأم الضابط بدورها ابتسمت بفمها الكبير وبانت أسنانها الذهبية.

- ماذا تريد يا كروان؟

لكنه لم يجب بكلمة. كان جوار الطشت النحاس صفيحة مياه ساخنة كبيرة يرتفع منها بخار الماء، و«الجارية» خادمة أم الضابط التى تحمل هذا اللقب القادم من عصور سحيقة ولا يعرف أحد كيف توصلت أم الضابط أو زوجها إليه، الجارية تقف فى يدها كوز تسكب منه الماء الساخن على رأس أم الضابط التى كان شعرها القصير ملتصقا بوجهها.

انزعجت الجارية التى كانت ترتدى جلبابا خفيفا جعله الماء المتطاير عليها يلصق بجسدها فى أكثر من مكان. ضحكت أم الضابط وقالت.

- لا تخافى . كروان بعد صغير. وحتى لو كبير كروان ولد لطيف..

أسرعت الجارية وأخذت منه الجلباب ثم دفعته أمامها إلى الخارج وهو الذى لم يتكلم بعد ظل ممسكا بصورة الجسد الضخم المبتل تحيطه غلالة من البخار تتوسطه هضبة الشعر الأسود الغزير . كان أصعب

شىء بعد هو ألا يقول ذلك لأحد، ولقد نجح.

مشهد كهذا كان يمكن ، بل يجب، أن يقفز إلى ذاكرته وهو يرى ام الضابط مع أخته، خاصة أنه حدث منذ أقل من عام، لكنه لم يتذكره، اختفت أم الضابط تماما من المشهد أمامه. كان يتقدم من أخته شيئا فشيئا، وفى اللحظة التى همت فيها أن تأخذه إلى حضنها وتقبله هوى بكفه على صدغها فصرخت أم الضابط «يالهوى» وعضت شوقية شفتها وسكنت حزينة جامدة.

تركت اليد الصغيرة أثرها على البودرة التى على الخد بينما خرج كروان مسرعا. لمح وهو يلتفت عائدا الدمعة التى انفلتت من عين أخته، والتى ستفسد «الزواق»!

دخلت أمه والبنات لحظة خروجه من الحجرة. وقفن مندهشات بينما كان هو قد ابتعد كثيرا عن البيت وخرج من المساكن كلها ووقف على شاطىء ترعة المحمودية يتطلع إلى الصنادل القادمة من الميناء. يقولون إنها تبحر إلى الصعيد، وأن بين الاسكندرية والصعيد مئات الأميال، فكيف إذن تعود بسرعة إلى الاسكندرية. ليست هى التى تعود يا كروان. صنادل أخرى تأتى كل يوم. لكن الذى يغادر الإسكندرية يعود أيضا وإن بعد وقت طويل. لابد. الدنيا مليئة بالصنادل والسفن والناس الذين يأتون ويذهبون. الدنيا كبيرة يا كروان لايستطيع أحد أن يعرف أولها من آخرها!

انتهى فرح شوقية جميلا حملها بعده زوجها التاجر إلى بلدته كفر الدوار.

غنت فى الفرح أشهر فرق البياصة. حسان شرارة وبدرية السيد المطربة الجديدة التى يذيع صيتها الآن فى الأسكندرية ورقصت فرقة أولاد دياب النوبية ورأت النساء البنات عاريات إلا من ريش يغطى خصورهن وأثدائهن وتعجبن جدا من هذه الفرقة الجريئة، وهتف الرجال

إعجابا خلف بدرية السيد وهى تغنى موالها الوحيد بصوتها القوى العريض طلعت فوق السطوح أسأل على طيرى، لقيت طيرى بيشرب من قنا غيرى، سألت ليه يا طيرى، قال لى زمانك مضى ، دوَّر على غيرى!!

وصعدت نوال تهدى لحبيبتها وصديقتها أغنية . التهب الفرح بالحماس. وبدا الزهو على وجه حمزة وهو يجلس فى الخطوط الخلفية مع الرجال. غنت أغنية نجاة الصغيرة الجديدة «بان علىَّ حبه من أول ما بان» وودعت البنات شوقية بالتصفيق خارج باب المساكن وهي تركب العربة المرسيدس الكبيرة الجميلة المزينة مع زوجها وخلفهما أكثر من سيارة أجرة من الريف تقل أهله وأقاربه، وعدن إلى بيوتهن مرحات حتى انفردت كل واحدة بنفسها، وبكت. أكثرهن بكاء كانت مشيرة التى لاتزال على أمل بعودة كامل المفقود فى الحرب.

•

كن على موعد آخر بعد أيام مع سفر بدرية مع عريسها إلى ليبيا. حلت ليلة السفر واجتمعن . تأملتهن أبلة نرجس بدون حكمت وشوقية، ومشيرة المعتكفة حزنا . غدا ستلحق بدرية بالغائبات. العقد الجميل تنفرط حباته واحدة بعد الأخرى وإن بسبب الأفراح. تتألم فى صمت ولا تتكلم . تعرف حكمة الزمان، بل تتمنى لهن جميعا أن يلحقن بشوقية وحكمت وبدرية بالفعل..

قالت الجونى.

– كل أغانى ما يطلبه المستمعون الليلة من أجل بدرية، هدية منا.

قالت حسنة:

– الأغانى الحلوة فقط. أغانى النكد خليها لنا.

ضحكن، وأخرجت نوال من علبة قطيفة صغيرة زرقاء معها شيئا ظهر انه عقد من الكهرمان برق فى عيونهن.

- هذا لك يا بدرية كهرمان حر.

شهقت البنات. كان بريقه الأصفر لايقاوم. قالت نوال.

- شوفى.

وقربت العقد من قطعة من القصاقيص فعلقت به. قالت حسنة مندهشة.

- انه يلقط كالمغناطيس.

- حرٌ كما قلت لكم. ليس صناعياً. الكهرمان هو أصل الكهرباء. العلماء عرفوا الكهرباء لما رأوا الكهرمان يلقط. درستها فى مادة الطبيعة.

هتفت حسنة.

- يخرب عقلك يا نوال. أنت إذن مثقفة ونحن لاندرى.

- بالكاد الدبلوم . الثقافة لا. قطيعة!

كانت أبلة نرجس تتأملهن وتعمل على الماكينة وتبتسم . وكن أيضا يتحدثن وهن يعملن . ضحكت نادية سلام وقالت.

- شكلك زعلان من الثقافة يا نوال.

- معى دكتور فالق دماغى بالثقافة. كلما قرأ كتاباً قال لى ان أقرأه، وأن الفنان لازم يكون مثقف!

قالت حسنة.

- هذا غير دكتور الغناء؟

- هذا شاب متخرج حديثا، الثانى أستاذ.

- أنت إذن فى مستشفى للمجانين يا نوال.

ضحكن بشدة. نبهتهن أبلة نرجس إلى أن عم على زين العابدين قد يحضر فى أى لحظة من الخارج والليلة صيفية فتحت فيها نوافذ البيوت. قالت نوال.

- يحدثنى بكلام غريب عن الالتزام بمشاكل الناس وهمومهم فى الغناء مثلما فعل سيد درويش.

قالت الچونى.

- من هو سيد درويش؟

قالت أبلة نرجس.

- أنا أعرفه. له أغنية جميلة هى «طلعت يا محلا نورها».

قالت نوال.

- سيد درويش هو فنان الشعب.

سكتن. لم يفهمن معنى ذلك. انشغلن بالعمل. قالت نوال بعد لحظات.

- لم أكن أحفظ له شيئا. حببنى فيه الدكتور. قال لى على الأقل لأنه كان من الاسكندرية، من كوم الدكة.

قالت حسنة.

- طيب إذا كانت أغانيه جميلة غنى منها واحدة لبدرية.

أغمضت نوال عينيها وقالت.

- سأغني لكن دور صعب لكن جميل.

وسكتن. توقفن عن العمل. بدا أن نوال شردت تماما عنهن، ثم بدأ صوتها الجميل ينساب.

والله تستاهل يا قلبى
ليه تميل ما كنت خالى
أنت أسباب كل كربى
أنت أسباب ما جرالى.

ولم تنته من الأغنية إلا وهن جميعا يبكين بحق. كان حزنهن غير عادى لفراق بدرية، إلا أبلة نرجس هى التى تماسكت. صحيح أن كل

واحدة منهن تتمنى زوجا وبيتا وأسرة، الغريزة والطبيعة تهفوان إلى ذلك، لكن محبتهن لهذه الجلسة حول أبلة نرجس أمر لايمكن التخلى عنه بسهولة. إنها الجلسة الأجمل فى حياتهن، الوقت الأجمل، الحرية الوحيدة المتاحة. إنه الزمن الخالى من الهموم التى ستشتاق إليه كل واحدة منهن بعد ذلك. إنها بكارة اكتشاف الدنيا شيئا فشيئا. الدمعة الأولى للفرح أو للحزن، هنا تحليق الروح مع الآمال. هنا أبلة نرجس هى أمهم ومركز الدنيا ومحور الآمال والأحلام.

هل يمكن حقا أن يصبح هذا اللقاء مجرد ذكرى؟ هذا ما يحدث شيئا فشيئا. يا لأبلة نرجس كيف حقا تذهب إلى الفراغ العميق وحدها؟ لكن المرأة الحكيمة كانت تعرف كيف تسكت وتطوى حزنها. ونوال صرخت، هتفت وهى تنطلق بأغنية جديدة، ضحكت وابتهج وجهها بالسرور كله.

أنا مت يا ناس مرة فى حبى،
جم الملائكة يحاسبونى.
أول سؤال سألونى عليه.
إيه السبب فى لوم العزال.

أعادتهن إلى الضحك والبهجة. هذا كلام جميل لم يسمعن مثله من قبل. كلام يبعث على المرح . عجيب سيد درويش هذا حقا. كيف لم يعرفن به من قبل وهو ابن مدينتهم. بعد أن انتهت نوال قالت نادية.

– نفسي أحضر فرح يغنى فيه سيد درويش.

ضحكت نوال ، وابتسمت أبلة نرجس . قالت نوال.

– سيد درويش مات من زمان، من قبل حتى أن نولد جميعا. مات أيام سعد باشا زغلول.

لم يكن يعرفن شيئا عن أيام سعد باشا زغلول فسكتن، بدت الأسئلة بائخة. طلبن من نوال أن تستمر فى الغناء لفنان الشعب ابن كوم الدكة الاسكندرانى البحبوح سيد درويش..

غنت نوال القلل القناوى ، أنا عشقت، الدنيا مالها يا زعبلاوى، أنا هويت وانتهيت. يخرب عقلك يا نوال كل هذه الأغانى تعرفينها؟ أعمل إيه فى الدكتور عاشق سيد درويش. تعملى إيه يعنى إيه يا بنت . تجوزيه وتخليه يحب فريد الأطرش!. يضحكن بشدة. أيوه ويغنى نجوم الليل تشهد على حالى. العمر قضيته حزين مظلوم.

يضحكن. تضحك أبلة نرجس بلا صوت. تغنى نوال «ماقال لى وقلت له، وجانى ورحت له ، يا عوازل فلفلوا» لفريد. أغنية سريعة الايقاع مبتهجة على غير العادة في أغانيه. تقف نادية ترقص على إيقاع الأغنية ثم تنهى نوال الغناء بأغنية الحلوة دى قامت تعجن فى البدرية...

عادت بهن نوال من الكهف المسحور الذى أخذتهن إليه لأكثر من ساعتين. لا واحدة منهن فكرت فى شىء آخر غير هذه السعادة التى تنسكب عليهن من صوت نوال الصافى . كيف حقا لا تغنى فى إذاعة الاسكندرية؟ كيف لا تقبلها لجنة الاستماع للاصوات الجديدة؟ إنها جديرة بالغناء فى إذاعة القاهرة ذاتها لكن بدرية كانت قد وقفت فأعادتهن إلى الحقيقة، حقيقة أن الليلة لوداعها.

– خلاص يا بدارة؟

– خلاص يا أبلتى.

وارتمت بدرية فى حضن المرأة السمينة التى أرادت الوقوف فتأخرت، وبينما كانت بدرية تبكى على صدرها راحت هى تربِّت على ظهرها، إنها طفلتها الصغيرة الحمراء كالدجاجة ستسافر بالقطار إلى السلوم ثم

تقطع الصحراء فى سيارة إلى بنى غازى. تعرف أبلة نرجس الطريق من كلام زوجها الذى يسافر كثيرا مع العمال لإصلاح خطوط السكك الحديدية بالصحراء. يالها من رحلة على الدجاجة الصغيرة. لكن لا بأس إنه الزوج والزواج..

راحت بدرية تحضنهن واحدة بعد الأخرى. مسحت أبلة نرجس دمعة تسللت منها ، كبحتها حتى لاتنفطر البنت فى البكاء أكثر. لكنهن، البنات الصغيرات، لم يستطعن أن يتماسكن. شهقن واندفعن فى البكاء خاصة حينما احتضنت بدرية نوال وقبلتها كثيرا وهى تشكرها على العقد الكهرمان وعلى الغناء الجميل الذى غنته من أجلها وخرجت مسرعة. بقين واقفات فى حيرة مفاجئة. صارت الدنيا أوسع من قدرتهن على الفهم أو الحركة فجأة.

قالت أبلة نرجس.

- بنات . الدنيا صغيرة. سيأتى يوم تقابل فيه كل واحدة منكن الأخرى، وأقابلكن أنا أيضا. أسألونى أنا التى أعرف الدنيا أكثر منكن. أسألونى يا بنات . أجل أنا أعرف...

ولم تستطع هذه المرة أن توقف دموعها. حاولت ولم تنجح . راحت تهتز أمامهن ثم انفرط منها البكاء لأول مرة أمام البنات. بناتها الصغيرات، نوال وحسنة ونادية والچونى، ترى من عليها الدور فى الغياب. من ستترك العقد الجميل وتمضى فى الفراغ؟

(٤)

لافائدة يا محمود. كلاكيت آخر مرة فى الاسكندرية. فى القاهرة. فى الجمهورية العربية المتحدة كلها يا محمود! هاهم السينمائيون أولاد الأفاعى انطلقوا يضحكون منك كلما حدثتهم عن مشروعك . قالوا اكتبه، فكتبته. قالوا لغتك ركيكة. مالنا ومال اللغة يا سينمائيين يا محترمين!

السينما أحداث يا منتجين. تركوك وصنعوا فيلمهم عن بور سعيد . الفيلم يكتسح السوق فى لبنان الآن، وسيكتسح السوق فى مصر قريبا. قتلوك ليعطوا الفرصة لعز الدين ذو الفقار. طبعا. أليس هو صانع فيلم رد قلبى عن الثورة. هو مخرج الحكومة المدلل إذن!. لكن الأدهى من ذلك سليمان المؤلف الناشىء، الذى لم ينشر أى قصة، المجنون مثل عمه الذى يتحدث عنه كثيرا، والذى سينتهى مثله تماما، يطفش إلى بلد مجهولة. سليمان أيضا لم يستمع إليك. عدت من القاهرة يائسا، ما إن لامست قدماك أرض المساكن حتى ارتفعت الآمال أمامك. فكرت أن تعيد الكرّة ولجأت إلى سليمان.

– هل صحيح أنك تؤلف القصص يا سليمان؟

– بدأت أكتب فى رواية كبيرة يا محمود. كتبت عددا من القصص القصيرة لكنها لم تعجبنى.

– يعنى لو حدثتك عن قصة شعب بور سعيد هل يمكنك تحويلها إلى رواية تصلح لعمل فيلم.

– طبعا.. لو عجبتنى.

قال لك ذلك فى خبث وتحملته.

– ما رأيك لو ابتعدنا عن هنا؟ نجلس عند كوبرى التاريخ مثلا وأحدثك عن القصة.

- فكرة ممتازة.

الجو صيف لكنها ساعة مغرب طرية. والناس الذين اعتادوا أن يستحموا فى المحمودية ظهروا يستحمون فى المحمودية! سرب من الطيور يرتفع فى الفضاء محوما فوق الماء. صندل قديم يأتى من ناحية الميناء محملا بالجرارات الزراعية. قشر القصب يظهر على الأرض ويزداد كثافة كلما تقدما ناحية كفر عشرى يدوسان عليه فيتقصف تحت أحذيتهما ويسمعان صوت تقصفه. على يسارهما الآن الباب المفضى إلى أرصفة البضائع وسط السكك الحديدية. الرصيف القريب عادة هو الرصيف الذى تصل إليه القطارات المحملة بالقصب تنقله السيارات بالنهار إلى جميع أنحاء المدينة. هنا أيضا على الشاطىء تقف الصنادل القادمة من الصعيد محملة بالقصب وتفرغ شحناتها. الآن باب السكك الحديدية موصد، ولاصنادل تقف على الشاطىء، لكن قشر قصب كثيراً جف تحت شمس النهار وراح يتقصف تحت الأقدام. دخلا شارع التجارة الأسود الرطب المزكوم بالرائحة المكتومة للغلال المخزونة بمخازن الشارع على الناحيتين ، رائحتها رائحة شيء قديم أكلته الحشرات، رائحة حشرات تحترق . مدرسة عبد الله النديم وبيته على يسارهما. من يصدق أن من هذا البيت خرج خطيب الثورة العرابية ! قال ذلك سليمان فلم يرد محمود. كل الكتب تتحدث عن القاهرة ومقهى متاتيا والشيخ جمال الدين الأفغانى ولا أحد تكلم عن بيت عبد الله النديم بكفر عشرى. مسكين عبد الله النديم ينام جسده الآن في تركيا بعيدا عن بيته وأهله بآلاف الأميال. هل يمكن أن يعيده أحد بسلام يا محمود؟ سأله سليمان ولم يرد، يرتب أفكاره التى سيقولها. فجأة تساءل:

- ألا نشترى ورقا وقلما لتكتب يا سليمان؟

- لا تخف. ذاكرتي حديد ..

وصلا إلى كوبرى التاريخ . في وسط الكوبرى تماما توقفا، تحتهما مياه المحمودية صافية ، أمامهما الأفق متسع فوق الميناء أبيض تجلله سماء زرقاء كبيرة، على شاطئ الترعة مساحات ضيقة مستطيلة مزروعة بالخضراوات ، جرجير وخس وطماطم وباذنجان وفجل بينها أكشاك صغيرة يعيش فيها أصحاب هذه الأراضى العشوائية . مجرد أربعة أكشاك في كل شاطئ اثنان منها. وأمامهما بالميناء تظهر أعالى السفن وأعالى الأوناش والشمس التى تغيب على مهل. خلفهما مرّت ترام تتلكأ في سرعتها. كانت شبه خالية من الركاب.

– اسمع يا سليمان، أنا مظلوم ظلما بشعا في هذه الحياة.

قال ذلك محمود بإيقاع هادئ مؤثر، أو رآه كذلك فقال سليمان:

– ومن بالحياة ليس مظلوما يا محمود؟ الحياة نفسها ظلم. لقد قال أبو العلاء : تعب كلها الحياة فما أعجب إلا من راغب فى ازدياد يا محمود ..

فكر محمود قليلا ثم قال ..

ـ الكلاب والحمير ربما تكون مرتاحة أكثر من بنى آدم ...

– لكنى لا أقصد ذلك يا محمود ، الكلاب أيضا تتعذب وتمرض وتموت ميتة الكلاب ! والحمير كما ترى يعذبها بنو آدم أبشع تعذيب، إنما أقصد أشياء أعمق ..

– أعمق !؟

تساءل محمود في دهشة ... كان يود أن يكون كلامه مدخلا مؤثرا لما سيحكيه لسليمان عن بور سعيد لكن...

– أجل ما أقصده أعمق جدا ، يعنى لو لم تكن أنت موجودا مثلا هل كنت ستتألم من شيء ؟

– لا.

أجاب محمود في دهشة. الحقيقة أنه صار كالمأخوذ لايفهم ولا يستطيع أن يرفض الإجابة على سليمان أو يحول الحديث إلى شيء آخر. قال سليمان.

– وجود الإنسان هو سبب ألمه. اضرب أى حائط بحجر أو حتى بالجزمة أو بالرصاص هل سيتألم؟

– لا.

– لأنه غير حي. جماد . حياتنا هى السبب . حياتنا هى الظلم الحقيقى لكننا لا نعرف إلا الأسباب العارضة السانجة..

انزعج محمود للغاية من الحديث وقال فى يأس..

– يعنى لو كان الواحد حيطة كان أفضل!؟

– طبعا. لكن الأفضل هو ألا يوجد من الأصل.

– يعنى قصدك يموت!؟

– لا يوجد من الأصل يامحمود. هل تفهمنى؟. وما دام هو غير موجود فلن يحيا ولن ويموت!؟

وسكتا. سليمان الذى يدرك أن هذه الأفكار السوداء تجتاحه منذ اختفاء چين، ومحمود الذى أصابه رعب حقيقى. لو لم يكن موجودا هل كان ذلك أفضل حقا؟ الله يخرب بيت أمك يا سليمان يابن ديك الكلب! ماذا أنتظر من فاشل يصطاد الضفادع ليبيعها للتلاميذ؟ ومرت من خلفهما ترام أخرى أكثر ثقلا فى الحركة فأحس محمود بصوت العجلات داخل رأسه، بل تدوس العجلات على مخه تبعثره. لقد جاء يستعين بسيلمان فأسقط عليه جبلا من عدم الفهم. إنه الحظ السيىء يطاردك، يا محمود ، وإلا كان المنتجون قد وافقوا على قصتك عن بورسعيد ولم يقولوا ركيكة. كانت ستكون خبطة كبيرة لو سبقت عز الدين ذو الفقار. لكنك قابلت فى القاهرة مجانين فى مكاتب الانتاج، و لجأت الآن إلى

المجنون الأكبر الذى أردت أن تعطيه قصة ملؤها الحياة والقوة والتضحية فأعطاك حديثا عن الموت وانعدام الوجود. ويقولون إن عيد هو المشعور!

– تعرف يا سليمان ماذا حدث لنا فى بور سعيد؟

– قرأت فى الصحف لكنى جئت لأسمع حكايتك التى ستكون أهم.

– لقد انهزمنا يا سليمان فى بور سعيد شر هزيمة ولا يجب أن نتذكر ذلك أبدا أبدا .. هيا نعود..

كلاكيت آخر مرة يا محمود.. لا يجب أن تقول قصتك لأحد. تذكرها ولا تنساها ولا تقلها لأحد .. أى أحد..

الخميسى، الطويل الضخم مثل باب يأخذنا بالليل. يعبر بنا فى الظلام من المطرية إلى بورسعيد عبر بحيرة المنزلة. نحمل صناديق الذخيرة. نمشى بتؤدة كالجمال. الطائرات الانجليزية والفرنسية تواصل الضرب. الضرب يتركز على الشاطىء حيث المدافع المضادة . بروفة اسقاط مظلى خبيث. ودمى بلاستيكية على هيئة جنود تسقط بالمظلات . البنادق تنطلق فى الفضاء من كل مكان. أكثر الرصاص يصعد من حى المناخ. لقطة مكبرة من أعلى للمدينة كلها وقد تحولت إلى أفواه تنفث النار إلى السماء. تنين بآلاف الأفواه. طائرات الأعداء تركز الضرب على حى المناخ. الحرائق تشتعل فى الحى كله. الفقراء يدافعون عن بورسعيد. الفقراء يموتون جملة تحت النار والأنقاض. المناخ حى الفقراء. صراخ بأن الحرائق تشتعل فى الشارع الثلاثينى. الناس تهرول إلى هناك .أرتال البشر تطفىء النار فى كل مكان. خراطيم وجرادل . رجال ونساء وأطفال . عويل وصراخ وبكاء ونداءات. اشاعات تنطلق بأن مظلات الانجليز نزلت بحى الجميل. الناس تهرع بالمئات إلى حى الجميل. القذائف تنزل من السماء وهى تجرى إلى حى الجميل. الانجليز لم ينزلوا إلى حى الجميل. شباب يمرون بالسيارات بين الناس يطلبون

منهم ألا يستمعوا إلى الاشاعات التى يبثها الطابور الخامس.
من هؤلاء الشباب الذين يحاولون إرشاد الناس؟ إنهم الشيوعيون وجدوا لهم عملا.. حوار يتطاير فى الفيلم.. الشيوعيون يساعدوننا فى توزيع صناديق السلاح بهدوء ونظام. رجال المحافظة يتعاونون معنا.
واحد من رجال المحافظة لاينسى ان يكتب أسماء الشيوعيين الذين يتعاونون معنا فى مفكرة صغيرة، لماذا يكتب أسماءكم يا هاجوج؟ اسمه هكذا هاجوج. إبراهيم هاجوج. لطيف ولا ينسى. نوبى الأصل. يقول لابد انهم سيقبضون علينا بعد الحرب. ضحك. كلنا نضحك. منشورات تنزل من الطائرات. رجل مسن يقرأ المنشور «أين عبد الناصر وجيشه؟ لقد ترككم وحدكم للموت». الرجل يصرخ فى الطائرات فى السماء. أنا الجيش. نحن الجيش. الجميع يهتفون خلفه. نحن الجيش. الهتاف يتكرر مثل كرة من نار يصعد إلى السماء، يسمع قائدو الطائرات ، يقول أحدهم.. إنهم مصممون على المقاومة سيدى الچنرال. اضرب بلا رحمة. يقول سيده الچنرال.. هدوء يعم المدينة. الحرائق خمدت أو فى طريقها للخمود.
رائحة دخان وأثاث وحيوانات ولحم بشرى يحترق. أطفال تبكى فى الأزقة. نساء تبكى فى الأركان. خروج جماعى بأقل متا ع. اللنشات تنقل الناس عبر بحيرة المنزلة. السيارات تجوب بور سعيد . أيها الناس لا تتركوا بلدكم، اصمدوا وقاوموا. النساء تهرع إلى وسط بور سعيد بقمصان النوم. الرجال فى السراويل الداخلية. من يلبس جلبابا من الرجال يخلعه يلقى به للنساء. الخامس من نوفمبر. تاريخ يملأ الشاشة. لن ننسى . الإنزال الحقيقى. لقد استولوا على حى الجميل والرسوة والملاحة. يشعلون الحرائق فى كل مكان يقابلهم. الخميسى يأتى إلينا بالأخبار فى مكمننا. كلما رأيته تذكرت أبواب القلاع الأثرية. هكذا وسط الضرب. اكتشاف جاسوس. الناس تلقى به من الدور الخامس إلى

الأرض. مشهد سيكون مرعبا. يحذف . يكفى إطلاق الرصاص. الانجليز يمشطون المقاهى فى شارع البحر. الضرب مستمر من الجو فى سائر المدينة. الجثث تملأ الطرقات. مازلنا نحارب بالبنادق من أكثر من مكان. نغير أماكننا بسرعة. الخميسى يرشدنا إلى طرق سرية دائما. الدبابات الروسية البرمائية تظهر على شواطىء بور سعيد . إشاعة أطلقها الجواسيس. الناس تجرى فى جنون إلى البلاج. يمتدون بالآلاف على الأرصفة، لقد ملأوا الشاطىء ليقابلوا دبابات الأصدقاء. رقص وفرح وأناشيد. تخرج دبابتان من الماء ترفعان العلم الروسى والعلم المصرى. كلاكيت آخر مرة يا انجلترا. آخر مرة يا إنسانية . المشهد صعب يا محمود ومؤثر ولابد أن يطول على الشاشة. العلم المصرى يرفرف والعلم الروسى يرفرف. صوت رفرفة العلمين يرتفع ويزداد ارتفاعا فى الفضاء. إنهم يصفقون معه، مع الصوت على الشاطىء. العلمان يرفرفان بشدة والناس تصفق فى جنون. الله أكبر تملأ الفضاء من حناجرهم الفولاذية. الكاميرا ترتفع على السماء . تصوير من أعلى. السماء صافية فلا طائرات الآن، ولاسحب رغم أن الجو شتاء. طيور النورس تحلق فوق الدبابتين، طيور بيضاء ودبابتان صفراوان وعلمان تبرق الوانهما البديعة فى هذا اليوم الجميل . كل شىء يبدو على ما يرام، الدبابتان تتحركان بين جحافل الناس المجنونين بالفرح. هاهم الحلفاء الروس يأتون. احترقت المدينة لكنهم أتوا. الانجليز انكمشوا فى الأماكن التى احتلوها. لابد انهم يستعدون الآن للهرب. هكذا يكون الانذار الروسى. خروشوف رجل شهم. لاتنسى بولجانين صاحب الانذار. أسماؤهم صعبة يا جدع لكن حلوة. روس. لكن فين روسيا دى يا بوعربى. روسيا؟! تقريبا فى روسيا. أى والله. ها ها ها. الضحكة تملأ الشاشة. كلاكيت آخر مرة. صوت القذيفة يدوى فى الفضاء. لقد تحركت ماسورة مدفع الدبابة أولا

ببطء شمالا ويمينا. إنها تستعرض البشر انطلق المدفع ومعه القذائف السريعة من المدافع الرشاشة. صراخ. صراخ. الناس تتكوم فوق بعضها بسرعة الطلقات. الدم يملأ الشاشة. الدم ينفجر فى كل مكان. الدم يحفر أنهارا على الرمال. يتلاقى فى أكثر من موضع . تتلاقى أيدى القتلى تتماسك على الأرض بين الجثث. الدبابتان انجليزيتان. كلاكيت آخر مرة للإنسانية. الناس تهرع فى الشوارع فى ذعر لم تره السينما من قبل. أقفز أنا على دبابة. أرفع غطاءها. والقى داخلها قنبلة. تنفجر. يفعل ذلك جندى آخر. تتوقف الدبابتان. لكن الموت يملأ الأرض بالجثث والدم. لايزال الصراخ والعويل. الكاميرا تستعرض وجوه القتلى. كلهم يبتسمون. كلهم شهداء وفى أفواههم جميعا زهور الياسمين. ليل حزين ينزل على المدينة. اجتماع ليلى لنا مع عدد من رجال المقاومة. كتاب وصحفيون جاءوا من القاهرة يشاركون فى المقاومة. بينهم امرأه شابة تحظى باحترامهم. الزميلة أمينة. هكذا ينادونها. فتاة جميلة أخري وسط رجال المقاومة. الفتاة تقوم باغراء ضابط انجليزى وتأتى به إلينا. يمشى خلفها واحد من رجالنا. فى زقاق معتم يقتل الانجليزى.

لا. أشطب هذا المشهد يامحمود. مشهد قديم من أفلام قديمة. الزميلة أمينة تطلب توزيع السلاح على النساء أيضا. توزع الخناجر والمسدسات على البيوت معنا. الانجليز والفرنسيون يستغلون حظر التجوال ويصعدون إلى البيوت ليلا ليغتصبوا النساء. امرأة تصرخ فى الشرفة. خلفها جندى فرنسى يحاول جذبها. تلقى بنفسها من الشرفة. يسمع الذين فتحوا النوافذ صوت ارتطامها بالأرض. تهتز عدة مرات. قلبها يخفق من أجل أولادها وزوجها يا محمود. يا أيها السينمائيون الأغبياء لماذا لم يعجبكم مشروعى، لايمكن أن يفعل عز الدين ذو الفقار فيلما على هذا المستوى. النساء يبكين خلف النوافذ. أصوات الرجال من

بعض النوافذ. عاشت مصر. تسقط فرنسا وانجلترا. تسقط اسرائيل.
النوافذ تتجاوب. الصوت يملأ الليل بالنهار. الليل يصبح ضوءا أبيض .
الليل أبيض يضيؤه صوت الناس. الصوت يطلع من الفم كأنه فتيل
شمعه مضىء، تتلاقى الأصوات فى الفضاء فتائل عديدة، بالآلاف،
فتضيء الليل؛ لايحتاج الأمر إلى أكثر من مهندس فى الخدع البصرية
أيها السينمائيون المحترمون! لكن المرأة لاتزال على الأرض. لايتقدم أحد
لسحبها إلى البيت لدفنها فيما بعد. أحد الشباب يخرج بهدوء من باب
المنزل يحاول اختراق حظر التجوال. يتلفت فى حذر يمينا وشمالا. يقف
قليلا فوق الرصيف. يعيد التلفت. ينزل الشارع على مهل. الكاميرا
تصور قدميه الواحدة بعد الأخرى وهى تلتقى بالأرض. الكاميرا تسقط
على بندقية جندى فرنسى خلف أحد السواتر الرملية البعيدة. البندقية
تتحرك فى اتجاه الشاب. الشاب لايزال يتلفت حواليه. قطة تمشى أمامه
بهدوء تنونو. يرتفع مواؤها. تبدو كمن أصابها مس من الجنون. يظهر
كلب ضخم قادما من نهاية الشارع. إنه يطارد القطة التى راحت تجري.
قطع على الشاب يقف مرتبكا، ثم قطع على فوهة البندقية تخرج منها
رصاصة و دخان. صوت الرصاصة يدوى فى الصمت. الكاميرا تمشى
ببطء. لابد أن المتفرجين الأن يتوقعون رؤية الشاب ميتا، الكاميرا تقف
فوق الكلب صريعا يقطر دما. قتل الجندى الفرنسى الكلب.ابتلع الشاب
ريقه واستمر فى طريقه إلى المرأة. الذعر على وجوه الناس خلف النوافذ
المفتوحة. ينحنى الشاب الذى وصل إلى المرأة يحملها. يقف وسط
الشارع يدور بها حول نفسه. الناس خلف النوافذ تصفق بجنون. يمشى
حزينا وهو يحملها بين ذراعيه فى اتجاه االمنزل الذى سقطت من شرفته.
التصفيق لا ينقطع. قطع. الكاميرا على فوهة البندقية تتحرك فى اتجاه
الشاب . الشاب يمشى بهدوء. التصفيق يزداد كلما اقترب من المنزل.

مسافة أمتار قليلة لكنها احتاجت إلى وقت طويل. الإحساس بالوقت لايكون فى مشهد كهذا إلا كذلك. وقت طويل لايمر. يصعد الشاب الرصيف بالمرأة. يصل إلى الباب. تدوى الرصاصة، تصيبه فى ظهره. يظهر الألم على وجهه. رصاصة أخرى. لايترك المرأة. يمشى والتصفيق يزداد. لقد دخل إلى المنزل واختفى وازداد دوى الرصاص المتجه إلى المنزل. الكاميرا تنزل إلى أسفل من الباب. خيط من الدم يخرج منه إلى الرصيف ويمشى فوقه على مهل. على مهل. على مهل. كلاكيت آخر مرة يامحمود. لا الاسكندرية ولا القاهرة ولا الجمهورية العربية المتحدة تصلح لك. لو ذهبت بفيلمك هذا إلى هوليوود لاشتروه منك. أجل. هوليوود ولا أقل يا محمود...

نهض واقفا فى حالة من الحزن الشفيف. حزن أقرب إلى الفرح. لايعرف. خرج دون أن يكلم أحدا من أسرته. سأل نفسه وهو يمر من أمام أبيه هل يعقل أن يظل حتى هذه السن بلا عمل ثابت. هل يتفق أن يظل حتى هذه العمر ينتظر ثمن السينمات من أبيه العامل المسكين؟ ما الذى قذف فى قلبه حب السينما؟ ملعون أبو السينما. إنه لم يجد حتى الآن أى فرصة ابعد من كومبارس وسط المجاميع. هل يكفى كون أمه قد ورثت قيراطين فى البلد يصلها عشرون جنيها ريعا لهما كل عام ليصبح هو من العاطلين بالوراثة؟. لكن ماذا يفعل وقد فشل فى كل عمل حاوله منذ أن اشتغل مع يوسف شاهين فى فيلم ابن النيل. منذ ذلك الوقت وهو يشعر بنفسه شخصاً مختلفاً عن كل الناس. من الذى اتيحت له أن يحمل شعلة ويجرى بها وسط الظلام فى الريف ساعة الفيضان مثله؟. يا لها من ليلة تم فيها التصوير . ياله من مخرج يوسف شاهين هذا الذى جعل ذلك كله يظهر فى السينما كأنه حدث فى وقت واحد!. لن يتنازل محمود ويعمل أى عمل آخر غير السينما. حتى لو ظل كومبارس، فسيأتى اليوم الذى يسيطر هو فيه كمخرج على كل هؤلاء الذين أهانوه وسخروا منه.

أخذ طريقه إلى دكانة العنيبسى. كان الوقت بعد الظهر. نساء كثيرات يخرجن من القبو الآن بعد شراء السمك ويسرعن خوفا من أن يدركهن الظلام. محمود القزعة مشغول فى إعداد صناديق السمك الذى سيشحن إلى المدينة وتغطيتها بقطع الثلج الذى يقوم بتهشيمه بمطرقة خشبية معه عماله الثلاثة الذين يقف وسطهم يمسك بيده «السنجة» الحديد التى يسحب بها ألواح الثلج من الكشك الذى يملكه على رأس السلالم المؤدية إلى القبو و يحتفظ فيه بالثلج. كان الجالسون الذين تعودوا ذلك كل يوم فى مكانهم، بينهم تاجر البهار فى حالة من الصمت العميق. مرت ثلاث نساء خارجات من القبو صاعدات السلالم ثم أخذن طريقهن إلى اليمين فى اتجاه المعدية . كن ملتفات بالملاءات، ويمشين على مهل، ويتمتعن بأرداف عالية ضخمة عجيزة كل منهن قد انفلقت فلقتين عاليتين ترتفع الواحدة وتنخفض الأخرى اثناء المشى فى توقيع رتيب ومثير لمحمود القزعة الذى ظلت عيناه معلقتين بالأرداف الصاعدة الهابطة فاتحا فمه عاجزا عن التعليق. انتفض فجأة لأن السيجارة التى بين أصبعيه كانت على وشك الانتهاء فأحرقته. نتر يده نافضا السيجارة بعيدا فضحك تاجر البهار ووقف عدد من العمال ينظرون إليه بدهشة كاتمين ضحكاتهم فهتف فيهم محمود القزعة «اشتغل يابن ديك الكلب أنت وهو» وفوجىء محمود الملاح بتاجر البهار يوسع له مكانا إلى جواره.

- تعال ياسى محمود، اجلس جوارى، شايفك على غير ما يرام.

ما إن جلس محمود الملاح حتى باغته تاجر البهار.

- كم يكفيك لصنع فيلم يا سى محمود؟

ارتعشت شفتا محمود. ارتعشت أرنبة أنفه. أوشك أن يسب تاجر البهار ظانا أنه يسخر منه، لكن تاجر البهار قال فى سرعة.

- لاتزعل هكذا. لا تستصغر شأنى.

عاد محمود إلى هدوئه وقال:

– أنت رجل طيب يا ....

– فلفل. اسمى فلفل. معقول إنك نسيت اسمى ياسى محمود. أهكذا يا سى محمود. لا تنس اسمى مرة أخرى بالله عليك، أنا أحبك وأحب طموحك. الفلفل أثمن البهارات فى الشرق.

بدأ محمود يبتسم واستمر تاجر البهار يتحدث.

– كان لى صديق اسمه «البن». عمل مشكلة مع واحد جاره. أخذوه إلى قسم البوليس . هل تعرف ماذا فعلوا به؟.

– ضربوه طبعا.

– ياليت. طحنوه!!

ضحك محمود الملاح بشراسة ضحك تاجر البهار . ضحك الرجلان الجالسان لا يعرف أحد عنهما شيئا. ضحك رجال محمود القزعة الذين لم يسمعوا الحوار! راح محمود القزعة يقاوم الضحك. لم يسمع شيئا ويرى أن هؤلاء الجالسين بلا عمل يفسدون متعته فى الفرجة على النساء.

كانت امرأتان تصعدان السلم، جذبتهما الضحكات، فالتفتتا ناحية تاجر البهار وابتسمتا.

– هيا. تعالى معى يا سى محمود. الليلة منجة!

قال ذلك تاجر البهار وهو يقف يشد محمود الملاح من ذراعه فوقف ومشى معه كالمسحور.

– لاتتردد ولا تخذلنى. مضى شهر الآن وأنا أراقب هاتين المرأتين فى حضورهما. لايمر أسبوع إلا وتأتيان لشراء السمك. تفاهمت عيوننا على كل شىء. إنهما كما ترى بطتان حقيقيتان. أنظر إلى ظهر كل منهما كيف أبدع الله فى تقسيمه فما بالك لو انفتحت البطن أمامك؟ ولا هند رستم ياسى محمود.

كانت المرأتان فى طريقهما إلى المعدية وخلفهما يسرع محمود الذى أمسك يده تاجر البهار!.

عند الفجر. وبعد أن عاد محمود الملاح إلى المساكن، لم يكن قادرا على تصديق ما جرى. لم يكن يتصور آن لتاجر البهار هذه القدرة الساحرة على اصطياد النساء. كان يعرف أن كل الجالسين جوار دكانة العنيبسى ضائعون يتحدثون كثيرا عن النساء، وحديثهم ليس إلا من قبيل الفشر الذى يلازم الفاشلين. لكن الليلة سقطت امرأتان معا فى فخ تاجر البهار الذى ظل ينصبه طيلة شهر كامل كما قال له. لقد ركبا معهما المعدية فبادرهما تاجر البهار بكلام لايذكره محمود، ولن ينسى كيف اتسعت عينا المرأتين بالفرح والدهشة والرغبة معا. لكن محمود كاد يضحك وهو يسمع تاجر البهار يقول لهما «شهر كامل أقول لنفسى ياولد يا فلفل لاتيأس من رحمة ربنا»..

لقد بدا أنهما تآلفا من قبل هذا اللقاء. مشوا جميعا إلى كوم الشقافة ثم عبروا الحى كله إلى شارع الرحمة. ياه. مشوار طويل. دا انتم كنتم اشتريتم سمك من باب عمر باشا أقرب!. ربنا قاسم تيجوا الملاحة ونقابلوكم.. قال تاجر البهار والمرأتان الصغيرتان لم تطلبا منهما نقودا ولا أى شىء آخر. محمود لا يعرف لماذا فكر فى ريا وسكينة وهما يمشيان مع المرأتين فى الأزقة الضيقة. ابتسم. ريا وسكينة لم تقتلا الرجال. دخلوا جميعا منزلا صغيرا منخفضا ظن محمود أنه جحر للأرانب لا أكثر . لكن فى الداخل كانت هناك ثلاث غرف واسعة. انفرد هو بالأصغر فى غرفة وانفرد تاجر البهار بالأكبر فى غرفة ثانية وكان محمود يسمع أصوات لهاث فى الغرفة الثالثة التى رآها مغلقة الباب بقفل كبير فخاف أن يسأل وترك نفسه للمرأة الصغيرة المدهشة.

لقد أعطاه تاجر البهار شيئا ملفوفا فى ورقة سيلوفان قبل أن يدخل

بالمرأة الغرفة.

- ما هذا . بونبونى؟

- تركيبة سرية ستجعلك ترى ما لم تره فى حياتك.

أخذها محمود متردداً. شجعته المرأة.

- خذها يا سى محمود، صاحبك عطار!

استحلبها محمود كما قال له فلفل، وشرب بعدها فنجانا من القهوة المحوجة كما قال له فلفل أيضا، وصار لا يسمع صوت السرير القديم وهو يئن من أثر الحركة، بل يسمع صوت البيت كله يئن، سلاله وجدرانه ونوافذه. وخشى أن تسمع البيوت الأخرى أنين البيت فتئن كل بيوت الحى تعاطفا ومشاركة للبيت فى أنينه فيتجمع الناس ويرون ما يفعلون وتكون فضيحة!. انتهى لكنه ظل منتعظا. كرر النوم سبع مرات حتى ضجت المرأة وتعبت وكادت تموت بين يديه. رأى وجهها بالفعل يشحب وتزرق بشرتها فارتفع عنها. خاف حقا أن تموت بين يديه وخرج مع تاجر البهار يمشيان منتعظين فى الطريق الخالى بعد منتصف الليل ويضحكان غير مصدقين.

- هل عرفت عنوان البيت؟

تساءل تاجر البهار فرد محمود..

- لا. هل عرفت أنت اسم المرأتين؟

- لا. لكنهما ستأتيان إلى الملاحة دائما..

- شىء عجيب.

قالا ذلك معا وعادا يضحكان وهما يمشيان فى المدينة الصامتة. اقتربا من جامع العمرى ورأيا عددا من الناس يتجهون إلى صلاة الفجر. قبل أن يتجه محمود إلى شارع عمود السوارى داخلا إلى كرموز قال.

- متى سينتهى أثر هذه التركيبة السحرية.

- لا أعرف.
- لا تعرف؟. هل سنظل هكذا أيضا بالنهار؟
ضحك تاجر البهار الذى لم يكن يعرف أن اثر هذه التركيبة سوف يمتد طويلا هكذا. لقد اختلت منه المقادير فيما يبدو مع انه يحفظ عن ظهر قلب كل وصفات كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه».

تركه محمود ومشى وحده منتعظا فى الشارع الطويل الذى تضيؤه مصابيح البلدية العالية. على يساره سور المدافن وعلى يمينه المنازل البيضاء المنخفضة ومحلات القماش. معظمها محلات لبيع الأكفان وبعد أن اقترب من «سوق عُداية» رأى سيارة شرطة..

لابد أنها حملة قوية على تجار المخدرات . تأكد انه يحمل بطاقته الشخصية. لكن... ماذا يحدث لو شاهد الضابط إيره المنتعظ فى البنطلون . مد يده داخل البنطلون محاولا وضعه بطريقة تقلل من ظهوره لكنه أخفق . ترك الأمر للحظ. وكان حظه هذه الليلة مختلفا عن حظه فى الحياة فلم يوقفه أحد من رجال البوليس ووصل إلى كوبرى كرموز بسرعة. عبره وأخذ طريقه إلى المساكن. كان يسمع صوت صلاة الفجر لايدرى من أين يأتى . ولدهشته وجد سليمان جالسا على مقعد خيزران أمام المساكن. لماذا يسهر سليمان حتى هذا الوقت؟ لابد أن لديه مايؤرقه. سيلقى عليه التحية ولا يتوقف . لا. لا يليق. لابد أن يتحدث.
- صباح الخير يا سليمان.
- صباح الخير يا أبو حنفى.
- هل تعرف ماذا حدث فى بور سعيد يا سليمان؟
اندهش سليمان جدا. قبل ان يجيب قال محمود.
- انتصرنا على الدول الثلاث انجلترا وفرنسا واسرائيل. كنسناهم. لا. أكثر من هذا.....
وقال الكلمة القبيحة وهو يشير إلى ذكره المنتعظ لايزال...

(٥)

لم يصدق سليمان وهو يمسك بالمظروف بين يديه ان العالم يمكن أن يكون صغيرا إلى هذا الحد، طيبا إلى هذا الحد... رحيما..

ما المسافة بين مصر واستراليا؟. هى المسافة بين استراليا ومصر!. هى الذاكرة تنتصب فى بئر النسيان. قالت إن الخطابات ستنقطع بين مصر وأوربا أو على الأقل ستُراقب. لم ينتبه أحد إلى استراليا. البيروقراطية المصرية أحيانا تكون مفيدة، أو لعل فى الأمر خطأ ما، اهمالا ما..

عزيزى سليمان:

مضى أكثر من عام لم تغب فيه عن ذاكرتى. لايبدو أننا سنعود إلى مصر أبدا. أرسل لك هذا الخطاب ولا أعرف هل سيصلك أم لا. إذا وصلك سوف أكون محظوظة لانه سيؤكد لك أننى لم أنسك. اتمنى أن تكون قد التحقت بالجامعة، بالكلية التى تريدها. ليتك تقلع عن دراسة العلوم، وتلتحق بكلية للدراسات الإنسانية. هذا يقترب جدا من ميولك الأدبية. مصر بلد جميل لا يمكن أن أنساه. الاسكندرية أجمل مدينة فى الدنيا. هكذا يقول لى أبى دائما وأشعر أن ما يقوله هو الصواب. لقد تزوجت من دبلوماسى نابه. انه يجلس جوارى وأنا أكتب لك هذا الخطاب. نحن فى استراليا الآن. إنه يندهش جدا أن لى صديقا فى مصر. يتصور أن مصر بلد للتماسيح تسبح فى النيل. مسكين لم يزر بلادكم. إننى أتابع أخباركم.

يحزننى جدا أن عددا من الأجانب، الطليان واليونان، بدأوا يتركون الاسكندرية. سياسة التمصير لا تعجبنى. إن عبد الناصر زعيم وطنى كبير ومخلص ما فى ذلك شك، لكن بلادكم لايمكن أن تعيش معزولة عن

العالم. موقعها وتاريخها. أنا أعرف انكم تريدون أن تمسكوا ثرواتكم بأيديكم، لكن لابد من طريقة صحيحة.. طريقة لا تسبب الإزعاج لجيرانكم فى أوربا التى هى الأقرب إليكم.. كذلك أقرأ عن الوحدة التى تمت بين مصر وسوريا. هذا أمر مهم وخطير.

لو توصل العرب إلى نوع من الاتحاد، مثل الاتحاد الأميركى، أو البريطانى، سيكون مفيدا. لكن.... على أى حال. ننتظر الزمن. المهم أن تنتبه أنت لموهبتك وتستمر فى الاطلاع على الثقافات المختلفة، وإذا فكرت يوما فى السفر إلى إنجلترا أو إلينا هنا فى استراليا فيمكننى مساعدتك كثيرا..

المخلصة

چين بانكروفت

لم ألتحق بالكلية التى أريدها يا چين. لقد تم تسريب الامتحانات قبل موعدها هذا العام . اكتشفت الدولة ذلك فتم تأجيل الامتحانات لمدة شهر.

فى ذلك الشهر أصابنى رمد خبيث لم يعطني فرصة المراجعة. لكنى لم أتخلف عن الامتحان . صممت على النجاح . تم توفير لجنه خاصة لى وتخصيص شخص يكتب ما أمليه عليه من إجابات ، فى منتصف الامتحان أصابتنى حمى لعينة فكان اخوتى يحملوننى كل صباح ملفوفا فى بطانية صوف رغم الحر داخل تاكسى حتى لجنة الامتحان. كان واضحا ان الرجل الذى أمليه لم يعد يكتب لأننى كنت أخرف بأى شىء، بل بأشياء غريبة لا علاقة لها بالعلم ولا بمناهج الدرس.

هكذا قال لى مراقب اللجنة وهو يسوق الاعذار للرجل الذى تم تخصيصه ليكتب لى. كنت على يقين أننى لا أخرف وإنما هو الرجل

المخصص للكتابة يكتب غير ما أمليه عليه. هكذا أحكمت المؤامرة ضدى من القدر والناس فرسبت. هذه هى المسألة ببساطة يا چين . هل أكتب إليك ذلك. ماذا يفيد؟

كنت بدأت أنسى، وأسلى الوقت الجميل الذى أمضيته معك. أحاديثك الرائعه عن د. هـ. لورانس الذى لم أكن تعرفت عليه. كيف حقا لم تقرأ د. هـ. لورانس؟ أحب الوجوديين الفرنسيين. وهل الجنس ليس حالة وجودية؟ أنا لست ضد التفسير الجنسى للحياة، لكن يبدو أننى لم أنتبه إلى اهمية ذلك . ألم يسبق لك الحب يا سليمان؟ للأسف لا. لماذا؟ لا أعرف. هذا سؤال لم يخطر ببالى. ربما انغماسى فى القراءة. الحب يحتاج إلى وقت . هى القراءة يا سليمان حقا، لابد أنك أحببت قصص المحبين. هو كذلك بالضبط، تضحك وتلمع عيناها وتهز رأسها فيمرح شعرها فى كل اتجاه. احببت رواية آلة الزمن جدا، إنها أيضا أقرب إلى مشاعرك الوجودية. ربما.. من الصعب جدا أن يجد الإنسان نفسه فى عصر آخر وبين ناس آخرين. شعور بالغربة عميق، والدهشة أيضا. أصعب منه أن يكون كذلك فى عصره وبين أهله. أفكارك تميل إلى التشاؤم يا سليمان. ربما هو عمى الكاتب الفاشل الذى ترك البلاد بحثا عن سراب اسمه الامبراطورية المصرية فى أفريقيا. يا إلهى ياعزيزتى چين . لقد ايقظت فىّ الحياة. إننى عاكف على كتابة مسودات روايتى الكبيرة عن الاسكندرية التى تحبينها. أجمع لها المادة من الصحف. مادة عشوائية لكنها تعكس روح العصر. فمثلا اهتم جدا بخبر مثل احتفال جريس كيلى بعيد الميلاد الأول لطفلتها كارولين، وبالرقصة الجديدة التى أطلقت عليها نعيمة عاكف اسم «حسن» فى فيلمها الجديد «أحبك يا حسن» كذلك بازدياد المبيعات من الملابس الداخلية ماركة النبلة للجنسين، وبعرض سينما ريالتو بشارع صفية زغلول لفيلم «الأمير

والراقصة» لمارلين مونرو ولورانس أوليفييه، وظهور أعظم فيلم سينمائى مصرى بعنوان رُد قلبى بالألوان الطبيعية، وكيف قتلت سيارة الرفق بالحيوان طفلا فى محرم بك حين انفصل الجرار عن السيارة وصعد على الرصيف فقتل الطفل وأصاب أربعة من المارة، وكيف بلغت اسعار الذهب أربعمائة وستين قرشا للجنيه عيار أربعة وعشرين قيراطا، وحادث التسمم الفظيع لسكان القاهرة بسبب الخبز والتحفظ على الدقيق المستخدم وفتح جميع المستشفيات العسكرية للمصابين، وطلب إمام اليمن الانضمام إلى الوحدة بين مصر وسوريا، ولقد شاهدت فيلم «ستشرق الشمس أيضا» المأخوذ عن رواية هيمنجواى البديعة التى أحبها جدا والتى مثلت فيه أفاجاردنر مع تايرون باور. لقد عرضته سينما مترو بالاسكندرية وكلفنى الفيلم ربع جنيه كاملاً، التذكرة والمواصلات والكوكا كولا التى شربتها وسندويشات السجق التى اشتريتها من المحل اليونانى المقابل للسينما وسيجارتين وينجز لزوم المنظرة أمام السينما وتلميع الحذاء فى محل لأول مرة فى حياتي أنا الذى أفعل ذلك دائما بنفسى وشراء مجلة «آخر ساعة» في عودتى بالليل وجلوسى عند بائع البليلة بالمكسرات الشهير فى أول شارع عمر بن الخطاب من ناحية محطة مصر! إيزنهاور يجرى عاريا بين الولايات الامريكية. وأسجل من أجل هذه الرواية التى أخطط لها كيف رأى مجلس الدولة أن رقصة الروك آند رول هى رقصة خليعة وجنس صاخب، ذلك أن محافظة القاهرة كانت قد طلبت من المجلس الفصل فى إباحة هذه الرقصة من عدمه فى الملاهى، وجاء فى مذكرة المحافظة، تمثل هذه الرقصة كأنما يستولى الرجل بقوته على المرأة بضعفها فيحملها ويدور بها وهى مستسلمة له خاضعة لإرادته ولا يزال يسيطر عليها بقوته حتى تتهالك بين يديه وتبدى من الأصوات والحركات ما يشعره باستسلامها

إليه وعندما تصل المرأة إلى هذه الحالة تكون حركاتها قد كشفت عن ساقيها - وتفاصيل دقيقة فى كلام المحافظة لم تذكرها الصحف - ويتجمع من ذلك لدى النظارة فكرة الاستسلام الواقعى من المرأة إلى الرجل، ولايمكن القول بأن كل المتفرجين قد استعد حياؤهم لتقبل هذا التعبير الملتوى عن الصلة الجنسية بين الرجل والمرأة، حتى لو لم يكن فى هذا العمل جريمة من الناحية القانونية فلا أقل من اعتباره مغايرا لتقاليدنا وما يتمسك به ذوو الأخلاق من مقاييس اجتماعية للأدب بعامة.

وقد جاء فى فتوى مجلس الدولة انه تلاحظ أن هذه الرقصة لايقوم بها المحترفون فحسب، بل يشاركهم فيها رواد الملاهى، الأمر الذى يستدعى سرعة ايجاد علاج للحيلولة دون التردى فى مهاوى الفسق الذى قد تدفع إليه هذه الرقصة، ولما كان موضوع هذه الرقصة يقوم على فكرة التعبير الملتوى عن اللذة الجنسية بين الرجل والمرأة، وانها تدفع إلى استثمار الغرائز البهيمية، لذا نرى انه يجب على الإدارة أن تمنع هذه الرقصة بالطريق الإدارى حرصا على الآداب العامة، فى الوقت نفسه بدأ عرض فيلم الملاك الصغير للممثلة الجديدة الجميلة ذات العينين الفاتنتين زبيدة ثروت واشتعلت الأزمة على الحدود بين مصر والسودان فى الجنوب وارتطمت طائرة مصر للطيران القادمة من بيروت بتل من الرمال جوار المهبط فاشتعلت فيها النيران، ولحسن الحظ ساعدت الرمال على اطفاء الحريق، لكن مساعد الطيار فتح نافذة الهبوط الاضطرارى وقذف بنفسه منها فجذبه الهواء نحو محرك الطائرة الذى كان لا يزال دائرا فقضى عليه فى الحال بينما نجا جميع الركاب وبقية الملاحين، وهاجمت قوات من البوليس السرى الأميركى فى ولاية فيلادلفيا دارين للعرض السينمائى تعرضان فيلم «وخلق الله المرأة» لبريچيت باردو لما تضمنه من مشاهد خليعة.

ولا أنسى ياچين أن أسجل أحوالنا هنا. فلقد مَرّ بالمنطقة مجنون جديد طويل جدا حتى يظنه المرء يمشى على شجرتين وليس ساقين. أنه يأتى من ناحية كرموز - عكس مجنون الغناء الذى عادة يأتى من ناحية كفر عشرى - ويمشى على مهل على الأرض الترابية للشاطىء ولا يمشى فى الشارع الأسفلتى أبدا ولا يظهر أكثر من يوم واحد فى الأسبوع، ويمشى عاريا تماما، على عكس مجنون الغناء الذى يرتدى جلبابا نظيفا ولو كان ممزقا من الخلف بسبب الاحتكاك بالجدران وصار يظهر كثيراً. المجنون الجديد لا يعترضه أحد أبدا، ولايحتج على عريه، وحين يقترب من المساكن يتخلى عن بطء حركته ويسرع جاريا كالريح فلا يكون هناك من سبيل للأولاد لإيقافه ولا يقذفونُه بالحجارة كما يتوقع منهم فى مثل هذه الحالات، ولا يعرف أحد السبب فى توقفهم عن متابعته فى كل مرة، لكنه قبل أن يسرع جاريا يكون قد فرد علما انجليزيا صغيرا يحمله عادة مطويا على عصا قصيرة ويجرى رافعا العصا والعلم ولقد سميناه مجنون العلَم. يقول محمود الملاح انه كان لدينا مجنون واحد هو مجنون الغناء الذى كان فى الأصل عصفوراً ثم سخطه الله ليكون بنى آدم لذلك يحن للغناء، والآن صار لدينا مجنون آخر قادم من الحرب العالمية الثانية، من معركة العلمين بالتحديد، يتصور أن الانجليز لايزالون ينتصرون فى الحروب ولايعرف أننا نكحناهم فى بور سعيد !! معذرة ياچين !! تشرشل العجوز جالس فوق ضفدعة فوق ساعة بيج بن. وظهر عامل جديد فى محل العنيبسى اسمه مرعى، أحول، أو أعور، على عينه الشمال نقطة بيضاء والسلام فيبدو دائما كأنما فى كدر أو غضب حتى وهو يضحك، لايمر يوم إلا والعنيبسى ينهره ويزجره ويسبه لأنه ما إن تبدأ الإذاعة فى بث أغنية أم كلثوم فى الساعة الرابعة عصرا حتى يترك كل عمل في يده، وأكثر مايكون إعجابه بأم كلثوم وهى

تغنى رباعيات الخيام رغم أن مرعى هذا لايعرف القراءة ولا الكتابة ولا يفهم معانى الرباعيات. أما تاجر البهار فقد اختفى هذه الأيام بسبب وصفة جديدة صنعها لمحمود القزعة . من قبل قدم له وصفة جعلته ينتعظ لعدة أيام حتى كاد يفقد صوابه خوفا وخجلاً . هذه المرة قال له إنها وصفة عادية ستنفعه لمدة ساعة لا أكثر إلا أن محمود القزعة جاء فى اليوم الثالث شاهرا سيفا قديما يحتفظ به عنده، وحافيا على غير العادة – قال فيما بعد أنه تعمد أن يكون حافيا حتى يلحق بتاجر البهار إذا فكر وجرى أمامه – وسأل أين ابن ديك الكلب الجبان فلفل مطحون؟ لكن فلفل لم يظهر ذلك اليوم ولا يزال رغم مضى شهر كامل على الواقعة. ماذا جرى يا معلم محمود، والمعلم محمود القزعة لايتكلم ويقسم أن يقطِّع فلفل مطحون إربا إربا ويرميه للقطط الضالة بدلا من السمك.

تسببت الوصفة فى ارتخاء القزعة الذى ظل يجاهد يومين كاملين وينتظر مفعولها، والآن جاء فى اليوم الثالث ليقتل تاجر البهار خاصة أن الانكماش الذى اصابه يزداد ساعة بعد ساعة وهو كلما تبول مد يده يبحث عن حيوانه فيجده قد تراجع إلى الخلف كثيرا حتى صار الرأس لصق البطن ، ابن ديك الكلب الجبان تاجر البهار، يشتم القزعة ويضرب رأسه بيده، ولا يعرف ماذا سيحدث غدا وأين سيذهب الرأس بعد ذلك وهل يمكن أن يختفى ذكره إلى الأبد؟.

قال ذلك فى ثورة غضبه، وكان أولى به أن يدارى بلواه كما رأى العنيبسى، ولا يعرف أحد ما الذى جعل مرعى، العامل الجديد الأعور عند العنيبسى، يقول انه سمع أن رجلا دخل المستشفى الأميرى منذ أسابيع تم تحويله بعملية جراحية إلى امرأة، وأن هذا الرجل كان قد لاحظ أن ذكره يتراجع الى الخلف يوما بعد يوم.. تماما يا معلم محمود مثل حالتك وربنا يستر!!

كان مرعى يتحدث جادا محاولا تنبيه القزعة للخطر وللبحث عن تاجر البهار فلفل مطحون الذى يمكن أن يقدم له وصفة جديدة مضادة تنقذه، أو على الأقل يعرض نفسه على طبيب قبل أن يتفاقم الأمر، لكن القزعة كان آخر من يمكن أن يفهم هذا القصد لمرعى. قفز ومسك بخناقه، ورغم طول مرعى، إلا أنه فوجىء تماما وشُلت حركته، وراح القزعة يكيل له اللكمات فى وجهه واستطاع أن يتعلق فى رقبته بيديه ويسقطه على الأرض ثم جرى يمسك بالسيف الذى كان قد ركنه على جدار كشك الثلج وعاد ليهوى به على مرعى..

لكن ذلك لم يحدث. وقف خلق كثيرون بينهما لايعرف أحد من أين ظهروا، توسط هؤلاء الخلق جميعا حبشى وأولاده الصغار الذين عجز الناس عن إحصائهم. هز حبشى رأسه وطوح شعر رأسه الناعم يمينا ويسارا ثم هتف.

– علىَّ الطلاق من بدرة لأكون قاتلك يا معلم محمود لو لمست هذا الرجل المسكين، هل لأنه وحداني تفترى عليه؟ هل لأنه فقير؟

جن جنون محمود القزعة فهجم بالسيف على حبشى الذى انحنى بسرعة حاملا القزعة على ظهره ملقيا به خلفه على الأرض كجوال فارغ. صفق الأولاد جميعا. أولاد حبشي وأولاد المساكن ووقفنا جميعا نتفرج على القزعة الذى جلس على الأرض مكسور الخاطر والسيف ساقط بعيدا عنه وعن حبشى الذى وقف غاضبا يقول :

– تريد تغلبنى ياقزعة؟ تغلب طرزان! عمرك شفت طرزان انهزم فى السينما؟

وهز رأسه ومشى إلى الكشك وأولاده حوله عراة إلا من سراويل قديمة أو شورتات ممزقة ثم قفز الجميع فى الترعة يسبحون ، هو وهم خلفه بنات وصبيان. ليس فى هذا الصيف جديد، غير رسوبى الذى

حدثتك عنه ياچين، ونجاح خير الدين وحصوله على الدبلوم التجارى وبدء بحثه عن عمل، ونجاح نسيم فى التوجيهية والتحاقه بمعهد زراعى فى بلدة تسمى مشتهر قرب بلدة أكبر تسمى طوخ. اسماء جديدة تدخل حياتنا هنا. لقد اقمنا لنسيم احتفالا كبيرا على المحمودية، سهرنا معه الليلة الأخيرة بالصيف قبل سفره لبدء الدراسة. قال إنه بعد أن ينتهى من سنوات المعهد سيسافر إلى كندا فى هجرة نهائية. الهجرة هى حلم حياته الآن. وفى الاسكندرية ليس هناك من جديد أسجله لك، وللرواية التى أجهزلها، غير هذه المشاريع الكبرى التى تجري بسرعة لشق طريق كبير من محطة الركاب بالميناء إلى ميدان المنشية ، هذا الطريق الذى أطلق عليه شارع النصر، والذى يتم بناؤه على الطراز الأميركى. تلك العمارات العالية المستقيمة الصامتة الواجهات بلا حليات أو كرانيش أو زخرفة مما يتناقض مع جمال العمارة الكلاسيكية الأقرب إلى الباروك، بميدان المنشية.

كذلك يجرى العمل بسرعة لشق طريق سريع واسع فوق ترعة الفرخة يحمل اسم طريق قناة السويس يبدأ من الشاطبى وينتهى عند كوبرى محرم بك، وتقيم المحافظة على الضفة الشرقية منه مساكن شعبية بينما على الضفة الغربية العمارات القديمة لحى الرصافة الجميل كما تتم فى الاسكندرية الآن إزالة تلال كوم الدكة وفتح طريق صفية زغلول ليصل امتداده إلى محطة سكك حديد مصر. انهم يتحدثون عن آثار يونانية أو رومانية ستظهر تحت التلال. وأنا لم أعد قادرا على المشى فى محطة الرمل أو المنشية كثيرا كما كنت أفعل من قبل إذ أتذكرك دائما ويأخذنى الأسى من كل جانب، ففكرت فى أن اساعد نفسى على النسيان، لاتؤاخذينى، وكلما ذهبت الى ميدان المنشية ، لا أجد فيه الضوء القديم الغامر ، ولا الاتساع الكبير. المحلات معظمها مغلق معظم الوقت،

والصيارفة ينكمشون إلى أقصى مدى، ويزداد الأولاد جامعى أعقاب السجائر ويقل باعة الفل والياسمين والمحلات الأجنبية فى شارع شريف تتحول واحدة بعد الأخرى إلى محلات قماش أو أحذية مصرية وتفقد للأسف كثيرا من نظافتها وبهجتها، أقول للأسف لأننا كنا جديرين بما هو أجمل من ذلك. لقد أخذنا ما نريد واسترحنا، أو اعتبرنا ذلك هو الهدف فى ذاته. ليتك ما صحبتينى للمحلات الأجنبية بهذا الشارع حتى لا أدرك الفرق. لكن لعل ذلك يكون مؤقتا. المؤسف أن كل الناس فى المدينة تتحدث عن الإهمال والقذارة التى تصيب المحلات التى تركها الأجانب للمصريين، بمن فيهم المصريون أنفسهم الذين يديرون هذه المحلات!؟

عزيزتى چين، لقد لاحظنا غياب الديب، فعلى طول الصيف لم نلمحه عائدا من أسفاره. يبدو إنه صار يخبىء نفسه عنا، ولم يعد يسعدنا بحكاياته الخرافية. طبعا أنت لا تعرفين الديب وأنا لم أحدثك عنه... وأعلنت الصحف عن حضور المخرج الإيطالى السندرينى چوفريدو لإخراج أوبرا عايدة على سفح أبو الهول والسندرينى هو زوج الممثلة المشهورة آنا مانياني وهو مولود في مصر في العمارة رقم أربعة بميدان التوفيقية ومعنى اسمه بالإيطالية «أمان الله السكندرى» هكذا كتبت الصحف وأنا للأسف لا أعرف الإيطالية لأستوثق من ذلك، إلا لسندرينى عمارة يملكها في شارع المرعشلى بالزمالك كتبها باسم زوجته السابقة أنامانيانى التى لايستطيع أن يطلقها لأنه تزوجها زواجا كاثوليكيا. المدهش انه تزوج من امرأة أخرى وله منها بنتان. والأكثر إدهاشا هو أن أنا مانيانى بدورها من مواليد الاسكندرية وأبوها مصرى ولقد فازت بالأوسكار هذا العام، كما لابد أنك تعرفين، عن دورها فى فيلم «وشم الوردة» التى مثلته مع بيرت لإنكستر ذى الابتسامة العريضة التى تغيظ!

مارلون براندو يخلع سروال چيمس دين!.

كما ترين ياچين لا أتوقف كثيرا عند السياسة، تلك العاهرة التى أبعدتك عنى. ربما أسجلها، لكنى لا أحب أن أذكرها الآن وأنا أتحدث إليك. ويستهوينى الخبر العجيب عن استعداد أهالى البحرين لاستقبال أحد مواطنيهم بعد أن فُقد ثلاثا وثلاثين سنة. إنه ناصر بن على بن عمران، هذا اسمه، خرج يوما لصيد اللؤلؤ عام ١٩٢٥ ولم يعد. لم يفكر أحد أبدا انه قد يكون على قيد الحياة بعد أن خرج الصيادون فى رحلات كثيرة يبحثون عنه إلى أن تلقى عمدة بلدته، واسمها السر، وفيها من اسمها سرّ، تلقى برقية من أحد زوارق الصيد تعلن أنه تم العثور على الحاج ناصر فى إحدى الجزر الصغيرة المهجورة حيث كان يعيش على الأعشاب والأسماك التى يصيدها بشبكة صنعها من الأعشاب. بالضبط كما كان يفعل روبنسون كروزو فى الرواية الشهيرة. تم العثور عليه عاريا يغطى جسمه كله شعره الطويل من رأسه حتى قدميه. قال إنه طوال هذه السنين كان يرى السفن لكنه لم يستطع أن يلفت انتباهها إليه! أى عذاب هذا الذى عاشه الحاج ناصر كما أطلقوا عليه. يرى السفن أكثر من ثلاثين سنة ولا تلتفت إليه. يا للمأساة التى كتب على الإنسان أن يعيشها على الأرض. إن سوء التفاهم الذى يسود بين البشر، والوجود ذاته، ثم عدم الالتفات هذا، أقسى ما يدمر حياة البشرية.

هى أقانيم القسوة غير المبررة. وأنا على يقين من اكتشافى لأقانيم جديدة للعذاب البشرى. لا تؤاخذينى ياچين . إننى مندهش من مضى الحياة فهناك كل يوم جديد. ففى السينما المصرية تم اكتشاف وجهين جديدين فى قمة الجمال، نادية لطفى وليلى طاهر، وبدأ العمل فى تصوير

فيلم جميلة بو حريد بإخراج يوسف شاهين الذى كان وراء حب محمود الملاح للسينما ومأساته أيضا، ونشرت الصحف أول صورة لزعماء الثورة الجزائرية فى اجتماع سرى بالجبال بعد إعلان الحكومة المؤقتة. انهم يحاربون فرنسا التى حاربتنا لأننا دعمناهم. يالها من لعبة. واليزابيث تايلور أرملة هوليود تعود إلى سرقة الازواج، فلقد سرقت زوج ديبى رينولدز التى بكت وقالت إن ليز سرقت قلبها، وردت ليز، طبعا، قائلة أن زوج ديبى هو الذى سرق قلبها فماذا تفعل . ليز لم تتجاوز السادسة والعشرين وتزوجت ثلاث مرات حتى الآن. وشادية تلتقى مع طليقها عماد حمدى لأول مرة بعد الطلاق فى فيلم إرْحم حبى وزوجها الجديد يمنعها فتطلب الطلاق وتصر على الفيلم!. هذا الحب للحياة يحيرنى ياچين، لعلنى المخطىء. لقد حزنت جدا لوفاة تايرون باور الذى شاهدت له منذ أشهر فيلم الشمس تشرق أيضا كما قلت لك والذى أعشق فيلمه القديم «دماء ورمال» ، وأتوقف عن ذلك التسجيل الذى يبدو انه لن ينتهى يا چين. اننى على يقين انه سيعطى الرواية التى أخطط لها طعما جديداً.. يا إلهى لقد كتبت ذلك كله بالعربية. هل أترجمه الآن الى الانجليزية وأى رسالة هذه التى ستصل إلى استراليا فى كل هذه الصفحات ومن يضمن لى أن جهة أمنية ما، لن تفتح الخطاب، وتقرأه، وتعتبر كل ما كتبته معلومات خطيرة، ما كان يجب أن أفضى بها لفتاة أجنبية يعمل أبوها فى الخارجية الانجليزية؟ وابتسم من هذه العبارات العجيبة التى تتسلل منه وتتناثر وسط الكلام ولا يعرف معنى لها.

نحن نقترب من نهاية العام الميلادى الآن. سيكون مناسبا أن أرسل لچين كارتاً به صورة للاسكندرية وعليه تهنئة بمناسبة العام الجديد.

لاشك أن الوقت الذى سيستغرقه سفر الكارت سيكون طويلا وسيصل قريبا من نهاية العام وليس فى الكارت من ضرر. أما آخر ما أسجله الآن فهو أننى بالليل أمس كنت جالسا وحدى على رصيف الشارع كما تعودت عند فجر كل ليلة، عادة واظبت عليها منذ بداية هذا الصيف. ساعة من الصفاء نادرة تشبعنى بالمشاعر وتهدينى إلى أفكار جديدة لروايتى. كنت أفكر تلك الليلة فى أمر خير الدين الذى أصابه فجأة سعال شديد لعدة أيام احتاج بعده إلى الانتقال إلى مستشفى الصدر بكوم الشقافة لتظهر الحقيقة المؤلمة . خير الدين مصاب بالسل. كان خير الدين قد صارحنى بحبه المكتوم للچونى التى يجلس بالنهار دائما عند الماكينه الحمراء منتظرا صعودها على السطح ليراها. فقط ليراها. وحدثنى عن رغبته بعد العمل أن يتقدم لخطبتها.

لم يحصل خير الدين على عمل بعد وسقط فى المرض اللعين. كنت أفكر فى هذه المفارقات التى لا تنتهى للحياة العجيبة التى يتصارع من أجلها الناس وبينما أنا جالس شاهدت عربة تاكسى تقف أمام باب المساكن وينزل منها لطفى السائح، ليس على عكازين هذه المرة، فقد شفيت ساقاه، ولكن بدا واضحا أن ذراعه اليسرى قد وضعت فى الجبس وإلا ما هذا البياض الذى يشق الظلام حول ذراعه المعلقة إلى صدره؟

(٦)

منذ بداية العام الدراسى ، وكروان كلما توافر لديه قرش صاغ اشترى الجورنال، الآن هو تلميذ فى مدرسة طاهر بك الاعدادية

بالورديان، يقطع المسافة القديمة بين السكك الحديدية حتى يصل إلى القبارى، ومن هناك يستقل الترام حتى المدرسة. يمشى وحده الآن فى الذهاب وفى الإياب. عيد انقطعت علاقته بالتعليم تماما، مصطفى الذى كان يسبقه بعامين التحق بمدرسة كوم الشقافة الإعدادية، عبده انقطع عن التعليم والتحق بشركة ستيا بالحضرة عاملا على ماكينة نسيج. إبراهيم بلك الذى نجح فى امتحانات القبول للمرحلة الإعدادية مثله، لم يوافق على الانضمام لمدرسة طاهر بك.. اختار مدرسة كوم الشقافة الإعدادية التى سبقه إليها مصطفى، وفعل ذلك أيضا «زبيبة» أخو مصطفى. كروان لايضايقه أن يذهب وحده إلى المدرسة. لقد لاحظ أنه يمشى مستمتعا فوق «رصيف الباشا» الذى تأتى إليه البضائع وتحت ظلام السقف الجمالونى. هذا الاتساع فى الكون يجعله يفكر فى أشياء كثيرة جميلة، وكثيرا ما كان يراجع مادة اللغة الانجليزية وهو فى الطريق ويضحك لأنه دائما يردد ما جاء فى درس الحريق «رجال الحريق يضعون السلالم على الحائط و يصعدون عليها لإطفاء الحريق» يكرر هذه العبارة ويحفظها عن ظهر قلب وكلما ابتعد عنها عاد إليها وهو مندهش من ذلك، ولم تنجح الدروس الأخرى التى يراجعها فى الطريق أن تنسيه العودة إلى هذه العبارة العجيبة..

فى المدرسة الإعدادية الكبيرة الواسعة استمع لأول مرة إلى خطب سياسية فى طابور الصباح من مدرسى اللغة العربية. يشجعون كل يوم شعب الجزائر فى ثورته، ويهاجمون النظام الحاكم فى العراق. بل لقد خرج لأول مرة فى مظاهرة كبيرة قادتها مدرسة الورديان الثانوية ومشت فى شارع المكس تنضم إليها كل المدارس، والمعهد الدينى الذى كان طلابه مميزين بين المتظاهرين بالجبة والقفطان والعمة والطربوش الصغير، ومن شارع المكس انحدروا إلى شارع السبع بنات ثم المنشية

وهم ينددون بالاستعمار البلچيكى ويحيون لومومبا . المدرسة الإعدادية جعلت العالم أكثر اتساعا بالنسبة لكروان، خاصة ان هناك حصتين دراسيتين مخصصتين للقراءة الحرة. يدخل مكتبة المدرسة ويتركه المدرس يختار الكتب التى يميل إليها. انجذب كروان نحو قراءة الروايات. كثيرا ما كان يستمع إلى عازف الربابة الجوال الذى يأتى إلى المساكن بين الحين والحين. ثم انه يحب السينما، ويحب القصص العجيبة للأفلام، وينتظر مع الأولاد عودة الديب ليحكى لهم حكاية جديدة.. كان طبيعيا بعد ذلك أن يشترى كروان الجورنال كلما توفر معه قرش صاغ.

كل يوم تقريبا تكون هناك حصة خالية غاب عنها مدرسها. يتجمع التلاميذ حوله يقرأون معه الجورنال. أثناء الدرس لا يستطيع كروان أن يمنع نفسه عن فتح الدرج والنظر إلى الجريدة ليقرأ جملة أو جملتين. يرفع طرف الصفحة التى تقابله ويقرأ ما يظهر فى الصفحة التى تعلوها. هكذا دون ترتيب وكيفما اتفق . اليوم رفع طرف الصفحة فقرأ «انتقل إلى الامجاد السماوية المقدس بشارة غطاس منقريوس ويقام القداس بكنيسة المرعشلى بالزمالك». «الذكرى السنوية لشهيد الشباب على على على من أعيان نجع حماد» ترك الجريدة للحظات وانتبه إلى درس اللغة العربية. بعد لحظات عاد إلى الجريدة. اخذته أصابعه إلى صفحة الوفيات مرة ثانية . كان قد لمح صورة لامرأة جميلة ويريد أن يعرف هل ماتت هى الأخرى. تسمرت عيناه على الصورة الجميلة «بنتى جلفدان، اختطفك الموت فى ريعان الشباب ولن ننساك أبدا. لعل الله يعوضك بعريس من الجنة. أمك وأبوك وأخواتك شهرت ورجاء وثروت».

أغلق الدرج ولم يعد قادرا على الانتباه لدرس اللغة العربية اليوم. أحس بحزن حقيقى من أجل صاحبة الصورة. أحس أنه يعرفها وتعرفه.

عاد إليها من جديد يتأملها فى دهشة وعدم تصديق. وجهها مضىء وعيناها جميلتان. انها فتاة حية وليست أبداً ميتة.. ولمح السطر الذى فوقه الصورة بقليل وقرأه. أخذته عيناه إليه. انتقل إلى رحمة الله على زين العابدين وستشيع الجنازة اليوم من جامع كخيا بعد صلاة الظهر. تغمد الله الفقيد برحمته ومنح أهله الصبر والسلوان..

عاد يقرأ الخبر مرة إثر مرة. الدم يرتفع إلى وجهه وتحمر عيناه إذ تصعد إليها دموع حارقة لايستطيع أن يقاومها.. ثم.. انفجر بالبكاء ..

– مالك يا اسماعيل؟

فى المدرسة لايعرفون اسم كروان الذى لقبه الناس به فى المساكن. لم يستطع أن يتوقف عن البكاء. راح ينشج بصوت جريح بعد أن أخرج الجريدة من الدرج وأشار إلى زميله وإلى الخبر. زميله هو الولد عيسى الذى يحب الموسيقى ويعزف على العود فى فريق الموسيقى. قرأ عيسى الخبر ورأى الدموع فى عينى اسماعيل فطفرت الدموع من عينيه أيضا. كان المدرس يكتب على السبورة وشعر أن شيئا غير طبيعى يحدث خلفه فلم يهتم حتى ازداد صوت البكاء فالتفت إليهم مندهشا.

– مالك يا ولد أنت وهو؟

كان التلاميذ فى الفصل كله ينظرون إلى كروان وعيسى متأثرين. تماسك عيسى وقال وهو ينشج نشيجا متقطعا.

– اسماعيل يا أستاذ أبوه مات.

اتسعت عينا المدرس من الدهشة. سكت لحظة ثم قال.

– مات؟ . طيب لماذا حضرت اليوم يا اسماعيل؟

– لم أكن أعرف.

ارتبك المدرس، وبدت الدهشة على وجوه التلاميذ جميعا.

– طيب هل أتى أحد وأخبرك بذلك؟

أشار عيسى إلى الجريدة التى وضعها الآن فوف التختة وقال.

- مكتوب فى الجورنال، فى صفحة الميتين!.

- ناولنى الجريدة.

قال المدرس فانتقلت الجريدة من يد إلى أخرى حتى وصلت إلى يد المدرس الذى تأمل الخبر وابتسم.

- قم يا اسماعيل واغسل وشك أبوك لامات ولاحاجة.

رد عيسى بلهفة..

- كيف يا أستاذ . اسمه فى الجورنال؟

راح التلاميذ يرددون نظراتهم بين المدرس وكروان وعيسى غير فاهمين ومرتبكين. قال المدرس.

- متى رأيت أباك آخر مرة يا إسماعيل؟

- اليوم صباحا.

- هذا الجورنال الذى يصلكم فى الاسكندرية في الصباح يطبع ويوزع فى القاهرة بالليل . إذن الجورنال صدر وانتم تأكلون أرزا مع الملايكة. يعنى الجورنال صدر وأبوك نايم يا اسماعيل.

بدأ كروان يشعر بشىء من الطمأنينة، وبدأت عيون التلاميذ تتسع بالابتهاج ثم تساءل المدرس.

- ماذا يعمل أبوك يا كروان؟

- عامل فى السكة الحديد.

- طيب يا كروان بذمتك هل هناك عامل فى السكة الحديد يستطيع أهله دفع ثمن إعلان عن وفاته فى الجورنال . الإعلان هذا اسمه نعى والسطر فيه بجنيه كامل فى جريدة الأهرام هذه. يعنى النعى بمرتب أبيك كله.

ضحك الأولاد بصوت عال وضحك كروان لكن عيسى قال.

- طيب والاسم المكتوب يا أستاذ؟

على الفور قال المدرس.

- تشابه اسماء يا حمار. ثم إن الجنازة ستخرج اليوم من جامع كخيا، وجامع كخيا هذا فى القاهرة. ثم أنت يا عيسى لماذا تبكى؟ اسماعيل يبكى أباه وأنت لماذا تبكى حقا. مشاركة ؟ أم لأنك موسيقار حساس فاكر نفسك عبد الحليم حافظ؟..

ازداد ضحك الأولاد وضحك عيسى والمدرس الذى قال:

- على أى حال هذه فرصة أكلمكم فيها اليوم عن الصحافة ومهنة الصحافة، من يدرى ربما يصبح أحدكم صحفيا يوما ما..

إلى أى بحار مسحورة أخذهم هذا المدرس العجيب. قصير لكن معلوماته غزيرة جدا، فقير لكن هندامه نظيف، يلقى بالمعلومات المهمة فيجعلها كالطعام الشهى لايريدون أن ينتهوا منه أبدا.

جعل زمن الحصة يمر كأنه ثانية.. لم يشعروا بالأسف أبدا على انتهاء الدرس كما حدث اليوم . اكتشفوا ان للصحافة تاريخا من النضال الوطنى والاصلاح الاجتماعى، واستمعوا إلى كلمات جديدة لن تزول من عقولهم الخضراء!، وعرفوا اسماء رجال ونساء عظام مثل رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك ولطفى السيد وقاسم أمين ومصطفى كامل وسلامه موسى وطه حسين والعقاد ومصطفى أمين وعلى أمين وخالد محمد خالد ومحمد زكى عبد القادر وهدى شعراوى وروز اليوسف وفاطمة رشدى ، وعرفوا أسماء صحف لم يعرفوا بها من قبل مثل المسامير والمنار والمقطم وكوكب الشرق والفجر الجديد والبعكوكة و الزمان والأهالى، واستمعوا إلى قصص وحكايات ونوادر من حياة الصحفيين والممثلين والحكام، ومن أسماهم المدرس نجوم المجتمع. ثم فجأة توقف المدرس وقال «مشكلة جرائد اليوم إنها كلها تتحدث بصوت

واحد وعلى لحن واحد وبعازف واحد فهى جرائد لا لون ولا طعم لها ولا رائحة وأفضل صفحاتها هى صفحة الوفيات».

التلاميذ الذين لم يفهموا معنى هذا الكلام ضحكوا متأثرين بحماس المدرس الذى حين جمع أوراقه وخرج اشتاقوا إليه، وكأنه كان يعرف، التفت إليهم وقال، الحصة القادمة نكمل الدرس وغمز لهم بعينه وتركهم سعداء. أحب كروان القراءة وكان طبيعيا أن ينجذب إلى سليمان الذى يذيع صيته فى المساكن كقارىء ومثقف. رأى معه سليمان مرة كتابا؛ فسأله عن عنوانه. قال كروان.

– إنها مسرحية الملك الضليل لمحمود تيمور.

– ها. انها عن امرىء القيس أشهر شعراء العرب.

وقف كروان مرتبكا . إنه لم يقرأ المسرحية بعد. قال سليمان .

– انها مأساة حقيقية. الشاعر الغريب فى القبيلة، المهمش، والهامشى، اللاهى، العابث، الذى يموت غريبا كما كان دائما .

ظل كروان واقفا وقد ازداد ارتباكه. قال سليمان.

– مادمت تحب القراءة فابحث عن المعنى العميق لما تقرأ، إن لم تستطع الآن ففيما بعد يا كروان.

شيئا فشيئا لم يعد أحد يرى كروان فى الشارع. ربما يوم الخميس فقط والجمعة. اندهشت أمه وأبوه من اعتكافه فى البيت دائما للقراءة، لكنهما وجدا ذلك أفضل من الشارع ، وبلغ من تركيزه على القراءة انه صار يقرأ وسط البنات وهن جالسات حول أمه فى المساء يتحدثن ويستمعن للراديو أو يغنين. كان الحديث فى الأيام الأخيرة كله عن خير الدين ، الأسمر الجميل، الذى أصابه السل فجأة. لقد راحت الچونى فى هزال يوما بعد يوم. لا تأكل وبالكاد تشرب، حزنا على خير الدين. الجميع يعرفون إنه يحبها فى صمت، لكن أحدا لم يقل إنها تحبه.

منذ أيام وقبل وصول البنات كلهن سمعها تقول لأمه.

- هل سيشفى يا ابلتى؟.

- طبعا يا چونى، وغيره شفى.

- أمى تقول إنه لن يشفى . وإذا شفى هذه المرة سيعود المرض إليه.
أمى تقول إنه نوع غريب من السل ينتقل بالوراثة. سل عائلى . وتقول إن أخواله ماتوا جميعا بالسل.

- .....

- ساعدينى يا أبلتى، أنا أحب خير الدين.

أمه لم ترد. نظرت إليه هو وقالت.

- كروان . إياك كلمة مما سمعته تقولها لأحد.

الچونى تحت وطأة الحزن لم تفكر فى وجود كروان. لحسن الحظ لم يغب خير الدين أكثر من أسبوع. حالته بسيطة يمكن شفاؤها. هكذا قيل. عادت الچونى إلى الأكل بشراهة . ظهرت على السطح أكثر من مرة فى اليوم الواحد، خير الدين صار فى الصباح يصعد إلى السطح يتأملها من بعيد وفى العصر يجلس جوار الماكينة الحمراء ينتظر صعودها ويبتسم لها وتبتسم هى أيضا، لكن الأولاد صاروا يبتعدون عن خير الدين. السل مرض معد. هكذا عرف الجميع. لم يعد يقترب منه غير سليمان وكروان.. خير الدين بدوره صار يبتعد عن الكبار والصغار معاً.

خير الدين من هواة السينما الكبار، لكنه منذ صغره لا يتردد على السينمات الشعبية، يدخر من مصروفه ليدخل سينمات الدرجة الثانية . سينما ركس أو كونكورديا أو الشرق بالمنشية أو سينما الهمبرا أو بارك أو ماچيستيك أو ريتز فى محطة الرمل. كذلك سينما فؤاد وسينما بلازا بشارع فؤاد. راح يرشد كروان إلى الأفلام الجميلة منذ أن رآه يقرأ

رواية الوسادة الخالية «لإحسان عبد القدوس». قال له إن قصص إحسان عبد القدوس كلها تتحول إلى أفلام وكذلك قصص معظم الكتاب الكبار. وقال له إن معظم الأفلام الأجنبية أيضا أصلها قصص عظيمة مثل «ذهب مع الريح» . يعنى تستطيع أن تعرف من أفيش الفيلم، أو المقدمة السينمائية، اسم الرواية وتبحث عنها وتقرؤها فتكون قرأت أحسن القصص العالمية..

وجدها كروان فكرة ممتازة، فاندفع يشاهد الأفلام الأجنبية ويبحث عن ترجمات للروايات، وكثيرا ما وفق فى الوصول إلى الروايات المترجمة. قرأ وداعا للسلاح ولمن تدق الأجراس لهمنجواى بعد أنه شاهد الفيلمين. وقرأ ديفيد كوبرفيلد كذلك. كان يتمنى لو عثر على رواية موبى ديك بعد أن شاهد الفيلم لكنه لم يجد ترجمة لها، وهو لايستطيع أن يقرأ بالانجليزية جيدا، فهو من الجيل الذى دخل المدرسة بعد الثورة مع سياسة التعريب التى جعلت اللغة الانجليزية لغة ثانوية. سيجعل من أهدافه فيما بعد تعلم الانجليزية.. فاجأه خير الدين بدعوته للذهاب معه للفرجة على فيلم دراكيولا المعروض بسينما محرم بك والذى تتحدث عنه الاسكندرية كلها كفيلم للرعب أصاب أكثر من شخص بأزمة قلبية.

– المهم يا كروان فى هذا الفيلم أن تمسك أعصابك.

طوال الفيلم كان كلاهما يحبس أنفاسه. انتهى الفيلم وأضيئت السينما فرأى كلاهما الأخر شاحب الوجه من الفزع. خرجا إلى الشارع المضاء كمن يخرج إلى الدنيا من قبو عميق. أطلق كروان ضحكة فى الفضاء، كذلك فعل خير الدين ذو الصوت الأجش القوى، أسرعا بالمشى إلى محطة مصر.

– لابد من طبق بليلة بعد هذا الرعب.

قال خير الدين فابتسم كروان وهما يسرعان..

جوار عربة البليلة البيضاء، وفى الزقاق الصغير من أول شارع عمر بن الخطاب من ناحيـة المحطة، جلسا وسط عدد من الشبـاب أمـام المناضد الصغيرة فوقها أطباق البليلة يصعد بخارها إلى وجهيهما حاملا معه رائحة السكر والذبيب واللوز والفستق والبندق وجوز الهند والسمن البلدى. قال خير الدين انه اليوم أسعد واحد فى الدنيا لأنه تسلم خطابا بالعمل فى شركة الحديد والصلب بحلوان، وأنه حزين لاضطراره لمغادرة الاسكندرية لكنه سيعود دائما فى الأجازات، ومن يدرى قد تفتح الشركة فرعا لها فى الاسكندرية يوما ما. إنه يعرف أن حلوان بعيدة، لكن جوها جاف ومناسب جدا لصحته، ثم أن بها آبارا للمياه الكبريتية تعالج من أمراض كثيرة. ثم سكت قليلا وقال.

– هل تظن يا كروان أن الچونى توافق تتزوجنى..

كان كروان لايزال فى دهشة من فكرة عمل خير الدين فى بلد بعيد عن الاسكندرية ففاجأه خير الدين بالسؤال، وهو سؤال كبير بالنسبة لكروان، ففيه يعترف له خير الدين بحبه الچونى، وهذا يعنى أنه يعتبره على الأقل صديقا وفيا. تردد كروان الذى لم يجد إجابة بسرعة فقال خير الدين.

– منذ صغرى وأنا أحب الچونى. حب أفلاطونى والله ياكروان. تصدق أنه جاءتنى فرص كتير أبوسها ولم أفعل. عارف يا كروان الچونى بالنسبة لى مثل الشمس. الدنيا تنور ليس لما تطلع الشمس فى الصباح، لا، لكن لما الچونى تطلع على السطح. وياسلام يا كروان لما الچوني تطلع على السطح بعد انقطاع المطر ، تشعر وأنت جالس عند الماكينة الحمراء بالدفء. لا تشعر ببرد أبدا. نظرة منها فى الشتاء تخليك دفيان ، ونظرة فى الصيف تصبح كأنك شربت سطل خروب كاملاً من عند باب شرق، الچونى يا كروان هى البلسم . تعرف لماذ أنا شفيت

بسرعة. لأني أحبها. الحب نجاني من المرض. الحب قال لي قم يا خير الدين أقهر المرض وتزوج الچوني. والچوني صوتها جميل. طبعا أنت عارف أكتر مني لأنك جارها. البحة التي في صوتها شيء نادر في الستات وياسلام لو شفتها وهي زعلانه، تصعب عليك يا كروان وتحس إنك لازم تكسر الدنيا حتى تسعدها. تعرف يا كروان أني لما أشوفها أشعر بأن لا أنا ولاهي مكاننا على الأرض. أجل. الچوني لازم يكون مكانها في السما مع الملائكة وأنا معاها. يا سلام . الحب فعلا جميل يا كروان..

كان كروان يستمع إليه بأدب جم، وبدهشة بالغة. للحظة رأى دراكيولا يقفز في الظلام فاتحاً شفتيه مبديا نابيه المخضبين بالدم، إلا أنه بسرعة طرد هذه الصورة العجيبة التي لا محل لها أمام كلام خير الدين.

– لم تجب عن سؤالي. هل توافق الچوني على الزواج مني؟.

اندفع كروان يقول.

– طبعا . إنها أيضا تحبك. سمعتها تقول لأمي ذلك..

عض شفته السفلى. لقد أفشى سراً وعد أمه ألا يفشيه. أدرك خير الدين ورطته فقال وقد غمرته السعادة.

– لا تتضايق. كأنك لم تقل شيئا لي. أنا أيضا أعترف لك بحبي لأني أعرف أنك رجل. يقول لي سليمان انك تقرأ كتبا مهمة. هذا يعني انك عاقل عن الآخرين. ثم دعني أفشي لك سراً آخر. إبراهيم مرسي يحب نادية سلام.. أجل. لا تندهش . إبراهيم نفسه حدثني بذلك حين جاء يزورني بالمستشفى. قال إن دخولي المستشفى عطل لقاءاتهما .

هل تعرف أين كانا يتقابلان؟ أمام حديقة المستشفى . إنه المكان الآمن لأن أحدا من المساكن لن يزور أحدا من المرضى. إبراهيم مرسي طول عمره لئيم – كان كروان يضحك غير مصدق – وأنا وعدت إبراهيم

ألا أفشى سره ، ولاشك انك ستفعل ذلك أيضا. لكن أنا عندى إحساس إن قصة إبراهيم ونادية ستفشل.

- لماذا.

- لا أعرف. ربما لأن أهل نادية صعايدة وأهل إبراهيم فلاحين، ربما لأن إبراهيم نفسه غير واضح .

- لقد وجد عملا بكفر الزيات.

- أجل . بالدبلوم مثلى تماما. كان معى ثلاثة اعوام فى مدرسة تجارة محرم بك وأعرفه جيدا . يحب مصلحته فقط.

- أقصد إن العمل قد يسهل له الزواج.

- طبعا. مرتب تسعة جنيهات ليس بالقليل. أكثر من مرتب أب أى واحد فينا.

فكر كروان قليلا ثم قال.

- صحيح..

قال خير الدين.

- أنت والدك شاطر يعمل بالتجارة ويكسب لكن الباقين ميزيرا بل!

- نعم؟!

- ميزيرا بل، بؤساء يعنى. ألم تشاهد فيلم البوساء؟

- ولامرة.

- إذا عرض مرة أخرى فى أى سينما لا تجعله يفوتك. رواية مشهورة أيضا لازم تقرؤها وممثل الفيلم رهيب اسم چان جابان - وضحك خير الدين - ويقوم بدور البطل الهارب من السجن الذى اسمه

چان ڤالچان.

بدا كروان مرتبكا لا يدرى ماذا يقصد بالضبط،

- يبدو أن اسم چان منتشر فى فرنسا.

سكتا لحظات طويلة. كانا قد انتهيا من أكل البليلة الساخنة الحلوة وقال خير الدين..

- أنا مندهش من المنطقة التى نعيش فيها. كلنا فينا شىء غير طبيعى . مجانين مثل عيد أو عندنا أحلام لا تتحقق مثل محمود الملاح وسليمان أو غامضين مثل العربى أو معرضين للآلام مثل لطفى السائح.

كذلك الناس الذين يأتون يجلسون عند دكانة العنيبسى لاتعرف من أين يأتون، يخيل إلىَّ إننا نعيش فى مركز الأرض، ويأتى الصباح فنخرج كالنمل إلى كل جهة ثم نعود بالليل. العجيب أننا بمجرد عودتنا إلى المساكن لانفكر أبداً أن هناك دنيا أخرى أبعد.

لم يجد كروان شيئا يقوله. نهضا ليعودا مشيا. طوال الطريق كان صوت أم كلثوم يسرى فى الليل مجروحا حزينا وهى تردد.

سـهـران لـوحـدى
أنـاجـى طـيـفـك السـاجـى
سـابـح فـى وجـدى
ودمعى على الخدود سارى

العجيب انه لم يكن هناك مقهى واحد سهران فى الطريق أو دكان، لكن الصوت كان يمشى معهما باستمرار..

(٧)

من جديد عاد إبراهيم مرسى ونادية سلام إلى اللقاء فى الحديقة أمام مستشفى الصدر. أخبرها إبراهيم بعمله الجديد كمحاسب بشركة الزيوت والصابون بكفر الزيات. كانت تعرف. لقد انتشر الخبر فى المساكن . لكن وجهها كان أصفر شاحبا، قال انه لم يجد عملا فى الاسكندرية، قد يجد عملا مستقبلا. وإنه ليس الوحيد الذى فشل فى أن يجد عملا فى الاسكندرية، خير الدين أيضا لم يجد عملا إلا فى حلوان.

شركة الزيوت لها فرع بالاسكندرية قد ينجح أن ينتقل إليه بعد عام. ثم أن المسافة من الإسكندرية حتى كفرالزيات ليست بعيدة. كفر الزيات أقرب من حلوان . نصف المسافة تقريبا. القطار يحمله فى ساعة ونصف إلى عمله. القطار العادى ، القشاش، وليس الاكسبريس. يذهب ويعود كل يوم ولا يحتاج للبقاء فى كفر الزيات مثلما يحتاج خير الدين للبقاء فى حلوان. ثم إن ذلك أيضا لايكلفه شيئا، فالشركة تدفع قيمة الاشتراك السنوى فى القطار. الأمور إذن تمضى كلها بشكل طيب.

– إذن لماذا لاتتقدم لخطبتى؟ متى نعلن حبنا على الناس؟

أرادت أن تقول متى يمشيان فى مناطق أكثر نظافة وهواء أكثر نقاء بعيدا عن هذه المنطقة القريبة من المرضى.

– احتاج أن أدخر شيئا من المال. لقد وجدت عملا وهذه هى البداية، لن نتأخر يا نادية، لاتقلقى.

– لكن خير الدين سيتقدم إلى الچونى قريبا وليس معه شىء. كل الناس الآن تعرف حب خير الدين للچونى.

– أنا لست مثل خير الدين.

– أنت تخفى عنى شيئا يا إبراهيم..

كانت تفكر فى شخصيته التى يشوبها كثير من التردد والخوف. كثيرا ما يبدو مضطربا يتلفت حوله فى الطريق. دائما لايشارك الشباب ولا الصبية فى أى لعب. لم تره مرة جالسا مع من هم فى مثل عمره مثل خير الدين وسليمان ونسيم ، ولا مع من هم أكبر منه مثل العربى أو محمود الملاح أو رشاد قبل أن يتزوج من فاطمة، كما لم تره جالسا مع من هم أصغر منه مثل كروان أو مصطفى أو بلك أو عبده. انه لا يجلس مع أحد. يمشى دائما يتلفت كهارب من شىء . يلقى التحية مسرعا ولا ينتظر حتى الرد عليها. وجهه دائما أصفر بلاسبب.

– أمى بدأت تلاحظ الأمر. ترتاب فى خروجى المتكرر. فى صعودى على السطح بسبب وبلا سبب. أخاف أن تصعد خلفى مرة فترانى أكلمك أو تمشى ورائى مرة فترانا هنا. وأنا لا أستطيع أن أحافظ على سرنا أكثر من ذلك. أحتاج إلى أن أعلن حبنا، أحتاج أن أفرح. أخاف أن يتقدم لى أحد من أبناء عمى فى الصعيد. ساعتها ولا كلمة. سيحملوننى إلى الحرّ والذباب والفقر، إلى بيت ملىء بالأطفال والنساء والرجال. سأموت يا إبراهيم.

لم يستطع أن يصارحها بأنه تحدث مع أهله بالفعل فى أمر خطبته لها. لقد رفض أبوه وأمه. لا قبل لهما بعائلة نادية. كيف؟ الأفضل أن تتزوج فتاة فلاحة من بلدنا. بنات العائلة كثير وأهل بحرى طيبون منكسرون أما الصعايدة فشىء آخر، أهل الجنوب قلوبهم صخر. لكنى أحب نادية وسوف أتزوج نادية وليس أهلها. نادية جميلة حقا. طيبة حقا. تبدو أحيانا عبيطة من فرط الطيبة ، لكن الإنسان لايستطيع أن يعيش مع زوجته ويقاطع أهلها. أخو نادية، سلامة ، شرس ومجرم لا يعرف أحد له عملا ، يخرج فى الصباح الباكر ولا يعود إلا فى منتصف الليل. له علاقات مشبوهة مع تجار المخدرات بجبل ناعسة بكرموز. يجلس طول

النهار بمقهى سلامة الغلق. صحيح أن أحدا لم يتأكد من ذلك ، لكن لا دخان دون نار..

لم ييأس إبراهيم . قال أنه يحتاج لبعض الوقت فقد يلين والديه، خاصة حين يجدونه قد ادخر ما يكفى للزواج. كيف يشرح لنادية ذلك. لابد أنها تفقد فيه الثقة الآن. لو حرنت نادية سيصبح الثور نفسه أمامها مثل دجاجة صغيرة !! ووجد نفسه يسألها..

– لو فرضنا اننى تقدمت إليك يا نادية ورفض أهلك؟

– سأشرب دى . دى . تى.

– ولو فرض أن أهلى لم يوافقوا؟

نظرت إليه صامتة. بدا أنها فهمت المغزى من السؤال. عيناها قالتا ذلك. يالحماقته.

أمسك بيدها وهو يرى وجهها يكاد يشتعل بالتوتر والضيق.قال مبتسما.

– ساعتها سأشرب أنا الدى. دى. تى.

لكنها لم تبتسم . فكرت فى حوادث الانتحار بالدى. دى. تى التى كثرت فى الاسكندرية. حوادث أغلب ضحاياها فتيات فشلن فى الحب وأكرهن على الزواج ونساء تركهن الرجال مع أطفالهن يعانين البؤس والفقر وذهبوا يبحثون عن نزواتهم. لكن الحادثة التى روعت المدينة كانت انتحار الولد والبنت من راغب. لقد رفض أهل كل منهما زواجهما بعد قصة حب عنيفة. جاء الخبر أن الولد انتحر بتناول مائة برشامة ريڤو فخرجت البنت جارية من البيت وأمام أول ترام قادمة من سيدى كريم ألقت بنفسها تحت عجلاتها. مزقتها الترام التى حين توقفت كانت قد عبرتها. رآها الناس، جسدا ممزقا يرتعش على الأرض. صرخوا، صرخت الفتيات والنساء على الرصيفين. أغمى على أكثرهن، وفى الشرفات لم ينقطع العويل ، من بعيد كان يأتي جاريا، الولد، الذى قيل

انه انتحر. لم يكن انتحر ولا يعرف أحد من الذى سرب للبنت الإشاعة.

واحد من أهلها، قيل ذلك فيما بعد !. واحد غبى أراد لها أن تنساه فقرر أن يفجعها فيه. واحد لا دين ولا رحمة عنده ولا أخلاق. واحد قاسي القلب جبان. هكذا قال الناس في المدينة بعد ذلك . أتى الولد مسرعا ووقف أمام البنت مذهولا تسقط دموعه كالمطر. لم يكن أحد من الواقفين يعرف أنه حبيبها الذى انتحرت من أجله. فقط حين صرخت فيه أمها «أنت السبب» وتعلقت بصدره تكيل له الضربات. فقط لحظتها عرف الناس ان البنت كانت تحبه. والأم التى كانت تضرب بكفيها صدره انهارت على الأرض. انسحب الولد صاعدا العمارة التى خلفه مباشرة. لم يكن أحد واقفا بالسلم ليسأله إلى أين يصعد. الجميع يقفون بالشرفات . لو أن شخصا واحداً قابله على السلم ما استطاع الولد الصعود إلى السطح الذى وقف عليه وسمع الناس صوته وهو يصرخ كطائر خرافى «سناء سناء» وجروا إلى كل ناحية لأنه كان يهوى إلى الأرض. اهتز رجفتين وسكت إلى الأبد. صار الشارع كله جنازا ولا يعرف أحد كيف انصرف الناس بعد ذلك. لقد تصالحت العائلتان ودفن الولد والبنت فى قبر واحد. كانت جنازتهما فرحا حقيقيا تسبقها الموسيقى والورود، وحين واروهما القبر انطلقت الزغاريد من عشرات النساء ووزعوا على المعزين الشربات والملبِّس والبسطة وأحضروا مأذونا عقد قرانهما وكان أب الولد وكيلا له وأب البنت وكيلا لها، ولما عرف المأذون ان الولد والبنت قد انتحرا انسحب بعد أن دعا للجميع بالصبر والرحمة ولملم أوراقه ومشى غير مصدق. يا للاسكندرية ولأهل الاسكندرية المجانين..

كانت نادية تبكى وتهتز ولا تستطيع ان تسيطر على نفسها. اندهش إبراهيم وارتبك وتلعثم فى الكلام.

– لا تقلقى يا نادية. أرجوك . قريبا جدا سأحسم الموقف. أجل. لابد أن تثقى بى.

بدا جادا، ونجح فى إخراجها من حالة البكاء المفاجىء هذه. كان هو قد قرر لو فشل فى إقناع أهله تماما أن يهرب بها. لكن هل توافقه هى على ذلك؟ لم يشأ أن يسألها. ليؤجل ذلك. ليحدثها عن أى شىء آخر. ليس غير القطار العجيب الذى يستقله كل يوم إلى كفر الزيات. حكايات ومشاهد، يمكن ان تدهشها، أن تجذبها بعيدا عن هذا الحزن المباغت... «القطار الذى اركبه يا نادية كل يوم غريب وعجيب، ولا ألف ليلة وليلة. زحام من ناس فقراء متعبين، وجوههم ممصوصة، ذقونهم فى العادة غير محلوقة، عيونهم بعيدة داخل رؤوسهم غائرة بشكل غريب، مليئة بالعماص، حمراء وحولها ورم خفيف. وكمية العاهات التى بين الناس يندر أن يراها أى شخص حتى ولو فى مستشفى للمعوقين . ناس كتع وعور و عرجان وبرصان. أى والله يا نادية... كانت هى تود لو تصرخ فيه ان يكف. كانت تتناثر قطعا من الضيق. ضربت الأرض بقدميها، وهو لا يزال يتكلم غير منتبه لحالتها. شردت عنه وتركته يتكلم فى الفضاء. فكرت فى الفيلم الجديد لعبد الحليم حافظ. فيلم حكاية حب، الذى تعرضه سينما ركس. لقد أخذتها نوال سراً إليه. شاهدته يوم الأربعاء الماضى فى حفلة الساعة الواحدة ظهرا التى تخصصها السينما للنساء فقط كل أسبوع، رأت الاسعاف تقف أمام باب السينما لتحمل الفتيات والنساء اللاتى يغشى عليهن. لقد تم عرض الفيلم لأول مرة منذ شهرين بسينما فريال. كانت الاسعاف تقف هناك تنقل النساء والفتيات إلى مستشفى الأميرى القريبة. نوال قالت إن قسم الاستقبال كان يستقبل على الأقل عشرين حالة كل يوم من جميع الحفلات. أكثر الاغماءات تكون عندما يقف عبد الحليم يغني أغنية نار. كذلك حين يعرف أنه مصاب بمرض خطير سوف يميته بعد عام واحد. لكن حين

يغني عبد الحليم «في يوم. في شهر. في سنة» قبل نهاية الفيلم لا يستطيع أحد السيطرة على الفتيات المغمى عليهن.. لقد شاهدت نادية الفيلم ولم يُغْم عليها ، لكنها بكت بشدة، ورأت المناديل البيضاء تتحرك في الظلام أمام كل النساء والفتيات. لقد تحولت السينما إلى مناحة وهو يغني الأغنية الأخيرة. وشاهدت عمال السينما يجرون في الظلام بأكثر من فتاة حاملينها إلى الاسعاف . وإبراهيم لا يزال يتكلم عن هؤلاء الناس الذين بينهم أكبر نسبة من العور، ومن العميان الذين عادة تسحبهم صبايا جميلات فقيرات وفي كل محطة يصعد بشر غريب وينزل بشر عجيب، أما عدد الشحاذين فلا يمكن حصره، وكلهم ذوو عاهات، عددهم من الضخامة إلى درجة أن الواحد يتصور أنه هو الوحيد السليم في هذا القطار، بل في الشعب المصري كله. واحد مجبس ذراعه وآخر مجبس رجله وثالث مجبس صدره كله أو عنقه وغيره رابط رأسه بشاش مغموس بدم وكلهم نصابون والناس تعرف ذلك لكنهم يعطفون عليهم بمليم أو نكلة أو حتى «برونزه» ونادرا ما يدفع أحد قرش تعريفه كاملا. أغرب واحد شفته رجل ثُبِّت في صدره بطرمان به مياه ويخرج من غطائه خرطوم رفيع يصل إلى فتحة أنف الرجل الذى كلما تنفس تحرك الماء. الرجل يمشي في اتجاه ثابت لا يلتفت ولا يتحرك يمينا أو يسارا حيث أن هناك جبساً حول عنقه. لا أحد يعرف حكاية البطرمان والتنفس من خلال المياه هذه لكنه رجل شاحب الوجه مريض بحق يكاد يكون جلدا على عظم وفي حزام بنطلونه ثُبِّت حصَّالة من الصفيح يضع له الناس فيها الفلوس... وكانت نادية تفكر كيف حقا لا توجد بنت سعيدة في المساكن. شوقية التي تزوجت تاجرا حملها إلى كفر الدوار تأتي الأخبار بأنه يضربها كل يوم هو وأهله وتغضب عند أمها أكثر الوقت لكن أباها يعيدها إلى زوجها صابرا يقول ليس في سلو بلدنا بنات تغضب وتترك بيتها!، و أبلة نرجس في نار لا تخمد من أجل ابنتها

المرحة الجميلة التى لم تعد تعرف المرح ولا يشفع لها الولد الجميل الذى أسمته باسم جده على، عند زوجها وأهله. وحكمت المسكينة جاءت لأول مرة منذ أسبوع تزور أهلها. رآها الناس تنزل من سيارة بيضاء كبيرة ودخلت المساكن تسبقها زفة من الأطفال راحت توزع عليهم البونبونى وتضحك. بعض النساء اللاتى رأينها تحسرن على شبابها، وبعضهن بكين بالفعل. أتت فى المساء عند أبلة نرجس. دخلت من الباب والقت بنفسها فى حضن الأبلة. رأيناها وتأكدنا مما سمعناه فى الصباح عند دخولها المساكن. سامحينى يا أبلتى. سامحينى . كانت تقول ذلك لأبلة نرجس وتبكى ولا تزال فى حضنها بينما رأينا نحن كيف شحبت البنت الجميلة وغارت عيناها وذبلتا وكيف طال انفها الصغير الجميل من فرط النحافة التى أصابت وجهها وأعجب ما رأينا هذا الانتفاخ تحت جفنيها السفليين وهذه الهالة السوداء حول عينيها. وأخرجت حكمت من شنطتها جلد الثعبان منديلا حريريا ملونا فخرجت علينا معه رائحة بارفان آسر وراحت تمسح دموعها. أنت بنتى يا حكمت كيف أزعل منك، وعلام أسامحك؟. واستدارت حكمت إليهن. سامحينى يا نوال . سامحينى يا نادية. سامحينى يا چونى. سامحونى كلكم. شوقية كيف حالها، اسمع أخباراً سيئة .. كيف تعرفين؟. أخوتى يعرفون من الناس . لاشىء يمكن إخفاؤه هنا. قالت أبله نرجس وهى تعض شفتها أسفا. ودخلت حسنة فزغردت . تعلقت بها حكمت وتعلقت هى بها. وأخبار بدرية . هل صحيح سافرت ليبيا. وأنت يا حسنة متى يأتيك ابن الحلال؟. يبدو ان ابناء الحلال انتهوا من الاسكندرية . يضحكن ثم لو كان الزواج سيجعلنى مثلك يا حكمت أو مثل شوقية فلا داعي أبدا. يتذكرن مشيرة. لا تزال على أمل فى عودة كامل. أبوها اقسم

أن يزوجها لأول رجل يخطبها. مشيرة صارت «كالسلاَّية» من الحزن. لا تأكل ولا تشرب. ماذا جرى لنا يا بنات. تشربى شاى يا حكمت، قهوة قهوة يا أبلتى قهوة سادة. عامله إيه مع جوزك. أدينا بنخبط فى بعض. نفسى ادخن سيجارة يا أبلتى.

وأخرجت سيجارة كنت من العلبة التى أخرجتها من الحقيبة وأخذت نفسا طويلا فى صدرها ثم نفثته بهدوء. ياه يا حكمت. أنت بتدخنى ولا أجدع كييف. قالت حسنة. هزت حكمت رأسها. أنا أيضا تمنيت لو دخنت سيجارة يا إبراهيم. لقد طالت قصتنا ولا يبدو أنها ستنتهى كما ينبغى . إبراهيم لا يزال يتحدث عن الباعة الذين هم سيرك وحدهم، يصعد بائع الشيكولاته ينادى القطعة بقرش تعريفه ولا يشترى أحد، الجميع يعرفون اللعبة، فهو يفعلها كل يوم، ويعرف أنهم يعرفون لكنه يعود ليفعلها . ينادى بعد ذلك الثلاث قطع بتعريفة ولايشترى أحد، ثم الأربعة ثم الخمسة حتى يصل إلى العشرة فتشترى النساء ويوزعن ما يشترين على الأطفال الذين فى صحبتهن.

لقد اشتريت مرة هذه الشيكولاته ، فلم تكن غير بسكويت مغموس بالشيكولاته، لا، ولا حتى بسكويت، كانت شيئا لا أستطيع أن أحدده بالضبط. لقد أصابتنى باسهال لمدة يومين ولم أعد إلى شرائها، لكن الباعة لا يزالون يصعدون والنساء والأطفال لايزالون يشترون ويأكلون ولا أحد اشتكى من الاسهال. أما باعة البرتقال واليوسفى فهم فيلم آخر. نادية لاتزال سابحة فى أفكارها تحاول ما استطاعت ألا تستمع إليه. لكن صوته اخترق الحجاب الذى صنعته لمشاعرها وتيار أفكارها...

تمنيت لو دخنت سيجارة وأحسست بالمتعة من التدخين وأن رأسى صار متزنا ومزاجى صار منسجما وتمنيت لو أفعل ذلك وحدى على شاطىء البحر فى ليلة شتوية أو على السطح فى المساء ولا يرانى أحد،

ليس خوفا، لكن كى أتنهد بعمق، وألقى بالدنيا خلف ظهرى. وقلت التدخين حلو يا حكمت؟ قالت سلوتى الوحيدة يا نادية، وباعة البرتقال واليوسفى يحمل الواحد منهم قفصا به برتقال ويوسفى يضعه على الأرض فى الطرقة بين المقاعد وينادى الخمسة بشلن، ولا أحد يشترى ، ثم الستة والسبعة وهكذا حتى يصل إلى العشرة ولا أحد يشترى ، طيب خمستاشر آخر كلام، لكن لم نعد نرى زوجك فى الملاحة كثيرا. افتتح محل سمك كبيراً بالميدان بالمنشية، ويقف البائع عند هذا الرقم لا يتزحزح، لا تحدثونى الليلة عن زوجي. أريد أن استمع إليكم. نادية مالك نحيفة هكذا؟. ألا تأكلى؟. لا أرد. طيب عشرين آخر كلام بشلن.، ويبدأ الناس فى الشراء ويقفز البائع على الرصيف بالقفص الذى صار فارغا فيصعد بائع آخر بقفص آخر، أنا مضطرة أمشى ، ولا أستطيع أن أسهر معكم البيت بعيد والسائق لابد أنه قلقان. عندك سائق يا حكمت؟. قطيعة! سائق وجاسوس، بعد باعة البرتقال يصعد باعة العاب الأطفال، طيب ألا تسمعى أغنية من نوال. ياريت متى يا نوال نراك مع شادية وفايزة ونجاة فى حفل أضواء المدينة؟ الدكتور أحمد يقول إنه سيساعدنى كثيرا فى الوصول إلى الإذاعة، يزداد اهتمامه بى هذه الأيام. يا بختك يا نوال، ولعب الأطفال إما صفارات أو زمامير ومراوح من ورق، ياريت تغنى لى حاجة لأسمهان يا نوال. أهوى مثلا. لانك تشربى قهوة يا حكمت؟. تقول حسنة . نضحك. طيب ناولينى الفنجان تمسك به نوال. هكذا كانت تمسك به أسمهان فى الفيلم.

لقد ماتت قبل أن تنهيه. أي فيلم يا نوال؟ فيلم «غرام وانتقام» ووقفت نوال فى آخر الصالة الصغيرة وتقدمت نحونا وارتفع صوتها الجميل.

قـــهـــوة . قـــهـــوة.

يـا مـين يـقـــول لـى أهـوى.

اسـقـيـه بـايدى قـهـوة.
أنـا. أنـا. أنـا، أهـوى..

ولابد من قيام معركة كل يوم بين واحد من الركاب وكمسارى القطار، فضلا عن الذين يصعدون فوق القطار ويتعرضون لحوادث.

أهوى القمر يسكرنى ضياه
أهوى أقضى طول الليل وياه.
يـخـلـى قـلـبـى فـى نـشـوة
والـدنـيـا هـمـس ونجـوى

وكثيرا ما يتم إيقاف القطار فى المحطات لإنزال هؤلاء الركاب الذين يستقلون سطح القطار ويتم القبض على أكثرهم. اننا نسمع اصوات أحذيتهم وهم يجرون فوق القطارات خاصة، غالبيتهم من عساكر الجيش يرتدون أحذية ثقيلة نشعر بها تدق على دماغنا.

يا للى تبات الليل سـهران
من إيدى لو تشرب فنجان
راح تـلـقـى فـيـه الـسـلـوى
والـدنـيـا تـصـبـح حـلـوة

لكن لا تخافى يا نادية. لوحدث أنك سافرت معى مرة لن أتركك أبدا تركبين هذا القطار، ساحجز لك فى البولمان ديوانا خاصا. كثيرا ما أشاهد البولمان يمر بسرعة جوار قطارنا القشاش. الح وجوه الناس النظيفة السمينة وملابسهم الغالية، و النساء الأجنبيات يضحكن. بسعادة وأحيانا أشاهد رجالا تقبل النساء أى والله.

ابـعـد هـمـومك عن روحك
إيه تجنى منها غير نوحك
والـدنـيـا دى إيه تـسـوى

- كفاية يا إبراهيم.

قالت ذلك بهدوء. لقد تفصد عرق كثير على وجهها وجبينها رغم أننا في نوفمبر والجو بارد. هتف إبراهيم قلقا.

- نادية . أنت تعبانة؟

- عد بى إلى البيت بسرعة.

ووقفت لكنها لم تستطع أن تتقدم خطوة واحدة. سقطت على المقعد مغشيا عليها، صرخ هو، نادية. نادية. يا نهار أسود. وجرى إلى سيدة تجلس بعيدا وحدها تمسك في يدها بسلسلة بها كلب كانيش، كانت قد سبقته وأخرجت من حقيبتها زجاجة بارفان صغيرة قدمتها إليه. عاد مسرعا يضع الزجاجة التى فتحها تحت انف نادية التى عادت إلى الوعى لكنها حين رأته صرخت صرخة طويلة كطائر يتم ذبحه في الفضاء السحيق..

(٨)

استقلت نوال الترام رقم (٥) وهى لا تصدق انها تفعل ذلك بنفسها. لكنها هى وليس أحد اخر من يجلس فى الترام المتجه إلى المنشية الآن.

- أنا لم أفعل ذلك من قبل يا دكتور أحمد!..

- أعرف، ولن تفعلى أى شيء غلط.

- أنا لا أغنى فى الأفراح ولا فى الحفلات..

- هذا ليس فرحا ولا حفلة.

- احتفال برأس السنة يا دكتور أحمد ماذا تسميه؟

- احتفال خاص جدا مع مجموعة من الأصدقاء. ناس ستحبينهم للغاية. انهم لا يصدقونني حين أحدثهم عن صوتك وسوف يصدقونني اليوم، وبالمناسبة بينهم ناس مهمون، صحيح لا يعملون فى الإذاعة لكن يمكنهم الوصول للإذاعة، ومن يدرى قد تصبح الإذاعة كلها لهم فى يوم ما ، ولنا أيضا!

ماذا كان يقصد بذلك؟ هل سيشترون الإذاعة مثلا؟. هناك شيء غامض فى هذا المشوار كان عليها أن تتبينه. سبق السيف العزل. لقد نزلت فى المنشية الصغرى الآن ولا معنى للعودة. وماذا يمكن أن يحدث؟ ليس لديها أى شيء لتخسره. فى العمارة المجاورة للعمارة التى بها محل رمضان شحاته أشهر بائع شنط فى الاسكندرية دخلت، تطلعت فى البداية إلى النوافذ العالية المغلقة.. هذه العمارة الجميلة فى الميدان الصغير لم تنتبه إلى جمال زخارفها وشرفاتها ونوافذها من قبل ؟ إنها ، مع هذا المطر الخفيف الذى بدأ، كمن يقف وسط ميدان فى أوروبا، فرنسا مثلا أو إيطاليا. لاينقصها إلا مظلة جميلة ترفعها، وجوانتى فى لون المظلة، وبالطو فرو.، ومصور سينمائى، ليصنع فيلما أجنبيا. ابتسمت. فكرت كيف أن هواء هذه المدينة الطرى يجعل الإنسان يدخل فى بعضه وينام وهو يقظان. المحلات كلها مغلقة، فضّل أصحابها الإغلاق مبكرا للإعداد للاحتفال بليلة رأس السنة. لا أحد يتأخر فى الاسكندرية الليلة. ياويله من يأتى عليه منتصف الليل وهو فى الطريق. يسقط فوقه كل ما هو قديم فى بيوت الاسكندرية. زجاجات، أكواب، قلل، أرجل مقاعد، أطباق صينى. كل ما يحدث صوتا حين يرتطم بالأرض. وداع خاص للعام الذى انتهى، واستقبال فريد للعام الجديد. يقولون إنها عادة طليانية. ربما. الإيطاليون مجانين. رأت صوفا لورين وچينا لولو بريچيدا وآنا مانيانى فى السينما. إنهن مجانين بالفعل خاصة حين

يتحدثن . لا أحد يلحق بهن. ولماذا تذهب بعيدا. معهن راهبات من المستشفى الإيطالى، يشفى المرضى خوفا من الكلام معهن!. لكنها، نوال، لم تحتفل من قبل قط بليلة رأس السنة. تكون لديها نوبتجية بالمستشفى لاستقبال حالات التسمم الكحولى والتخمة وإصابات الطريق، أو تمضى الليلة لدى أبلة نرجس مع البنات يشوين أبو فروة - الكستناء كما عرفت من إحدى المجلات - ويقزقزن اللب. فى العام الماضى جلست تغنى لزميلاتها فى حجرة المرضات. كانت هناك عملية كبيرة لاستئصال رحم تعفن فيه الجنين لأم مريضة بالسكر!. كان الموت المحقق يرفرف فى سقف غرفة العمليات، والجراح الكبير المجنون شديد الثقة بنجاح العملية طلب منها أن تغنى أغنية عبد الوهاب «لست أدرى».

ظلت تردد «جئت لا أعلم من أين لكنى أتيت. أبصرت قدامى طريقا فمشيت. كيف جئت كيف أبصرت طريقى لست أدرى ..»

انتهت من الأغنية وكررتها ، تعبت ولم يتعب الجرّاح. أشار إليها بالصمت. لم يعد هناك غير همساته للأطباء الشبان حوله والمرضات. انتهى فى الساعة الثانية عشرة تماما وكان قد بدأ فى الساعة الثامنة. نجحت العملية الخطيرة وقفز الأطباء الشبان يهنئونه ويقبلونه لكنه تقدم ناحيتها وقال لها باسما وقد بدا عليه الإرهاق الشديد. «نصف نجاح العملية بفضل صوتك الملائكى» نامت بعدها ساعة فى غرفة المرضات . انصرف الأطباء على عجل يلحقون بسهراتهم فى الخارج. زميلاتها أيقظنها.

- ونحن يا نوال أليس لنا نصيب فى الاحتفال؟

- أنا تعبانة يا بنات من الغناء فى غرفة العمليات.

- إنها ليلة فى السنة يا نوال!

– طيب . أغنيتين أو ثلاث...

لكن واحدة منهن أشارت إليهن بالسكوت. كن ثلاث ممرضات ونوال ثم قالت:

– أنا عندى فكرة مجنونة، نحتفل مع المرضى بليلة رأس السنة.

ضحكت نوال وقالت:

– يعنى من مطربة العمليات إلى مطربة المستشفى. ترقية على أى حال!

ضحكن . قالت صاحبة الاقتراح:

– أحسن ثواب نعمله فى المرضى هو هذه الحفلة. لا أظن أنهم سينسون هذه الليلة أبدا.

بدا أنها موافقة، وفكرن من أى عنبر يبدأن. عنبر الباطنة نام نزلاؤه مبكرا متعبين. عنبر العمليات كذلك. فى قسم الأطفال نام الأطفال. ليس من يقظان الآن غير مرضى العظام ، هؤلاء لاينامون بسهولة من طول رقدتهم، ولا يتألمون مثل مرضى الحروق، وهم فى ضيق دائم من الجبس وأوضاعهم غير المريحة ويحتاجون لشىء من البهجة.

فوجىء المرضى بهن. العنبر الطويل كان نزلاؤه جميعا يقظين . سيقان مرفوعة فى الجبس مشدودة إلى آثقال من حديد، أذرع مرفوعة على وسائد. أعناق مشرئبة محاطة بالجبس لاتلتفت، وغير هؤلاء جلوس لايستطعن النوم لأن قمصانا من الجبس تحيط بصدورهم. ضحكت إحدى الممرضات وقالت:

– ربنا يستر ولا ينكسر صوتك الليلة، يا نوال..

انطلقن جميعا يضحكن. عرف المرضى بالمهمة فصفروا وصفق سليمو الأذرع وخبط الباقون بأرجلهم على الأسرة. ضحك واهتزاز محسوب وألم خفيف يظهر على الوجوه.

- ماذا تطلبون الليلة؟

توالت اسماء المطربين والمطربات وفى النهاية قال المرضى.

- اختارى أنت سستر نوال ونحن موافقون على كل ما تغنى.

غنت نوال إيه ذنبى إيه ، ولايق عليك الخال ثم تخونوه لعبد الحليم، انتقلت إلى ألحان خفيفة فغنت لشادية «خمسة فى سته بثلاثين يوم» وياحسن يا خولى الجنينه» ثم «تعب الهوى قلبى» لمحمد فوزى التى راح العنبر كله يغنيها معها فأشارت إليهم بالهدوء، وعند الفجر، كانت قد تعبت، والمرضى أيضا كانوا متعبين، لكنهم أصروا أن تستمر وهى بدورها اختارت أغنية «أول همسة» الطويلة لفريد الأطرش وما انتهت منها حتى كانت زميلاتها تبكين وعدد من المرضى يبكون أيضا فى صمت، لكن فى النهاية ضحك الجميع، ظل المستشفى لأيام بعد ذلك يتحدث عن حسن حظ قسم العظام الذى أمضى ليلة من أجمل ليالى العمر حتى أن بعضهم قال إن الكسور التأمت بسرعة بسبب المتعة التى انسكبت فى روحهم تلك الليلة، كان يوم خروج بعضهم من المستشفى محزنا للغاية. لقد أحبوا المكان ولم يغادر واحد منهم المستشفى قبل المرور على سستر نوال وتقديم الشكر الجزيل لها، تقدم أكثر من واحد منهم لخطبتها وكانت دهشة زميلاتها كبيرة من رفضها لهؤلاء الخطاب الذين كان بينهم موظفون محترمون وأبناء عائلات ومتعلمون.. لكنها قالت انها حددت هدفها، الغناء فى الإذاعة أولا، وهى لم تيأس حتى الآن من الحصول على فرصة حقيقية..

استقلت نوال المصعد الأشبه بالقفص المعدنى، لا تعرف لماذا تركت يدها تمشى على جدرانه الملساء. انتعشت من ملمسه الناعم البارد. تركته في الدور الخامس، تماما كما قال لها الدكتور أحمد. أمام الباب الطويل القوى البنى اللامع تتوسطه شراعة صغيرة من الحديد والزجاج

القاتم خلفها ستارة رمادية لامعة، أمام هذا الباب المهيب الذى يرتفع لمترين ونصف على الأقل ترددت قليلا. كيف تثق فى الدكتور أحمد كل هذه الثقة فتأتى إلى شقة لاتعرف ماذا ينتظرها داخلها؟. لكنها قرأت اسم صاحب الشقة. نادر نعيم مفتش أول لغة فرنسية. هذا هو الاسم الذى طلب منها الدكتور أحمد أن تحفظه. ضغطت زر الجرس. سمعت صوت الجرس قويا كأنما يدوى فى فراغ . لابد أنها شقة واسعة. قالت لنفسها. فى بيتنا كل شىء مكتوم حتى صوت الدجاج! قالت ذلك أيضا. وفتح الباب وأطل من خلفه رجل طويل مهيب. ذو وجه أحمر وشعر أبيض. رجل فى حوالى الخمسين من العمر يرتدى روب دى شامبر من الحرير. الروب بداية غير مشجعة. لكنه قال.

– نوال هانم .. تفضلى.

ابتهجت واتسعت عيناها. الرجل المهيب يدعوها بالهانم. دخلت خجلى تشعر كأن نملا يجرى فى جسمها كله. أمامها رأت صالة واسعة بها صالون كبير مذهب أنيق عليه رسوم لروميو وچولييت. إنها تعرف ذلك. الصالة عالية، جدرانها من الورق الجميل، رمادى تتوسطه ورود وردية صغيرة حولها مربعات ذهبية الإطار، اشغال كانفاه معلقة على الحائط ولوحات فنية. تماثيل كثيرة فى الأركان، على الأرض، على مناضد صغيرة دائرية متفرقة فى الصالة من الابنوس الأسود اللامع. رفعت عينيها إلى النجفة الضخمة التى تتلألأ فيها الأضواء، وللمناضد الدائرية اللامعة مذهبة الحواف فوقها فازات صينية وبلچيكية وتماثيل شعبية، وعلى الأرض كان السجاد عميقا تكاد تغوص فيه عليه رسوم أطفال بين الحدائق وطيور تحلق حولهم. توقفت شبه خائفة . هل يحق لها أن تمشى فوق هذا السجاد؟

– نوال هانم لازم تعتبر نفسها صاحبة بيت.

لم ترد. نظرت إليه نظرة توسل أن يتركها تعود قبل أن تقع مغمياً عليها. راحت عيناها تدوران مع الجدران.. قال:

– آه.. التابلوهات. هل تحبين الفن التشكيلى . غناء ورسم. أنت نعمة إلهية مدموازيل نوال.

لأول مرة تشعر بالشجاعة. كادت تبتسم. ماذا تقول لهذا الرجل المعتوه الطيب الوسيم الذى يبدو كإله نازل من فوق جبل!.

– هذه لوحات غير أصلية. مجرد بوسترز. لكنى اشتريتها من باريس. طباعة ممتازة. هذه لوحة لديجا. ديجا كان مشهورا كما تعرفين برسوم راقصات الباليه. وهذه لجوجان – كانت لامرأتين عاريتين فى حمام قديم فأغمضت نوال عينيها واستمر هو يتحدث – كذلك هذه لرينوار أيضا – كانت لامرأتين نضرتين تمشيان رافعتين المظلة فى الحقول الشاسعة وجذب انتباهها بشدة جمال ونضارة النساء – أما هذا الحذاء فهو حذاء ڤان جوخ الشهير، وهذه اللوحة الكبيرة هى الغذاء على العشب التى دشن بها مانيه الحركة التأثيرية – كانت قد أشاحت بوجهها بعيداً عن المرأة العارية على العشب مع الرجال – كل هؤلاء كانوا فى فرنسا. الحقيقة أنا من عشاق المدرسة التأثيرية، لكن لا بأس أيضا من أدهم وانلى، هذه لوحة حقيقية له، باليرينا على طريقة ديجا. أدهم وسيف وانلى بلدياتنا..

أخيرا ظهر الدكتور أحمد قادما من إحدى الغرف. بدا كمنقذ حقيقى لها ..

– طبعا الزميل نادر لازم يعطيك دروسه الرائعة فى الفن التشكيلى.

– أهلا دكتور أحمد.

قالت ذلك وهى فى شبه إغماءة، لكنها كانت تفكر كيف يقول الدكتور أحمد عنه إنه زميل... وقال أحمد.

- تفضلى.

أخذها من يدها. فى الحقيقة لم تشعر بيده. دخل من باب إلى حجرة واسعة بها مقاعد وثيرة عالية الظهر، وبها عدد لا يقل عن عشرة اشخاص، كلهم ما بين الثلاثين والأربعين باستثناء رجل واحد يبدو أكبر من نادر نعيم . أحست بخجل حقيقى حيث لا توجد امرأة بينهم. كأنما كان أحمد يقرأ أفكارها قال..

- ستأتى بريچيت. لن تكونى وحدك، وبالمناسبة هى ليست بريچيت باردو.

دخل الرجل المهيب، الزميل نادر كما دعاه أحمد ، يقول:

- هذا المقعد الخالى الذى يتوسط الجلسة تركناه لك، تعتبرين نفسك اليوم الملكة ونحن الشعب..

ماهذه المعاملة يا ربى التى تلقاها من هؤلاء الناس النظيفين جداء، الذين يرتدون بدلاً أنيقة ثقيلة من الصوف الهلد الانجليزى وعلقوا معاطفهم على الشماعات الابنوسية الثلاث فى الأركان! جلست وهى تنظر إلى التايير البسيط الرخيص الذى ترتديه، وإلى أصابعها الخالية إلا من خاتم ذهب صغير ولأنها شمت رائحة البارفانات التى تكاد تفقدها قوتها تذكرت كيف انها لا تستخدم إلا كولونيا الياسمين الخفيفة التى تنتهى رائحتها بعد خروجها من المنزل حين تقابلها أول نسمة هواء.. تمنت ألا تأتى بريچيت. إنها تتحمل أن يكون الرجال أكثر أناقة أو حتى وسامة، لكنها لا تتحمل ذلك من امرأة حتى لو كانت بريچيت هذه التى ينتظرونها.. قال الدكتور أحمد الذى كان يرتدى البنطلون والقميص فوقه بول أوڤر صوف.

- أفضل طريقة للتعرف على الزملاء هى التلقائية، لا بأس بسرعة أن أخبرك باسمائهم ، لكن لا ترهقى نفسك بحفظها، أثناء السهرة

ستترسخ الأسماء فى ذاكرتك.

قال أحد الجالسين.

– يا سيدى لو حفظت أسماء خمسة اليوم يكفى. المرات القادمة كثيرة..

إذن هناك مرات قادمة؟. قالت ذلك لنفسها. وتذكرت أنها لم تر الدكتور أحمد أبداً مرتديا بدلة كاملة. دائما بنطلون وقميص ويأتى الشتاء فيضع فوقهما بول أوفر. رأت من بينهم شابا فى عمر الدكتور أحمد يرتدى أيضا بنطلوناً وقميصاً فوقهما بول أوفر أقل قيمة مما يرتديه أحمد. أحست ببعض الطمأنينة. ورأت أحمد بسرعة خارجا وهو يقول «دقيقة واحدة» ثم يعود بسرعة وفى يده زجاجة شمبانيا فى جردل أخضر صغير ملىء بالثلج. وضعها بينهم على منضدة صغيرة.، وجاء بعده نادر نعيم يحمل صينية عليها كؤوس صغيرة كريستال.

– نبدأ أولا بالشمبانيا.

– قل نبدأ بالتعارف.

هذه الخفة والنعومة فى الجو حولها شىء يكاد يبدد روحها. كأنما دخلت فى فيلم يعرض أمامها على الشاشة وصارت فردا من أفراده. دخلت منومة لا تشعر بما تفعل . سمعت أحمد يتلو اسماء الزملاء. لم تلتقط اسما واحداً وهى تهز رأسها مع كل اسم ! هطل مطر شديد فى الخارج. زخات قوية كأنما انفتحت أبواب السماء على مصاريعها ودق جرس الباب..

– بريچيت!.

هتف نادر نعيم وتهللت أساريره.

– بريچيت والمطر! ياله من غيث..

قال ذلك وهو يسرع ناحية الباب. لحظات وكانت بريچيت واقفة

أمامهم عند مدخل الغرفة تسلط عينيها الزرقاوين وفمها المفتوح على نوال. نوال وليس أحد آخر بينما كان نعيم يخلع عنها البالطو الأنيق من الخلف.

– هذه مهمتى لا أتنازل عنها أبداً..

كانت نوال تفكر أنها لا ترى أمامها امرأة شابة جميلة، انما مهرة حقيقية جامحة لا سبيل لأحد إلى ترويضها. يا له من جمال هذا الذى يتجسد أمامها واقفا، من أى سماء أقبل وأى خالق هذا الذى نحت؟.

نهض الرجال واقفين ومرت عليهم بريچيت تصافحهم وتقبلهم ويقبلونها الواحد بعد الآخر حتى إذا قبّلت الدكتور أحمد أغمضت نوال عينيها، لكنها لم تعط هذا الضيق فرصة الظهور على وجهها.

ادركت نوال أن بين الجالسين ثلاثة من الأجانب، عرفت اليونانى والإيطالى أما الثالث فلم تعرف جنسيته. لم ترهق نفسها بذلك.

كانت تفكر كيف تترك امرأة نفسها يقبلها كل هؤلاء الناس، لكنها فجأة لم تشعر بأى عيب. كانت رائحة عطر بريچيت قد غزت المكان كله بالانتعاش والشبق. كل شىء حول نوال الآن يبدو منتعشاً منتشياً غير مستقر حتى الجدران. فى الخارج كان لا يزال المطر يزداد لكن صوت زخاته صار يتداخل فيها صوت الريح. فى لحظة ينقطع صوت المطر ثم يعود مرتطما بالأرض. إنها لحظة تطير فيها الريح الهائجة الأمطار هنا وهناك ثم تنقطع الريح فيستقيم سقوط المطر وصوت ضرباته فى الأرض والأسطح. معركة من نوع غريب، فيها جنون، لكن هنا، داخل شقة الزميل نادر نعيم، كل شىء هادىء، ناعم، والمدفأة التى بالصالة تنشر الدفء فى الشقة كلها، وكان لابد أن تصافح بريچيت نوال.

– بريچيت فنانه تشكيلية. نوال مطربة المستقبل.

قال الدكتور أحمد فانتعشت نوال، أدركت انها رأت بالصالة صورة

زيتية جميلة للزميل نادر نعيم فى ركن منها توقيع بريچيت رشيقاً.
حركت بريچيت قدميها كالأطفال وهى تضربهما فى الأرض وتساءلت..

– أين أجلس؟

أشار نادر نعيم إلى مقعد فى مواجهة نوال وقال.

– هنا أيتها الملكة.

ضحك أحد الجالسين وقال.

– صار لدينا ملكتان اليوم، هل بعد كل الذى فعلناه لمقاومة الملكية يصبح لدينا اثنتان مرة واحدة.؟

ضحكوا لكن نعيم قال:

– النساء الجميلات لا يصلحن إلا ملكات واسأل الشاعر. ما رأى عصمت مفتاح؟.

أشار إلى الشاب الذى يرتدى البنطلون والقميص والبلوفر الذى بدا شاردا ناظرا إلى الأرض. رفع رأسه ودار بعينيه عليهم. ابتسم لنوال وقال.

– النساء ملكات على عروش قلوب الرجال.

الله . الله . الله. صفقوا جميعا، ونوال فى دهشة وسعادة. قالت بريچيت.

– لابد أنك كتبت شيئا جديدا يا عصمت.

سكت لحظات ثم قال..

– قصيدة لم تكتمل.

– ممكن نسمعها؟

– لكننا جئنا الليلة لنسمع الآنسة نوال.

وجدت نوال نفسها تقول:

– أنا يسعدنى جدا ان استمع إليك يا أستاذ عصمت.

- الله. الله. الله. معجبوك يزيدون يا أستاذ.

قال نادر نعيم وأحست نوال بخجل حقيقى، وإذا بعصمت مفتاح يقف يتهيأ ليتلو شعرا..

عرش قلبى تجلس عليه خلاسية من زنزبار

عرش قلبى تجلس عليه غجرية من سمرقند

عرش قلبى طريق لنساء أميركا اللاتينية

لاينافسهن فيه إلا امرأة من الهند

وامرأة تهوي كالبرق من فوق جبال أرارات..

تصفيق وآهات وكلمات استحسان وإعجاب ونوال فى حيرة حتى اقترب منها الدكتور أحمد وقال:

- كونى قوية ولا تخافى، إنهم ناس طيبون جدا، ستكونين أنت الملكة فى النهاية، وستفهمين كل شىء..

طلبوا جميعا من عصمت أن يكمل القصيدة. فتح نادر نعيم زجاجة الشمبانيا فرأت نوال أن الصوت الذى يصدر حين يطير الغطاء حقيقى وليس تمثيلاً كما كانت تتصور حين ترى ذلك يحدث فى الأفلام. رأت الرجل المهيب يقفز بالشمبانيا وهى تفور ويضع منها بسرعة فى كؤوس الزملاء. تركته يملأ كأسها. لم تشرب من قبل، لكنها رفعت ذراعها معهم فى صحة عصمت مفتاح..«لا.. لا. يسينين».

«ولماذا لا يكون ماياكوفسكى».

«أفضِّل أن أكون رامبو. على الأقل لبعض الوقت».

كان الحوار حولها لا تفهم منه شيئا لكن تشعر أنه صادق وجميل..

وراح عصمت مفتاح يلقى قصيدته.

المرأة التى تجلس على عرش قلبى

انتهت لتوها من صنع الثورة

انها تشوى بصلا على الفحم
وتشرب النبيذ مع الفراشات
وتوزع الخبز على جنود النهار.
ران على الجميع صمت مهيب. بدا عصمت مفتاح وقد شرد عنهم، راح يلقى شعره للبعيد البعيد..
إن ديلا كروا الذى انتهى للتو
من رسم الحرية وهى تقود الشعب
قد خرج يجرى فى الحدائق
فرأى المرأة التى انتهت لتوها من صنع الثورة
فبكى بين يديها أن تنتظر
فالحرية الحقة لم يرسمها بعد..
هنا لم يستطيعوا السكوت. ضجوا كالأطفال معجبين. رأت نوال بريچيت تأكل عصمت مفتاح بعينيها.
من أنت أيتها المرأة اللغز؟
قالت أنا التى اعتصر جويا حليبى
وقام مجنونا ليرسم فريق الإعدام
ويجري فى الشوارع مع الثيران.
يارفاق..
وأشار إليهم أن يسكتوا عن الصياح وواصل بصوت جهورى عال.
يارفاق..
الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق
ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان
هيا نصلى جميعا وراء جويا
جويا الذى وصل إلى حافة النهر

فوجد المرأة التى اعتصر حليبها
تغسل شعرها عارية
ولا تنزل إلى الماء
لماذا لاتنزلين أيتها المرأة إلى الماء
لأن جويا عض مفاتنى فى نزق
لأن جويا ترك ألوانه على جسدى
إنها المرأة شديدة الذكاء والعبقرية
التى انتهت للتو من صنع الثورة
فارتاحت على عرش قلبى.
هنا. هنا فى الأسكندرية
التى ينزل عليها المطر يغسلها
لترى السماء وجهها فى الأرض.
أى مدينتى العبقرية
مدينة النزق والجنون والاستشهاد
كيف دخلتك الخيول العجوز
محمَّلة بكل هذا الغبار والتراب
كيف فتحت أبوابك للبرابرة
وتبعثرت فيك النساء.
هبينا مدينتى القدرة على الثورة
أطلقى مدينتى أسر المرأة الذكية
دعيها تصنع الثورات
وتشوى بصلا على الفحم
وتشرب النبيذ مع الفراشات
وتوزع الخبز على جنود النهار.

صفقوا بجنون، طلبوا الويسكى فى صحة الشاعر، قامت بريچيت وقبلت عصمت وهو شارد يكاد لا يشعر. لقد تفصد العرق من جبينه واحمرت عيناه، ونوال التى لم تفهم شيئا أحست بالنار تشتعل فى جسدها كله. من هو عصمت مفتاح هذا وماذا يكون؟ إنه أشبه بكرة النار التى سقطت من الفضاء أمامها. انها لاتحيل عينيها عنه.

يعود ويجلس مطرقا إلى الأرض، يتناول كأس الويسكى ويشرب منه بهدوء. والدكتور أحمد مشغول بوضع المزات أمامهم على أكثر من منضدة منخفضة. جمبري وسردين مقلى وجبن حلوم وجبن رومى وكاليمارى وجبن فلمنك وزبادى وخيار.. يا إلهى.. أشياء كثيرة يا نوال فى الدنيا لن ينقلك إليها إلا أن يواتيك الحظ فى الطرب. لكنها لن تشرب الويسكى ولا السجائر التى يقدمها إليها أحدهم بين الحين والحين. لن تندفع فى هذا الطريق، ولن تأتى هنا مرة أخرى. أجل. سيقتلها هؤلاء الناس. هذا الشاعر الحزين وجهه شاحب مثل سيدنا عيسى عليه السلام .. عيناه واسعتان وأهدابه طويلة مثل سيدنا عيسى عليه السلام. ذقنه قصيرة مدببة مثل سيدنا عيسى عليه السلام. إنها تحتاج أن تأخذه فى صدرها مثل ستنا مريم!

- الساعة الآن العاشرة. نريد أن نسمع نوال قبل أن ينتهى العام.

ضحكوا . العام سينتهى بعد ساعتين حقا. فلتغنى نوال كما لم تغنى أبدا. لقد أشعل فيهم الشاعر النار، أما هى فستطير بهم فى السموات العلى. ستجعلهم لاينسونها أبدا بعد ذلك ولن تأتى هنا مرة أخرى. لن تستطيع.

(٩)

جلست كاتينا مع العربى وحدهما الليلة. ذلك لم يحدث من قبل فى أى عام .

– عربى . أنا غير مبسوطة هذا العام.

– لماذا كاتينا. الأتيلييه لا يزال يعمل، وأنت تزدادين جمالا. لماذا لم تقيمى حفلة مثل العام الماضى؟

– كنت تريد حفلة عربى؟

– لنفسى لا. هكذا أفضل. أنا وأنت نشرب الميتاكسا الفاخر، لكن الحفلة من أجلك أنت..

– الجالية اليونانية كلها غير مبسوطة عربى.. الكلام فى أى سهرة كله سياسة فى سياسة.

– لكن ليلة رأس السنة مناسبة جميلة فيها الناس يمكن أن تنسى السياسة.

– لا عربى السياسة الآن صعبة. لا أحد يعرف مصر رايحه فين! كل يوم تمصير بنوك وشركات . الأجانب الآن يبحثون عن طريقة لتهريب الأموال.

– لكن الجرائد كلها تقول إن التمصير مفيد وضرورى لمصر.

سكتت كاتينا قليلا ثم قالت:

– الحقيقة عربى أن التمصير مفيد لمصر، لو كان ياناكيس موجود كان زمانه مبسوط. كان ممكن يقول يعيش جمال عبد الناصر .

– طيب ليه زعلانين كاتينا؟

– لأن بعد سنة بالكثير مصر ستصبح دولة شيوعية. رأسمال

مصرى ممنوع. رأسمال أجنبى ممنوع جدا.

- غريبة !. ياناكيس فقط كان ممكن يحب التمصير؟

- تمام عربى . ياناكيس كان يسارى. يسارى يعنى شيوعى. يعنى لايحب الملك..

- أعرف. أعرف كاتينا خلينا نشرب أحسن.

جلسا صامتين لدقائق يشربان الميتاكسا ويمزان بالمور تاديللا.

قالت كاتينا.

- التمصير حلو لكن ثمنه غالى عربى. ثمنه أن الأجانب كلهم يتركون اسكندرية. وطبعا كل مصر.

شرد العربى وقال لنفسه.

«وأولاد البلد يشترون محلاتهم ويأخذون شققهم وكذلك يفعل ضباط فى الجيش والبوليس. كثيرون اشتروا بيوتا بثمن بخس».

قالت كاتينا.

- أنت واحد مجنون عربى. ضيعت الخمسين جنيها فى البارات. راشيل تركتها لك لتشترى شيئا مفيدا لكنك مجنون.أنا أحبك لانك مجنون . شوف الآن محلات البقالة فى المزاريطه وكامب شيزار والإبراهيمية بعد أن اشتروها أولاد البلد . شوف حالها يغم. زمان كان لايمكن تشوف دبانه فى الدكان. ليس زمان. أمس فقط عربى. أنا ساعات يتهيأ لى أن الجبنة الحلوم لونها تغير إلى أسود.

يضحكان بشراسة. كان واضحا أن الخمر بدأت تلعب برأسها.

- يخرب عقلك كاتينا. أنت بنت نكتة ولا أعرف.

- أنا مصرية عربى. بابا كان يشتغل فى تجارة القطن. وبابا بابا كمان!

- جدك يعنى.

- مضبوط عربى.

رفعت كأسها وقالت.

- اشرب عربى فى صحة اسكندرية . من يعرف عربى.. يمكن انتم تخلوها أحسن. يمكن عربى.

شرب معها صامتا وتناول شرائح المورتاديللا. العام الماضى كانت المائدة عامرة بالروزبيف والكبد وأسماك البربونى والجمبرى والكاليمارى والزيتون اليونانى. ،الشقة كانت عامرة باليونانيين، والطليان أيضا، وما كاد الليل ينتصف حتى كان كل يقبل فتاته فى ركن من الأركان. كانت اسمهان موجودة تلك الليلة، وقبلته قبلة طويلة أمام الناس.

كانت تقبله كثيرا بلا سبب تلك الليلة، وجاءت چورچيت وزوجها، لكنهما انصرفا بعد منتصف الليل مباشرة. الباقون استمروا حتي الصباح، انصرف من انصرف ونام الآخرون فى كل مكان على الأرض. كانت الأرض مفروشة بالرجال والنساء والطعام والزجاجات الفارغة من الخمور والمشروبات الغازية. كان يخيل إليه أن هؤلاء الناس يعيشون ليومهم الأخير فى الدنيا. لكن الدنيا تغيرت بسرعة خلال هذا العام. يعرف ذلك كلما ذهب إلى المنشية لأمر ما. يقل عدد الأجانب فى الطرقات أما الصيارفة فقد اختفوا تماما الآن. لم يعد مسموحا بتداول العملات الأجنبية إلا فى البنوك ووفق نظم صارمة لكن ما لكاتينا وما يحدث فى الاقتصاد فى مصر. انه لا يفهم هذه المرأة. لابد أن لها أسهما فى بعض الشركات خسرتها فى البورصة، وإلا أين تذهب فلوسها التى تكسبها في الاتيليه؟ ليس من المعقول أن ترسلها كلها إلى ابنتها فى اليونان!

- ما رأيك كاتينا أن ننزل إلى بياصة الشوام نتعشى، أكيد هناك ناس سهرانة الآن.

– فى هذا المطر وهذه الرياح؟ مستحيل عربى.

– نجرب كاتينا. عندك بالطو فرو وعندى بالطو ياناكيس ثم أننا شربنا ميتاكسا مثل النار.

تركته لدقائق وعادت بعد أن غيرت ثيابها، بدت وسط البالطو الثرى نضرة الوجه كزهرة عباد الشمس. أمسكت بمظلة صغيرة. أخذ هو المظلة ووضعها فوق المنضدة القريبة.

– بياصة الشوام على بعد خطوات!

خرجا من باب البيت فقابلتهما ريح باردة وشديدة فرفع كلاهما ياقة البالطو حول عنقه ثم أسرعا تحت البلكونات ، خاصة وقد هطلت زخة مطر مفاجئة. «أنت مجنون عربى.. أكيد مجنون» وتركا شارع الكنيسة الانجيلية وعبرا شارع الليثى . كل شىء مغلق حولهما وصامت، فى شارع مسجد العطارين كان الظلام والصمت على الناحيتين.

فى بياصة الشوام كان مصباح شحيح الضوء على الحائط يضىء الساحة لكن لا أحد. لا بائع السمان والعصافير المشوية ولا باعة الفستق والكستناء.

ظلام وماء بين بلاط الأرض ورائحة الملابس والبضائع القديمة التى تفرش البياصة بالنهار تتسلل من خلف أبواب المحلات المغلقة والمخزونة فيها. انطلقت تضحك وهى تقف وحيدة معه وضحك هو.

– أنت واحد مجنون كبير عربى وأنا أحبك لهذا السبب..

وأخذته فى حضنها وقبلته قبلة طويلة وهو فى ذهول.

إنها تغدق عليه من مشاعرها هذه الأيام وهذا ينذر بنهاية مخيفة. تشجع وأسندها إلى الحائط تحت المصباح، الحائط البارد . إنه يضع يديه عليه، لكنها دافئة. فتح كل منهما بالطو الأخر وتركا جسميهما يلتقيان.

- أنت ستسافرين قريبا كاتينا.
- من قال ذلك عربى؟
- كل هذا الحب.
- أنا طول عمرى أحبك وأنت واحد حمار.
- إذن هيا نعود إلى الشقة.
- لا. خلينا هنا فى البرد.
- البرد يمكن أن يؤذيك كاتينا.
- أنا كنت أحب ياناكيس فى الجبال فى اليونان فوق الجليد. تعرف عربى ياريت روميو وچوليت ماتا بالبرد وليس بالسم والخنجر.

اندهش من الكلام، لكنه لم يتوقف عن تقبيل عنقها وصدرها وتذكر أنه شاهد فيلما أجنبيا مات فيه البطل والبطلة فى الجليد فقال فى نفسه «حقا الموت فى البرد أفضل من أى موت» وقفز قط كبير صارخا بجواره لا يعرف من أين أتى الآن فدخلت فى صدره أكثر وفجأة انطفأ المصباح ثم عاد فأضاء ثم إنطفأ ثم أضاء وارتبك العربى ثم هتف فى فزع.

- كاتينا لازم نجرى، الساعة الثانية عشرة..

كانت النوافذ المغلقة فى الأدوار العالية قد فتحت وانطلقت منها أضواء غمرت الدنيا من كل اتجاه مع المطر الذى بانت خطوطه فى النور. من خلف النوافذ راح الناس يلقون بكل قديم عندهم فتداخلت أصوات الأطباق الصينى وهى ترتطم بالأرض بأصوات الزجاج والأخشاب، ولمح بعض الشباب العربى وكاتينا يهرولان فصوبوا إليهما قذائفهم. أصابت العربى قطعة خشب اصطدمت بالأرض ثم ارتفعت لتصطدم بساقه. يابن الكلب!!

أصوات الضحكات تأتى إليهما من الأدوار العالية، انتبهت كاتينا إلى

أن خطرا حقيقيا يحدق بهما فهرولت أكثر رافعة ذراعيها فوق رأسها وعند باب البيت بالضبط أصيب العربى فى رأسه وسقط على الأرض. صرخت كاتينا، عربى ، لكنها سمعته يقول أدخلى أنت بسرعة ولم يكن ممكنا لها أن تدخل وهو ملقى على الأرض، توقفت واتجهت بوجهها إلى النوافذ العالية وهتفت «عيب وقلة أدب ممكن الرجل يموت.وأنا أعرف قليل الأدب الذى قذفنا، وبكره الصبح لازم أبلغ البوليس . بكره تشوفوا ماذا تفعل كاتينا»

توقف القذف. الحقيقة انه عادة لا يستمر أكثر من دقائق، كان العربى قد نهض ووضع ذراعه على كتفيها وصعدا معا السلالم. كان الدم الساخن ينزل من رأسه وشعر به، لكنه لم يكن غزيرا..

داخل الشقة شعر العربى بالراحة. تنفس نفسا طويلا ثم زفر زفرة أطول. كانت كاتينا قد أحضرت بطرمان البن الذى راحت تكبس الجرح به بعد أن نظفته بالقطن والميتاكسا فليس لديها مطهرات من أى نوع . ضحك العربى وهو يشعر بحرقة فى الجرح. قالت:

– عجيب أنت عربى تضحك وكأنك مبسوط.

– أبدا كاتينا . أنا فقط حاسس أن الميتاكسا يعبر من رأسى إلى فمى. هل يحدث شىء إذا نفذ الميتاكسا إلى المخ؟

– أنت لذيذ الليلة عربى.

– هل أنام الليلة عندك كاتنيا؟

تساءل متفائلا للغاية لكنها قالت :

– بعد أن ترتاح سأتصل بصديق يحملك فى سيارته حبيبى إلى البيت.

وخزه الألم، لكن كان هناك وقت كى تعطيه درسا فى الحب يحمل تجربة كل هذه السنين التى عاشتها زوجة وأرملة طروب. ولا يعرف عربى

لماذا سألها قائلا.

– لماذا لم تتزوجى بعد ياناكيس كاتينا؟

قالت ضاحكة.

– الزواج يعطيك رجلا واحداً أما من غير زواج فأمامك عشرات الرجال.

ثم نهضت تطلب بالتليفون أحد أصدقائها ليحمل عربى إلى بيته.

★★★

كان ذلك هو الوقت الذى نهضت فيه نوال طالبة العودة والوقت نفسه الذى بدأ فيه محمود الملاح العودة إلى البيت. لم يكن فى المساكن من يحتفل بليلة رأس السنة بالخارج غيرهم.

قال محمود الملاح لسائق التاكسى حين وصل به إلى كوبرى كرموز أن يعبر الكوبرى ويأخذ يمينه فى اتجاه كفر عشرى . المساكن تقع فى منتصف الطريق لكن السائق رفض. قال الطريق مقطوع بعد ذلك، وعند مخازن سلفاجو كثيرا ما يوجد لصوص وقطاع طريق. ابتسم محمود وقال.

– سلفاجو. سلفاجو من يا رجل ؟ سلفاجو راح وراحت أيامه. أرض المخازن الآن صارت مدرسة ابتدائية كبيرة.

قال السائق.

– أنا لم آت هنا منذ عام. لا تؤاخذنى.

– معك حق تقول سلفاجو. مصر رجعت للمصريين يا أسطى.

سكت السائق قليلاً ثم قال.

– هو سلفاجو غير مصرى؟

– يونانى..

– كنت أظنه مصريا، لكن لا تزال شركات كثيرة ملكه.

– ليست كاملة. التمصير رجَّع على الأقل نصف الشركات للشعب.

- لا تؤاخذنى يا أخ لن أستطيع توصيلك. لازلت خائفا.

ترك محمود التاكسى ونزل وهو يقول لنفسه ما فائدة الكلام مع حمار؟ لا داعى لأن أفسد على نفسى متعة هذه الليلة المباركة . لقد اقترب النهار، ولا أظن قاطع طريق ينتظرنى وسط هذا البرد وبعد هذا المطر! ثم إن القمر هلال كبير تخفيه السحب حينا ثم تمشى فيظهر ويضيىء الطريق ولو للحظات فها هى المياه تلمع بين حين وحين. ترعة المحمودية ساكنة، لا حركة ولا سفن، هجع اللصوص فى أماكن بعيدة. ثم أنه يحتاج حقا أن يمشى الليلة ويفكر ما دامت الأمطار قد انقطعت، فى هذه القدرات الخارقة التى يمتلكها فلفل مطحون تاجر البهار العجيب. ماهو سر «التحويجة» التى يقدمها لى فى كل مرة يكونان فيها على موعد مع المرأتين. لقد عاد تاجر البهار وظهر بعد أيام من واقعة محمود القزعة الذى كان قد عاد إلى حالته الطبيعية ونسى الانتقام ومنذ عودته وهو يغامر مع النساء مصطحبا محمود معه.

- إذا وفقت أول مرة توفق دائما ونحن الآن موفقون والحمد لله.

ولم يشأ أن يخبره أبدا بالوصفة السحرية.

- لاتقلق. إذا مت سأترك لك الوصفة فى وصيتى..

تقدم محمود فى الفسق فدخن الحشيش الذى لم يجربه من قبل قط، ورفض شرب الخمر. قال إنه كان يحبه زمان حتى رأي فى محل عند كوبرى راغب كيف يتم تحضير الخمير والبوظة، وشاهد كميات الذباب التى فوق الطشوت التى يتم التحضير فيها قبل أن يدلقوا الخمير أو البوظة فى الجرار. منذ هذا اليوم أقسم ألا يعود إليه. لا بأس فقط أن يدخن الحشيش فى السجائر. لكن المرأتين وضعتا لهما الحشيش فى كنكة القهوة فدخل محمود عالما سحريا لا يكف فيه الناس عن الضحك ودعمه فلفل بالتحويجة فبدا بعدها الكون كله كأنه فرج امرأة وماهو إلا

ذكر يحمل الكرة الأرضية على رأسه ويقوم بتلقيح كل هذا الكون. صار يضحك فى كل وقت ، حتى وهو فوق المرأة.

- يخيل إلىّ انك لست بفلفل مطحون ولا تاجر البهار.

- من أكون إذن يا سى محمود؟

- أنت شيطان ولا أقل من شيطان. أنت الشيطان الأصلى الذى قال له ربنا أسجد لآدم ولم يسجد.

رأى عينى فلفل حمراوين يكاد يطل منهما شرر فأصابه رعب أخفاه بجهد وقال فلفل:

- ياسى محمود العطارة أسرار،من ملك أسرارها ملك الدنيا والملكوت.

- لكنك لم تقل لى أبدا لماذا تركت العطارة؟

- هذا أيضا من الأسرار.

تركه ونهض إلى المرأة التى تنتظره فى الغرفة، كذلك فعل محمود وبعد قليل التقيا بالصالة فتساءل تاجر البهار.

- شبعت؟

- لا . لكن يمكن أن اكتفى اليوم.

- لا تكتف إلا حين تشبع. هل تضمن صحتك غدا أو بعد غد..

- لكنى سمعت الكبار دائما ينصحون بتوفير الصحة ليوم نحتاجها فيه.

- طيب، وإذا ضربك ترماى ومت فماذا كسبت؟

سكتا. قال محمود فى نفسه، صحيح، ثم فكر كيف أنه الآن لا عمل له إلا الجرى وراء النساء، وحده أو مع فلفل، وكيف أن العالم كله يكون بين يديه حين يمتلك المرأة ، أى امرأة.. واكتشف فى نفسه قدرات هائلة على الامتاع الجنسى، وبعض النساء سهلن له الحصول على نساء أخريات، وهكذا لم يعدم من تقدم إليه بعض المال. فى البداية تضايق ثم

تعوَّد ثم صار يطلبه فى بعض الأحيان. بالجنس صار لديه ما يفعله، وصار مفيدا!. لكن يظل فى نفسه غصة انه لو وفق فى إخراج الفيلم، أى فيلم، لكان الآن يذوق طعم نساء أجمل. كلاكيت آخر مرة يا محمود. لا تعد إلى الحديث عن السينما. أنت الآن ذكر، حيوان، عضو، إير. وليس أى شىء آخر..

وسمع تاجر البهار يقول له.

– لاتنظر لى يا فتى . أنا اكتفى بسرعة. انت شاب . انهض لبى نداء الدنيا والدين!

تأمله محمود بدهشة. قال..

– ما دخل الدين هنا ونحن ذاهبان إلى جهنم لا محالة؟

أجاب فلفل.

– من الذى وضع فينا هذه الغريزة اللعينة؟

– ربنا.

– إذن لابد من استعمالها وإلا نكون ناكرين لفضل ربنا!

وهنا هتف محمود بانفعال.

– استعمالها فى الحلال يا فلفل يابن ديك الكلب لاتزين لى الحرام. هذا الذى نفعله حرام. لاتضللنى . تسألنى إذن لماذا أفعله أقول لك انى طامع فى عفو الحليم الجبار، والآن لا تفسد علىَّ متعتى بهذه المرأة الشرموطة.

ضحك تاجر البهار، وبعد أن اختفى محمود فى الغرفة قال تاجر البهار بصوت عال..

– جهنم يا سى محمود وقودها الناس والحجارة. أنا الناس وأنت الحجارة.

لكن محمود كان قد انشغل عنه فلم يهتم . قبل الفجر خرج معه

ومشيا فى طريقهما إلى المدرسة التليانية. بعد المدرسة التليانية وقفا عند أول شارع باب سدرة. الشارع المزدحم بالنهار بباعة الملابس يبدو خاليا تماما. أبوابه الخشبية مغلقة بأقفال ضخمة. لكن أعلى الأبواب ترك أصحاب المحلات لمبات مضيئة تحت وفوق وحول اللافتات.

معظم التجار هنا أقباط. فوق المحلات عبارات لها مغزى. اللهم لا تدخلنا فى تجربة.. إذا اعطاك الرب فلا تخشى أحداً.... قال فلفل:

- أنا ساكن قريبا من هنا فى شارع البرنسيسات، اسمه هكذا رغم أنه مجرد زقاق ضيق وقذر.

ثم بعد لحظة قال:

- لقد عرفت بيتى ياسى محمود . عرفت شيئا عنى. وستعرف الكثير فيما بعد..

كانت الأرض حولهما مليئة ببقايا الماء ونفايات الصينى والزجاج والفخار الذى حطمه السكان عندما انتصف الليل. صافح محمود تاجر البهار وانفلت عائدا داخلا فى شارع عامود السوارى متجها إلى كوبرى كرموز. لا ترام الآن . يمكن أن يمشى لكن هاتفا باطنيا جعله يعود يتطلع فى الظلام إلى تاجر البهار الذى صار بعيدا فى شارع باب سدرة.

فجأة توقف تاجر البهار وعاد. رآه محمود يعود إليه فظل واقفا فى مكانه.

- ما الذى أعادك؟

- أود أن أصحبك حتى الكوبرى على الأقل. وأنت لماذا توقفت؟

- فى الحقيقة كدت ألحق بك. لم أشأ أن أتركك وحدك الآن.

ابتسم تاجر البهار وربت على كتف محمود وقال.

- أعظم صداقة هى الصداقة بين الرجال يا محمود.

وأخرج من جيبه زجاجة عطر صغيرة.

– هذا عنبر . إنه عطر الأمراء.

ابتسم محمود وهو يمسك الزجاجة الصغيرة جدا فى يده ويشم رائحتها الجميلة.

قال تاجر البهار.

– فى جدودى مجانين من نوع خاص . أحدهم كان مجنون العنبر. أمضى حياته كلها بين عُمان وزنزبار يتاجر فى العنبر، كان لديه أحسن فريق من الغواصين يأتون له بالعنبر من أعماق المحيط الهندى. سمع يوما أن هناك عنبرا قيِّما يقوم بإفرازه طائر خرافى فى جزر المالديف فذهب إلى جزر المالديف وبنى بيتا هناك وبحث عن الطائر الخرافى لكنه لم يصل إلى شىء حتى جاء صباح رأى فيه دويا فى الفضاء وصوت ضربات جبارة كانها طبول من فوق الجبال، فتطلع من شرفة البيت فرآها، الرياح الأربع، قادمة إلى البيت، كان قصرا فى الحقيقة عاليا قويا، واقتلعت الريح القصر ومشت به أمامها فى الفضاء . تركته واقفا وحده وحملت القصر سليماً كما هو من حوله، وارتفعت به إلى الفضاء ، لم تعده مرة أخرى. ظل جدى هذا واقفا يوما كاملا فى العراء، لا أحد يمر به ولا أحد يراه، وفى المساء مشى حزينا إلى الشاطىء فوجد زورقا فى انتظاره حمله إلى سفينة حملته إلى عُمان وانتهى صيادا للحيتان، حوت العنبر بالذات، لكنه مات فى البحر قبل أن يصطاد حوتا واحداً.

وسكتا ، راح محمود يتأمله بوداعة فائقة قال:

– يعلم الله كم أحبك يا فلفل مطحون.

– إذن دعنى أصحبك حتى الكوبرى.

ظهر تاكسى قادما من عند المدرسة التليانية فاشار إليه محمود بالوقوف وقال:

– لقد أظهر كل منا نيته الطيبة إزاء الآخر وهذا يكفى . أنت بيتك قريب وأنا بعيد دعنى أوصلك بالتاكسى وأعُد إلى البيت.

– فى هذه الحالة دعنى أعُدْ على قدمى. إنها بضعة امتار يا صديقى

وصافحه بقوة ، وأخذه فى صدره وقبله، أمام دهشة سائق التاكسى. هذا السائق الحمار الذى لم يوافق أن يكمل بمحمود الطريق. ومحمود الآن وصل بسرعة مذهلة إلى المساكن. كان ذهنه مشغولا بصديقه العجيب تاجر البهار ، وكان مندهشا من فكرة أن يكون هو إيراً والكون كله فرج كبير فكان يقفز أحيانا برأسه يتفادى برك المياه على الأرض لكنه يهز رأسه ويدور بها فى قلب الفضاء يحكها فى شىء. يحس الآن كأن عقله يتشقق، ويحتاج للجلوس على شاطىء ترعة المحمودية رغم البرد و الظلام يشجعه الهلال الذى يطل بين لحظة وأخرى من السماء.

برودة سلالم الماكينة الحمراء نشعت من البنطلون إلى إليتيه وساقيه حين جلس . فى ذلك الوقت سمع صوت هدير سيارة صغيرة سرعان ما ظهرت تمشى على مهل وتتوقف عند بوابة المساكن. كان بها سائق شاب وفتاة سرعان ما تحقق أنها نوال . نوال! قال فى نفسه مندهشا. إزدادت دهشته حين رأي السائق الذى كان شابا صغيرا ينزل من السيارة ويقابل نوال التى نزلت من الناحية الأخرى، ويصافحها ثم يقبلها قبل أن تتركه وتدخل من البوابة. لم تنس نوال ان تلتفت وتهز ذراعها للسائق مودعة من بعيد. يا إلهى إنها نوال ولا أحد آخر . لكنه لاحظ أن فتاة أخرى كانت تجلس بالمقعد الخلفى نزلت وقبلت نوال أيضا ثم جلست مكانها فى المقعد الأمامى.

استدارت السيارة عائدة على مهل. رؤيته للفتاة الأخرى جعلته يفكر ربما هى والشاب من أقارب نوال لكنه سرعان ما استبعد الفكرة. ثم مط شفتيه. ماذا يهم؟ فقال لنفسه . انها ليلة مباركة على أى حال . لكن

صوت سيارة آخر أعلى هديرا سرعان ماملأ الظلام. توقفت هى الأخرى عند البوابة ونزل منها العربى . انه لا يخطئه . كانت هناك امرأة أيضا فى السيارة تجلس جوار السائق، كان العربى هو الجالس فى الخلف. لدهشة محمود الكبرى تركت المرأة السيارة ووقفت وسط الشارع تصافح العربى ثم قبلته وعادت إلى السيارة التى قفلت راجعة. ما الذى يحدث هذه الليلة يامحمود ؟ ياله من استقبال للعام الجديد.

(١٠)

لم يكن صوت الرعد الذى زلزل الاسكندرية عند الفجر هو الذى أيقظ سليمان هذه الليلة الأخيرة الطويلة من العام. كان حلما عجيبا رأي فيه الإسكندرية وهى تنقلب على ظهرها ويتساقط الناس من نوافذ مبانيها وأبوابها وأسطحها، وشخص طويل ضخم يقف على ظهر المدينة التى صارت كسلحفاة ويمسك بيده مكنسة طويلة من مكانس عمال البلدية ويعمل فى صمت.. انتبه فسمع صوت أبيه يصلى الفجر فى الصالة ويتردد صوته الخفيض فى الظلام . لكن ضوء المصباح الهادىء الموجود عند الحمام كان يكفى ليخرج سليمان إلى «العشة» الخارجية ويجلس وحده. لقد أقام لنفسه ركنا محكما لا يزيد على متر فى مترين وضع فيه كنبة ومكتباً صغيراً ومقعداً. كان سقف العشة على غير عادة العمال هنا من خشب وأسمنت بينها أفرخ من الكرتون والخيش المغمور بالزفت بحيث لا تستطيع المياه اختراقه بسهولة. ومع ذلك كان هناك «سرسوب» رفيع يتسلل من أحد الأركان. لقد لمحه أبوه وهو يعبر الصالة خارجا إلى

العشة فرفع صوته فى الصلاة فقال سيلمان «سوف اذاكر» وأغلق باب البيت الذى يفضى إلى العشة خلفه حتى لايصل إليه أى صوت من الداخل .

جلس إلى مكتبه الصغير، لاحظ أن الراديو فى مكانه لم يحركه أحد من أخوته . فكر ألا يشعله ثم مد يده وأشعله وبسرعة وجد محطة الموسيقى التى لايعرف مكانها فى الدنيا والتى تظل تبث الموسيقى فى النصف الأخير من الليل. أخرج كراسة وأمسك بالقلم. يحتاج إذن أن يكتب. هذا ما أيقظه وليست الرؤيا العجيبة. إن فكرة تاريخ الاسكندرية فى القرن العشرين من خلال حياة مغنية لاتزال، وقد خايلته فى الأيام السابقة كثيرا، هى الأصلح لتقوم عليها روايته التى يخطط لها ويجمع من أجلها المعلومات. لكن المشكلة أنه كلما وضع المغنية أمام الجمهور لم يخرج منها صوت. الأحداث تمر خلفها فى شريط سينمائى، ويظهر مغنون عظام مثل سيد درويش وسلامه حجازى وأم كلثوم وكلهم يغنون ويسمعهم الناس، لكن الناس حين يذهبون إلى مغنيته وقفت وفتحت صوتها فلم يخرج منه صوت ونزلت دموعها. الچوقة خلفها أيضا كبيرة، تزيد على المائة موسيقى وبها كل الآلات الشرقية والغربية المناسبة وكلهم يعزفون لكن لاصوت للموسيقى، والجمهور الذى نزع المقاعد من الصالة الكبيرة وملأ الصالة واقفا يصفق ويصفر ويضرب الأرض باقدامه ولا صوت يخرج. لا صوت يا سليمان . لا صوت لشىء.

أرقته هذه الفكرة أياما وأسابيع، وجد أن الرواية هكذا انتهت قبل أن تبدأ، ففكر أن يكتب عن مغنية حقيقية ، ولتكن أم كلثوم مثلا، ومن خلال حياتها يعرض تطور الحياة المصرية من السياسة إلى الذوق، لكن ذلك يحتاج منه إلى جهد كبير، والحل المفتوح أمامه، وربما هو الذى أيقظه

اليوم. هو أن يلغى فكرة المغنية الحقيقية والخيالية ويكتب ما حوله هنا.
لقد سجل كثيرا مما يحدث فلماذا حقا لا يكون ذلك مادته الحقيقية.

وجد نفسه يكتب فى الصفحة الأولى عنوانا كبيرا يقول «وقائع اليوم الأخير فى العام قبل الأخير!».

ماذا سيحدث لو طالت الرواية أعواما أخرى ؟ لا بأس. يغير العنوان.

«ثلاث حوادث كبرى اليوم قبل، ومع هبوط الظلام. صباحا هاجم البوليس عصابة حميدو فى ترعة المحمودية. إنها العصابة التى دأبت على سرقة السفن. رأيت المخبرين وهم يطلقون الرصاص على حميدو فى الماء. لكنه، وكما يحدث فى الأفلام، كان يغوص اسفل الماء ويظهر بعيدا. لم يفكر واحد من المخبرين فى النزول وراءه. لقد لانوا بالشاطىء وإطلاق الرصاص وقبضوا على ثلاثة من رجال حميدو خرجوا مستسلمين من الترعة. إنهالوا عليهم ضربا وألقوا بهم فى العربة البوكس حسب تعليمات الضابط الشاب لكن حميدو لم يخرج. يطول وقت اختفائه ثم يظهر ليشير إليه الأطفال فيصوب نحوه المخبرون لكنه أسرع من الجميع يكون قد غطس. إن حميدو يمشى تحت الماء والمخبرون وجنود الشرطة يمشون على الشاطئين فى تصميم على الإمساك به حتى لو فى نهاية الترعة حين تتصل بالنيل. الأطفال الذين لا أعرف كيف ازدادت أعدادهم إلى هذا الحد يمشون وراء المخبرين والجنود. حبشى منع أطفاله من المشاركة، ومشى هو جوار الضابط . كان طويلا جدا حبشى وهو يمشى حافيا فى جلباب قصير جوار الضابط الذى بدا قصيرا للغاية. صباح عجيب لليوم الأخير فى العام الميلادى. حميدو هذا ليس هو فتوة المنشية القديم، لكنه رجل مسكين من غيط العنب كان تعيسا شقيا من يومه، شارك فى قتل الانجليز وسرقتهم أثناء الحرب

الماضية، وكثيرا ما قبض عليه البوليس وأرسله إلى معتقل «الطور» الذى به أعتى المجرمين ، وأمه امرأة سمينة لا يعرف أحد كيف تنهض عن الأرض تبيع الخضراوات عند مدخل البيت فى غيط العنب وقد تزوجت فى الحرب العالمية الماضية رجلا هزيلا قصيرا كان جنديا فى الجيش المرابط، يرابط معها طول النهار وتستخدمه فى قضاء المشاوير! لا يعرف أحد لماذا انقلب حميدو إلى زعيم عصابة. هل هو الإجرام بالسليقة كما يقول لومبروزو، أم هو المجتمع كما يقول چان چاك روسو؟. هذا هو الكلام المباشر فى الفن يا سليمان فاحترس... جمال عبد الناصر يلعب الكرة الشراب مع أم كلثوم!.

عند كوبرى كرموز جرت الواقعة. انهمر الرصاص من الشاطئين كثيفا إلى درجة أبقت حميدو طويلا تحت الماء حتى كاد يختنق . وعندما ظهرت يد واحدة له فوق الماء صارت ذراعا مهتزا عرفوا انه يطلب الاستسلام. خرج إلى البر يقطر ماء من لباسه القصير. كان قد خلع ثيابه كلها فى الماء وكان يرفعها لهم وهو غطسان فيصوبون نحوها الرصاص بتهور ويضحك الأطفال حين يكتشفون الخدعة ويجن جنون الضابط الشاب ويصمم على إنجاز مهمته. وقف حميدو عاريا وسط البرد، لكنه كان قويا وشامخا لم يقع والضرب ينهال عليه بأكف المخبرين الغليظة. كانوا يضربونه خائفين. بعضهم فى الحقيقة يعرفه، فهو يسرق السفن منذ سنوات ويعطيهم مما يسرقه. لكن الضابط الصغير تقدم منه وهوى بكفه على صدغه فصوب إليه حميدو نظرة حادة كادت تفقد الضابط صوابه فتراجع وخطف عصا خيزران من يد أحد المخبرين وعاد ناحية حميدو وقال مهددا.

– امسكوه ابن القحبة وأعطونى ظهره.

كان واضحا ما يريد أن يفعله بالعصا. تردد المخبرون للحظة وتقدم حبشي بسرعة خالعا جلبابه القصير ووضعه فوق حميدو وهو يقول بصوت هادىء للضابط.

– لا يا حضرة الضابط. هذا حميدو.. حميدو لايهان..

المدهش أن الضابط الشاب لان واقتنع. أشار بالكلبش فوضع فى يدى حميدو الذى مشى معهم صامتا إلى قسم البوليس بينما عاد حبشي إلى مقره بالفانلة واللباس.. سيظهر حميدو مرة أخرى بعد أيام ويمارس نشاطه، وسيعود الضابط بعد وقت ليقبض على حميدو من جديد. انها لعبة العسكر والحرامية التى نشاهدها مستمتعين. كيف يعمل العسكر إذا اختفى اللصوص؟. كيلوت بريچيت باردو أحمر ومقطوع...!!

إن أحداث الشهور الأخيرة لهذا العام مهمة، فالأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود تزوج فتاة مصرية هى صافيناز نور، وسيأتى اليوم ويصبح الأمير ملكا. كما ظهرت الترجمة العربية الكاملة لكتاب فى سبيل الحق أو قصة حياتى بقلم المهاتما غاندى، وظهر العدد الأول من مجلة جديدة هى مجلة العربى، من الكويت، صدرت فى مائة وأربع وستين صفحة ومائة وخمسين صورة ورسماً وعشرين لوحة بسعر خمسة قروش وأعلنت محلات الكافيار عن أن سعر البطارخ الطازجة الممتازة بثلاثة جنيهات وانتشرت رياضة الهولاهوب حتى صار أعضاء برلمان ألمانيا الغربية السمان يتدربون عليها فى بدروم البرلمان، وأستطيع أن أكتب أحداثا أخرى أكثر أهمية لكنى أرجئها الآن وأعود إلى ماجرى فى المساء قبل المغيب النهائى للشمس، وأم كلثوم تغنى شمس الأصيل من راديو العنيبسى ومرعى يستمع إليها زعلان من الانسجام!. وقعت

الواقعة الثانية . في الحقيقة الثالثة اليوم لكنى أجلت الثانية للنهاية لإنه بعدها قد تسقط الأعمدة التى تحمل السموات وينهار الكون . ومازلت أحتاج بعض دقائق للحياة، رغم أنى على يقين من سوء الحظ الذى سيلازمنى كما لازم عمى الموجود الآن مع القرود منذ عشر سنوات، وكما لازم اسماعيل أدهم فانتحر فى البحر، وفخرى أبو السعود فانتحر فى الحديقة. الأول فيلسوف والثانى أديب. فقدت الاسكندرية عقلها وقلبها منذ ذلك الوقت.

كانت الفلائك تمر عائدة بعد التنزه إلى كفر عشرى عليها بنات جميلات وشباب فوقف أولاد السكن يقذفونهم بالحجارة طالبين ضريبة عبور. لا الذين فى الفلائك سيصعدون ليدفعوا ضريبة لأحد، ولا الأولاد يريدون ضريبة لكن هكذا جرت الأمور. كان عيد المشعور هو الذى قاد الأولاد.

دائما نعتبر سكان كفر عشرى أصدقاء لنا، ليس من فرط الأدب الذى نتحلى به هنا، لكن لأنهم الأقرب فى الجيرة إلينا، إلا النسوان فلا يسلمن من معاكسة الصيع الجالسين جوار دكانة العنيبسى طول النهار. فى الجو ريح حملت الأحجار إلى أجساد البنات الثلاث والشباب الثلاثة وابتعدوا وأطبق الظلام على الدنيا. عند صلاة العشاء فى الجامع فوجىء الرجال بأربعة رجال فى زى المخبرين، الجلباب البلدى والبالطو والكوفية والخيزارنة ، يدخلون الجامع.

- السلام عليكم.

- عليكم السلام ورحمة الله.

- نحن مخبرون من قسم بوليس كفر عشرى. أولادكم ضربوا أولاد كفر عشرى وأصابوا البنات والصبيان إصابات صعبة وتقدم إلينا أكثر

من شخص بشكوى ضد أولادكم..

ارتبك الرجال. كنت أنا بالصدفة خارج البيت فشاهدت الرجال الأربعة المخبرين، بل اننى أنا الذى صحبتهم إلى المسجد الصغير بالشارع الوسطانى.

ارتبك الرجال، نظروا إلى بعضهم فى حيرة حقيقية. إنهم فى العادة طيبون. تشعر أن الله وضعهم هنا فى هذا المكان وأنهم لايعرفون من الدنيا غيره. ورغم ما يحدث بين النساء أحيانا من شجار، فالرجال لايتشاجرون فما الذى جعل أولادهم أشرارا؟ قال المخبرون:

– يمكن أن تتصالحوا معهم لو قدمتم ترضية مناسبة واعتذارا . سوف نساعدكم. المهم أن تحضروا معنا إلى القسم لإنهاء المحضر.

وجدت نفسى أقول:

– هل الشكوى ضد شخص بعينه؟

حدجنى أحدهم بنظرة ثاقبة وقال:

– ضد سكان المساكن كلهم. ما رأيك.؟

بدا يتحدانى. الحقيقة أنى وجدت نفسى أسكت. ارتبت فيهم للحظة لكنى لم أستمر فى الارتياب . تطوع عدد من الرجال للذهاب معهم. سبعة رجال مشهود لهم بالهيبة وحسن الحوار. على زين العابدين والد كروان، وعلى عمران والد «بَلَك» ، وعلى الشافعى الذى بلا أولاد ، وعلى المعناوى، والد عيد المشعور، وعلى ضيف والد بدرية وعلى السائح والد لطفى ومشيرة وحمزة والد نوال.. الحقيقة أن الوحيد الذى يحمل اسم على فيهم هو على زين العابدين لكنى غيرت أسماءهم جريا على عادة الكتاب وابقيت حمزة كما هو.. حمزة هو أقلهم صحة وقوة لكنه أكثرهم لباقة ودربة على الكلام. حتى الحادية عشرة لم يعد الرجال . اضطر وفد

آخر إلى الذهاب بعد ضغط النساء اللاتى لم يتأخر أزواجهن كذلك من قبل . كان المطر شديداً، وصحبت الوفد غير مستريح البال. شكوك كثيرة بدأت تأكلنى، لكن ماذا يمكن أن يحدث. لم أصل إلى إجابة. لذلك لم أستجب للشكوك.

عند كوبرى كفر عشرى ، ووسط الظلام والمطر والبرد، رأينا الرجال وسمعنا أصواتهم. كان هناك مصباح وحيد على سور السكة الحديد عند باب الدخول إلى الأرصفة، والباب مغلق بالليل ولا يوجد عمل ولا حراسة ولا حتى شخص تأخر فى الطريق!

كان الرجال مربوطين بأعمدة نور ملتصقة بسور الكوبرى المعدنى، وقد عروهم من ثيابهم إلا السراويل، بانت أثار الضرب بالسياط والاحزمة الجلدية ظاهرة على أجسادهم. لم يكن المخبرون مخبرين إذن!. هذا ما كان ينهش صدرى من شك ولم أفهم. لقد حطموا المصابيح التى فوق رؤوس الرجال ولم ينتبهوا إلى مصباح السور الخافت. كان الرجال مشرفين على الموت. مشهد غريب كمشاهد الأفلام الرومانية حين يصلبون العبيد ويرفعونهم على أعمدة فى الطريق. لم يخطر ببالى أن أرى شيئا قريبا من ذلك وفى البرد وتحت المطر . قمنا بسرعة بفك قيد الرجال، خلع الرجال الذين صحبتهم جلابيبهم ووضعوها فوق العراة وعادوا بالفانلات والسراويل. لقد انتقم أهل كفر عشرى منا شر انتقام. ما كدنا نصل إلى الجامع حتى بدأ الأصحاء التفكير فى خطة للهجوم على كفر عشرى وحرقه على من فيه. صحبت النساء رجالهن المتعبين، ما كاد الأصحاء يخلون إلى بعضهم فى الجامع حتى انفجروا جميعا ضاحكين. كنت أعرف أنهم لن ينتقموا . الناس هنا ودعاء مسالمون. لقد

ضرب ابناؤنا ابناءهم وهم ضربونا. علقة بعلقة والمسامح كريم. قلت بانفعال.

– لكن لا يجب ان نسمح لهم أبدا بالمرور أمام المساكن من الترعة.. قالوا

– فى هذه نحن معك.

بعد لحظات أدركت أن أهل كفر عشرى أنفسهم لنا يجرؤوا على المرور بالترعة، على الأقل حتى ينسى الناس الإهانة، وإلى وقت طويل.. خروشوف يجلس على حجر مارلين مونرو!..

بين الحادثتين وجد السيد خليل السيد الأعرج فى دكانته محترقا ومتفحما دون أثر للنار فى أى مكان ولا أثر لاعتداء. منذ أيام والسيد الأعرج يجلس طويلا إلى السيد خليل فى دكانته. ذلك لم يحدث أبدا عبر السنين الطويلة التى لا يعرف أحد عددها فكل الناس جاءت هنا فوجدت الدكاكين الثلاثة، دكانة أحمد العنيبسى، ودكانة السيد خليل، ثم دكانة السيد الأعرج. أحبس أنفاسك أيها القارىء فالقصة مؤلمة. السيد الأعرج بائع فاكهة وخضار لا يشترى منه احد ولايكف عن البيع. السيد خليل وأحمد العنيبسى يبيعان البقالة وكل شىء عدا الخضر والفاكهة، أخر الليل يغلقان الدكانتين وينصرفان و أولادهما وعمالهما إلى بيوتهم. السيد الأعرج ينام فى دكانته، فلا زوجة له ولا ولد. يعيش السيد الأعرج على ما يشتريه بعض المارة من الغرباء. السكان هنا لايشترون منه أبدا منذ ضبط يلوط طفلا من الأطفال. لا يذكر أحد متى وقعت هذه الحادثة لكنها كل يوم تزداد تأكيدا. السيد الأعرج أعرج بالفعل لديه التواء غريب، أصله شلل أطفال، فى ساقه اليسرى. يرتدى جلبابا قاتما قذرا على الدوام ، وجهه طويل ضخم ولا يتكلم معه أحد. لم أر يوما أحدا

يتكلم معه واقفا أو جالسا. لابد أن السيد الأعرج حين ينفرد بنفسه بالليل يتكلم كثيرا مع الجدران . ليس من السهل أن يُمنع الإنسان من الكلام كل هذا العمر لذلك كان غريبا أن يُرى جالسا مع السيد خليل كل يوم ومنذ أكثر من شهر . والسيد خليل الذى هو فى حوالى السبعين، يزيد عشرين عاما على الأقل على السيد الأعرج، أيضا يمضى اليوم في الدكان لايكلم أحدا، يتابع أعمال ولديه والعاملين اللذين معهما وينتظر الموت. فيما كانا يتكلمان؟ ذلك ما قاله السيد خليل اليوم للضابط أمام الناس..

«السيد الأعرج أصيب بلوثة فى الأسابيع الأخيرة. كان كل يوم يحكى لى حكايته مع صبى جميل أحبه. أنا لم أشاهد أبداً هذا الصبى الذى حدثنى عنه كل يوم. كان أحيانا يبكى ويقول أنه خائف من انتقام الله. لقد مر الولد الجميل أمام دكانة السيد الأعرج أكثر من مرة فى أول يوم يراه فيه. كان ينظر كثيرا إلى البرتقال والموز. أشار إليه الأعرج ببرتقالة وموزة فتقدم الولد ليأخذها. جلس يأكل كمن لم يأكل منذ سنة . الأعرج قال إن الولد كان جميل الطلعة. عيناه سوداوان واسعتان وبشرته بيضاء نضرة ووجهه مستدير كالبدر وجلبابه نظيف وفى قدميّه كاوتش أبيض نظيف ومن جسمه تفوح رائحة المسك. كيف حقا يكون مثل هذا الولد فقيرا لا يأكل البرتقال والموز؟

قال الولد إنه كان يعيش فى حجرة واحدة صغيرة مع أمه وأبيه فى حى القبارى. أبوه كان حمّالا فى شركة «درايكو» التى تقوم بتجفيف الخضر والفاكهة. أصبح صباح خرج فيه الأب ولم يعد . الولد ذهب مع أمه يسألان عن الأب فى الشركة فقالوا لهم إنه لا يوجد شخص فى الشركة بهذا الاسم. فى صباح اليوم التالى لم يجد الولد الأم.. خرج

يبحث عنها فى الشارع فلم يجدها . عاد فوجد الغرفة مغلقة عليها قفل قديم صدىء وقال الجيران إن أحدا لم يسكن هذه الغرفة منذ عشرين سنة حين اكتشفوا بها قتيلا تحت البلاط. مشى الولد هائما حتى وصل إلى الملاَّحة فنام فى إحدى الفلائك الصغيرة المركونة فى البحيرة. عطف عليه الصيادون فألحقوه بالعمل معهم وفى المساء ينام فى الفلائك، ينهض فى الصباح وجلبابه القذر قد صار نظيفا، غسلته الملائكة وهو نائم بالليل، أدرك الصيادون أن العناية الإلهية تكتنف الغلام الجميل فلم يأنوه، قالوا من يدرى، غلام تغسل الملائكة ثيابه بالليل فيها سرٌّ..

كان السيد الأعرج يحكى لى ذلك ويبكى كل يوم، يقول السيد خليل لضابط البوليس، وفتح السيد الأعرج الدكانة للولد ينام فيها كل مساء، وأجزل له فى الفواكه والطعام..

كل يوم بالليل ينام الغلام ويظل الأعرج جالسا ينظر إلى النور الذى يشع من وجهه ويترك الدموع تنزل على خديه، حتى جاءت اللحظة التى مد فيها الأعرج يده يلمس خد الغلام المشرق الطرى فسرت اللذه العجيبة فى جسدة وكهربته يا سيدى الضابط. كانت لذة لا توصف حتى أنه اندفع بعدها يبكى طول الليل. كان خائفا أن يقترب منه أكثر، لكنه لم يعد قادرا على تحمل طغيان هذا الجمال ولا تلك اللذة تحمله إلى السموات العلى. «أطاعنى الغلام وليته ما أطاعنى» كان يقول ذلك لى ويبكى.

يخرج الولد جميلا كل يوم إلى العمل بالملاحة ويعود أجمل مما خرج فى المساء، ولم يخبر أحداً أين ينام وإلا حذّروه فسمعة الأعرج تسرى فى كل مكان، وربما أخبر الناس لكن لم ينتبه أحد.

رتب القدر كل شيء فيما يبدو، ولم يعد الأعرج قادرا على الانتظار . قرر أن يفوز بلذة الموت. أنزل يده من فوق خد الغلام الذى كان أحمر مثل وردة وأبيض مثل القمر ودافئا مثل المخمل، وترك أصابعه تمشى مضطربة إلى عنق الولد، لقد جرت النار من أصابع الأعرج إلى جسده فكادت تفتته فقلب الولد النائم على ظهره لينام على بطنه وانقلب فوقه.

لا تؤاخذنى يا سيدى الضابط هذا ما كان يقوله الأعرج لى كل يوم ويبكى وأنا لا أصدق لأنى لم أر هذا الغلام أبدا مع أن الدكان ملاصق للدكان. لقد سقط الأعرج فوق ظهر الغلام مثل مركب حملها الموج الغاضب عاليا ثم تركها تهوى فى الماء. برك فوقه مثل بهيمة. ولما فرد الغلام ذراعيه فرد الأعرج أيضا ذراعيه وأحكم الإمساك بذراعى الغلام الذى كان يتململ تحته ويئن. كان الأعرج يغيب عن الوعى وهو يحكى لى كيف ظهرت بين ذراعى الولد وجانبيه أضلاع من ريش قوى، وكيف استطاع الولد أن ينهض بنصفه الأعلى، وكيف التصقت ساقاه وتحول نصفه الأسفل إلى ذيل سمكة مصمت ملىء بالقشور. «كاد يرفعنى معه، بل رفعنى عن الأرض وهو ينهض بجناحيه وتركنى اسقط كالحالم الذى استيقظ ورأيته أمامى يرتفع فى فضاء الدكان المظلم الذى أضاءه فجأة نور عجيب، وهبت ريح قوية فتحت باب الدكان فاندفع الغلام طائرا بجناحين مرفرفا فى ظلام الكون الذى كان يضىء أمامه كلما اندفع فيه عاليا. لقد خرجت كالمجنون ووقفت بالباب ورأيته هناك فى الأعالى فوق كوم الشقافة يحلق طائرا وسط المطر متجها إلى نجم بعيد احترق قبل أن يصل إليه»

هذه هى القصة العجيبة التى حكاها لى السيد الأعرج، والتى ظل

طيلة شهر كامل يحكيها لى ويزداد خوفه يوما بعد يوم من انتقام السماء.

سأموت فى مكانى يا معلم سيد. كان يقول ويرتعش ويبكى. ورطنى الغلام بجماله وأطاعنى! قلت له إن هذه أضغاث أحلام يارجل، فلم يصدقنى. قلت له مادام قد احترق فى الفضاء فهو إذن جنى والجن نسل الشياطين فلا جناح عليه لكنه كان دائما لا يصدقنى واحترت معه فقلت له أنت رجل قليل الأدب ابن كلب وأنا مش فاضى لتخاريف آخر زمن هذه ومنعته من الجلوس معى حتى جاء اليوم فوجدناه محترقا متفحما كما ترى وكل شىء من حوله سليم، غير ذلك لا نعرف عن هذا الرجل المسكين شيئا ، ولا نعرف حتى له أهلا ولا أقارب ولا أولاداً..

حملت الإسعاف الجثة المتفحمة. لم يكلف أحد نفسه بالذهاب معها لدفنها إلى أى مكان، وسيغلق الدكان إلى الأبد.

انتهى هذا العام بأحداثه الكبرى والصغرى، ففازت جميلة أبو حريد المناضلة الجزائرية بلقب أهم امرأة فى العام، كما فاز بوريس باسترناك بجائزة نوبل وتم إرغامه على رفضها . سأبحث عن روايته الفذة هذه ديكتور چيفاجو وأقرؤها. كما أهدى جمال عبد الناصرأرفع وسام فى الدولة لتوفيق الحكيم تقديرا للفن والأدب،، وقتلت بنت لانا تيرنر عشيق أمها وحكمت محكمة الأمور المستعجلة فى القاهرة برفض فرض الحراسة على أموال مسيحى تزوج من اثنتين وقالت الإنجيل ليس فيه نص يمنع تعدد الزوجات، ومات فريق السلاح المصرى كله فى حادث طائرة وكذلك حدث مع فريق الكرة البريطانى وازداد استخدام الدى. دى. تى كموضة فى الانتحار وغنت أم كلثوم قصيدة «ثورة الشك» وتم

تمصير تسعمائة مؤسسة وشركة أجنبية فى مصر وأعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد فى الاسكندرية بلغ ألفى مولود هذا العام بينهم ثلاثون من الأجانب، وأن تعداد المدينة بلغ اربعمائة وخمسة وسبعين ألفا بسبب ازدياد الهجرة من الريف إلى المدينة فى الوقت الذى سجلت فيه تناقص أعداد الاجانب إلى خمسين ألفا بعد خروج اليهود والانجليز والفرنسيين وعدد من الجالية اليونانية والإيطالية أضرت بهم إجراءات التمصير كما سجلت الرحلات البحرية نشاطا أكبر من كل عام.

وترك سليمان القلم وتمطى وهو يحس كأنه عائد من كهف مسحور. راح يقرأ ما كتب . أدهشته العبارات التى تنزلق منه دون تمهيد لاتزال.. وظلت لذة الكتابة تبث النشوة فى دمه. إن لديه هنا أشخاصا وحياة وثراء ليس له نظير.. إن محطة الموسيقى تعانى من ارتباك فى الاثير كأنما هناك محطة أخرى تزاحمها فى الفضاء فهناك كلام يريد أن ينبعث وهناك موسيقى تريد أن تستمر. لقد أصبح الصباح وكثرت محطات الإرسال فى العالم والفضاء الرحيب لم يعد كافيا لما يرسله بنو الإنسان. مد يده يحرك المؤشر ليضبط المحطة فاندفع الكلام واضحا وغابت الموسيقى، وسمع اسم مصر، والجمهورية العربية المتحدة. سياسة فى الفجر! لكنه لم يستطع الابتعاد بالمؤشر. كان الكلام يتضح والذهول يفتح عينى سليمان معه إلى نهايتيهما. الآن تكون قوات البوليس المصرية قد انتهت من مداهمة آلاف الأسر وقبضت على آلاف المثقفين والمفكرين والأدباء والصحفيين الشيوعيين، الذين تمتلىء بهم الآن مديريات الأمن تمهيدا لنقلهم إلى سجون ابى زعبل وطره وأسيوط ومعتقل الوادى الجديد. لقد وصل الصدام بين الشيوعيين والنظام إلى نقطة اللاعودة

بعد خلاف القيادة السياسية مع النظام فى العراق الذى تحالف مع الشيوعيين.

وهكذا يكون النظام الحاكم فى مصر قد اعتقل أهم القوى الوطنية المصرية، فالأخوان المسلمون لايزالون فى المعتقلات وسينضم إليهم اليساريون ولن يبقى إلا عملاء النظام الذى يتحدث عن الديموقراطية كل يوم ويسجن البلاد والعباد.. إذاعة صوت مصر الحرة.. إذاعة صوت مصر المستقلة...

......

القسم الثالث...

(١)

كيف لم تكتب الصحف أى شيء عن القبض على الشيوعيين. شهر كامل مضى الآن على الليلة الأخيرة من العام، وفى كل يوم يشترى فى طريقه إلى المدرسة صحيفة «الأهرام» فلا يجد أى خبر، ولا فى «الأخبار»، أو «الجمهورية»، اشترى فى الليل صحيفة «المساء» واشترى المجلات الاسبوعية ولا خبر والاذاعة التى التقط منها الخبر لم تستمر.. تداخلت فيها اصوات إذاعات أخرى فلم يسمع إلا وشيشا مزعجا. لم يستطع العثور على هذه المحطة الإذاعية مرة أخرى. كأنما كانت مخصصة لبث هذا الخبر له هو بالذات، لا لأحد آخر. لم يجد أحدا يتحدث فى الموضوع فلماذا يشغل باله حقا؟ وما علاقته هو بالشيوعيين؟ لم يقرأ شيئا فى الشيوعية، مرت عليه بعض الصفات السيئة لها فى معرض التنديد بفظائعها، بعد أن دخل الجيش السوفيتى المجر أواخر عام ١٩٥٦. يذكُر أن كتابا صدر عام ١٩٥٧ لونه أحمر وعلى غلافه دبابة ودخان وقتلى وعنوانه بالأسود «عندما تدخل الشيوعية بلداً» لكنه لم يشتر الكتاب ولم يهتم. ضحك من نفسه كيف حقا يهتم بخبر القبض على الآلاف من المثقفين بتهمة الشيوعية. ربما لأنهم مثقفون، ولم يستطع أن يتخلص من رغبته أن يعرف شيئا عن المسألة، وظل يقلب فى الصحف.. اكتشاف مؤامرة لاغتيال صائب سلام رئيس وزراء لبنان الأسبق عند عودته من القاهرة، وظهرت رواية «فى بيتنا رجل» لإحسان عبد القدوس، اشتراها والتهمها فى يوم وليلة، رواية بسيطة عن الوطنية والحب، اندهش من المدرس الذى انتحل صفة طبيب فى إحدى المدارس الثانوية للبنات، لم تذكر الصحف اسم المدرسة رغم أن الجميع يعرفون

انها مدرسة المعلمات بالورديان، وراح يكشف على البنات بحجة أنه طبيب ويعبث بيده، طبعا، فيما يستطيع أن يصل اليه من أجسادهن. دب الفزع فى مدارس البنات وامتنع الأهالى عن إرسال بناتهن للمدارس لعدة أيام ثم عاد كل شيء كما كان، وأصيبت البيجوم أغاخان بانفلونزا حادة فاعتكفت فى فندق شبرد. أهدت ملكة انجلترا لقب سير للممثل إليك جينس عن دوره فى فيلم «جسر على نهر كواى» الذى سيعرض قريبا فى القاهرة، لكن لاخبر عن القبض على المثقفين بتهمة الشيوعية، وبلغت جُملة ما بيع من رواية «دكتور چيفاجو»، التى يبحث عنها بشدة، فى لندن وحدها، ثمانمائة وخمسين ألف دولار ستوضع فى أحد بنوك سويسرا حتى يحصل عليها باسترناك يوما ما. إذن لقد ترجمت الرواية إلى الإنجليزية والأمل كبير أن تصل مصر ويقرؤها، وأقام الأرمن بالاسكندرية حفلا موسيقيا جميلا فى القاعة الرخامية الكبرى بقصر رأس التين - هذه إحدى فوائد الثورة فهو يستطيع إذا أراد أن يذهب إلى القصر - وعزفوا فيها موسيقى خاتشا دوريان وفولكلور من أرمينيا.. لماذا حقا لم يحاول فهم الموسيقى. إنه يحب الأغانى، لكنه يحتاج أن يفهم الموسيقى، خاصة الكلاسيك، كيف يعد نفسه ليكون كاتبا دون أن يفهم الموسيقى. وأرسل خروشوف رسالة إلى عبد الناصر يقول فيها أن التعاون بيننا مثال رائع للتعايش السلمى، ورد عبد الناصر بأن الصداقة سوف تزداد بين شعبينا مع الأيام. وخروشوف هذا رئيس وزراء دولة شيوعية فهل يعقل أن يقبض عبد الناصر على آلاف المثقفين بتهمة الشيوعية ثم يتبادل مع خروشوف هذه الرسائل الودية؟!

كان الاتحاد السوفيتى هو النصير الأول لمصر أيام العدوان الثلاثى العام قبل الماضى، والاتحاد السوفيتى الآن يعد الخطة لبناء مشروع

السد العالى الذى سحب البنك الدولى تمويله عام ١٩٥٦، مما دعا عبدالناصر لتأميم القناة فكانت الحرب! إذن هذه الإذاعة التى استمع إليها كاذبة مغرضة!

الأهم هو لماذا يصر على البحث عن الحقيقة حول شىء لا يهم؟ يضحك ويبتسم من نفسه ويشترى الصحف ويقرأ المجلات. انتصار جديد للشيوعية فى كوبا.. كاسترو يدخل هافانا بعد جهاد عامين ونصف ضد الديكتاتور باتيستا. باتيستا هرب من البلاد، ولأول مرة تلتحق أربع فتيات من خريجات كلية الحقوق بسلك النيابة فى مصر، نيابة إدارية لكنها نيابة ودعوة فرقة المسرح القومى لتسافر إلى الكويت فتحدث مشاكل هناك، تيار كبير لايريد لها أن تمثل على المسرح الذى لم يحدث أن مثلت عليه امرأة من قبل، والفرقة القومية المصرية بها نساء، لكن الصحافة المستنيرة تقاوم التخلف وتكتب «الفرقة يجب أن تحضر، ويجب أن تمثل، والشمس ستظل تدور حول الارض، ولن تقوم القيامة». طالب جامعى يفتتح مطعما فى القاهرة يقدم فيه المأكولات وهو يرقص الهولا هوب، الحدث الذى هز الدنيا هو اطلاق الاتحاد السوفيتى قمرا صناعيا إلى الفضاء، سيقوم بنشر قاعدة ومحطة أرصاد فوق القمر مما دعا بريطانيا إلى القلق أن يتمسك الاتحاد السوفيتى بملكية القمر. وبدأت سيناريو عرض فيلم أنا حرة للممثلة الجميلة السمراء لبنى عبد العزيز، كذلك بدأ عرض فيلم غزاة الشمال، الفايكنج، بطولة كيرك دوجلاس وتونى كيرتس وجانيت لى فى القاهرة، ولابد أن جميع الأولاد فى المساكن سيذهبون لرؤيته حين يعرض بالاسكندرية، فهم يعشقون كيرك دوجلاس، ولقد تم اكتشاف موقع الإذاعة السرية التى بثت الافكار السامة ضد مصر، إنها تأتى من القاعدة الأمريكية فى أطنة فى تركيا،

إذن لا توجد مشكلة مع الشيوعيين فى مصر، ولم تقبض الدولة على أحد، فلا توجد أى إشارة لذلك فى الصحف، إلا ما كتبته صحيفة الأخبار فى صفحتها الأولى فى شكل خبر صغير يقول تم نقل مجموعة من الحيوانات إلى مكان أمين، ولم يعرف أحد لماذا يكتب خبر الحيوانات فى الصفحة الأولى ومن المؤكد أنها لا تقصد الشيوعيين، والاذاعة انكشفت فهى معادية للوطن، وعليه أن يرتاح من عناء البحث فى شىء لا يهمه من الأساس!! لينتبه إلى ما يحدث حوله. إنه يسمع زفة اطفال قادمة من القبو، يضحك ويضحك الجالسون محمود الملاح وتاجر البهار ومحمود القزعة وعماله والذين لا يعرف أحد من أين أتوا!.. اليوم هو موعد وصول جدىْ خميس الجمّال إلى المساكن. الاطفال جميعا يمشون وراء على زين العابدين وهو يقطع المسافة الطويلة من المساكن حتى مقلب الزبالة على حدود البحيرة وجنوب منطقة القبارى حيث خلاء كبير تلقى فيه القرية فضلاتها، هناك أقام خميس الجمّال حظيرة خنازير ومنزلا له ولأسرته. جوار حظيرة الخنازير أقام حظيرة أخرى للماعز والاغنام والجمال. فى الحقيقة ليس لديه غير جمل واحد لكن يبدو أنه كان تاجرا قديما فى الجمال. قال مرة إن أهله البدو من الصحراء الغربية كانت لهم رحلة سنوية يحضرون فيها الجمال من ليبيا لبيعها وذبحها فى الاسكندرية.

يمشى الاطفال المسافة وراء على زين العابدين، وكروان دائما مع أبيه فى هذه الرحلة. حاول اليوم أن يعتذر لكن أباه الذى ابتسم قال له: «لا تكبر على أبيك يا ولد. تعالى معى فلقد تعودت عليك» يعبر الاطفال القبو خلف على زين العابدين، ويمشون فى الخلاء حتى يصلوا إلى مقلب الزبالة ثم يعودوا خلفه أيضا لكن هذه المرة سحب الجدى بحبل قصير

أعطاه لكروان فى الحقيقة. يعلق حزمة برسيم صغيرة فى رأس الكبش المسكين، والاطفال يصفقون ويضحكون. هو إذن كبش وليس مجرد جدى، له قرنان كبيران معقوفان إلى الخلف ورأس صغير ناشف وخطم رفيع مدبب، وجسم قوى ضخم، لكنه كما يقول الناس لا يصلح للأكل، أى لا يمكن ذبحه. لماذا؟ لأن له عملاً واحدا يقوم به وهو تعشير إناث الماعز لذلك فلحمه متفسخ مهرى.. هرّهرّ.. يقول على زين العابدين الاطفال يضحكون.. شى.. حا.. يبالغون كأنه حمار.. أصعب مرحلة هى عبور القبو المظلم دائما بسبب «زبيبة» الذى كلما جاء عمال البلدية ووضعوا اللمبات دخل بعدهم وكسرها جميعا.. شر مجانى.. شيطنة صبيان ربانية! والكبش الذى سبق له العبور مرات عديدة فى كل مرة يحرن ويتلكأ ويحاول التراجع ويثغو، ما يكاد يخرج من الظلام حتى ينظر اليهم مندهشا، تتسع عيناه ويقفز فى الهواء فرحا، ويكاد يتكلم.. يجرى كروان المسافة الباقية مستغلا حالة الفرح التى فيها الكبش، وها هو يجرى به الآن والأطفال يضحكون وعم على لا يستطيع الجرى، يمد الخطى ويتابع الموقف من بعيد. لقد عبروا جميعا أمام الجالسين على السلالم المؤدية للقبو، الذين لم يتوقفوا عن الضحك، وبدأ عم على يطلب من الأولاد الرجوع بصوت عال، فالكبش يقترب من بوابة المساكن وبعدها سيختفى فى البيوت. عند البوابة تفرق الاطفال على شارع قنال المحمودية وشاطئها والارض الواسعة أمام وابور النور. رحلة الكبش بعد ذلك معروفة. سيبدأ من البيت الثالث، بيت محمود عمران فالبيت الأول الذى يسكنه صالح والبيت الثانى الذى يسكنه محمد على زوج أم الضابط لا يربيان الماعز، ولا حتى طيوراً من أى نوع، يمضى الكبش قرابة شهرين بالمساكن، يبيت ليلة عند كل عائلة، ينتقل من عشة إلى

عشة حتى ينتهى من تعشير كل الماعز، ويحصل خميس الجمال على شلن عن كل عنزة. يوم خروجه لا تقل فيه زفة الاطفال عن يوم دخوله. لكنه لا يستطيع يوم خروجه الجرى، يبدو منهكا مطرقا إلى الارض مضطربا من النور الذى يغمر الكون بعد شهرين قضاهما فى عشش مظلمة. بالراحة يا أولاد الكبش تعبان. يترنح بالفعل ويكاد يقع. فى هذه المرة لا يذهب به عم على الى خميس الجمال. يأتى خميس بنفسه ليأخذ الكبش. مشوار العودة متعب وعم على يدرك ذلك. لكن فى لحظة تدب القوة فى الكبش ويبدو مختالا بالفعل بما فعله. لقد قام بتعشير أكثر من مائة ماعز، رقم بطولى لأى فحل. لكنه سرعان ما يتكاسل، ويمشى متعبا ذليلا غير قادر على المضى للامام. تمر أيام قليلة ثم يشاهد خميس الجمال خارجا من القبو ساحبا فى يده الكبش تنتظره سيارة نصف نقل فى الشارع يصعد إليها مع الكبش الذى سيقوم بتوصيله الى جهة أخرى فى الاسكندرية فى الأماكن العشوائية التى تنمو فى الشرق والغرب، لقد استرد الكبش عافيته بسرعة وعاد للعمل.

- ما رأيك فى عمل فيلم عن الكبش يا محمود؟!

تساءل سليمان فنظر اليه محمود فى غيظ.. لكن سليمان قال:

- أنا لا أهزر.. فيلم ولو قصير جدا.. لقطتان فقط، الأولى وهو يدخل قويا حوله الاطفال ينظر إليهم فى شموخ رافعا رأسه، والثانية وهو يخرج ذائغ النظرات لا يستطيع أن يرفع رأسه عن الأرض يمشى فتحسبه يمشى على ساقيه الأماميتين فقط إذ يكاد ينكب على وجهه.

هنا ضحك محمود الملاح.. ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه لولا أن خلفه جدار دكانة العنيبسى.. وقال تاجر البهار..

- والله فكرة الاستاذ سليمان جديدة، ويمكن توسيع القصة فتجعل الكبش

يدور فى الاحياء الشعبية ثم يصل الى القرى القريبة من الاسكندرية، كفر الدوار مثلا ورشيد من الشرق، والدخيلة والعامرية من الغرب.

قال محمود ساخراً.

- ويسافر بالقطار بالدرجة الأولى فى الديوان!

هنا هتف سليمان قائلا!

- ولم لا؟ يلبس چاكت، وتعلق فى عنقه بابيون أبيض أو أحمر، وينزل فى المحطات ويكون فى انتظاره العمد والأعيان وأفراد الشعب.

أضاف تاجر البهار.

- ولا مانع طبعا من السفر، مادام هو يركب القطارات، إلى اسوان والعودة إلى مرسى مطروح، وهكذا يمر على كل البلاد..

قال محمود الملاح..

- ويفضل لو علمناه ركوب الطائرات.

فقال سليمان:

- فى هذه الحالة سيقوم بالدور اللازم فى كل الأمة العربية..

كان محمود القزعة يتابع هذا الحوار العجيب والسيجارة بين أصبعيه لا ينتبه إليها. انتهت وحرقته فنترها بشكل مضحك وضحكوا هم بدورهم، كان ضحكهم أكثر على هذه الافكار العجيبة التى انطلقت من أفواههم بلا ترتيب، وبعد أن سكتوا بدا الغم الحقيقى على محمود الملاح. لقد ذكروه بالسينما التى حذفها من حياته فقام بهدوء وانصرف دون حتى أن يلقى السلام.. سكتوا هم بدورهم.. أدركوا سر حزنه وانصرافه.

فى اليوم التالى لخروج الكبش من البلاد، كما يحلو لسليمان أن يقول فى كل مرة، عاد العمال آخر النهار، وعرجوا فى طريق العودة إلى

المرعى التى يتركون فيها الماعز فى الصباح، فلم يجدوا الماعز. كل الماعز.. وقفوا غير مصدقين. هل عادت الماعز وحدها؟ هى حقا تستطيع ذلك لكنها لم تفعله من قبل قط. شىء ما غير طبيعى حدث اليوم. هل صادرتها المصلحة؟ لا يمكن. للاسطوات وللمفتش ولموظفى الحركة، ماعز بينها. لايمكن خروج الماعز إلا من طريقين، إما من أمام الشرطى القابع عند بوابة المساكن الخلفية التى تفضى إلى السكك الحديدية، أو من البوابة الكبيرة لمنطقة السكك الحديدية كلها التى تفضى إلى سيدى كريم بغيط العنب. الطريق إلى المساكن أقصر.. وربما تكون الماعز قد عادت وحدها لأول مرة فى التاريخ! لكن الشرطى أخبرهم أنه لم يرها تعود، لا وحدها ولا مع أحد، وأنها لم تصادر من قبل المصلحة وإلا لكان هو أول العارفين، ولابد أن المصلحة كانت تستعين به فى أمر كهذا. إذن لقد سرقت الماعز! أخذها لص يعرف مواعيد خروجهم وعودتهم. سرقها وقت القيلولة حين يعودون الى بيوتهم لمدة ساعة أو ينامون فى أماكن أعمالهم. لكن هل يسرق كل هذه الماعز شخص واحد؟ اكثر من مائة عنزة قام كبش خميس الجمال بتعشيرها خلال شهرين كاملين وكانت ستلد جميعا بعد شهور. خسارة فادحة وسارق ليس غريبا عنهم. يمكن أن يساعده لصوص من أماكن بعيدة، لكن السارق الأصلى الكبير، شخص من المساكن. ترى من يستطيع أن يفعل ذلك؟

اجتمع الرجال فى الجامع الصغير، زاوية هو فى الحقيقة، الذى يتوسط المنازل ويفتح بابه على الشارع الوسطانى. فكروا فى سلامة سلام، قيل إنه سافر إلى الصعيد منذ اسبوعين. فكروا فى احمد حجازى فوجدوه محجوزا فى قسم البوليس منذ يومين بسبب محاولته سرقة أجزاء من قطار سكة حديد قديم واقف فى ورش منطقة الزيتون.

وليس حبشى بسارق، فهو لا يغامر بعداوتهم، ثم إنه رجل يعيش على هامش الترعة من زمان صديق للبوليس وللصوص المراكب معا، يعيش على ما يقدمه له هؤلاء وأولئك، ولقد عثر منذ أيام على لقيط جديد فضمه إلى فريق اللقطاء وأرسل بنتا من بناته تطلب شيئا من لبن الماعز لهذا اللقيط الجديد. حبشى لا يمكن أن يسرقهم. واليوم ليس جمعة، موعد سوق الاغنام والماعز بجبل الطوبجية بكوم الشقافة. السارق إذن أخذها إلى سوق آخر. اكتشفوا انهم لا يعرفون فى الاسكندرية سوقا آخر! كانت ليلة سوداء بحق! أطفئت فيها المصابيح مبكرا ونام الأهالى مغمومين! الثروة القومية ضاعت كما قال مصطفى، وعليه العوض فى ثورة يوليو! لكن الرجال ظلوا يتقلبون فى مخادعهم طول الليل. أجهد كل منهم ذهنه فى محاولة الوصول الى إجابة السؤال، من السارق؟ وأين ذهب بالماعز؟ كانوا قد توصلوا فى اجتماعهم بالجامع إلى ارسال شخص فى الصباح الى العامرية وآخر الى الضهرية وثالث إلى كفر الدوار ورابع الى الدخيلة. هكذا يكونون قد بحثوا فى الاسكندرية والقرى القريبة منها شرقا وغربا، ثم أن حضور سوق كوم الشقافة بعد ثلاثة أيام سيفيدهم. اختفاء مائة عنزة وبيعها أمر سيمر ببعض التجار بالتأكيد.

ضحك محمود الملاح بشراسة وهو يجلس مع تاجر البهار يتأملان محمود القزعة الذى يتأمل صعود وهبوط أرداف النساء فى نزولهن السلالم التى تؤدى الى القبو فى الطريق لشراء السمك، كان الوقت كالعادة مغرباً، وحركة النساء قليلة، والهدوء يلف الكون، لولا صخب الأولاد الذين يلعبون الكرة الشراب قريبا من الشارع. أخذ محمود القزعة نفسا طويلا من السيجارة التى بين يديه ونفثه على مهل فى

الفضاء. كان واضحا انه مشغول بتأمل عميق. نظر إلى محمود الملاح وتاجر البهار وسليمان الذى انضم اليهم منذ قليل وقال:

- ألم تجد لى حلا بعد يا أستاذ سليمان؟

- فيم يا معلم محمود؟

- هل هناك موضوع آخر عندى؟ اليوم الذى صمته وضاع منى.

ابتسم سليمان.. ها هو محمود القزعة يعود الى موضوع قديم ظن سليمان انه قد نسيه تماما. ولم يجد كلاما يقوله هذه المرة، فقال محمود القزعة.

- تعرف مثلا أن الماعز يمكن أن تعود لكن ذلك اليوم الذى صمته لن يعود.

هز سليمان رأسه وقال:

- طبعا طبعا.. هذه مسألة أخرى. كل شيء يذهب يمكن أن يعود إلا الزمن يا معلم محمود.

هز محمود القزعة رأسه بالموافقة، لكن كان واضحا عليه الاستياء المكتوم. دخل محمود الملاح فى الكلام فقال:

- تعرف يا معلم محمود إنه منذ أن صمت أنت هذا اليوم والبلد كلها فى كرب.

نظر إليه القزعة فى استخفاف وقال:

- ماذا تقصد يا ملاح؟

- يعنى مثلا خد عندك عبد الحليم حافظ، مريض، أجرى عملية جراحية جديدة فى السر، رغم أنه لم يمض عامان على العملية السابقة. وعندك جمال عبد الناصر، تعبان جدا، كل يوم مؤامرة لاغتياله، واليهود طفشوا، والطلاينة واليونانيون بدأوا يطفشون، ولن يبقى فى الاسكندرية

غير ثلاثة محلات فول لليوغسلاف، وخمسة محلات تصوير للأرمن، وخمارتين للسكارى من القبارصة، وأهم من هذا كله أن الماعز قد سرقت كلها والناس فى غم.

انطلقوا جميعا يضحكون باستثناء محمود القزعة الذى يحاول كتمان رغبته فى الضحك من هذا الكلام العجيب الذى لم يخطر بباله، وبعد أن فرغ من تأمل ردفى امرأة تمشى خارجة إلى الشارع، وكانوا هم قد سكتوا وراحوا يتأملونه بدورهم فى صمت حتى يعطوه فرصة الفرجة كاملة، بعد ذلك قال:

- لكن أنا شفت صورة عبد الناصر فى الجرنال اليوم باسم الله ما شاء الله.

- صورة قديمة.. لعلمك عبد الناصر عيان جدا، لكن هذا سر من أسرار الدولة.

وهنا تأمله محمود القزعة قليلا ثم قال:

- وطبعا حضرتك عارف؟

- طبعا.

يعنى حضرتك تركت السينما واشتغلت بالسياسة، تصدق بالله أنت وهو وهو، هذه البلد لن ينصلح حالها إلا إذا مات كل الرجال وخصوصا العواطلية أمثالكم، ولم يتبق بها غيرى أنا والنسوان، ضحكوا بشدة واستمر هو يتكلم، وأنا لن ارتاح ولن ينام لى جفن إلا بعد أن أسرق كل نسوان البلد، تماما مثل ابن القحبة الذى سرق المعيز!

هنا قال تاجر البهار بهدوء وأداء تمثيلى رفيع.

- هذا حقك يا معلم محمود.. أنت على أى حال لست أقل من كبش خميس الجمال..

المدهش أنه لم يعد موجودا فى مكانه بمجرد انتهائه من الكلام. قفز قفزة كبيرة، وقبل أن يستوعب محمود القزعة المعنى كان تاجر البهار يقف ضاحكا بعيدا قرب المعدية.. ضحك محمود الملاح وقام يضرب كفيه غير مصدق تاركا المكان، كذلك ضحك سليمان ومشى يهتز جسده من الضحك، وقف القزعة وحده يتأمل تاجر البهار الذى يقف بعيدا فى غيظ، فى الحقيقة كان بوده لو ضحك، لكنه لم يستطع. كان من قبل قد أشعل سيجارة جديدة نسى أنها بين أصبعيه، وكانت كالعادة قد انتهت، فأحرقته فنترها بعيدا، قفز فوقها بحذائه هذه المرة ودهسها فى الارض.

تفرق رجال المساكن فى الأيام التالية شرقا وغربا ولم يصلوا إلى نتيجة. فى سوق كوم الشقافة لم يصدقهم أحد من التجار، صاروا يضحكون منهم حينا، وحينا يرثون لهم.. عند المغرب، ومعظمهم يجلسون فى حيرة يقلبون الأمر الذى استحال الى لغز حقيقى. ظهر الديب عائدا، صخب الأولاد المجتمعون عند الماكينة الحمراء ينادون عليه. هتف الديب.

- عندى حكاية مهمة، لكن الأهم الآن هو أن أرشد اهاليكم عن مكان الماعز.

سرعان ما تجمع حوله الرجال وجلس هو صامتا لحظات ثم قال.

- الماعز فى طنطا.

- ماذا تقول يا ديب؟

- هذه هى الحقيقة، ولقد تم التضحية بمعظمها أمام مسجد سيدى احمد البدوى.

- لكن كيف عرفت أن الماعز سرقت من هنا أصلا؟

- حدث أن القطار الذى أحرسه دخل المخزن فى طنطا لمدة يومين لتبديل بعض العربات، رحت اتسكع داخل المدينة، وأصلى الوقت بوقته

فى الجامع الأحمدى. وصل إلى أذنى بأحد المقاهى حديث بين تاجرين يتناقشان فى سعر مائة عنزة مسروقة من الاسكندرية. سمعت أحدهم يقول إنها ملك لعمال السكة الحديد، قلت إذن هى ماعز المساكن، كانوا يختلفون على السعر، المشترى يريد أن يدفع جنيها لكل رأس كبير فى صغير، والبائع يريد مائتين. انتهيا الى مائة وخمسين.

استمر الديب يشرح لهم ما سمعه من البائع الذى سافر بالماعز مشيا إلى طنطا خلال يومين كاملين ليلا بنهار، لم يسترح إلا ساعات، وقال إنه اختار طنطا لبعدها ولأنها لن تخطر على بال أحد ولسرعة تصريف الماعز أمام المسجد الأحمدى. قال الديب إنه يعرف شكل التاجر واللص وأن ذلك يحتاج أن يعود بهم بسرعة إلى طنطا مع وفد قوى.

سافر معه على زين العابدين ومحمود عمران وحمزة الذى ضحك وقال: لعلهم لا يحبسوننا هناك ويضربوننا كما فعل رجال كفر عشرى.. فى الساعة الاولى لوصولهم التقوا باللص فى المقهى.. استدرجوه إلى خلاء قريب من ورش السكة الحديد وهم يحدثونه عن رغبتهم فى بيع عدد كبير من الماعز والشياه، وفى وسط الخلاء ضربه محمود عمران «مقصا» بقدمه فأسقطه على الارض وجلس الثلاثة حوله وأمسكوا به من خناقه فكاد يموت بين أيديهم.

- أين التاجر الذى بعت له المائة عنزة؟

- لا أعرف.

- إذن سنقتلك هنا أيها اللص، لا من شاف ولا من درى.

- لماذا تقتلوننى؟ أنا لست لصا، لقد اشتريتها من واحد من أولادكم.

- أولادنا!

- أجل

- من هو؟

- لا أعرف اسمه. لكن لا أنسى شكله. ولد فيه شيء لله.

- فيه شيء لله؟

- أجل.. شعره أسود وحافى، كان اثناء الكلام كلما مرت أمامنا امرأة تركنى ومشى حتى لحق بها ونظر فى عينيها وعاد، مجنون يعنى.

نظر الرجال الثلاثة إلى بعضهم، ثم انطلقوا يضحكون. لقد فعلها عيد المشعور وهذا آخر ما كان يخطر ببال أحد.

- بكم اشتريتها منه؟

- بخمسين جنيها.

انهالوا عليه ضربا، فهو اللص الحقيقى الذى غرر بالولد الطيب، كاد يموت فى أيديهم بالفعل فقال إنه يعرف التاجر الذى اشتراها، لكن المشكلة أنه ايضا باع منها عددا كبيرا للفلاحين ذبحوها كنذور أمام المسجد، من ناحية أخرى، لم يتبق معه من المائة والخمسين جنيها التى باعها غير خمسين جنيها، لكنه يستطيع أن يدبر لهم خمسين جنيها أخرى فيما بعد، حتى لو سافر بها إليهم فى الاسكندرية.

- هيا معنا الى التاجر الذى اشترى.

ظهر أن التاجر الذى اشترى الماعز سبق له أن تعامل مع على زين العابدين فى تجارة البطاطين والأحرمة الصوف. اعتذر لهم بشدة، قال إنه باعها كلها، ما ذبح منها، وما لم يذبح، لعدد كثير لا يذكره من المشترين، وأن ما تجمع لديه من البيع هو مائتى جنيه، إذا أخذ منها المائة والخمسين التى دفعها للص يتبقى خمسون جنيها هى ربحه ويستطيع أن يدفعها إليهم.

تجمع معهم مائة جنيه، ثم اضاف اليها التاجر خمسيناً أخرى وقال إنه يعرف كيف يأخذها من التاجر، اللص، الذى باع له الماعز. قال حمزة فى نفسه «الاثنان لصان كبيران يلعبان بنا لكن لا بأس» ثم قال بصوت مسموع.

- لو عدنا بسرعة ولحقنا بعيد قد نجد معه الخمسين جنيها فتكون خسارتنا بسيطة.

لكن عيد الذى اجتمعوا حوله فى اليوم نفسه تركهم يفتشون جيب قفطانه باسما، لم يجدوا شيئا ولم يكف هو عن الابتسام. لم يكن عيد وحده، كان معه شخصان معتوهان لا يعرف أحد من أين أتى بهما ولا إلى أين يذهب معهما. امسكوه من ذراعيه يهزونه بعنف.. أين الفلوس ثمن الماعز يا عيد؟ لكن امرأة جميلة ظهرت فى الطريق وجهها يشتعل تحت ضوء الشمس الأخير، وعيناها تشعان نورا، حاول هو أن يفلت من أيديهم، لكنهم تشبثوا به حتى ابتعدت المرأة كثيرا فى اتجاه كفر عشرى، وفى لحظة خاطفة هبط عيد إلى الأرض وجرى خارجا من القفطان الذى كانوا يتشبثون به من الكُمَّين.لذهولهم وجدوا القفطان فى أيديهم وسمعوا ضحكات الاطفال التى انفجرت من كل مكان يقفون فيه بينما كان عيد يسرع فى تصميم عجيب نحو المرأة وليس فوقه غير الفانلة واللباس.

(٢)

دبت الحركة فجأة فى بيت الچونى. هى وأمها وأختها الكبيرة المتزوجة التى تعيش فى محرم بك يعملن بهمة فى تنظيف البيت. يصعدن الى السطح بالمراتب والحشايا ويرششن الفنيك فى الأركان وفى الحمام وعند عتبة البيت وينظفن النوافذ والأبواب.. زائر هام سيزور البيت اليوم.

الأولاد فى اجازة بمناسبة الذكرى الأولى للوحدة بين مصر وسوريا، شارع المحمودية منذ الصباح ممتلىء بهم، وبعضهم ذهب إلى الملاحة لصيد السمك، البنات الصغيرات لم تخرجن بعد، وإن كن يهيئن انفسهن للخروج عصراً للعب الهولا هوب بالأطواق، اليوم سيخطب خير الدين الچونى.. ففى بيت خير الدين كانت الزغاريد ترتفع من وقت لآخر.

السؤال المكتوم على وجوه الناس قالته أبلة نرجس لزوجها، هل يصلح خير الدين للچونى؟ هو بدوره أجاب بإيجاز، ولم لا؟ سكتت أبلة نرجس التى لم ترتح للإجابة. فكرت أن تعلق ولو بكلمة، لكنها سكتت من جديد. منذ العلقة العجيبة التى نالها مع الرجال فوق الكوبرى وقد تغير حاله. فى صمت يأكل، فى صمت يخرج، فى صمت يدخل، فى صمت يتكلم! لقد رتب نفسه وحده على الانتقام، تردد عليه محمود عمران، كيف يخدث أننا نسكت، لا كنا رجالا من الصعيد ولا كان الصعيد. قال له دعنى أرتب المسألة. تعلقت هى به، أمسكت برقبته وتوسلت أن ينسى لما رأته يجهز الحبال والأجولة التى سيضع فيها الرجال، وسمعته يقول لمحمود عمران أن ينقل بالليل عددا من الاحجار، يفرقها على شاطىء الترعة تحت الكوبرى بحيث لا تلفت انتباه أحد. كان واضحا أنه قرر

إغراق رجال كفر عشرى فى ترعة المحمودية وإلى الأبد. سافر إلى الصعيد وعاد. سيصل بعد أسبوع عشرة رجال. قال لمحمود عمران الذى قال بدوره، وأنا توصلت لعناوين الرجال الذين ادعوا أنهم مخبرون ولمن شارك معهم.. ولا يعرف أحد من الذى كان وراء الحضور الجماعى لعدد كبير من رجال كفر عشرى، فجأة وبلا موعد إلى المساكن.. جاءوا معهم بالجناة وأوقفوهم أمام رجال المساكن.

«ها هم.. اقتلوهم لو شئتم.. ها هى العصى لضربهم وها هى السكاكين لذبحهم، وها هى المسدسات لضربهم بالنار» إذن لقد فسد الترتيب كله. من الذى أخبر أهل كفر عشرى بما يجهز لهم. وهل يمكن أن يتم هذا بالصدفة؟ قال كبيرهم لعلى زين العابدين لقد سمعت باسمك بين الرجال الذين أهينوا، فلم يغمض لى جفن حتى أتيت إليك بالجناة. كان تاجرا مشهورا هناك، كره على زين العابدين هذه التجارة التى تجعل له أصدقاء فى كل مكان. كان لها أثرها الإيجابى يوم سرقت الماعز، أما هذه المرة فقد أفسدت الانتقام.

كما يحدث فى مثل هذه الحالات لم يعاقبوا الجناة، الذين بدورهم أخرجوا ثلاثمائة جنيه، كان كبار الحى قد حكموا عليهم بها. لكن أهل المساكن أيضا لم يقبلوا الفلوس، فاشتروا أربع بقرات سمان ذبحوا اثنتين منها فى المساكن، ووزعوا لحمها على الناس، ثم ذبحوا الأخريين بكفر عشرى. انتهت القصة بدم لكن حلال!، وظل على زين العابدين على حالته. معبأ بالصمت فى كل وقت.

كانت الچونى فى البيت هى الأكثر حركة. صوتها يعلو وهى تنادى أختها، أو ترد على أمها، وكثيرا ما تشرد وهى تعمل فتبتسم أختها فى مكر.. لم تكن الچونى سعيدة ولم تكن حزينة بالطبع. كان قلق غير

مفهوم يسكن عينيها ويتسع فى صدرها. ذهبت إلى أبلة نرجس بعد أن تم ترتيب البيت، وقبل أن تستحم، تطلب منها بعض البارفان الغالى الذى لا يوجد إلا عندها حيث تشتريه من محل لمبروزو بالمنشية.

- بسم الله ماشاء الله.. وردة يا جونى.. النار طالعة من وجهك تحرق كل عدو وحَسّاد.

قالت أبلة نرجس وهى تبتسم فى فرحة حقيقية.. وأعطتها زجاجة البارفان كاملة.

- شانيل يا جونى.. عطر فرنساوى غالى لا يخرج إلا للغاليين - وهمست فى أذنها - الشمة الواحدة تدوخ أجدع رجل.

ابتسمت الجونى واحمر وجهها ولم تستطع أن تمنع نفسها من المزاح فقالت:

- خير الدين دائخ طبيعى يا ابلتى، ربنا يستر عليه.

ضحكت أبلة نرجس، وتأملتها فى دهشة ثم قالت:

- اسمعى يا جونى، ما دمت تحبينه لا تتراجعى.

- حاضر يا أبلة.

قالت الجونى فى رضا جميل، وأضافت أبلة نرجس.

- ثم ما دام أبوك وأمك موافقين لا يهمك شىء.

- أبى موافق.. أمى مترددة.. موافقة من أجلى.. أنا موافقة لكن خائفة.. ساعات أقول لأ وساعات أقول آه.. لنفسى يعنى. غير معقول إنه يخرج من المستشفى دون شفاء يا ابلتى.. لابد أنه شفى تماما، لابد أنه سليم.. أليس كذلك؟

على الجانب الآخر كان خير الدين يجلس فى البيت مع سليمان وكروان سعيداً. لا يكاد يجلس إلا لينهض ينظر فى المرآة.. سليمان

يبتسم ثم يضحك.. جميل يا خير الدين آخر جمال! كروان صامت أغلب الوقت.. هو أصغر من أن يتحدث فى مثل هذه المناسبات، خير الدين يحبه وهو يحب خير الدين. ربط خير الدين الكرافتة وارتدى جاكت البدلة ووقف أمام سليمان وكروان مبتسما.

- ما رأى صديقىّ؟

بدا جميلا بحق. أسمر لامع وجهه، عيناه العسليتان تشعان لمعانا آسراً، وضع الفازلين على شعره فازداد بريقا، دعك اسنانه بعناية منذ فترة فصارت بيضاء مشرقة، والجزمة السوداء فى قدميه بيضاء الجانبين لها بوز جميل، يتناسب بياضها وسوادها مع البدلة الشارك سكين التى يرتديها، البنطلون الأسود فوقه الجاكت الأبيض تحته القميص اللينوه السماوى الفاخر. صفّر سليمان واتسعت عيناه إعجابا.

- من أين حصلت على هذه الثياب الجميلة؟ من أى مكوجى أجرتها؟

ضحكوا، وضحكت معهم أم خير الدين القصيرة البيضاء وأبوه الأسمر النحيل الناشف وقال خير الدين.

- وضعت فيها كل مدخراتى فى الشهور الماضية. عشرة جنيهات كاملة. ثم أمسك ببخاخة عطور أشبه ببخاخة المزين لكن أصغر وراح يطلق منها الكولونيا على رأسه ووجهه ثم استدار وأطلق منها على وجه ورأس كل من سليمان وكروان. اتسع صدر كليهما، واتسعت به الغرفة وأحس بالبهجة تسكبها الكولونيا فى روحه وقال خير الدين:

- ما رأيكما أن تأتيا معى؟

- إلى هنا وتذهب وحدك. سننتظرك لنحتفل بك بعد الخطوبة.

اقترب خير الدين منهما وقال:

- بعد الخطوبة سآخذ الجونى إلى السينما. هناك فيلم جميل فى

سينما فريال.. - ثم همس لهما قائلا - فيلم «قبلنى فى الظلامَ».. فيلم جديد لهند رستم وشكرى سرحان.

ضحك سليمان وكروان، وتركاه ليذهب مع أهله للخطوبة. لم يطل الوقت. كانت الساعة حوالى الرابعة بعد الظهر. تحدث أبو خير الدين واستمع أبو الجونى، قدمت لهم الجونى صينية فوقها أكواب الشربات. وافق أبو الجونى على الخطوبة من خير الدين الهادىء المثقف المكافح، ولم تتكلم أم الجونى، بينما زغردت أختها وأم خير الدين. سمعت أبلة نرجس الزغاريد فنهضت ومشت على مهلها ودخلت من الباب المفتوح تبارك للجميع، خلفها تقاطرت النساء والبنات وسرعان ما أمتلأ البيت بالجيران، فانشغلت أم الجونى واختها بتوزيع الشربات واضطرت أم الجونى أن تهتف فى الجميع قائلة:

- اليوم قراءة فاتحة فقط.. الخطوبة بعد ثلاثة أشهر.

- إذن لا توجد بسطة

- بعد ثلاثة أشهر.. اليوم شربات فقط.

ضحكت النساء وانصرفن ومعهن أولادهن ووقف خير الدين يستأذن فى الخروج مع الجونى.

كان اليوم أبيض رائقاً. يوم سكندرى حقيقى.. وفى الخارج كانت الشمس التى ذهبت للمغيب لاتزال تترك نورها الأبيض على الأرض حول الأولاد والبنات الصغيرات. الأولاد يلعبون الكرة والبنات ينتشرن بطوق الهولا هوب، وسليمان الذى أحضر كرسيا من بيته بعد أن ترك خيرالدين جلس على الرصيف يتأمل الاطفال. يتأمل البنات فى الحقيقة.. يتأمل من بينهن بنتاً لم تظهر من قبل. ظهرت الجونى خارجة من بوابة المساكن تتأبط ذراع خير الدين يسبقها عطرها العجيب الذى لم يشم

أحد مثله من قبل فى المنطقة، وترتدى جوب أزرق سماوى فوقه بلوزة صفراء بديعة لها ياقة بيضاء، وفوق البلوزة جاكت أزرق سماوى بلون الجوب. إنه «تايير» كامل، لم يحدث هنا أن ارتدت بنت أو امرأة تاييراً كاملاً إلا حكمت. لقد اشترته للجونى أمها من هانو، وطلبت منها أن تحافظ عليه ولا تلبسه إلا فى المناسبات الكبيرة!

ظهرت الجونى طويلة ممشوقة القوام، شعرها الاصفر الغزير خلفها يعطيها جمالا أخاذاً.. فى قدميها حذاء بكعب عالٍ تمشى به فى ثقة كمن تدربت عليه من قبل كثيرا. جعلها الحذاء من الخلف تبدو مثل مارلين مونرو بديعة التقسيم مكورة الردفين تلمع ربلتى ساقيها تحت الجوب القصير نوعا ما.. هكذا رآها سليمان وهى تمر من أمامه فوقف يحييها هى وخير الدين بينما صفق الأولاد جميعا الذين فى الشارع، وتوقف اللاعبون عن اللعب ليصفقوا أيضا للعريس والعروسة «ابنا الحتة» فهز خير الدين رأسه ممتنا وهو يتمتم شكرا شكرا. لقد تصرف كما يليق برجل حقيقى رشيد بينما ابتسمت الجونى خجلى وتهللت عيناها بالفرح وأحست بالثقة فى النفس وأن أهل المساكن جميعا أهلها وأولادهم أخوتها، وحينما رآهما حبشى وهما يركبان المعدية تعبر بهما إلى البر الثانى ليستقلا الترام قال لبدرة:

- هذه هى النعمة الإلهية التى يعطيها الله لبعض الناس يا بدرة. الجونى هى النعمة الإلهية وخير الدين الطيب هو الذى قسم له الله أن ينعم بها. إدعى له بالشفاء يا امرأة.

عاد سليمان يتأمل البنت التى لم تظهر من قبل، والتى ظهرت اليوم تلعب الهولاهوب فى الشارع. كان يعرف أن اسرة جديدة نزلت بالبيت المقابل لبيت أسرته. سمع حركة نقل الاثاث بالليل أمس.. وفى الصباح

شاهد رب هذه الأسرة الجديدة وهو خارج الى العمل. رجل نحيل للغاية أسمر، متوسط الطول، له وجه برىء كوجوه الاطفال، ورأى زوجته تقف بالباب لحظات بعد خروجه، بيضاء جميلة مستديرة الوجه، ولدهشته كان لكل من الرجل وزوجته عينان خضراوان. رأى آخر النهار الاطفال وهم يخرجون من البيت الى الشارع. ثلاث بنات وثلاثة صبيان اكبرهم فى حوالى الثالثة عشرة، اسمر كأبيه، وبقية الأولاد بيض كأمهم، الجميع عيونهم خضراء. أسرة كاملة عيونها خضراء شىء لم يحدث من قبل هنا. لاحظ أن أكبر البنات فى حوالى العاشرة، أجملهن على الاطلاق، شعرها، على غير أخواتها، تركته الأم غزيرا طويلا خلفها. شقراء بريئة فى لعبة الهولاهوب العجيبة. تذكر حكمت التى كانت فائقة الجمال، كيف ذبل جمالها بسرعة بعد الزواج. تابع النظر الى البنت الجديدة وقال فى نفسه الجمال يحل محل الجمال، ومازال هناك أمل فى هذا العالم!

كانت سفينة كبيرة تمر خلف الجميع بالمحمودية، شراعها مفتوح على آخره لنسمة الشتاء المسائية، شراعها أبيض عريض جاذب للنظر وهو معبأ بالهواء. وقفت البنت تتأمل المشهد العجيب للسفينة التى لم تر مثلها من قبل. وكان رجل قد لف وسطه بالحبل المربوط بصارى الشراع، ويمشى على الشاطىء يشد السفينة يساعد شراعها. بدا عملاقا أسطوريا بصدره العريض وصداره الممزق ولباسه الخشن الواسع. بدا كما لو كان إلها من آلهة الاغريق التى تخرج فجأة فى الافلام تعترض طريق الابطال. بوزايدون إله البحر الذى خرج لبحارة السفينة الأرجون من قلب الماء. هذه الاساطير التى يقرؤها سليمان ويحبها وتتركه فى دهشة مفتوحا رأسه للهواء من كل ناحية!.. ظهر تشكيل من عصافير المساء يطير فوق الرؤوس. هذه الطيور تأتى دائما فى الأماسى الجميلة،

اليوم جميل يا سليمان، أليس كذلك؟ العصافير مبتهجة فى الفضاء رغم أن أحداً لا يعرف من أين تأتى ولا أين تذهب حين يحل الظلام.. ليس فى المدى القريب أشجار ولا جبال. الطيور الجميلة انخفضت كثيرا ورفرفت باجنحتها بقوة. الجميع رفعوا أبصارهم إليها.. البنت السعيدة الرشيقة تركت الطوق يدور فى وسطها ورفعت بصرها تتابع تشكيلات الطيور التى انضمت إليها اسراب أخرى شكلت دائرة كبيرة فى الفضاء هبطت قليلا لتقترب من رأس البنت ثم وقفت لترفرف بقوة وترتفع بشموخ.. الله.. الله.. الله.. هتف أكثر من ولد، وقف اللاعبون منهم وهتفوا فرحانين، أما الجالسون عند السلالم المؤدية الى القبو فقد وقفوا مبهورين وهم يهمون بترك أماكنهم والعودة إلى منازلهم التى لا يعرفها أحد. لقد أوشك الظلام أن يتملك الدنيا بعد قليل، وسليمان الذى كان جالسا وقف وهو يشعر بقلبه يرفرف مع الطيور.. لقد رأى البنت تخرج من الطوق، وتعود إلى البيت وخلفها أخواتها الأصغر. مرت أمامه وابتسمت له فلم ينتبه إلى مرورها إذ ظن ذاك الذى ابتسم له طيف يعبر الفضاء.

توقف الأولاد عن لعب الكرة، وجلسوا على سلالم الماكينة الحمراء كعادتهم ونزل الظلام وقال إبراهيم بلك:

ـ لقد نزلت بالمساكن عائلة جديدة.

قال مصطفى:

ـ نعرف.. بيتهم أمام بيتنا.

قال بلك

ـ لا .. لا أقصد هذه العائلة البيضاء، اتكلم عن عائلة أخرى سوداء تماما، كل أفرادها سود نزلت فى شارعنا.. واضح انها عائلة كبيرة..

نظروا إليه جميعا، وإلى سواده اللامع فى الغبش وقال مصطفى ضاحكا..

- ماذا تقصد بعائلة كبيرة.. هل يعنى هذا انكم صرتم أغلبية؟ يعنى أغلبية فى مجلس الأمة!

ضحكوا جميعا، ملأ ضحكهم الفضاء، تذكروا ما يقوله الخواجة بطسو لإبراهيم بلك كلما رآه. أنت يا ولد أسود رغم أن أمك بيضاء، كان حقك تطلع لأمك مش لأبوك! خد يا ولد اشترى لى بيضتين أوعى تلمسهم لحسن يسوِّدوا. ظلوا يتكلمون وسليمان لا يبرح مكانه فوق المقعد على الرصيف تصل إليه أصواتهم لكن لا يميز ما يقولون. مر من أمامه تاكسى توقف عند بوابة المساكن. لقد عاد خير الدين والچونى. كانت الساعة حوالى العاشرة. رأى الچونى تسبق خير الدين فى الدخول بسرعة إلى البوابة. هذه أول مرة تتأخر فيها فى الخارج، وربما هذه أول مرة تتأخر فيها بنت من المساكن، باستثناء نوال التى تستدعى ظروف عملها ذلك. لكن ما أدراك يا سليمان؟ وهل تجلس هنا كل يوم وترى المتأخرين والمتأخرات، وهل يعرف أحد غير الله ماذا يحدث فى هذه البيوت المتكومة على بعضها بالليل. وما يدريك فقد تنتظر البنات كل ليلة حتى ينام الأهل ثم يفتحن الأبواب فى هدوء ليقابلن الصبيان فى الظلام. ياله من مشهد سوريالى. البنات الصغيرات والكبيرات معا. يقابلن الصبيان الكبار والصغار ويمارس الجميع الجنس على تراب الشارع الوسطانى بعد منتصف الليل والمطر يهطل فوقهم بلا انقطاع. وتناهت إليه ضحكات الاولاد الذين كان مصطفى يحكى لهم حكاية «فول السودانى» الذى كان يخفيه مع عبده وكروان خلف «وابور النور» من ناحية السكة الحديد أيام كانوا يذهبون معا إلى مدرسة القبارى

الابتدائية. كانوا يأخذونه من قطارات البضاعة المتوقفة بإزاء الأرصفة، ويخبئونه في مكان سري جوار سور «وابور النور» أو شركة توليد الكهرباء التي تغذي السكك الحديدية بالنور. ذات يوم تركهم عبده عند عودتهم من المدرسة. قال أنه ذاهب إلى «حناطة» في الغيط بأرض الموز بالقباري. كان مصطفى يعرف أن عبده كذاب، فحناطة صاحب الغيط طرده منذ أسبوع، قال لكروان «إن هناك شيئا سيفعله عبده لا نعرفه ولا يريدنا أن نستفيد منه معه. سنأخذ السوداني كله ونبيعه لأي مقلاة وإذا سألك قل إن الشرطي ضبطنا وصادر الكمية كلها» . بالفعل ذهب عبده في اليوم التالي إلى المخزن السري، الذي كان حفرة كبيرة في الأرض جوار السور، فلم يجد السوداني. ضحكوا وسأل مصطفى عبده. حقا لماذا طردك حناطة يا عبده؟.

ضحك الجميع من سؤال مصطفى لانهم يعرفون الإجابة. كان هناك اتفاق بين عبده وحناطة صاحب الغيط الكبير بأرض الموز بمقتضاه ينصب عبده عيدان «المخيط» التي هي عيدان قصيرة من الجريد مغموسة في صمغ خاص ويطلق عليها هذا الاسم المشتق من «المخاط»، لقوام هذا الصمغ المخاطي، إن لم يكن للشكل المنفر أيضا. ينصب عبده عيدان المخيط بين أفرع الأشجار بغيط حناطة. آخر النهار يجمعها بما يكون قد لصق بها من عصافير ويتم اقتسام الكمية مناصفة. في أحد الأيام هرب عبده بالعصافير كلها مبكرا وجاء في اليوم التالي إلي حناطة بلا مليم معه. كانت العادة أن يبيع العصافير في بار بالفراهدة ثم يعود إلى حناطة بثمنها. قال إنه لم يصطد أي عصفورة أمس. كان حناطه يعرف أنه اصطاد خمسين عصفورة إذ رآه أحد رجاله يبيعها في بار صغير بالمنشية. لقد غير عبده مكان البيع لكن هكذا شاء سوء حظه. صفع حناطة عبده وضربه بالشلوت وأخذ حذاءه وتركه يعود حافيا

وأقسم إن رآه فى الغيط لأخذ ملابسه أيضا وفعل فيه الفاحشة.. ضحك عبده وهو يتذكر وقائع ذلك اليوم وقال:

- الجزمة كانت قديمة تركتها له وجريت. فى طريقى رأيت سباطة موز كان قطعها من الشجرة، حملتها وهربت بها. كاد يلحق بى لولا أنى وصلت إلى السور الفاصل بين الغيطان والسكك الحديدية ونفذت من فتحة فيه. وجدت قطار بضاعة فتعلقت بالسبنسة، صعدت إليها بعد أن نجحت فى وضع السباطة من فتحة الباب فوق سلم السبنسة. حناطة لا يعرف القفز إلى القطارات ولا منها مثلنا. وقف يائسا ورحت أشير إليه بأصبع يدى الوسطانى فى الفضاء.

ضحكوا وراحوا يتذكرون الحكايات الكثيرة لعبده الذى دائما ما يخون أى شخص يتعاون معه - فى العادة لا يكفون عن التعاون معه - فإذا ذهب معه أحد لصيد العصافير هرب عبده بالعصافير كلها، وإذا ذهب أحد معه لصيد السمك يفعل ذلك أيضا، أما إذا ذهبوا إلى السينما فيقطع لهم التذاكر بعد أن يجمع ثمنها منهم، ثم يقف يبيعها فى السوق السوداء وهم حوله مندهشون. «معلهش. معى تذاكر أخرى. انتظروا» وما يكاد يفرغ من البيع حتى يعيد لكل منهم ثمن تذكرته ويجرى بما كسبه ولا يدخل معهم السينما!.

- كانت أياماً جميلة أيام مدرسة القبارى الابتدائية.

قال مصطفى الذى هو فى الاعدادية الان. فقال عبده:

- كنا نصطاد العصافير فى طريقنا ونسرق الفول السودانى والقصب وحتى البصل كنا نبيعه للتلاميذ. أى والله. كانوا يستخدمون البصل مع ساندوتشات الفول.

ضحكوا وقال مصطفى:

- هل نسيت صياد اليمام الذى أعطى كروان يمامة مرة وكنت تريد

أن تأخذها منه.

كروان الأصغر، فى السنة الأولى الاعدادية الآن، قال:

- مازلت أمشى وحدى فى نفس الطريق ومازال صياد اليمام يصطاد اليمام لكنه يبدو دائما شارداً وكأنه لم يعرفنى من قبل.

- هل مازالت الدبابات تأتى من المينا إلى القطارات يا كروان؟

- الدبابات والمدافع والعربات العسكرية تأتى الآن أكثر من أى وقت. إننى أحب الفرجة عليها جدا..

ضحك مصطفى وقال:

- طيب بالذمة هل هذا طريق مدرسة؟ يعنى الواحد يذهب إلى المدرسة وسط معدات حربية! طيب كيف يذهب إلى الحرب، بالكراسات.. عليه العوض فى ثورة يوليو.

انطلقوا يضحكون، وزادت جلبتهم وهم ينهضون ليدخلوا بيوتهم، كان سليمان قد سبقهم فى العودة إلى البيت حيث ازدادت لسعة البرد والحقيقة انه كان يريد أن يكتب شيئا، أى شئ، لقد فجر فيه جمال البنت الصغيرة رغبة فى التعبير عن شئ لا يعرفه. ربما يعرفه حين يمسك بالقلم.

كان حبشى وبدرة، داخل الكشك القريب جداً من الماكينة الحمراء يسمعان أصوات الاولاد ويأتنسون بها. قالت بدرة..

- العجيب فى أولاد المساكن انهم دائما مبسوطون، لا يعرفون الحزن أبدا.

نظر إليها حبشى فى استنكار وقال:

- ستحسدينهم يا بدرة؟

قالت باسمة.

- لا والله. أنا أحبهم جدا..

- تحبينهم. كيف ؟

ارتبكت .. ضحكت ولم ترد.. اقتربت منه ودخلت فى صدره. فكر هو

فى معنى هذه الفكرة التى تتسلط عليه منذ الصباح بأن بدرة يمكن أن تختفى كما اختفت المرأة السابقة. كانت أصوات وضحكات الاولاد التى تصل اليهما تساعد فى إبعاد هذه الفكرة السوداء عن رأسه. لقد سمع صوت الأولاد يجرون ضاحكين إلى منازلهم، وسمع صوت المطر الخفيف الذى هطل فجأة. قال لبدرة إنه يحلم بيوم يأخذها فيه فى مركب جميل يجرى بهما جنوبا صاعدين الريف والخضرة حتى يصلا إلى السودان فيعيشان هناك مع الطبيعة وعلى الطبيعة والأولاد حولهما، أولاده الحقيقيون وأولاده اللقطاء الذين أضاف إليهم واحداً منذ أسابيع أطلق عليه اسم «أتيلا الجبار» لأنه أول ما حمله عن الأرض ونظر فى وجهه صفعه الولد على وجهه، وكانت قوة الصفعة شيئا لم يتوقعه، قالت بدرة.

– نعيش على الطبيعة يعنى عريانين؟

– على الأكثر قطعة قماش تسترنا مثل طرزان.

– طرزان؟. دائما تذكر اسمه، وتطلق اسمه على الأولاد. من طرزان هذا يا حبشى؟

– ياه يا بدرة. هذا موضوع طويل.

قالت فى كسل

– هل هو أطول من الليل؟

– لا طبعا.

– إذن احكى لى قصته.

دخلت فى حضنه أكثر فقال مستسلما .

– طرزان يا بدرة شاب ولد فى الغابات، فقد أهله فقامت الحيوانات بتربيته فكبر صديقا لها يعيش بينها ويقفز فوق الأشجار مثل القرود التى أرضعته وعلمته، ويصرخ كالأفيال صرخة جبارة تعرفها جميع الحيوانات، من الأسود إلى النمور إلى الفيلة والغزلان، وحتى وحيد

القرن، وكلها تجرى عليه لترى ماذا يريد منها.

- وحيد القرن هذا حيوان ؟

- طبعا. هل تظننيه إنسانا. حيوان شكله غبى وضخم مثل الجاموسة وله قرن واحد لو دخل فى أى حيوان آخر يقتله على الفور. حيوان شرس يا بدرة الله يخرب عقلك أنا لا أعرف لماذا تسألينني هذه الأسئلة الليلة.

- طيب يا حبشى ربنا يسامحك. قل لي بعد صرخة طرزان هل كل الحيوانات تسمع كلامه حتى الأسد؟

- واللبؤة أيضا يا بدرة.

ضحكت. فهمت مغزى كلامه. قالت.

- طيب. أكمل يا حبشى.

- طرزان معه قردة لطيفة اسمها شيتا، طبعا عارفاها، شيتا هذه تخلصه من كل المشاكل التى يقع فيها.

قالت.

- إخص عليك يا حبشى دائما تشبهنى بشيتا. يعنى أنا قردة؟

- يا ولية وهل يختلف القرد عن بنى آدم. القرد ليس إلا بنى آدم ربنا سخطه لما مسح طيزه باللبن. وعلى فكرة، ممكن ربنا يسخطنا بدون مسح لا باللبن ولا بالشاى.

ضحكت بدرة بصوت عال هذه المرة واهتزت فى صدره، وضحك هو وأشعل سيجارة. واستمر يتحدث.

- طبعا. ربنا قادر على كل شئ ورأيت بنفسك ما جرى للسيد الأعرج. حرقه بدون نار، ولازم تأخذى عظة..

- إخص عليك يا حبشى، لماذا آخذ عظة؟ هل أنا غلطانة فى شئ؟

- لا طبعا لكن الإنسان لابد يأخذ الموعظة فى كل وقت.

وسكتا لحظات ابتسمت فيها بدرة وقالت.

– تعرف يا حبشى ربنا لو سخطنى سيسخطك أنت أيضا.

قال ضاحكا وهو يضمها بشدة..

– ما دمنا معا لا يهمنى شئ..

– وإذا سخطنا سيسخطنا حجرين.

– الأحسن يا بدرة يسخطنا تمثالين. أجل. حبشى وبدرة. شئ مثل حسن ونعيمة مثلا. وتأتى الناس تتفرج علينا، ويدفعون ثمن التذاكر للفرجة كما يفعلون عند دخولهم منطقة عمود السوارى. المهم أن البلدية تضرب حوالينا سوراً وتعلق يافطة «منطقة أثرية».

– يا ليت يا حبشى، نصبح أغنياء بحق وحقيق.

أمسك بوجهها ووضع فى فمها السيجارة لتأخذ نفسا وقال.

– الفلوس ستأخذها الدولة يا امرأة. سنصبح حجرين ألا تفهمين ؟

نظرت إلى عينيه طويلا وتساءلت.

– كيف تعرف كل هذه الأشياء يا حبشى؟

– من الدنيا. من الزمن. من السينما أيضا.

– خذنى يا حبشى للسينما .

– سآخذك لكن مرة واحدة. السينما يمكن أن تلحس مخك.

ضحكت ثم قالت بعد لحظات صمت.

– أنا عرفت لماذا تحب طرزان يا حبشى. لأنه يتيم مثلك.

– ومثلك أنت أيضا .

– صحيح، ومثل الأولاد المساكين النائمين حولنا الآن.

– تعالى يا بدرة فى حضنى وبطلى كلام خلى الليلة تمر بسلام.

وما كادت تدخل فى حضنه أكثر حتى فكرت أنه من الممكن أيضا ان يسخطهما الله حجراً واحداً لكن له رأسان. تشبثت به فى فزع..

(٣)

غدا. أجل. غدا سيكون في شاطئ ستانلي أجمل شواطئ الاسكندرية. أكثر من عام تصحبه كاتينا معها إلى الشاطئ. فرجة سنوية على اللحم الأجنبي النضير. البكيني، المايوه الذي لا تجرؤ مصرية على ارتدائه ، موجود بكثرة هنا. أجسام كغصن البان، كالبوص الأخضر في البحيرات تتمايل مع الهواء. الكبائن، الأدوار الثلاثة المميزة من الكبائن أمامها العجائز يتأملن اتساع المياه، ورحابة الأفق، والسماء التي دائما، زرقاء لا تشوبها سحب في شم النسيم، والغبار الذي أحيانا يهب على المدينة من الصحراء لا يصل إلى ستانلي، يحجزه حاجز من هواء غير مرئي، كما تحجز الصخور الأمواج عن الدخول إلى الشاطئ. شاطئ ستانلي هو الأكثر نظافة إذن، والأكثر ملاءمة للأطفال يلعبون في الماء بلا خوف، في البحيرة الصغيرة التي على اليسار من الشاطئ الذي قسمته الصخور إلى نصفين. في شاطئ ستانلي يستطيع العجائز تأمل الأطفال بالضبط كما يتأملن الأفق البعيد. إنه الزمن في الحقيقة الذي تتأمله العجائز، الماضي الذي انصرم بلا عودة واستكن هناك عند الأفق، والمستقبل الذي يمرح بين يدي الأطفال وضحكاتهم. إن إدراك الزوال شئ صعب جدا، فكيف يقوى العجائز على تحمل فكرة إنهن قريبا جدا سيمتن؟.

ليس لكاتينا كابينة هناك، لكن لعائلة أسمهان كابينة جميلة في الطابق الأخير اشتراها أبوها من رجل انجليزي رحل بعد عام ١٩٥٦. أمام الكابينة يقف العربي يشوي اللحم.. وتكون اسمهان في الماء مع صديقها الايطالي «ماسيمو كافاريللي» يا له من اسم صعب، لايحب

العربى هذا الماسيمو كافاريللى الذى ما يفتأ ينظر إلى العربى ويضحك بلا سبب. لقد اشتكى مرة لأسمهان ففوجئ بها تقول له.

- لا تشغل بالك بماسيمو فهو أبله.

اندهش كيف حقا تصادق هذا الأبله كما تقول لكنه لم يتلق إجابة. فى الحقيقة هو لم يسأل. للأجانب أحوال. قال لنفسه وسكت. لكن ماسيمو لم يظهر فى شم النسيم العام الماضى. قضى العربى معظم اليوم مع اسمهان وكاتينا فى الماء. أخذهما فوق الديليسوار واندفع بهما عميقا وهن يصرخن كالأطفال، كاتينا فى مايوه أسود قطعة واحدة. اسمهان فى مايوه أخضر قطعتين. تستطيع كاتينا أن تشترى البكينى وترتديه، لكن الجسم هو الذى يحدد نوع المايوه. لحم كاتينا ترهل عند الفخذين، أحمر مائل إلى السواد كلما اقترب من التقاء الفخذين. اسمهان لا يلتصق فخذاها. كل فخذ هو عمود قوى متسق نحيل لكن من لحم منظوم، أبيض، مائل إلى الحمرة الحقيقية. ربع قرن على الأقل يفصل بين كاتينا واسمهان، لكنهما تمرحان كطفلتين وهو يحب كاتينا ولا يحب أسمهان وإن كان يتمنى لو نالها مرة. حبه لكاتينا يجعله يخلص فى علاقته مع اسمهان. وهل الإخلاص فى العلاقة يعنى أن تخلو من الجنس؟. لا يعرف لكن هكذا يفهم الأمور هو المصرى الشرقى ابن الناس الفقراء الذين إذا قامت القيامة اليوم سينسونهم فى أماكنهم ولن ينتبه لوجودهم أحد، شيطان أو ملاك!.

سقطت كاتينا فى الماء أكثر من مرة، وكذلك سقطت اسمهان، كل منهما تسبح بسرعة مدهشة، كاتينا فوق الماء أو تحته بقليل مثل فرس البحر القوى، اسمهان مثل الدرفيل الصغير اللاهى.

يجيد السباحة لكنهما يسبقانه باستمرار فيتوقف ويعود إلى

الديليسوار الذى يكون الموج قد قربه إليه. تغطس كاتينا واسمهان ولا تظهران، وفجأة تصعدان من تحت الماء على جانبى الديليسوار الذى يكون هو قد ركبه، ويقلبان الديليسوار فيسقط العربى فى الماء. يبتسم ويندهش من نفسه لماذا حقا لا يستطيع اللهو كالأطفال.

– عربى. هذا يوم جميل. أنت لازم تلعب.

– عربى أنت واقف على طول مثل عسكرى البوليس. غير معقول عربى لازم تكون فى الماء مجنون!

فى الغداء لا يستطيع العربى أن يأكل بشراهتهما. ولا بشراهة أبى أسمهان البغل صاحب المطبعة والكرش الضخمة والرأس الأصلع الكبير والوجه الأحمر يكاد «يبك» منه الدم. أول إيطالى بكرش يراه العربى فى مصر، وكذلك لا يستطيع أن يجارى شراهة انطونيو أخى اسمهان ولا البنت الجميلة أوفيليا التى لا تتركه. طول النهار فى حضنه ، ترفع وجهها إليه تقبله قبلات أشبه بالماء فى نداوتها وبساطتها، وأم أنطونيو تتابعهما فى دهشة وصمت وفجأة تندفع فى الكلام. يبدو الايطاليون للعربى لا يتوقفون عن الكلام ولا يلتقطون انفاسهم وهم يتكلمون، إنهم كالمطر الذى ينهمر فجأة على الاسكندرية بالليل. يندفع أنطونيو بدوره فى كلام ويضحك أبوه ويقهقه ويقول كلمة أو اثنتين وتظلل سحابة من قتامة وجه الفتاة التى ما تلبث أن تبتسم فى النهاية وتدخل من جديد فى حضن انطونيو وتقبله قبلات ندية كالماء..

العربى لا يستطيع أن يأكل أو يشرب جيدا إلا مع كاتينا وحدهما وفى البيت كما هو الآن يستعد معها للاستماع إلى حفلة شم النسيم الموسيقية من الإذاعة يحييها فريد الأطرش الذى سيغنى كما هو معتاد أغنية الربيع ثم يتبعها بأغنية أول همسة.. كانت اسمهان هنا فى الاتيليه

حتى الساعة السادسة، وطوال اليوم ليس لها من حديث إلا من أخيها انطونيو الذى هرب من البلاد..

- ولماذا هرب انطونيو من البلاد ؟

- هرب قبل أن يقبضوا عليه بيوم واحد. انطونيو شيوعى..

سكت العربى الذى تحيره هذه المسائل. عبد الناصر الذى يتبنى سياسة التمصير ويتهمه الأجانب بالشيوعية يقبض على الشيوعيين!

قالت كاتينا:

- لقد قبضوا على خمسة يونانيين فى رأس السنة الماضية، هل عادوا يقبضون على الشيوعيين من جديد؟.

- أجل . حملة اعتقالات جديدة منذ أيام. الصحافة الشيوعية فى ايطاليا تهاجم مصر كثيرا.

- انطونيو شاطر لأنه هرب.

- انطونيو من أول السنة وهو يجهز للهروب ولا يتحدث معنا فى شئ..

نطق العربى فجأة وقال:

- ألم يشارك انطونيو فى مقاومة الانجليز فى بور سعيد ؟

- شارك مع عدد من زملائه ومع يونانيين أيضا.

- إذن كان يجب أن يبقى هنا فى مصر ويثبت لهم أنه وطنى يحب مصر بدليل مشاركته فى المقاومة فى بور سعيد.

- هل كانوا سيتركونه ؟

تساءلت كاتينا فأجاب العربى.

- لا أظن أنهم يقبضون عليه.

للحظات تحدثت أسمهان بالإيطالية لكاتينا التى ردت باليونانية

وفهمت كل منهما الأخرى فلزم العربى الصمت. يعرف كلمات قليلة من اليونانية وأقل من الإيطالية لكنهما تتكلمان بسرعة. سكتوا جميعا لوقت طويل حتى عاودت اسمهان بالعربية..

- جاء البوليس وفتش بيتنا. ضابط طويل جدا وقوى جدا قال لأبى «اسمع خواجة ڤيالى، نحن نعرف أنك تعمل فى مطبعة الخواجة بوتشينى فى شارع عبد المنعم وإنك شريك فى رأس المال أيضا، وابنك انطونيو على علاقة قديمة بالشيوعيين المصريين. يحضر إليهم منشورات من الخارج كلما سافر ايطاليا ويهرب لهم مقالات تنشر فى الخارج...

وضحكت اسمهان وهى تواصل القصة:

- أبى قال إنه ربى انطونيو ليكبر بتاع بنات وليس بتاع سياسة وأن أنطونيو لا يمكن أن يكون شيوعيا. ولم يصدقوا أبى فأخذوه من بيتنا ونحن نرتعش أنا وأختى روزانا ونبكى. قال الضابط لا تخافوا، نحن لا نريد والدكم. يوم واحد وسيعود. فكرنا نتصل بالسفارة الايطالية. قال أبى لنا أن نفعل ذلك إذ غاب أكثر من يوم واحد. قال ذلك بالإيطالية فابتسم الضابط وقال لا تخف ڤيالى ربما تعود بعد أقل من يوم. عاد أبى فى اليوم التالى ليقول إنهم سألوه عن أصحاب انطونيو فقال لهم انه لا يعرف له أصدقاء، وانه يراه مع بنات كثيرات، وأعطاهم اسماء بنات رحلن مع عائلاتهن فى العام الأخير، وقال إن صديقه الوحيد الذى يعرفه من الرجال هو روسيليني عازف الجيتار فى الكوفى شوب الخاص بفندق الوندسور وهذا لا يمكن أن يكون شيوعيا فهو يعزف للسكارى والعشاق ويغنى لهم أغانى فرانك سيناترا وإيف مونتان وموريس شيفاليه. كذلك كان لانطونيو صديقه باولو برتينى لاعب الكرة بالنادى الايطالى، وهو أيضا طبيب أطفال فى المستشفى الايطالى، وباولو هذا ميوله ملكية مثل

أبيه الذى كان فى حرس الملك فيكتور عمانويل الأول قبل الحرب العالمية الثانية، والأهم من ذلك أن باولو نفسه سافر ليلعب فى نادى نابولى!. انطونيو ابنى لا يمكن أن يكون شيوعيا..

قالت أسمهان إنهم بعد أن اطلقوا سراح أبيها قبل أن يمر يوم كامل فعلا، كان منتعشا ومزهوا يشعر بالفخر والانتصار، لكنه فجأة بعد اليوم الثالث عاف الطعام، وراح يشرب الويسكى بشراهة ويدخن باستمرار. «كنا سنقوم بترحيلك سنيور ڤياللى لكن ثبت لنا أن أنطونيو لم يستخدم مطبعتك أبداً. لا تقل لنا انه ليس شيوعيا، نحن نعرف أكثر منك. انت أيضا لم تشترك معه فى أى نشاط. هذا هو ما يهمنا، لكن أبلغ ابنك اننا سنصل إليه ولو اختبأ فى ثقب إبرة فى ايطاليا، وبلغه أنه من الآن على القائمة السوداء، يعنى ممنوع من دخول مصر إلى الأبد».

قالت أسمهان إن أباها، بعد أن ظهر عليه الهزال وكاد يموت أكل وقال...

- لقد ولّت أيام العز بالنسبة لنا ولكل الأجانب فى مصر.

من يومها وفكرة الرحيل تراود أبى، ولا أظن أنه سيبقى هنا أكثر من عام..

- سترحلين معه ؟

تساءل العربى.. ابتسمت وقالت.

- طبعا. هل أبقى فى مصر وحدى..

ابتسمت كاتينا بمكر وهى تنظر إلى كل منهما مرة، لكنها لم تتكلم. قال العربى فى نفسه هل يكون معقولا أن تدعونى لزواجها؟ لا أظن. انها مجرد إجابة عن سؤالى لا تعنى شيئا.. قالت له كاتينا بعد أن غادرت أسمهان الاتيليه..

- حاذر من أسمهان عربى.. انها تغير الرجال كما تغير ملابسها الداخلية..

- ماذا تقصدين كاتينا؟

- اسمهان الآن على وشك الرحيل، ذاقت الكثيرين من الأجانب ايطاليين ويونانيين وأرمن وقبارصة وحتى شباب من سويسرا ومن الشام، لكنها الآن تحب أن تذوق واحد مصرى. وليس أفضل من حمار مسالم مثلك...

- أشكرك كاتينا على هذه الإهانة.

قال ذلك فى صمت ولا مبالاة، فاقتربت منه ودخلت فى حضنه وراحت تقبله قبلات هادئة لطيفة طازجة حقا لكنها أبدا ليست كالماء. لقد أدرك العربى الآن فقط ولأول مرة أن كاتينا تجاوزت فى العمر الخمسين. وقال:

- اذن لن يكون هناك شم نسيم غدا مع اسمهان وأسرتها مثل كل عام.

ابتسمت وقالت:

- سنذهب معا. لا تخف. نحن الأجانب لا يعطلنا شئ عن حب الحياة. غدا أجازة شم النسيم فى مصر كلها ولابد أن نستمتع بها. سنذهب وسنرى أن اسمهان تنتظرنا بشغف أكثر من أى وقت....

فى الصباح أيقظ العربى كاتينا فى وقت مبكر. يريدان الانطلاق إلى ستانلى قبل أن تزدحم المدينة أو تصفر من العواصف الرملية..

عندما عاد آخر النهار متعبا، لم يكن يفكر كثيرا فى المسافات التى قطعها سباحة مع اسمهان أكثر مما قطعه مع كاتينا، ولا فى كثرة أعداد المسنين من الأجانب التى فاقت كل الأعوام الماضية. كانت الأحاديث الطائرة حوله..

- الشباب يتركون مصر الآن.

– المغامرة برأس المال لم تعد مضمونة.

– العجائز أمثالنا لهم هنا تاريخ وذكريات.

– العجائز سيرحلون قريبا أيضا.

– مصر تبتعد يوما بعد يوم عن البحر المتوسط.

– إنها تقترب أكثر من الاتحاد السوفيتى.

– مشروع السد العالى لم يستطع الغرب الغبى أن يفوز به.

– هل تظن أن اسرائيل وراء ذلك؟

– عبد الناصر يبحث عن دور تاريخى.

– عبد الناصر سيذهب بمصر فى ستين داهية.

– من يدرى. ربما يحدث العكس. الناس تحبه بجنون.

– هناك أحاديث عن تخطيط فى الصناعة وعن خطة خمسية.

– تماما على طريقة الشيوعية فى روسيا..

– هذا الشاطئ لم يعد شاطئنا..

– لقد كثرت فيه أعداد أولاد البلد..

– إنهم ينظرون إلينا بتحد..

– وربما بخوف فأكثرهم يأتى إلى هنا أول مرة.

– الحقيقة نحن لم نهتم بهذا البلد قدر اهتمامنا بأنفسنا..

– من تقصد بنحن. انتم الايطاليون طبعا ؟

– واليونانيون وكل الملل. كل همنا هو أن نجمع الدولارات نرسلها إلى بنوكنا فى بلادنا ونصيف بها فى الريفييرا وكان وماربيلا.

– لو سمعك عبد الناصر لضمك لوزارته.

– هذا كلام الشيوعيين.

– إذن سيقبض عليك .. ها. ها. ها.

كان أحيانا يلتقط المعنى بقليل من المفردات اليونانية أو الإيطالية التى يعرفها، وأحيانا تترجم له كاتينا أو أسمهان وكان يسأل بشغف عن الأثر الذى يتركه ظهور الشباب من أولاد البلد على البلاچ. قالت له أسمهان لما سألها عن ذلك أكثر من مرة..

– الآن صار الشاطئ طبيعيا، فيه الأجانب وفيه المصريون، مثل أى حديقة حيوانات بها الغزلان والقرود..

ابتلع الإهانة، لكنه لم يستطع أن يمحو أثرها عن وجهه. لقد اربد وجهه بحق وأحس بغيظ شديد ..

– لا تزعل عربى.. لا تزعل حبيبى.

وقبلته بسرعة لكن القبلة كانت على شفتيه ولاحظ أنها عضت شفته السفلى بأسنانها المدربة.. تذكر على الفور حديث كاتينا. لعلها تعمدت تضايقنى لتقترب منى بقوة. ما محبة إلا بعد عداوة يا عربى. وسحبته وراءها كثيرا فى البحر، وقبلها كثيرا تحت الماء وفوقه.. لم يدرك قط أن اليوم شم النسيم إلا آخر النهار عند العودة. رأى زحام المدينة بينما كان النهار كله فى جنة حقيقية. ارتفعت رائحة السردين والفسيخ والرنجة من بعض الكبائن التى آلت للمصريين بينما ظلت الكبائن الأخرى تنضح بروائح فواكه البحر واللحوم المشوية والاسماك والخمور وزجاجات البيرة كانت تبرق على المناضد أمام كبائن الأجانب، وكذلك كانت أمام كبائن المصريين.

عاد وسط زحام المدينة فى تاكسى ومعه كاتينا. كان التاكسى يمشى ببطء على الكورنيش من فرط الزحام، فالمدينة اليوم مفتوحة منذ الصباح للقادمين من القاهرة والريف من الأعيان ويعودون الآن ولسوف تظل ملاهى الكورنيش عامرة حتى الصباح رغم تعب النهار، ولن ينقطع

صوت الموسيقى على طول الشاطئ، وكانت المسافة من المنشية حتى العطارين هى الأصعب فأفواج المشاة العائدين إلى الاحياء الشعبية الجنوبية أشبه بالطوفان وأصواتهم العالية تملأ الفضاء بالضحكات والنكات ودقات الطبول والدفوف والصاجات التى يشبكها عدد من الصبية والشباب فى أصابعهم على طريقة الراقصات.. كانوا رجالا متوسطى العمر ونساء وشبابا وشابات وصبية وبنات وأطفالاً بملابس من كل نوع، جلابيب وفساتين، شورتات، بنطلونات، وقمصان، قفاطين، بيچامات، حفاة، بصنادل، بجزم، بشباشب، بيض وسود وخمرى، عيون سوداء، خضراء، زرقاء، وعسلية، شعر أسود، أصفر، بنى، أحمر، أبيض، رمادى. طوال وقصار، نحيفون وسمان، مسرعون ومتمهلون، خليط عجيب وفوضى لا نهاية لها والسيارات الأجرة والملاكى ترتفع أصوات أبواقها وتتحرك بينهم تحرك السلحفاة، وميدان المنشية أشبه بيوم الحشر، أعداد لا حصر لها فوق نجيل الحديقة الفرنسية يقفزون ويتقافزون وينطون الحبل ويغنون رغم انصرام النهار، وميدان التحرير، يشهد زحاما أكثر، وبين الزحام عشرات من باعة الزهور، الفل والياسمين والقرنفل، وعشرات من المتسولين الصغار، وجامعى أعقاب السجائر، وتملأ الجو رائحة الفسيخ والسردين الذى أُكل بالنهار، وسلال المهملات قد امتلأت عن آخرها بالمخلفات التى فاضت من حواليها على الأرض العشبية وأخذتها الأقدام هنا وهناك فامتلأت الحديقة بالورق المهمل والقانورات، وحول تمثال محمد على تجمع العديدون يلتقطون الصور التذكارية، وبعض الصبية غامر بالصعود على قاعدة التمثال والوقوف جوار الحصان ولما حاول البعض الصعود أعلى الحصان منعه بعض الآخرين،. عيب. لا يصح. إنه تمثال مدينتنا، لكن أحد المحاولين لم

يخضع وحاول الصعود فانزلق من فوق ساق الحصان إلى القاعدة العالية ثم سقط إلى الأرض بين ضحكات الواقفين وبينهم هم الذين حاولوا منعه. قالت كاتينا.

- شفت اسكندرية يا عربى ؟

- شفت يا كاتينا..

كاد يقول كما قالت أسمهان صارت غابة بها الغزلان والقرود، لكن كيف يقول ذلك. ثم ماذا يهمه من الاسكندرية التى لم تفطن اليه حتى الآن، فما هو إلا تابع صغير الشأن لامرأة ليست مصرية. فلتذهب الاسكندرية إلى الجحيم، وليذهب الأجانب وعبد الناصر والشيوعيون، كما ذهب اليهود والانجليز والفرنسيون وكما يذهب كل شئ، فالأيام دول، وأيامه لاتزال ضائعة فى قلب الزمان....

(٤)

هذه ليلة تحرص كل منهن ألا تفوتها. ليلة شم النسيم . يقل عددهن حقا لكن البهجة التى تثيرها الحفلة الاذاعية تجعل الدنيا حولهن متسعا من السعادة. كروان جالس بالقرب منهن يقرأ فى كتاب صغير. سألته نوال.

- ماذا تقرأ يا كروان. قصة ؟

- انها قصة روبنسون كروزو الشهيرة..

ضحكت حسنة وقالت ..

- من روبنسون كروزو ومن أين الشهرة إذا كنت أنا لا أعرفه.

ضحكت نوال وابتسم كروان وقال..

- هذه قصة مبسطة وليست الأصلية ويمكن بعد أن أنتهى منها أن تقرئيها..

- تانى يا كروان. انا تركت المدارس فى سنة ثانية ابتدائى. قراءة تانى. طيب.. بدل الكتاب هات لى عريس..

ارتفعت الضحكات تملأ الحجرة ثم قالت حسنة.

- إذا كانت قصة حب احكيها لنا..

قالت أبلة نرجس مبتسمة..

- حسنة. اتركى كروان فى حاله.. الولد صغير..

- صغير!. والنبى تلاقيه مقطع السمكة وذيلها.

هكذا أجابت حسنة، فضحك الجميع وأحس كروان بالخجل وقالت نوال...

- صحيح يا كروان ما هى حكاية أمينة بنت الأسطى البياع ؟

ابتسم كروان واندفع يتكلم ببساطة وبراءة..

- هى فى مدرسة المعلمات الثانوية. مدرسة المعلمات بجوار مدرستنا، مدرسة طاهر بك الاعدادية. السور بينهم واحد. فى حصة الألعاب طارت كرة القدم ونزلت فى مدرستها. المدرس طلب منى أقفز من فوق السور. شالنى زملائى وطلعت فوق السور. كان فيه بنات كتير فى الحوش. كان وقت الفسحة فى المدرستين.. شاورت لواحدة منهم تحضر لى الكرة.. كانت أمينة. عرفتها لما قربت من السور وضحكت لى. قذفت الكرة ونزلت أنا.

- وبعد ...؟

تساءلت حسنة ضاحكة.

- خلاص.. لم أرها بعد ذلك. العصر لاقيت أمها تشتكى لأمى وتقول

انى أطلع على سور المدرسة أعاكسها. طيب كيف أعاكسها، وهى أكبر منى. ثم هل لأنها حلوة أعاكسها. البنات الحلوين كتير. مدرسة المعلمات فيها بنات كتير أحلى من أمينة ومع ذلك لا أعاكسهن، أنا لا أحب ذلك..

كن فى غاية الدهشة من حديث كروان الذى أدركن الآن انه كبر بحق ودخل فى طور الشباب . قالت حسنة بهدوء ودهشة..

– يخرب عقلك يا كروان. كل هذا يطلع منك.

ابتسم وعاد يقرأ. كانت الموسيقى تنبعث من الاذاعة حيث لم تبدأ الحفلة الغنائية لفريد بعد، والمذيعة تتحدث عن الربيع والزهور والحب فقالت نوال..

– دائما يتكلمون عن الربيع رغم أنه ليس أحسن فصول السنة فى مصر.

– كيف يا نوال ؟

تساءلت نادية سلاّم.

– بسبب رياح الخماسين. إنها تفسد فصل الربيع كله..

– صحيح.

قال كروان مؤكدا على كلام نوال التى استطردت.

– أحسن فصول السنة فى مصر هو الخريف، لكنه حزين.

– كيف .

تساءلت حسنة. فقالت نوال بألم حقيقى:

– فيه تسقط أوراق الشجر وتذبل الزهور. ألا تسمعينهم يقولون خريف العمر. يعنى فيه تشعرين بالنهاية تقترب. لكنه جميل لأن الجو فيه صاف ونقى وأمطاره خفيفة وحرارته معتدلة..

– والنبى إنت كلامك يحير يا نوال، كل شئ صار محيرا هذه الأيام..

قالت نوال بصوت خفيض كأنها تحدث نفسها.

- صحيح..

سكت الجميع ولم يعد فى الغرفة غير الصمت والموسيقى الهادئة، حتى المذيعة سكتت الآن. تساءلت أبلة نرجس..

- من أول السنة لم تسهرى معنا يا نوال. كل من رآك قال إنك لست كالمعتاد. أمك تقول انك سرحانة على طول وشايلة الهم ولا تتحدثين مع أحد فى شئ..

- والله يا أبلتى أنا فى مشكلة كبيرة.. تعرفت بجماعة شغلوا وقتى وعقلى.

- جماعة مطربين ؟

تساءلت حسنة.

- يا ليت.. فنانين وسياسيين.

- الشر بره وبعيد، الشر بره وبعيد.. أنت يا بنت مجنونة.

قالت ذلك حسنة بسرعة. وتأملتها الجونى فى استغراب أما نادية فقد بدا على وجهها الخوف. كروان فقط هو الذى رفع رأسه عن الكتاب وأرهف أذنيه ليسمع.. وتساءلت ابلة نرجس بهدوء.

- وكيف تعرفت عليهم؟

- عن طريق الدكتور أحمد الذى حدثتكن عنه من قبل وفى ليلة رأس السنة الأخيرة..

سكتن قليلا. كن يفكرن فى شئ واحد قالت نادية.

- يعنى الإشاعة التى سمعناها بأنك رجعت ليلة رأس السنة سكرانة عند الفجر كانت صحيحة.

- سكرانة لا.. عند الفجر نعم.. أنا لم أشرب. الشرب يضر صوتى،

غير أنه حرام.

ظهرت الدموع فى عينيها فقالت أبلة نرجس.

– تكلمى يا نوال. فضفضى..

– أنا خائفة يا أبلتى. خايفة موت .. الدكتور أحمد الذى حدثتكن عنه من قبل صارحنى بحبه.

– وهل هذا يخيفك يا عبيطة. انت هكذا تكون قد انفتحت لك طاقة القدر.

– أنا فرحت لقد صارحنى بحبه بعد تلك الليلة التى عرفنى فيها بناس محترمين جدا. فنانين وسياسيين كما قلت. فى البداية قلت ربما لا يحبنى بقدر ما يحب صوتى، ثم قلت لنفسى ليكن.. وربما أيضا يستطيع واحد من هؤلاء الناس المحترمين أن يساعدنى للدخول إلى الاذاعة. لقد أعجبوا بصوتى . ذهلوا، لكن المشكلة انه تم القبض عليهم جميعا تلك الليلة بعد أن تركتهم بقليل.

– يا لهوى.

هتفن جميعا، وضربن صدورهن بأيديهن بينما فُتحت عينا كروان إلى أقصى مدى، وجف ريق ابلة نرجس وتساءلت بصوت مخنوق..

– كيف حدث ذلك؟

– كانوا معظم الوقت يشتمون فى سياسة الدولة، الوحدة بالذات. كانوا يتكلمون بإعجاب عن التمصير، تمصير الشركات الاجنبية يعنى وبيعها للمصريين، وأحيانا يمدحون عبد الناصر على ذلك، ثم يعودون يشتمونه بسبب إلغاء الاحزاب وانعدام الديمقراطية. قالوا الوحدة غلط لأنها بين حكومات وليست بين شعوب حرة تملك أمر نفسها. وقالوا إن أى معارضة سياسية تنتهى إلى السجن. وقالوا إن طرد اليهود من مصر غلط لأنه أدى

إلى ذهاب الكثيرين منهم إلى إسرائيل ، التى عادت تتحدث عن مأساة اليهود وتدعو العالم إلى التبرع من أجلها. قالوا كلاماً كبيراً كثيراً تلك الليلة بين الأغنيات..

كن يستمعن إليها بشغف غريب، رغم أن كثيرا مما قالته بدا غير مفهوم لهن، لم يقاطعنها، يردن سماع ما هو أكثر، ظل كروان يستمع اليها فى شغف. وعادت هى إلى الحديث:

– كانوا يتكلمون كلاما جميلا فى الفنون والأدب والسينما والفن التشكيلى، الرسم يعنى، وكان بينهم فنانة جميلة جدا. ايطالية من ناحية الأم اسمها بريچيت، وشاعر اسمه عصمت مفتاح.. هل تعرفه يا كروان. هل قرأت له شعرا..

– لا.

انتبه كروان إلى السؤال وأجاب فى اضطراب . استمرت هى فى الكلام..

– عصمت مفتاح هذا شاب صغير، يبدو فقيرا وسط هؤلاء الناس، لكنه إذا ألقى بشعره بدا كأنه مارد عملاق، استغفر الله العظيم، بدا كأنه إله.. أى والله. رغم أنى لم أفهم ولا كلمة من شعره. وكدت فى لحظة أنهض مثلما فعلت بريچيت الفنانة وأقبله.. لا تؤاخذونى. هؤلاء الناس بسطاء جدا فى علاقاتهم. وبريچيت هذه قد دعتنى لأزورها فى مرسمها بقرية أبيس. ذهبت اليها فوجدتها مكتئبة جدا وحزينة. ذهبت اليها بعد تلك الليلة بأسبوع. وجدت عندها فى المرسم لوحات كثيرة، غريبة الشكل، كلها نقط ملونة تخفى وجوها متعبة وتقول لى هؤلاء هم الفلاحون، وانه لازم أقرأ بعض الشئ فى الفن التشكيلى، ضحكت وقلت لها إن الدكتور أحمد طلب منى أقرأ فى تاريخ مصر، وأن الاستاذ نادر نعيم – وهو أهم شخص فيهم – طلب منى أقرأ قليلا من الأدب، وضحكت وقلت لها إنى

التحقت بمدرسة التمريض هربا من القراءة، وكذلك لأن والدى لا يستطيع الانفاق على تعليمى.. آه. نسيت أقول لكم انهم تلك الليلة تحدثوا كثيرا عن اليوم الذى سيأتى يسيطر فيه الشعب، والعمال بالذات، على الحكم، وعلى الاقتصاد، وذلك اليوم هو الذى سينتهى فيه الظلم. كان كلامهم أحيانا يبدو لى مقنعا وجميلا خاصة حين يتكلمون عن الشعب الذى يعيش أغلبيته تحت خط الفقر لكن كلامهم فى السياسة لم أفهمه، لكنى كنت اندهش من ملابسهم الغالية جدا والانيقة، والبارفان الذى يعطرون أنفسهم به، والشقة التى نجلس فيها والتى لا تقل فخامة عن شقق أفلام الباشوات، وكيف يحبون الفقراء هكذا. المهم. بريچيت ذلك اليوم بدأت ترسمنى. أمضيت النهار كله معها وهى ترسمنى، وقالت لى إنه بعد لقاء طويل آخر ستنتهى من اللوحة التى حين نظرت اليها وجدتها تشبهنى الخالق الناطق لكن يتبقى مناطق تحتاج إلى تلوين ورتوش خفيفة كما قالت وفجأة وجدتها تبكى. مالك يا بريچيت. قالت. خسارة أن الزملاء لن يروا هذه اللوحة. ارتبكت أنا وأدركت أن هناك شيئا لا أعرفه، رأتنى مرتبكة خائفة فقالت لى لا أحد يعرف متى سيعودون. تجرأت وسألتها، وأين ذهب الزملاء؟ كنت أعرف انها تقصد أولئك الرجال العظماء الذين قابلتهم ليلة رأس السنة. قالت «إلى المعتقلات» امتقع وجهى وارتعشت بحق فسألتنى. «ألا تعرفين» قلت لها لا. اندهشت جدا كيف لم يخبرنى الدكتور أحمد بذلك.. قالت كان عليه أن يخبرك لتحتاطى لنفسك.. ولما رأتنى خائفة جدا قالت صحيح أنت لست عضوة فى الحزب ولم تقابليهم غير مرة واحدة لكن ممكن جدا أن تتعرضى لاستجواب من أى نوع. ظهر على وجهى فيما يبدو أننى أريد أن أسألها كيف لم تتعرض هى لذلك فقالت «لا تقلقى الدولة تتردد كثيرا

فى اعتقال النساء لكن لا أظن أن هذا التردد سيطول لذلك لا تتأخرى فى الحضور لتنتهى هذه اللوحة»..

– وهل ذهبت إليها بعد ذلك ؟

تساءلت حسنة فى فزع.. فانهمرت الدموع من نوال وقالت.

– لم أذهب، وحتى الآن لم أذهب. حاولت فى المستشفى أن أبتعد عن الدكتور أحمد قدر المستطاع، لكن قلبى لم يطاوعنى، ووجدت نفسى أحب الغناء فى المستشفى بالليل للمرضى أكثر من كل وقت، ولم أعد أتضايق حين يطلب منى كبير الجراحين أن أغنى فى غرفة العمليات. انتظرت ان يخبرنى أحمد بشئ مما قالت لى بريچيت فلم يفعل. كان كل يوم يمر أطول من الدهر كله لأنى اخشى ألا أرى أحمد فى اليوم التالى، لكنى كنت أراه، ومازلت، وأحمد الله على ذلك، وأطلب منه الستره وأن يتزوجنى أحمد كما فعل الدكتور سمير مع المرضة سميحة التى صارت الآن ست بيت محترمة وقعدت من الشغل، لكن أحمد لا يتحدث معى فى أمر الزواج، ولاحظت أنه هو الذى يبتعد عنى. ماذا أفعل يا أبلتى أنا محتارة..؟

حط الصمت ثقيلا هذه المرة. كان فريد الأطرش قد بدأ يغنى أغنية الموسم الشهيرة «الربيع»، ووصل إلى الكوبليه الحزين.

وادى الشتا يا طول لياليه
على اللى فاته حبيبه
ينادى طيفه ويناجيه
ويشكى للكون تعذيبه

قالت حسنة.

– اطفئ الراديو يا كروان. الحكاية مش ناقصة غم.

انتبهن إلى أن كروان جالس لايزال. قالت ابلة نرجس..

- الدكتور أحمد يحبك يا نوال وبعده عنك حتى لا يعرضك للخطر.

فجأة اندفعت الچونى باكية وهى تقول.

- لكن الحكايات دى صعبة علينا قوى يا ابلتى..

اندفعت نادية سلام تتساءل..

- ولماذا قبضوا على هؤلاء الناس. ما هى التهمة؟

قالت نوال بهدوء..

- الشيوعية.

ضربت حسنة صدرها بيدها هاتفة فى فزع..

- الشيوعية. يا مصيبتى . دى مصيبة كبيرة..

تأملتها نوال فى دهشة..

- انت تعرفين شيئا عنها يا حسنة..

- أبدا. لكن ظاهر من اسمها..

وهنا ضحكن، اختلطت الدموع بالضحات، ضحك كروان ونهض تاركا البيت. يحتاج إلى بعض الهواء الطازج على المحمودية خاصة والليلة نسيمها عليل.. قالت حسنة.

- أحسن شئ فعلا الآن هو أن تغنى يا نوال..

قالت نوال وهى تجفف دموعها بقطعة قماش مهملة.

- لا. سامحينى الليلة..

- اذن ترقص الچونى.. هيا يا بنت..

ووقفت الچونى تاركة حسنة تحزمها بشريط من القماش. وقفت وسطهن كالملكة وراحت تتمايل على مهل، بلا رغبة فى الحقيقة، فقالت نادية سلام.

- أين أنت يا بدرية الآن؟ لقد رقصت العام الماضى رقصا كالنار.
قالت حسنة.
- زمانها ماشية سارحة وراء الغنم فى الصحراء..
ضحكن، ولم يبد أن الچونى ستستطيع الرقص بشهية، أدركت نوال أنها لم تقل لهن كل الحكاية، وأن ما أخفته كان أعظم، بينما فكرت نادية سلام فى هذه القصص العجيبة للحب التى تنمو وسط الدمار فالچونى تحب خير الدين المعرض للموت، ونوال تحب سياسياً معرضاً للسجن، وهى أحبت إبراهيم مرسى غير المعرض لأى شئ لكنه يختار أماكن للموت والمرض..
كان كروان ذلك الوقت قد وقف على شاطئ المحمودية وفوجئ بسليمان يقف هناك أيضا. لم يتحدث معه فى أى شئ مما سمعه. لقد أدرك خطورته. ووجد سليمان يأخذ نفسا عميقا ويطلقه بهدوء وعلى مهل وفى وقت طويل ..
- لماذا تفعل ذلك.؟
- يوجا. أحد التمارين الجميلة فى اليوجا. يشعرك بالراحة والسعادة..
راح كروان يقلده لكنه لم يشعر بشئ فابتسم وقال سليمان:
- هل تعرف ما هو إحساس انسان حين يقف هنا وحده بالليل وكل شئ حوله نائم من الجماد والبشر والطير والحيوان.؟
سكت كروان مرتبكا قليلا واستطرد سليمان.
- يشعر بالعظمة. بالألوهية. بأنه شئ أقرب إلى الآلهة.. بأنه إله حقيقى لهذا الكون الساكن حوله. ويمكن جدا أن يشعر بالتفاهة. بأنه لا يساوى شيئ لانه لا يوجد من يقف حتى ليكلمه. بأنه لا أحد. فاقد

الوجود والماهية معا!

لم يعلق كروان الذى كان يعجب دائما بكلام سليمان. وإذا كان لهذا الكلام معانٍ أكبر من قدرته على الفهم فسوف يكبر يوما ويدرس الفلسفة ويفهم. لن يفعل مثل سليمان ويلتحق بأقسام العلوم؟ سيلتحق فى المدرسة الثانوية بأقسام الآداب، وسيكون هدفه فى هذه الحياة هو كلية الآداب والعلوم الانسانية..

كانت البنات قد انصرفن بعد أن نبهت عليهن أبلة نرجس ألا يتحدثن فيما قالته نوال حتى لأهاليهن، ورأين أن وجه المرأة البسيم لم يعد كما كان من قبل أبدا. فى الحقيقة لم تكن خائفة. كانت فقط تدرك بحسها البسيط أن كارثة كبيرة ستحل بالمساكن. أن شيئا لم يخطر ببال أحد سوف يقع. ولم يمر وقت طويل. فى الصباح التالى، يوم شم النسيم الذى يخرج فيه الناس جميعا إلى الشواطئ والحدائق، كانت نوال بالمستشفى بالنهار، إنه أحد أيام الطوارئ الخطيرة خلال العام. حالات التسمم بالفسيخ وحوادث الطريق والمشاجرات بسبب معاكسة البنات كلها تنتهى إلى المستشفيات. كانت تعرف أن الدكتور أحمد سيشاركها العمل اليوم لكنه لم يأت. فى الساعات الأولى للصباح يبدو كل شئ هادئا فى المستشفى. المرضى فى أسرَّتهم، والممرضات فى حجراتهن، وقسم الاستقبال لم يستقبل غير حادثة أو اثنتين. كانت هى تفكر فى اللقاء الذى لم يتكرر مع أحمد بعد ليلة رأس السنة، اللقاء الوحيد الذى تم بينهما خارج العمل منذ اسبوع فى تريانون..

– لم أشأ أن أخبرك بما جرى للزملاء حتى لا أسبب لك أى ارتباك فى حياتك .

– كان من المفروض ألا تتركنى. لقد عرفت من بريچيت وانتظرت أن

تكلمنى فى ذلك كل هذا الوقت.

- لقد حاولت الابتعاد عنك قدر الإمكان حتى تمر عدة أسابيع هى عادة الوقت الأكثر خطرا. لقد حدثت ضربة أخرى فى مارس الماضى لعدد آخر من الشيوعيين، ولقد مضت عدة أسابيع على ذلك أيضا الآن، وما داموا قد أخطأونى فى الضربتين، وحتى هذا الوقت فاحتمال أن يمر الأمر بسلام يكاد يكون مائة فى المائة.

- لذلك طلبت مقابلتى وهنا فى العلن؟

- بالضبط.

- هل تحبنى كل هذا الحب؟

- وأكثر. ستكونين مغنية الثورة القادمة.

سكتت. ترتبك كثيرا أمام هذه الأحاديث. قال:

- فى كل حركة سرية يا نوال توجد امرأة تخفى الرفاق، كنت ومازلت أحلم أنك هذه المرأة.

تذكرت قصيدة عصمت مفتاح العجيبة، بدأت تدرك شيئا من معناها. هل يمكن أن تكون هى منذورة حقا لشئ من ذلك؟ تساءلت..

- وبريچيت؟

- سافرت.استطاعت الخروج من مصر. إنهم يسهلون لمثل بريچيت الخروج. فهى من ناحية امرأة، ومن ناحية أخرى فنانة، والأهم أن لها أصولا أجنبية وحبسها فى مصر خسارة للدولة أكثر من كونه مكسبا.

- لذلك لم يقبضوا على الرجال الأجانب الذين كانوا موجودين تلك الليلة.

- قبضوا على كل الموجودين، لقد أنقذنا خروجنا أنا وبريچيت لتوصيلك إلى المنزل قبل أن تنفض الجلسة.

في صباح اليوم التالي لهذا اللقاء خرجا معا من المستشفى فصحبها في سيارة تاكسي إلى شارع جانبي من شارع الرصافة بمحرم بك. أعجبها شارع الرصافة بنظافته وقوة مبانيه العصرية وشرفاتها الواسعة، كذلك بدا الشارع الجانبي نظيفا للغاية. تركها في السيارة ودلف إلى إحدى العمارات الصغيرة ليعود بعد قليل ومعه كيس قماش أبيض بداخله لفة كبيرة صلبة. أعطى السائق جنيها كاملا وقال له أن يعود بها إلى منزلها في كرموز.

كانت المدينة تستيقظ حولها، والشابورة تشف شيئا فشيئا والناس تظهر خارجة من الأزقة في سرعة كمن انتظر سنينا طويلة خلف الأبواب في الظلام حتى لاح له النور وفتح له الباب. ازدادت الحركة في شارع محرم بك، وسمع صوت صرير الترام، وعند ميدان الجمهورية، عند محطة مصر، كان المسافرون يهرولون داخلين إلى المحطة، وعربجيو الحناطير يقدمون العلف لخيولهم. لماذا لايبدو بين المسافرين الداخلين إلى المحطة نساء؟. لاحظت ذلك وتساءلت في نفسها. كان التاكسي يمشي بطيئا كأنما يطلعها على هذه المدينة الغريبة، ودخل بها في شارع الخديوي ثم انحرف عند المدرسة التليانية إلى شارع عمود السواري داخلا قلب كرموز. بسرعة كان قد عبر الكوبري، لم يكن في شارع عمود السواري شئ يمكن ملاحظته غير سور المقابر المصمت والعمارات الصامتة على الناحية الأخرى ومحلات القماش التي لم تفتح أبوابها بعد. اقتربت من المساكن بعد أن قطع بها التاكسي الطريق الموازي لترعة المحمودية ورأت عددا من الرجال يخرجون إلى أعمالهم. لقد تعودوا أن يروها عائدة من المستشفى في الصباح الباكر. في البيت كان أبوها يستعد للخروج. تساءل مشيرا إلى المخلاة القماش..

- ما هذا يا نوال ؟

- كتب فى الطب.

ابتسم الرجل وهز رأسه وانصرف إلى عمله. عادت أمها التى استيقظت لإعداد الشاى والفطار لأبيها إلى النوم. جلست هى فى الصالة أمام المخلاة وتذكرت أن تخلع ملابسها. ارتدت جلبابا من القطن وعادت تجلس أمام المخلاة من جديد. فتحتها بسرعة ودلقت الكتب على «الكليم» القديم الذى فوق الأرض.. كلها كتب بالانجليزية. يمكن لها أن تقرأ على الأقل العناوين. «ذاكابيتال». قالت لنفسها هذا عن العاصمة! لكن من هو كارل ماركس هذا مؤلف الكتاب الضخم. فتحت الكتاب فوجدت صورة المؤلف تحتل الصفحة الأولى تكاد تقفز منها إلى حجرها. رأس كبير وشعر أسود كثيف وذقن كثيف ووجه مستدير وعينان ثاقبتان فوقهما جبهة عريضة. قالت فى نفسها مبتسمة «يا حول الله. رجل شرس!». وراحت تقلب بقية الكتب التى لم تستطع أن تفهم عناوينها أبدا. كيف حقا لم تحافظ على الانجليزية التى تعلمتها فى المدرسة؟ قرأت عنوانا طويلا لم تفهم منه غير كلمة «فاميلى» ورأت بالصفحة الأولى للكتاب رجلا آخر يبدو أطول، ربما، وجهه أطول، كثيف الذقن والشعر مثل الأول، لكنه يبدو أكثر وداعة. اسمه فريدريك انجلز.. ورأت صورة رجل ثالث أصلع ذقنه مقصوصة رفيعة اسمه لينين. تذكرت أنها سمعت أسماءهم تتردد فى أحاديث الزملاء ليلة رأس السنة. هل يمكن أن يكون هؤلاء الناس ذوو اللحى هم سبب المشاكل مع الحكومة؟ خافت للحظة، لكنها ابتسمت من نفسها. كانت سعادة لقاء الأمس فى تريانون لاتزال تشملها.

أعادت الكتب إلى المخلاة وصعدت على سلم خشبى ووضعتها فوق

السندرة بين صفائح السردين الملح والمخلل والبقايا المنزلية ونامت ذلك الصباح سعيدة كالأطفال الذين حكت لهم الجدة حكاية جديدة جميلة مثيرة قبل النوم..

كان لابد من وقوع أكثر من حادثة فى المدينة ووصولها إلى قسم الاستقبال لتأخذها من هذا التفكير، لكن لم تعد تصل حوادث كأنما لم يكن اليوم شم النسيم فى الاسكندرية. لماذا حقا لا تنهض وتتصل هى بالتليفون بأحمد الذى لم يصل حتى الآن. فعلت ذلك فلم تجد حرارة فى الخط. الخط مقطوع طول الوقت. وقبل أن تفكر كيف أحست بشئ من الرعب غير المفهوم ليلة أمس بعد أن غادرت أبلة نرجس وقبل أن تنام، وكيف دق قلبها بسرعة، دعاها مدير المستشفى لمقابلته..

عرفتهم داخل غرفة المدير الواسعة. ثلة من رجال المباحث الذين يرتدون زيا مدنيا، وجوههم حمراء وعيونهم يطل منها شرر وملابسهم نظيفة لامعة، إنهم ضباط ولا أقل، حولهم عدد من المخبرين كبير. لا تعرف لماذا وقعت عيناها على أياديهم الغليظة، الجميع، ضباطا ومخبرين.. كان بينهم ضابط برتبة أعلى، لابد، فهو الأطول، والأقوى بدنيا، وهو الذى تأملها بعينيه عند دخولها. إنه طويل جدا أكثر مما ينبغى، يكاد يصل فى طوله إلى صارى السفينة أو العلم..

يستطيع أن يمسك أى شخص بيد واحدة ويرفعه عاليا ويلقى به من النافذة دون حتى أن يتحرك من مكانه!.. بدا لها مدير المستشفى القصير مسكينا بينهم. ظهر فى عينيه رعب فظيع. كان فى الحجرة أيضا عدد من الأطباء المستائين من الشباب. سمعت الضابط الطويل يقول..

– أعتذر لكم عن دخولنا غرفة الأطباء وتفتيشها، لكنها إجراءات ضرورية.

هذا إذن سبب استياء الأطباء. قال أحدهم للضابط ..

- ما هى التهمة الموجهة للدكتور أحمد حتى نستطيع أن نساعدك..

- العمل على قلب نظام الحكم وتكوين تنظيم شيوعى متصل بجهات أجنبية..

كان يقول الكلام بهدوء وثقة متجاهلا وجود نوال تماما. كان يقصد ذلك وكانت هى توشك على الانهيار.. لكنها سمعت الطبيب الشاب يقول..

- دكتور أحمد يفعل ذلك!؟ اسمح لى أقول لسيادتك مستحيل ..

- نعم !؟

تساءل الضابط فى غلظة فقال الطبيب الشاب.

- اسمعنى ولا تحاول إرهابى. أحمد شخص خجول جدا يحب الموسيقى والغناء والشعر فكيف يقلب نظام الحكم؟ إنه بالكاد يقلب صفحة كتاب..

ضحك الأطباء الشبان وازداد رعب المدير وأحست نوال بالقدرة تدب فيها. هناك إمكانية للمواجهة إذن. اقترب الضابط من الطبيب الشاب وهمس بهدوء.

- يبدو انك صديقه الحميم.

- أنا هنا منذ اسبوع فقط، لكن لا أعتذر عن صداقته.

- من أين أتيت؟

- من أسوان.

- من أسوان وتعمل فى الاسكندرية.

- لو أن الدولة وفرت المستشفيات فى أسوان لظللت هناك..

هزّ الضابط رأسه أكثر من مرة وعاد إلى الخلف صامتا ثم جلس على مقعد المدير الواقف فى ذعر خلف مكتبه وقال..

- أعدك أنك ستجد عملا فى أسوان، والآن نتكلم مع السستر نوال. ألا زال صوتك حلو يا سستر..؟

كان الطبيب الشاب قد بلغ غاية الضيق فاندفع يقول..

- إذن نستطيع الانصراف، أم لديك أسئلة أخرى. أقصد تهديدا آخر؟

اقترب منه في غيظ عدد من المخبرين والضباط لكن الضابط الكبير الطويل الجالس الآن أشار إليهم أن يتوقفوا فى أماكنهم. اندفع الطبيب الشاب خارجا فقال هو ..

- حماس شباب، غدا يتعلم كيف يكون الحماس.

ثم أمسك بمظروف كبير جدا أخرج منه اللوحة التى كانت ترسمها بريچيت لنوال وقال وهو يعرضها على الواقفين .

- هذه صورتك يا نوال. كانت ترسمها بريچيت.. هل تنكرين ذلك.؟

- لا.

- إذن تعرفين بريچيت.

- قابلتها مرة.

- أين ؟

- هنا. جاءت مع أحمد وتعرفت علىَّ. قالت إنها تستطيع أن تساعدنى للعمل بالاذاعة..

- هل رأى أحد منكم بريچيت؟

كان يخاطب الأطباء الاخرين الذين لايزالون واقفين. لم ينتظر إجاباتهم. قال:

- لا يعرف أحد بريچيت يا سستر نوال. فيم كنتم تتحدثون؟ .. لا تقولى لى إنكم تحدثتم عن عبد الحليم حافظ وأسمهان..

- تحدثنا عن سيد درويش.

- وكارل ماركس والماركسية.

اتسعت عينا نوال وتذكرت صورة الرجل الشرس كارل ماركس. لم تترك للخوف فرصة فقالت على الفور:

- هل الماركسية نوع من الطبيخ مثل الشركسية مثلا!!

هنا انفجر الاطباء فى الضحك، أوشك مدير المستشفى يضحك لكنه قمع رغبته وزم شفتيه واربد وجه الضابط الكبير وقال:

- واضح أن الدكتور أحمد ترك أثره عليك كثيرا، إذن سنأخذك إليه..

اقترب منها ثلاثة مخبرين. واقترب منه مدير المستشفى وقال..

- لكن يا افندم هنا مكان عمل وهذه سابقة لم تحدث فى أى مستشفى.

صرخ فيه الضابط الطويل القوى..

- لماذا يا حضرة المدير. جامع هذا أم جامعة؟. المستشفى الذى تديره حضرتك وكر للشيوعية والشيوعيين فهل يرضيك هذا؟ أظنه يرضيك!.

- سكت المدير مسقطا فى يده. أحس بقية الأطباء بخطورة الموقف توقفوا صامتين، أما نوال فقد تماسكت حتى لا تقع مغشيا عليها وخرجت مع رجال البوليس، كلما مروا بأحد العنابر، اندفعت الممرضات تبكين، ووقف بعض المرضى يتابعون المشهد فى غيظ وبصق بعضهم فى الفناء، وعلى الأرض، وهتف واحد يسقط الظلم، لكن صوته الواهن لم يساعده فى أن يسمعه أحد، ورجال الأمن جميعا وبينهم نوال كانوا فى فناء المستشفى الآن يصعدون إلى سياراتهم المصفحة الجديدة..

(٥)

من قبل لم تعد تعنينى قصة المغنية، وجدت أنها ستنتهى بسرعة، وشرعت فى كتابة هذا المكان!. لم أكن أدرك أننى سأكون أحد أبطاله. سأنحى الآن المكان وأفرد الصفحات لنفسى. وتقدرون فتضحك الأقدار! هكذا قال المعلم ابو العلاء. وهناك شر كبير فى الدنيا، لكن هناك دائما بصيصا من أمل. لا أذكر من قال ذلك. لعله فولتير فى «كنديد» قال شيئا قريباً منه. إذن هناك دائما إمكانية للتفاؤل. لم تصلنى رسائل أخرى من چين، ولم ترد حتى على بطاقة التهنئة التى أرسلتها مع بداية العام. إما أن رسائلها لا تصل، أو رسالتى لم تصل أيضا.

منذ حطت الاسرة الجديدة فى البيت المقابل وأنا أتحين الفرص لأرى الفتاة الصغيرة. لماذا أفعل ذلك حقا؟ ترددت كثيرا فى أن أحدثها . لماذا أرغب فى الحديث معها ولماذا أتردد؟ إن ريقى يجف، وأشعر وكأن شعر رأسى يقف فى اللحظة التى أفكر فيها فى الحديث معها. فى النهاية نجحت. سقطت عيناى على العنبتين النابتتين فى صدرها وتشجعت!. يا إلهى. كيف حقا لم يحدث أنى انجذبت إلى أى بنت من البنات هنا ولا فى طريقى إلى المدرسة. إننى لأدرك الآن إدراكا صحيحا لا تشوبه شائبة أن عواطفى نحو چين لم تدخل قط منطقة الحب.

كنت مسحورا حقا، لكن بالمعرفة أكثر مما هو بالجمال. چين تمثل الامبراطورية البريطانية وليس ذلك بالقليل أن يقترب منها أحد، فما بالك إذا كان هناك إعجاب لم تسمح له الظروف بالتطور ليكون حبا. لقد وضعتنى الكتب على الطريق المستقيم، وعشت قصص حب أبطالها أكثر مما عشت قصص حبى أنا، كما قالت لى چين مرة، الآن أدرك أن

الطريق المستقيم لا يصنع كاتبا، وإن كنت لا أعرف كيف انحرف!. الخلاصة أن قلبى يدق اليوم فاعطوه الفرصة للطيران. يا سلام. يا لها من لغة شكسبيرية.

– لم أعرف اسمك.

سألتها فابتسمت مندهشة وببراءة قالت.

– سعيدة، ويدللونى بسعدة.

ما الذى رفعنى عن الأرض إلى الفضاء الرحيب. لقد استقبلت اسمها بشفتى وليس بأذنى، ومضغته وابتلعته وأحسست بطعمه شهيا فى فمى، بالضبط كطعم العنب..

كانت تلعب الهولا هوب، وكانت قد توقفت ووجدت نفسي أقول لها أن تعود إلى البيت ولا تلعب فى الشارع بالليل ولدهشتى أطاعتنى وانصرفت، لكنها وهى تعبر البوابة داخلة إلى المساكن التفتت ناحيتى وابتسمت .. هذه إذن ليست صبية فى العاشرة أو حتى الثانية عشرة. انها إلهة يونانية صغيرة ستكبر بيننا وستفتننا جميعا. شعرها الأصفر الملموم كذيل حصان خلف ظهرها سينحل عن الشريط الأخضر ويطير فى كل اتجاه وسنجرى خلفها ولا نلحق بها أبدا، سعدة هذه النحيلة كالقشة المثيرة للبهجة السحرية جاءتنى بالليل، فى المنام طبعا، وأعطتنى كوبا من الكريستال المضئ وعنقود عنب أحمر. قربت الكوب من فمى فامتلأ بعصير العنب الذى فى يدى الأخرى ورحت أشرب والكوب لا يفرغ والعنقود كلما جفت حباته عادت إلى طزاجتها حتى دارت بى الأرض وسقطت وسط الطريق الخالى الذى كان وحده يمتد بين الصحراء ورأيت عيون الناس من السماء تطل علىّ وتضحك والصحراء امتلأت شجراً حتى طلع الصباح فنهضت مشبعا بالسعادة ولم أشأ أن

أقص رؤيتى على أخوتى!!

صعدت إلى السطح فرحان لأراها أمامى كأنها نزلت فى التو من الشمس على حبال الضوء، كأنما استقبل أحد ضوء النهار بمرآة محدبة فصار هذه الفتاة، صارت هى خلاصة هذا الضوء. الضوء. الضوء. وجدتها..

الضوء هو الذى سيساعدنى فى هذه العلاقة الجميلة. علاقة !؟. أمس ظهر عيد المشعور مع المساء. تقدم مباشرة إلى سعدة ينظر فى عينيها. كان الطوق فى وسطها فتوقفت عن اللعب وسقط الطوق حول قدميها وتردد فوق الأرض أكثر من مرة حتى سكن. خافت. هتفتُ من فوق الرصيف «لا تخافى» تقدمت ناحية عيد الذى ابتسم لى وأخذ طريقه إلى البيت. كان مظهره اليوم يدعو للرثاء على غير العادة. بدا كأنما لا أحد يعتنى به. وربما هو الذى يهرب من الآخرين. يظهر فى معظم الأيام قادما من المدينة وفى صحبته واحد أو اثنان من المجاذيب . الآن يزداد عددهم معه. أسرعت سعدة خائفة ودخلت من بوابة المساكن. مضى وقت طويل عدت بعده إلى البيت. رأيتها تقف أمام باب بيتهم. قالت..

- أنت لم تقل لى اسمك.

- سليمان .

لم يبد أنها تأثرت. هل كانت تنتظر أن يكون اسمى حسن أو أحمد أو عمرو أو فتحى مثلا. قلت.

- أبى وأمى أسميانى هكذا.

ابتسمت وقالت.

- سليمان اسم جميل . انه اسم نبى وحكيم..

البنت إذن ليست صغيرة. انها إلهة يونانية حقيقية ستنمو بيننا ولا

أقل من ذلك. لماذا إذن لا يكون ما بيننا بداية لعلاقة. سوف يساعدنى الضوء.! الضفادع تركب الافيال وتضربها بألسنتها والأفيال تبكى بدموع حقيقية تنزل وتمشى فوق أسنانها التى هى من العاج..!

هذه العبارة التى تسربت إلى الكتابة لا تناسب مقام الحب السامى، لكنه سيتركها.أغلق دفتره، وأمسك بمرآة صغيرة كان تركها فوق مكتبه وراح يتأمل صورته فيها..

هو أسمر وأخوته بيض، هو قصير وهم بين بين، لكنه القارئ المثقف بينهم، الشهم القريب دائما من الناس، وسيئ الحظ الذى يشفق عليه الجميع. ظل لسنوات يحلم أن يعثر على مذكرات عمه الذى انقطعت أخباره فى أفريقيا، والذى كان يراسل المجلات الادبية فلا تنشر له شيئا، وترد عليه أن يقتصد من الغموض والصور السحرية. لقد ترك وراءه سيرة مجنونة يحفظها اخوته، وبينهم والد سليمان.

كيف التقى هذا العم بالشاعر فخرى أبو السعود مترجم توماس هاردى، صدفة فى التريانون أيام الحرب. قرأ عليه شيئا من شعره وقصة قصيرة، فقال له فخرى أبو السعود «انت تحتاج إلى بلد آخر يتحمل موهبتك يا سليمان أفندى». كان عمه يحمل اسم سليمان أيضا، وها هو سليمان يحمل اسمه ويحمل أزمته، فهل يمكن أن ينتهى مثله؟! فليؤجل الحديث فى ذلك . هكذا فكر وراح يتذكر عمه الذى ذهب يزور فخرى أبو السعود سعيدا، فها هو شاعر مرموق وناقد ومترجم كبير يفهمه ويدعوه لزيارته. وجد فخرى هناك جالسا فى الحديقة ينتظره لكنه كان منتحرا برصاصة أطلقها على رأسه. فيما بعد عرف عمه من الصحف أن زوجة الشاعر وابنه قتلتهما الغارات الالمانية فى لندن. عاد العم خائفا يرتعد، لم يعد للكتابة بعد ذلك اليوم. هكذا أعلن لأخيه والد

سليمان الصغير الذى يحبه عمه لأنه يحمل اسمه!. ذات صباح خرج فيه العم إلى البحر. عبر ميدان المنشية وترك تمثال اسماعيل باشا خلفه ووقف لحظات فوق سور الكورنيش ثم نزل إلى الصخور التى تفصل السور عن البحر وتمنع عنه نحر الماء. وقف لحظات طويلة فوق الصخور السوداء الضخمة، ثم هوب، القى بنفسه إلى الماء الصاخب.. لم يكن يعرف العوم. انتحر على طريقة اسماعيل أدهم فيلسوف الاسكندرية الذى سبق فخرى أبو السعود فى الانتحار وإن اختلفت الاسباب. لقد عانى اسماعيل ادهم من اكتئاب وجودى غريب، تملّكه من قراءة شوبنهاور وكيركجارد. كتب كتابه «لماذا أنا ملحد» فلم يتحمله الناس. لم يعد العالم ذا معنى بالنسبة إليه فألقى بنفسه إلى البحر الواسع. لكن العم، على غير ما حدث مع اسماعيل أدهم، لم يمت. شخص ما كان يقف بعيدا،أرسلته فيما يبدو العناية الالهية، رآه يضرب بذراعيه الماء بهستيرية فأدرك أنه لا يجيد السباحة، فقفز هو الذى يجيد السباحة وأنقذه. قال العم إن هذا الشخص انما ارسله سوء الحظ وليس العناية الإلهية.. وهكذا لم يدخل سليمان الكاتب، عم سليمان الكاتب أيضا، تاريخ المنتحرين السكندريين. وحين عرف من إحدى المجلات نتحار شاعر شاب جديد هو منير رمزى لم ينشر إلا شذرات قليلة من الشعر المنثور أدرك أن المدينة المجنونة لا تريد ان تعطيه فرصة فى الموت، كما لم يعطه الوطن فرصته فى الحياة، ففر وراء حلم ميت. أفريقيا والامبراطورية المصرية فى أفريقيا. النور فى قلب الظلام!.

ياللا سكندرية. المدينة التى امتلأت بالأجانب والأديان حتى صارت كبرج بابل، ولم تفتح نوافذها لعمه. ها هم الذين فتحت لهم نوافذها وأبوابها يخرجون منها، طوعا أو كرها يخرجون، يتخلون عنها، الوجهاء

منهم من الايطاليين واليونانيين، والصعاليك من القبارصة والأرمن السكارى الضائعين فى بارات الأزقة العفنة حول شارع السبع بنات. المدينة تعود لأصحابها. لا بأس، مع أنها لم تكن يوما للمصريين، أمر بها الاسكندر، وبناها البطالمة وحسدها الرومان وأهملها العرب فأحياها محمد على باشا فتساقط عليها الأجانب من كل سماء. جاءوا مع كل سحابة يرسلها البحر المتوسط. ربما كانوا لصوصا، مع كونهم تجارا وأصحاب حرف وفنون، لكنهم جميعا أحبوا المدينة. الاسكندرية مدينة يحبها الغزاة دائما وتحب غزاتها. الاسكندرية قلب كبير! هذه الأيام يعلوها الكدر. على الأقل هنا. لقد عاد سليمان إلى دفتره بعد أسابيع وكتب.. يبدو أن الحب لا ينمو بسهولة وكأنما الأرض لا تنبت الزهور.. ففى الوقت الذى انشغلتُ فيه بطرائف الأخبار أسجلها ليوم أحتاجها فيه سرى الخبر فى البيوت محملا بالفزع. لقد تم القبض على نوال وعاد خير الدين مريضا وأنا أصابنى العمى ليلة الامتحان !

هأنذا أسترد بصرى آخر يوم فى الامتحان، بالضبط عند خروجى من اللجنة. كل شئ كان مرتبا ضدى. عمى مؤقت لعين لا أعرف من الذى قنفنى به. فى العام الماضى كنت مبصرا ومريضا فعينوا لى شخصاً مبصراً لكنه كتب غير ما أمليته عليه فرسبت. فهل هذا العام، وأنا أعمى، سيكتب من عينوه لى ما أمليته عليه؟ إن رسوبى مضمون تماما. ضاقت نفسى واشتد الضيق بى واستبد بعودة خير الدين من القاهرة مريضا إلى مستشفى الصدر. لماذا جعلوا هذا المستشفى قريبا منا إلى هذا الحد؟.. فلأعد أقرأ بقلبى ما كنت سجلته من الصحف من باب التسلى. اننى أعرف اننى لم أعد أنا! اثنين، واحد مجنون والآخر فى الطريق! اعترف حسنى مورو الذى قتل أمه السيدة عبيدة عوضين

وكيلة الاتحاد النسائى بأنه كان في موقف الدفاع عن النفس فقد هجمت عليه بيد الهون والسكين فانتزعها منها وقتلها فى الوقت الذى تقدمت فيه سيدة يونانية تطلب الطلاق من زوجها الذى اختفى فى شهر العسل منذ ست وعشرين سنة، لقد حكم لها القاضى بالطلاق. للأسف مر خبر هذه السيدة كأنه بالأمر العادى وكان أجدر بالصحف والهيئات النسائية أن تحتفل بها فهي الرمز النادر للوفاء. كان أجدر أن تُمنح لقب بنيلوبى اليونانية فى مصر. الحياة العصرية لم تعد تقف عند كثير من القيم فيما يبدو. وشركة ستوديو نحاس فى الهرم يتم تحويلها إلى أول معهد للسينما تملكه الدولة، كما تم تنفيذ حكم الاعدام شنقا فى السيد أمين محمود المحبوس فى قضية الجاسوسية الكبرى. كان جامد الاعصاب قبل تنفيذ الحكم ورفض أن يطلب شيئا وقال إنه لا يطلب شيئا من أحد إلا من الله الذى هو فوق الجميع. وفى قضية طريفة قالت النيابة لا مسؤولية على الطبيب إذا نسى القطن أو الشاش فى بطن المريض، إنما المسؤولية على رئيسة التمريض اثناء العملية الجراحية وأفرجت بريطانيا عن أرصدة مصر، ورفعت مصر الحراسة عن ممتلكات بريطانيا، لكن لا چين عادت ولا رسائلها تصل، ومضت ستة أشهر على وفاة سيسيل دى ميل الذى مات فى ٢٢ يناير الماضى، واحتفالات الثورة على قدم وساق وتزوجت مسيحية من ثلاثة اشخاص واختفت ليتم ضبطها فى الكنيسة تتزوج من الرابع. قالت إنها اعتنقت الاسلام وطلقت من الأول! وعرض فيلم بين الاطلال فى سينما ريو، وانتشرت فى رسائل العشاق جملة يوسف السباعى المكتوبة أعلى الأفيش «أيتها الشمس لا تغربى حتى تشهدى أن حبى لها خالد كخلودك» ولاتزال الهجرة اليهودية تزداد من أوروبا الشرقية إلى إسرائيل، وأخبار فندق هيلتون النيل الذى افتتح

فى فبراير الماضى كل يوم فى الصحف. حفلاته وعروض الأزياء التى تقام فيه. سبقت افتتاحه ضجة كبيرة، وقيل إن عشرات الفنانين العالميين سيحضرون الافتتاح مع صاحب امبراطورية فنادق هيلتون فى العالم، مستر هيلتون نفسه، لكن الذى حضر الافتتاح عدد قليل أشهرهم چين راسل الجميلة. ولا يزال حديث الصحف عن الممثلة الجديدة «سعاد حسنى» البريئة التى ظهرت فى فيلم حسن ونعيمة. رأيت الفيلم وأحببت صوتها وعينيها وابتسامتها. إنها تفتح للمشاهد أبواب الراحة والعنوبة وستكون ممثلة الزمن القادم. وانتهى نجيب محفوظ من كتابة الفصل رقم «١٤» من قصته الطويلة – هكذا قالت الصحف بدلا من كلمة رواية – أولاد حارتنا. وقال إنه لولا أعباء العمل فى الرقابة السينمائية لأتم الرواية هذا العام، ونشرت مجلة المصور مقالا لأحد القراء يعيب فيه على محفوظ محاولته كتابة تاريخ البشرية من خلال تاريخ الأنبياء، وكان من الكلام الذى قاله إن هذه محاولة عقلية أكثر منها خبرة معايشة للكاتب، وأنها تدخل به فى مناطق محرمة كان يجب ألا يتطرق محفوظ اليها.!

وعرضت السينما فيلم أحدب نوتردام فطلب منى كروان أن نراه معا وقال إنه يبحث عن الرواية ليقرأها، وصحبته معى أيضا لنرى فيلم «ذئاب الميناء» أو «in the water front» لإيليا كازان.

قلت له لابد أن يعرف شيئا عن الثقافة السينمائية وبالذات مدرسة ستوديو الممثل التى أنشأها كازان فى اميركا وتخرج فيها مارلون براندو بطل هذا الفيلم.. وحين غرقت الباخرة دندرة فى النيل أمام القناطر وفوقها مائتا شخص غاص قلبى فى صدرى، وأحسست أن الأيام القادمة لن تكون سهلة. إن غرق هذه السفينة نذير شؤم كونى، لقد

مات أكثر من خمسين شخصا، وأصيب أكثر من خمسين آخرين وامتلأ الشاطئ بالجثث والنحيب وأقيمت جنازة للموتى حضرها آلاف المشيعين فى القاهرة، فى الوقت الذى تم فيه فى كنيسة الاسكندرية ترسيم بطريرك الأقباط الجديد كيرلس السادس الذى سينسى من اليوم اسم الرهبنة مينا المتوحد كما نسى من قبل اسم ما قبل الرهبنة «عازر». لقد سألت نسيم الذى عاد من المعهد الزراعى للأجازة الصيفية عن ذلك فقال إنها عملية معقدة، والحقيقة أننى احسست انه لا يفهم شيئا فيها! لم أستطع مشاهدة فيلم حطمت قيودى أو The defiant ones، كنت مشغولا بالمذاكرة استعدادا للامتحان، لكن جميع الاولاد فى المساكن، وربما فى الاسكندرية كلها ذهبوا ليشاهدوه فى سينما الهمبرا. لم يعد هناك حديث لهم إلا تونى كيرتس الأبيض وسيدنى بواتييه الاسود وأغنية سيدنى بواتييه الأخيرة بعد فشلهما فى الهروب بالقطار. لم أستطع أن أمنع نفسى وتركت المذاكرة وشاهدته فى حفلة التاسعة مساء ولم أستطع النوم تلك الليلة، بالطبع ولا المذاكرة.. فى الصباح التالى قرأت بالصحف عن وفاة استاذ الفلاسفة يوسف كرم - كان استاذ المسرح جورج أبيض قد مات منذ اسبوع - وچين مانسفيلد تخلع ملابسها قطعة قطعة فى مجلس الأمن وأمام كل الأعضاء..!

توقف سليمان عن القراءة، خاصة أن ما بقى لديه من أخبار جمعها لم يتم تنسيقها بعد، وأدرك أن العبارة الأخيرة لم يكتبها من قبل، ولم تكن خبرا من الأخبار، هى من نوع الكلام المرسل الذى يكتبه دون شعور، هذه المرة لم يكن يكتب، لكنها خرجت من بين شفتيه ورآها أمامه تمضى سابحة فى فضاء العشة، بل وتتسلل خارجة من ثقب بين الجدار الصفيح والحائط. بسرعة إمسك بالقلم وراح يكتب خوفا من أن

تستدرجه الخيالات المجنونة. يحن كثيرا هذه الأيام إلى رؤية الولد عيد لا يدرى لماذا. ركّب أمس على السطح مرآة فوق حامل من الخشب تواجه بيت سعدة وتميل بزاوية خمس وأربعين درجة على الطاقة الكبيرة فى سقف صالة البيت التى عادة ما يفتحونها أيام الصيف هذه بالنهار. ليس على سعدة إلا أن تقف على سطح بيتها تعكس بمرآة فى يدها ضوء الشمس على مرآته المائلة التى بدورها تعكس الضوء من طاقة الصالة فتستقبله الأرض فيعرف هو أن سعدة تنتظره قرب السماء ! لن يفطن أحد من أهله أو أخوته إلى هذه الحيلة. لن يفكر أحد فى مصدر هذا الضوء الذى يسقط لحظات من الطاقة إلى الصالة ثم يختفى.. سليمان يحب الضوء.. فوق السطح لن يستطيع أن يكلمها كثيرا هى التى تقف على السطح المقابل، لكنه يستطيع أن يلقى إليها برسائل، ويستقبل رسائلها. «قرأت فى مجلة الكواكب أن الممثل الاميركى ميكى رونى قصير جدا لكنه بالثقة فى النفس تغلب على شكله وأصبح نجما مشهوراً.» قالت ذلك فى رسالتها الأخيرة. من قال لها أني لا أثق فى نفسى؟. إنها تشجعنى على أى حال.. «لقد بدأ أهلى ينتبهون إلى صعودى المتكرر على السطح. سأتوقف بعض الأيام». يا لها من فتاة ذكية . كان قد بدأ يكتب معجباً بها. يمر الآن مجنون الغناء كثيرا، ولا يكاد يمر اسبوع إلا ويمر مجنون العلم، ولايزال عيد يأتى بالمجاذيب ينزل بهم إلى القبو ويعود بعد ذلك وحده. قال تاجر البهار إن عيد يرسلهم فوق الماء إلى الأبدية، وأنهم لن يعودوا أبدا.

آه لو استطعت الجلوس مع عيد وحدثنى عما يرى. ذلك العالم الذى لا يراه غيره، والذى يحتاج إلى ثمن فادح من الإنسان ليدخل فيه. عيد الذى يمشى يتأملنا ويبتسم ويوسع فى عينيه من غبطة مجهولة المصدر.

لو حدثنى عيد لكتبت أخطر رواية لكاتب عربى. لم يفعل ذلك غير دستويفسكى الذى كان الصرع يحمله إلى رؤى غريبة، حتى إنى بعد أن قرأت له رواية الأبله منعت نفسى بصعوبة من القفز من فوق السطح إلى الأرض، ومن القفز من فوق كوبرى كرموز إلى ترعة المحمودية، ومن الوقوف أمام القطارات لتدهسنى ومن خلع ملابسى فى الطرقات!. لقد دعانى عم حمزة، بالليل، والقمر عال فى السماء، والظلمة ليست عميقة، والجو حار، ولا أعرف كيف ولماذا أحسست وهو يصحبنى من بيتنا إلى بيته بأننا نمشى وسط الليل الروسى عميق الظلام، وأننا نركب عربة تمشى وسط الجليد، وأن سائق العربة قاسٍ يضرب الحصان بالسوط بقوة، وأن البيت الذى سنصل إليه هو قصر دراكيولا، والعفاريت تقفز علينا من الفضاء على الأرض، ودخلت معه البيت شحيح الضوء. فى الصالة بنات وبنين نائمون على الأرض وعلى كنبة صغيرة لم أنظر اليهم، فى الغرفة الداخلية جلست على كنبة فى مواجهة السرير النحاس ذى الأعمدة العالية والناموسية البيضاء. سرير قديم قوى ولا أحد خلف الناموسية. الأم جالسة على الأرض جوار الدولاب حزينة أسندت رأسها بيدها. بعد ذلك أشياء كثيرة مبعثرة هنا وهناك لا تهم أحدا.. لكن على الأرض، أمامنا مباشرة ميزت مخلاة كبيرة بيضاء ومتسخة كثيرا.. أيهما أفضل جاليفر أم روبنسون كروزو؟!

– لقد لجأت إليك يا أستاذ سليمان لانك أكثر المتعلمين هنا ثقافة.

– أشكرك يا عم حمزة.

– ما سأقوله لك أرجوك لا تقله لأحد.

اندهشت جدا. قلت.

– لكن الناس كلها تعرف ما حدث لنوال.

- ليس ذلك بالضبط. انظر إلى ما فى هذه المخلاة.

دلق ما فى داخلها فإذا به كتب لا يقل عددها عن خمسة عشر كتابا.

- انظر إلى هذه الكتب وقل لنا الحقيقة..

كانت زوجته لاتزال صامتة تماما، إلا أن عينيها اتسعتا الآن وهى ترانى أقلب الكتب بينما عم حمزة يتكلم بلا توقف..

- لم يقل لى أحد بالمستشفى لماذا قبضوا على نوال. بل كانوا يهربون منى حين يعرفون أني والدها. فى قسم شرطة كرموز لم يفيدونى بشىء، فى المحافظة كذلك، أكثر من شهر الآن أدوَّر فى أقسام البوليس بلا فائدة. هدانى تفكيرى إلى سماع إذاعة اسرائيل رغم ان ذلك ممنوع، وكذلك اذاعة لندن. لقد عملت مع الاجانب اثناء الحرب العالمية الماضية وأعرف دور الإذاعات فى الحروب. وجدت تشويشا كبيرا على اذاعة اسرائيل لكنى استطعت التقاط إذاعة لندن. تتكلم كل يوم عن الشيوعيين الذين قبض عليهم نظام عبد الناصر للمرة الثانية خلال العام، وكيف انهم فى المعتقلات يتم تعذيبهم كالحيوانات الآن. هل لهذه الكتب علاقة بالشيوعية؟.

كنت توقفت عن فحص الكتب التى قرأت عناوينها بسرعة. وقالت الزوجة.

- هل للشيوعية علاقة بالغناء. نوال كانت تغنى للعيانين فى المستشفى هل هذه هى الشيوعية يا أستاذ سليمان؟

وانفجرت الأم فى البكاء وهى تقول.

- أنا مش عارفة ايه الشيوعية دى ومالها بينا.

قلت بهدوء.

- هل جاءوا هنا وفتشوا البيت؟

تردد عم حمزة قليلا ثم قال.

- جاءوا فى الفجر وهددونى لو قلت ذلك لأحد.

- ولم يجدوا هذه الكتب؟

قالت الأم.

- أنا رأيتها من قبل فوق السندرة فحملتها إلى السطح وألقيتها مع الكراكيب. كنت أنوى أخبر نوال بذلك عندما تعود من المستشفى ذلك اليوم. لم تعد ونسيتها أنا فوق السطح ولم أعدها إلى السندرة..

وعادت إلى البكاء بينما قلت أنا بهدوء غير مصدق..

- لقد أنقذت نوال من حبل المشنقة.

- يا لهوى.

صرخت المرأة ولطمت خديها. نهرها حمزة. تأملنى ممتقع الوجه مذعورا. قلت:

- لا تخف. سنحرق الكتب وينتهى الأمر.

فكر عم حمزة قليلا ثم قال.

- لا. لا داعى لحرقها. قد يشم أحد الدخان أو يراه. الأفضل أن نلقى بها فى الترعة.

- سأفعل أنا ذلك. أما نوال فلا أظن أنها ستغيب، ليس هناك أى دليل اتهام ضدها، ولابد أنها ستعود بسرعة.

- لكن أين هى يا أستاذ سليمان، لقد مضى أكثر من شهر؟.

- هذا ما سأعرفه لك بسرعة من صديق صحفى بمكتب جريدة الأخبار هنا فى الأسكندرية. الصحفيون يعرفون كثيرا من الأسرار. المهم لا تخبر أحدا بأمر هذه الكتب..

حملت المخلاة وخرجت. مشيت بالضبط مثل ريفى مطرود من أرضه

فى السهول الروسية الواسعة. رأيت السماء تمطر ثلجا، يرتفع على الأرض جليدا، وكدت اتزحلق بحق، لما اقتربت من المحمودية اندهشت جدا من هذه الرؤى الروسية التى تتلبسنى الليلة حتى أنى رأيت سطح الترعة جليدا متجمدا لذلك لم ألق بالكتب. حملتها إلى البيت.

كيف حقا ألقى أنا الكاتب المثقف بالكتب فى الترعة؟ وأى كتب هذه التى كنت سألقيها؟ إنها الكتب التى غيَّرت تاريخ الإنسانية إن لم تكن أربكته تماما. فى لحظة تملكنى الخوف، لكن عم حمزة يعرف الآن أنى ألقيت بالكتب فى الترعة وهكذا لن يعرف أحد أنها عندى..

ابتعدت كثيرا عن قصتى الشخصية. لا بأس. لم يوجد الكاتب الذى لم تخنه القصة. هل يمكن أن أهمل المجنون الجديد الذى مر بالمنطقة اليوم. لقد ظهر عجوزا محطما يمشى فى الشارع متلفتا حوله فى رعب، يقترب من كل واحد يقابله ويسأله «ممكن سيجارة وينجز خبيبى» يداه ترتعشان وعلى وجهه لاتزال حمرة عزّ زائل. اقترب منه الأولاد وهتفوا مجنون يونانى مجنون يونانى.. انتبه الخواجة بطسو فنى الماكينة الحمراء الأصلع أحمر الوجه الذى نادرا ما يكلمه أحد. مصمص شفتيه وطلب من أحد الصبية أن يشترى له ثلاث بيضات بقرشين صاغ ليتغدى، ودخل إلى الماكينة لم يخرج منها كعادته إلا الساعة الثالثة ليغلق بابها ويعود إلى البيت. أبعد محمود الملاح الأولاد عن المجنون اليونانى. أخذه من يده واقترب به من منزل القبو ليتفرج عليه الجالسون. تأملهم الرجل فى أثماله الرثة وقال «معلهش خبيبى مخالى غلط فى الحساب» كانت هذه أول مرة يرى فيها أحد يونانيا مجنونا. كنا نسينا أنهم بشر مثلنا. كنا نظن أنهم يونانيون!. يعنى ايه غلط فى الحساب؟ تساءل محمود، ومن هو مخالى؟ تساءل تاجر البهار بينما محمود القزعة ينظر

إلى المشهد غير راضٍ، بعد قليل ستحرقه السيجارة التى بين أصبعيه والتى سينساها. قال الرجل. أنا مخالي خبيبى. من خمستاشر سنة كان عمرى ستين سنة. مراتى ماتت وأولادى سابو مصر وأنا أخب مصر. كان عندى بار صغير فى العطارين وعمارة بعت البار والعمارة لواخد يونانى صغير، شاب يعنى، بألف جنيه ومائتين جنيه كمان. قسمت الفلوس كل سنة مائة وعشرين جنيها، يعنى كل شهر عشرة جنيهات. قلت مخالى اللى هو أنا مش ممكن يعيش كمان أكثر من عشر سنين. حطيت الفلوس فى البنك وكل شهر آخد عشرة جنيهات، الفلوس خلصت خبيبى والعشر سنين خلصت كمان خبيبى وراخ الدكان والعمارة وفضلت أنا فقير غلبان مش لاقى حتى ثمن السيجارة أو الكاس، شفت ازاى خبيبى مخالى غلط فى الحساب..

انتهى من قصته ونتر القزعة السيجارة التى أحرقت أصبعيه وتقدم ليعطى مخالى سيجارة وربع جنيه. مشى مخالى سعيدا ناحية كرموز، زيوس كبير الآلهة يبكى على ترعة المحمودية. لا أعرف لماذا تذكرت الديب بعد أن رأيت مخالى، ولا أعرف لماذا كلما تذكرته رأيته أمامى!

من زمان لم يجلس الديب مع أحد منا كباراً أو صغارا، واليوم لم يناديه الأولاد فقط، بل نهضوا يحيطون به ويحاصرونه ويرغمونه على الجلوس معهم فلقد طال اشتياقهم لحكاياته.

تقدمت منه تاركا الجلسة مع تاجر البهار، وتبعنى محمود الملاح الذى نظر إليه الديب وقال..

– هذه القصة لو حولتها إلى فيلم تدفع لى حقى، أنا المؤلف.

ضحكنا جميعا وفوجئنا بتاجر البهار ينضم الينا. المسافة بين السلالم المؤدية للقبو جوار دكانة العنيبسى، وسلالم الماكينة الحمراء لا

تزيد على ثلاثين مترا، لكن لم يحدث من قبل أن انتقل تاجر البهار من الأولى إلى الثانية، كان يعرف أن الديب هو صاحب هذه الجلسة وسيدها، فلزم الصمت .

– كان ممكناً جدا ألا أعود إليكم هذه المرة. أجل. كان ممكناً جدا أن يأكلنى السائق.

– كيف يأكلك السائق.

أخذ الديب نفسا طويلا أخرجه بهدوء ثم راح يحكى..

«سائق القطار هذه المرة لم أشاهد مثله من قبل. طوله يزيد على مترين، تقريبا مترين وربع، طول ذراعه وحدها متر كامل، وطول كفه على الأقل طول قدمه. فى قدمه حذاء تفصيل مقاس خمسين، قال لى إنه أحيانا يسافر مشيا من الاسكندرية إلى القاهرة فيقطع المسافة فى نهار واحد أو ليل واحد. أى نصف يوم. أى والله. هكذا قال. لم أصدق، لكنا كنا نتوقف فى بعض محطات الريف فينزل من القطار يقطف البلح من النخل بيده وهو واقف فوق الأرض. وخلال حركة القطار أراه يمد يده من النافذة يمسك بالطيور السابحة فى الفضاء. كثيرا ما أمسك بصقور قوية باعها فى الطريق فى المدن الكبيرة، طنطا مثلا أو دمنهور أو القاهرة.

راحوا ينظرون فى دهشة كأنما هذه أول مرة يستمعون فيها إلى حكايات الديب. نوع من المسرة الجميلة تنزل عليهم مع الديب رغم أنهم يعرفون أنه مؤلف كبير. هذه المرة كانت وحشتهم أكبر وسرورهم فى غايته. قال محمود الملاح من أين ظهر لك هذا السائق المارد؟ قال الديب لا أعرف. لقد حكى لى قصته، وكيف كان أحد أفراد عصابة أدهم الشرقاوى فى محافظة البحيرة. هل كان أدهم الشرقاوى زعيم عصابة! تساءل مصطفى ساخراً. أجل أجاب الديب. لكن الإذاعة تحكى ملحمته

باعتباره رجلاً وطنياً ضد الإنجليز والإقطاع، تساءل كروان فأجاب الديب، وهل السرقة تمنع ذلك. ثم هل تعرف أنت شيئا عن تاريخ الزعماء والوطنيين؟ ضحكنا واستمر يتحدث. كان أدهم وعصابته يسرقون الباشوات وقطارات البضاعة. ولما تم القبض على أدهم هرب وهذا السائق، اسمه كاسر، الله يكسر دماغه، هرب إلى اسوان، هكذا حكى لى، ومن أسوان نزل عكس النيل إلى السودان. كان معه ثلاثة من العصابة أكلتهم التماسيح. أما هو فكان التمساح يقابله وما يكاد يفتح فكيه حتى يمسك هو كل فك بيد ويفشخه إلى نهايته ويترك التمساح ميتا فى مكانه بعد أن يتلوى فى الماء من الألم. إنه أسود من بلك، فتح بلك عينيه فى غيظ فقال الديب أنا أقصد بلك الشارع ولا أقصدك فتضايق بلك أكثر لكنه سكت واستمر الديب، فى السودان لم يدرك أحد أنه مصرى، واشتغل فى تجارة سن الفيل، كان يحرس قافلة الصيادين الكبيرة. كانوا هم ينصبون الشباك للافيال، ويصوبون إليها الإبر الملوءة بالسائل المخدر، لكنه كان يمسك الفيل من خرطومه بيديه، ويثنى الخرطوم على مهل وبقوة والفيل يصرخ حتى يقع على جانبه فيهجم عليه الصيادون غير مصدقين يذبحونه. يأخذون العاج ويعطون اللحم للزنوج الذين يقابلونهم فى الغابات. لحم الفيل ليس حراما. هكذا قال لى، وإذا وضعته فى الملح عدة أيام ثم طهوته تجده ذا طعم رائع. الفيل يأكلونه فى الهند وباكستان أيضا. هذا كلامه. كان يتوجه بحديثه إلى محمود الذى لم يعد مندهشا وقال المهم. كيف كاد يأكلك؟، لا داعى للتطويل. حاضر يا سى محمود. قال الديب واستمر. كان السائق لا يخاف من الحيوانات إلا النمر. هكذا حدثنى. النمر غدار قد يقفز فوقه فجأة من أعلى الاشجار. الحيوان الذى يواجهه من الأمام مسكين محتومة نهايته

حتى ولو كان الأسد نفسه أو وحيد القرن. لكن الذى حدث أنه لا حيوان من هذه هاجمه. أكل قرد أحمق أصبع قدمه اليمنى الكبير وهو نائم. قضمه قضمة واحدة وأخذه فى فمه وجرى صارخا بينما نهض السائق فزعا يقفز فى الهواء من الألم. وقف القرد بعيدا يمضغ فى الأصبع والدم ينثال من شدقيه ويتأمل ضاحكا السائق الذى تهاوى أخيرا على الأرض هامدا، ثم سمع القرد يقول له «هذا جزاء الظالمين. هذا جزاء الظالمين» ويدخل فى الأدغال الكثيفة.

عاد السائق إلى مصر بعد ذلك وهو على يقين أن القرد كان بنى آدم ممن فتك بهم مع أدهم الشرقاوى، ظل يتابعه حتى عثر عليه هناك فى الأدغال. تلبسته روح القرد لينتقم، وبعدها لم يعد يظهر إلا فى المنام. كل ليلة يظهر له ويضحك ويقول له هذا جزاء الظالمين ولم يعد السائق يرى قرودا حقيقية فى الغابات. لقد اعتبر ما حدث جزاء أفعاله، وأحضر سكينا قطع بها أصبع قدمه اليسرى الكبير أيضا وتماسك حتى كوى بالنار مكان الجرح ثم أغمى عليه بعض الوقت. هكذا عاد الاتزان إلى جسده وصار يمشى فلا تشعر أنه فقد شيئا من أصابعه.

– هكذا انتهت القصة ؟

– لقد خرجنا بالقطار أنا وهو والعطشجى، كنا فى طريقنا إلى أسوان. سفر طويل. فى عودتنا وجدته وحده. أين العطشجى؟ سألته فقال انه تركنا فجأة بلا سبب. فى الطريق قفزت فوق العربات حتى وصلت إلى القطار ولمحته من أعلى يلقى بالفحم إلى النار بنفسه، ثم يجلس ليستريح ويأكل من فخذ من اللحم شواه على نار القطار. لقد تعلم أكل البنى آدم من الغابات. هذا ما لم يقله لى ورأيته. ما كدنا نصل إلى القاهرة حتى قررت أنه هكذا يكون أكل العطشجى كله، فنزلت

وهربت وأتيت وحدى فى قطار عادى للركاب.. لقد بدأت أكره عملى ولا أظن أنى سأستمر فيه.

صمت وصمتنا لحظات طويلة حتى قال مصطفى بتأمل وصوت خفيف..

- الله يكون فى عون ربنا على الشعب..

ارتبك الديب الذى جرت العادة أن يقول هو ذلك. تلعثم ولم يجد شيئا يقوله وانطلقنا نضحك بينما انصرف هو يقول عالم «ولاد ديك كلب بصحيح».

توقف سليمان عن الكتابة. لم يعرف أنه فى لحظات الصمت الطويلة التى أعقبت حديث الديب قال تاجر البهار لنفسه هذا رجل فيه من أسرار العطارة الكثير، أما محمود الملاح فقد قرر أن يترك الاسكندرية نهائيا فلم يعد له مكان فى حضرة هذا المؤلف العجيب.

فى هذا الاسبوع أعلنت مديرية الصحة أن عدد المواليد من المواطنين حتى هذا الشهر ستمائة وخمسون بينهم ثلاثون طفلا أجنبيا وعدد الموتى مائة وخمسون بينهم عشرة من الأجانب، ثلاثة من الجالية اليونانية، واثنان من الايطالية، وأرمنى، وقبرصى، ويهودى من العشرين الذين لم يتركوا الاسكندرية، ويوغسلافى وسويسرى، وبلغ عدد المهاجرين فى النصف الأول من هذا العام من الاسكندرية خمسة آلاف، ومقدار من تبقى من الأجانب الآن خمسة وأربعون ألفا كما أعلنت الغرفة التجارية أن عدد الشركات والمؤسسات التى تم تمصيرها منذ بداية هذا العام بلغ فى الاسكندرية وحدها مائة شركة ومؤسسة وبنكا، وعدد المحلات والورش الأجنبية التى آلت للمصريين فى الاسكندرية بالبيع بلغت ثلاثمائة وأن عدد الرحلات البحرية التى أقلت الأجانب من المحطة البحرية إلى موانى البحر المتوسط بلغ خمساً وعشرين رحلة حتى نهاية يوليو بواقع رحلة كل أسبوع.

(٦)

نادية وإبراهيم مرسى كانا أكثر المهتمين بمرض خير الدين. تباعدت لقاءاتهما فى الأشهر الأخيرة، فى بعض الاحيان كادت تفتر تماما، لكن لا نادية استطاعت أن تسلو إبراهيم ولا هو استطاع. قال لها إنه بعد أن يدور العام الأول فى عمله فى كفر الزيات يستطيع الانتقال إلى الاسكندرية، ساعتها سيخطبها ولن يقف أمامه عائق. بدورها كانت تشعر أن هناك ما يعوقه فى أسرته، رغم أنه لا يعارضها، لكن الأمل لم يهرب منها. ما الذى فى إبراهيم يجعلها تتمسك به هكذا؟ ربما لأنه الحب الأول، هى خفقة القلب الأولى ولا سبب آخر. لذا لا تصدق الكذب الذى فى عينيه وهو يقول إنه سيخطبها! وأن أحدا لا يمانع من أهله. إبراهيم يحبها وهى تعرف وحتى الآن لم توجد الفتاة التى تصدق أن من يحبها سوف يعجز عن الفوز بها فى النهاية! ما ينقص إبراهيم هو أن يسكت ولا يتحدث عن المرضى وذوى العاهات، لقد ابتعد كثيرا عن ذلك، منذ اليوم الذى أغمى عليها فيه، أما بعد الزواج فلن تسمح له بالكلام إلا عما هو بهيج. قال لها من فوق السطح:

– لابد أن نلتقى فى مكان آخر.

– أنا أيضاً أفكر فى ذلك. سيأتى ناس كثيرون من المساكن يزورون خيرالدين وقد يروننا فى الحديقة. الأفضل أن نتوقف حتى يشفى خير الدين.

– لكنى أحتاج أن أقابلك، لقد وجدت مكانا آخر غير بعيد.

– أين ؟.

– شارع المدرسة التليانية. الشارع الصغير بين المدرسة وسور مدافن عامود السوارى.

- يا لهوى يا ابراهيم، من المرض إلى الموت!

- السور عال ولن نرى المقابر، انه شارع هادئ جدا لا يمشى فيه أحد، لا بالليل ولا بالنهار، فقط بعض الأحياء.

سكتت. وقال هو.

- نلتقى مرة واحدة، إذا لم يعجبك الشارع توقفنا عن اللقاء.

- ومتى نلتقى.

- غدا الجمعة. سأنتظرك أمام المدرسة التليانية الساعة العاشرة صباحا.

إبراهيم مرسى لا يعرف أن تجار المخدرات من جبل ناعسة وسوق عوداية بكرموز، وشارع الرحمة وجبل الطوبجية ومنطقة الغاطس بكوم الشقافة، يلتقون فى هذا الشارع يتبادلون البضائع. تجار القطاعى أحيانا يظهرون فيه يبيعون لعدد من الزبائن فى مواعيد محددة وبسرعة فائقة، كما أن صبيان التجار يجعلون الشارع طريقهم إلى مينا البصل حيث عمال مصانع حلج وكبس القطن والدخان ومخازن الميناء. أحمد حجازى، الولد الفاشل فى المساكن، الذى يتحاشاه الكبار قبل الصغار، والمتخصص فى سرقة القطارات القديمة فى ورش منطقة الزيتون، كان قد نقل نشاطه إلى تجارة المخدرات. كان ينقل شيئا منها من جبل ناعسة بكرموز إلى بعض التجار بشارع الرحمة. لقد رأى ابراهيم ونادية فى ذلك الوقت من الضحى، ومع المساء، كان كل حى فى المساكن قد عرف القصة وكل بيت أيضا!!

شوهد إبراهيم يخرج من البيت مسرعا. رآه الجميع يكاد يهرول فى طريقه على المحمودية ناحية كرموز. قال الأولاد إنه «طفش» وقال الكبار إنه لن يعود إلا بعد أن تهدأ الزوبعة. تجمع الرجال فى الجامع الصغير ساعة صلاة المغرب قبل أن تقع كارثة بين العائلتين.. سلاّم والد نادية

جلس صامتا. سألوه أن يتكلم فلم ينطق. وهل ينطق أبو البنت؟. أجمع الرجال على أن ما قيل إشاعة غير صحيحة وراءها إبليس من المساكن، فإبراهيم ولد جاد ومسؤول ونادية بنت مؤدبة خجولة كالقطة المغمضة. فاجأهم والد ابراهيم قائلا..

- يا جماعة ابراهيم بالكاد انتهى من دبلوم التجارة واشتغل فى كفر الزيات، ورغم ذلك استطيع أن أبيع القيراطين اللذين أملكهما فى البلد وأزوِّج بها ابراهيم لنادية اليوم قبل الغد، بل اننى أخطبها له أمامكم من والدها وأقطع كل الالسنة.

اغتبط الرجال. ونظروا إلى سلاَّم الذى قال:

- لا عليك يا مرسى، الأمر كله كما قال الرجال مجرد اشاعة.

كان يكذب. لقد ضرب ابنه سلامة نادية حتى أشرفت على الموت فاعترفت. كان الرجال يعرفون أنه يكذب، فهو رجل صعيدى لا يريد أن يزوج ابنته من ولد فلاح، كما أنه لا يزوج ابنته على هذا النحو من الفضيحة!

لم تمض لحظات حتى نهض سلاَّم تاركا المجلس كله، بينما ظهرت الحيرة على والد ابراهيم، الذى بدوره مطَّ شفتيه وهز رأسه يائسا ونهض. أدرك الجميع أنه منذ الآن لن يستطيع أحد منهم التدخل فى الأمر، وعليهم جميعا انتظار الخطوة القادمة التى ستكون من عائلة سلام بالتأكيد....

بالليل قال مرسى لزوجته..

- لابد أن نترك المساكن ونرحل.

- نرحل لأن ولدنا أحب بنت الجيران؟ يرحلوا هم..

- من زمان أشعر بأن حظى قليل فى الاسكندرية..

- اين هى اسكندرية؟ اننا حتى لم نرها. مشوار أو اثنين للانفوشى خلال

عشرين سنة. ياريتنا شفنا اسكندرية أو عرفناها، لم يكن جرى ما جرى..

سكت طويلا. فكر الرجل أنه لأمر مدهش حقا أن يفكر فى الرحيل، لكنه كان يشعر برغبة عميقة فى مغادرة الاسكندرية والعودة إلى قريته سمنود. من زمان يريد أن يقول لزوجته إنه يشعر بدنو الأجل، وأنه يريد أن يموت بين أهله، ويدفن جوار أمه وأبيه. قال:

– لقد قلت لإبراهيم ألا يعود قبل أن تبرد المسألة، من الصباح سأتقدم بطلب نقل إلى سمنود. سيقولون جباناً. موافق. المهم أن تستعدى للرحيل..

فى ذلك الوقت من الليل كان سلامة، أخو نادية، يجلس وحده على شاطئ ترعة المحمودية مختارا أكثر نقطة مظلمة، مخفياً تحت قميصه خنجرا كان قد شحذه كثيرا طول النهار. لقد ظل سلامة كثيرا ينتظر ابراهيم بعد ذلك، وكلما رآه الخواجة بَطْسو يشحذ الخنجر بالنهار مصمص شفتيه دهشة حتى ناداه وقال له «أنت عايز تقتل واحد حب أختك يا سلامة . أنت أكيد واحد حمار، الحب يا حبيبى مش حرام، أحسن لك تمسك إبراهيم تخليه يتجوز أختك، يعنى إيه هو فلاح وأنت صعيدى؟ . أنا بنتى تحب واحد أرمنى. بعدين فلاح صعيدى كله مصرى، أنت سلامة رجعى وأبوك متخلف ومصر مش ممكن تتقدم بسببك أنت وأبوك سلامة، حاجة نيلة!!

استطاع مرسى أن ينهى اجراءات نقله فى أسبوع واحد. رآه الناس محنى الظهر مهدل الاكتاف وهو ينقل مع العمال «عزال» بيته على العربة الكارو الكبيرة التى يجرها حصان. صافح الرجال كاظماً حزنا حقيقيا. رأى النهار حوله أبيض، لم يكن يدرك ذلك من قبل حقا.. أما أم ابراهيم فقد خرجت إلى العربة دون أن تصافح أحدا من النساء. ما كادت العربة تتحرك حتى أمرت الحوذى أن يقف. كيف حقا يرحلون هكذا كمن لحق

بهم عار لا يمحى.. نزلت من العربة. إلى أين أنت ذاهبة يا أم ابراهيم؟. تساءل مرسى فلم تجبه. كانت النساء تقفن أمام أبواب البيوت غير مصدقات ما يحدث. ارتمت فى أحضانهن واحدة واحدة، البعيدات من النساء تركن بيوتهن وأقبلن بسرعة يقبِّلن المرأة التى عاشت بينهن عشرين عاما لم يسمع لها أحد صوتاً!. فجأة تغير كل شئ. امتلأ الفضاء خارج البوابة بالنساء والرجال يودعون مرسى وزوجته وأطفاله. عائلة واحدة لم يخرج منها أحد، عائلة سلام، وكان سلامة واقفا بعيدا على شاطئ الترعة يفكر كيف سيخرج أحشاء ابراهيم بخنجر فى أول لقاء بينهما.

كان لابد للقاء أن ينتهى، وللعربة أن تبتعد، والناس بدأت تعود إلى بيوتها مندهشة من أحوال الدنيا، وتاجر البهار الذى كان يجلس فى مكانه قال لمحمود الملاح هذا وداع يليق بالزعماء، انتم ناس طيبون جدا.. ومحمود الملاح كان شاردا بذهنه يفكر فى أن لحظة سفره إلى القاهرة يجرب حظه مرة جديدة قد حانت. لن يفكر فى الاخراج السينمائى بعد اليوم. هذه المهمة ليست منذورة له، سيرضى بأى عمل.. قال لتاجر البهار.

– غدا سوف أرحل أنا أيضا إلى القاهرة ولن أعود.

ضحك تاجر البهار وقال.

– ما أكثر ما قلت ذلك ثم نراك بيننا.

– هذه المرة أتكلم جادا، لقد زهقت من الفراغ والجرى وراء النساء. عمرى يقرب من الثلاثين يا فلفل، لابد من نهاية لهذا العبث.

– هل وجدت فرصة فى الإخراج؟

– دعك من هذا العبث يا فلفل. أنا أدركت الحقيقة. الإخراج علم وفن

كبير. سأبدأ كومبارساً من قهوة «بعرة» وبعدها يقضى الله بما يكون.

سكت تاجر البهار قليلا، بدا متأثرا بحق، كان محمود القزعة يتناول إفطاره متأخرا كالعادة، فول وفلافل وبصل وطماطم على منضدة خشبية وضعها له عماله على السلالم وجلس أمامها على مقعد قديم، وبين الحين والحين يرفع عينيه يتابع النساء. قال تاجر البهار.

– عارف ياسى محمود، الإنسان غلبان جدا لما تشوفه ياكل، انظر إلى أى انسان وهو يأكل تشعر أنه مسكين جدا، خاصة لو كان جائعا، تراه يستحق الشفقة. أى والله.

ابتسم محمود لأنه يعرف أنه يقصد محمود القزعة، لكنه حين تأمل القزعة وجد ما يقوله تاجر البهار صحيحاً. بدا له القزعة أكثر الناس مَسْكنة واستحقاقا للشفقة. قال تاجر البهار.

– أنا أيضا فكرت فى شئ مجنون، أن اترك مصر كلها إلى الهند.

– الهند. وماذا تفعل هناك؟ الهند أكثر من خمسمائة مليون شخص فهل تحتاج إليك؟

– أنا لن أذهب للعمل. لا. أحتاج دروسا فى العطارة.

– نعم!

– دروسا فى الروح ياسى محمود. زهقت من جسمى. أنا لو رحت الهند ورجعت، سأرجع مشيا، سآخذ طريق التوابل البرى، من الهند إلى إيران إلى العراق إلى الشام إلى فلسطين إلى مصر، وبعد عودتى سيعرف الناس كيف تخلّصت من جسمى.

بدا محمود مرتبكا جدا وغير قادر على الفهم واستمر تاجر البهار يتكلم..

– سأجلس هناك وحياتك على شاطئ المحيط الهندى وأمسك سكينا

اقطع به قطعا من جسدى وأرميها للقطط والكلاب..

وقف محمود غير قادر على فهم هذا الرجل العجيب. أحس بالأسف لأنه سيتركه بعد أن قضى معه أياما مجنونة وراء النساء. لم يترك فرصة لذكرياته تتداعى. لايريد أن يضعف. رأى نادية سلاّم تمشى بسرعة فى الطريق، بجلبابها والملاءة السوداء سقطت عن رأسها إلى كتفيها وكادت تسقط إلى الأرض لولا أنها تتشبث فيها بيدها. كانت مرتبكة حتى انها وضعت فى قدميها شبشب زنوبة من الشباشب التى ظهرت بعد الوحدة مع سوريا فى سوق المنشية. كان يبدو أنها لم تعتنِ بنفسها، لم يكن فى يدها غير «بوك» صغير، وكانت تحاول أن تسوى شعرها بيدها وهى تمشى بسرعة لا تلتفت إلى أحد. كان قد رأى سلامة يمشى وراء العربة التى نقلت عائلة مرسى وأثاثها منذ قليل. طيب سلامة لديه حلم أن يقتل ابراهيم فإلى أين تذهب نادية. هل ستطفش؟ هل يمكن أن تفعل هذا بنت بالمساكن؟. الدنيا تتغير بسرعة يا محمود.. لكن نادية ذهبت إلى كوم الشقافة.

جلست نادية فى ظل شجرة سدر عتيقة بين أشجار الكافور والكازورين قريب منها أقارب المرضى ينتظرون موعد الزيارة يتفرقون على المقاعد الخشبية والنجيل. نادية تثبت عينيها على نوافذ المستشفى تتأمل الوجوه المريضة من بعيد..

لماذا جاءت نادية الآن إلى المكان الذى لم تحبه؟. هل فكرت أنها قد تجد ابراهيم جالسا فيه؟. هل جاءت تنظر إلى ذلك المريض البعيد الذى كان دائما ينظر إليها؟. لا تعرف نادية إلا أنها وجدت الطريق مفتوحا إلى الخروج من البيت فانطلقت فى عزمها ألا تعود.

لم تفكر أين تذهب. المهم أن تخرج من السجن الذى تنتظر عقابها

فيه. بعد أن عبرت المحمودية بالمعدية فكرت أن تذهب تبحث عن ابراهيم فى كفر الزيات.

كانت وهى تنطلق خارجة قد التقطت «البوك» الصغير على أمل أن به نقوداً فإذا بها لا تجد به غير خمسة قروش.. لتلتقط أنفاسها فى الطريق وتفكر ماذا تفعل.. حين بدأ الناس ينهضون من الحديقة فى إتجاه باب المستشفى تذكرت خير الدين. لماذا حقا لا تزور خير الدين وتتحدث قليلا معه. هو مريض مشرف على الموت كما يقولون، وهى تنتظر القتل كما يبدو من سلوك أهلها.. نهضت من فورها وعبرت باب المستشفى. سألت عن الغرفة التى بها خير الدين ووصلت إليها. وقفت بالباب لا تصدق. خير الدين ممدَّد فوق السرير تحت البطانية والملاءة البيضاء مثل عود القصب، تبرز يداه مثل عودى الكبريت تمسكان بالجورنال. كان بالغرفة مريض آخر حوله عدد كبير من الفلاحين، نساء ورجال وأطفال، بينما لم يكن أحد مع خير الدين.

– غير معقول! نادية!

نهض واعتدل جالسا فوق السرير. وضع الجورنال على الكوميدينو المجاور. أشار إلى كرسى قريب سحبته وقربته من سريره وجلست قريبا من وجهه. الآن فقط، فى هذه اللحظة فكرت أن تلتقط العدوى مباشرة من خير الدين. يا لها من طريقة جميلة للموت. لقد انطلق لحسن حظها خير الدين فى سعال طويل كاد فيه يختنق، فاقتربت منه تسقيه ماء، لكنه كان يضع المنديل يستقبل به ما يطرده صدره. لم يبدُ أبدا أنها ارتبكت. والعجيب أن أحدا من زوار المريض الآخر لم يهتم. أخذ خير الدين نفسا طويلا وقال.

– آسف يا نادية.

- ربنا معاك يا خير الدين.
- لكن كيف غامرت بالخروج؟
- أنت تعرف القصة؟.
- ومن لا يعرفها يا نادية. ثم كيف خرجت بهذه الثياب؟ انت طفشانة؟
سكتت وتركت دموعها تنزل على خديها. ثم قالت..
- هل تزورك الچونى يا خير الدين؟
- زارتنى مرة. أنا طلبت منها أن تمتنع عن زيارتى حتى أشفى، أهلى يزوروننى. أنا خائف على الچونى يا نادية. أنت أيضا لا تقتربى منى كثيرا، قولى لى ما هى أخبار نوال؟
- لا أحد يعرف..
- مسكينة. من كان يعرف أنه فى المساكن ستخرج بنت تشتغل فى السياسة.
- هل تصدق ذلك يا خير الدين؟
- أنا لم أعد فاهما لأى شئ، حتى سليمان رسب للعام الثانى بسبب العمى المؤقت العجيب الذى أصابه.
- ليس لأى بنت فينا ذنب فيما جرى لها، إنها مصائب تنزل علينا دون سبب مفهوم..
- لا تيأسى يا نادية، ابراهيم مصيره يرجع ويخطبك.
- المشكلة فى أهلى..
- أهلك مصيرهم إلى اللين، المهم أن تصمدى ولا تنهارى.
سكتا لحظات ثم قالت.
- قل لى يا خير الدين.. أنت متعلم. هل هناك شى اسمه الحب؟
ابتسم وقال..

– طبعا يا نادية، لن أقول لك قيس ولا ليلى، أنت نفسك، ما الذى وصل بك إلى هذه النهاية؟ أليس هو الحب؟

– يعنى كل حب لازم ينتهى إلى مصيبة يا خير الدين؟

تأملها يهز رأسه بأسف.

– أبداً يا نادية. الحب عادة ينتهى نهاية سعيدة، لكن الناس لا تتذكر إلا النهايات الغريبة والشاذة.

فكرت قليلا وهزت رأسها كمن أدركت صحة الكلام ثم قالت.

– أنا عارفة أن الچونى، هى التى لا تزورك. أمها منعتها، لكن أرجوك أن تسامحها يا خير الدين..

تنهد وقال.

– طول عمرى أحب الچونى حب أفلاطونى، حب روحى، إذن كيف لا أسامحها؟ ثم أننى اتمنى لها السعادة حتى مع غيرى، أنا عمرى قصير فى الدنيا يا نادية..

عادت دموعها إلى النزول إلى خديها.

– بعد الشر عنك يا خير الدين، إن شاء الله تعيش مائة سنة. من يعرف، ربما تعيش مثل سيدنا نوح ألف سنة..

ابتسم وقال.

– أنا عارف كل شئ عن نفسى يا نادية، مرضى وراثى لا حل له، وتهدج صوته قليلا، لا يؤرقنى غير أخوتى الصغار. اخوتى الثلاثة الأصغر منى جاءوا إلى الحياة مثلى ليكبروا وقبل أن يفرحوا يصيبهم المرض اللعين ويموتون. أنا لم أكن أعرف، لكنهم يعرفون الآن ويرون أخاهم فى طريقه إلى الموت. انه عذاب فظيع يا نادية.

– قالت غير قادرة على أن توقف دموعها.

- لكن ربنا له تصاريف أخرى يا خير الدين.

وبدأ الموجودون فى الحجرة ينتبهون إلى حالتهما وبدأت بعض النساء تتأثرن وتنتحبن.

- ليت أبى وأمى لم ينجبا أحدا من الأبناء.

ازداد نحيب النساء الفلاحات وعلا صوتهن وأدرك خير الدين الموقف فراح يضحك محاولا التخفيف منه وقال.

- لكن لم تخبرينى هل كنت طفشانة؟

- لا أعرف يا خير الدين، وجدت الطريق مفتوحا فهربت.

- ولم تفكرى فى أى شئ ستفعلين؟

- لا. على الاطلاق.

ازداد ضحكه فبدأت تضحك بين دهشة الزوار المنتحبين.

- هكذا تزيدين المشكلة يا نادية.

- ماداموا سيقتلوننى يتساوى كل شئ..

- هل سيقتلونك فعلا؟ أهلك صعايدة لكن لا أظن. لابد أن الاسكندرية غيرت فى طباعهم. اقتربى من أمك. أمك تستطيع أن تنقذك. ابكى بين يديها وعلى صدرها. أمك هى ملاذك يا نادية..

- سمعت انهم سيزوجوننى إلى مخبر قريب لأبى أكبر منى بعشرين سنة وسبق له الزواج.

ضحك خير الدين وقال..

- ما دام مخبر تزوجيه فورا.

اندهشت وتأملته فقال.

- أجل. تعطيه سيجارة فيسكت ويتركك تفعلين ما تشائين.

ضحكت معه وطال ضحكهما الذى ارتفع وراح يسعل وقالت.

- لم تتغير يا خير الدين.

قال.

- الدنيا حلوة يا نادية. لازم نعيشها لآخر لحظة، لن نعود إليها مرة أخرى، ولا نعرف ماذا سيحدث لنا فى الآخرة. لازم نضحك.

قامت وصافحته وخرجت وهو يقول لها.

- لا تخافى يا نادية. لن يجبروك على شئ لا تحبينه.

ما كادت تغادر باب الحجرة حتى عادت بغتة وبسرعة انحنت على خير الدين وقبلته على خده. صار مندهشا جداً إلا أنه أحس بطعم قبلتها منعشا، لقد جرى الدم فى عروقه، ولمع البرق فى عينيه.

ثبتً عينيه مبتهجاً على عينيها ثم اشار اليها أن تقترب بوجهها منه. اقتربت فهمس فى أذنها..

- لا يمكن لأحد أن يقتل هذا الجمال الربانى، الدنيا نفسها تزعل منه. هيا عودى إلى البيت وسأراك قريبا هناك.

ابتسمت نادية وأحست أن موجة من الفرح تحملها وتطير بها فى الفضاء الأبيض الوسيع وخرجت عائدة بخطى واسعة وتصميم وعزم ولم تلتفت إلى قلبها الذى يدق بقوة..

(٧)

دق باب العشة رجل طويل يرتدى بدلة من الكتّان الرمادى. رجل فى حوالى الخمسين من العمر هادئ الملامح أسمر البشرة حين خرج حمزة يقابله اكتشف إنه قصير جدا بالنسبة إليه حتى إنه نظر إليه من أسفل وهو يقول..

- أنا حمزة، ومستعد لكل شئ..

ابتسم الرجل وقال فى نبرة وادعة.

- طيب اسمح لى أولاً بالدخول يا رجل.

دعاه حمزة إلى الدخول غير مصدق. ليس من المعقول أن يكون هذا الرجل قادما من رئاسة الجمهورية!!

بسرعة قطع الرجل الصالة ووقف فى الغرفة الداخلية. كانت كابية رغم الضوء. قال حمزة لزوجته التى وقفت مذعورة فى أحد الأركان.

- اصنعى لنا شايا يا امرأة..

دعا الرجل إلى الجلوس على الكنبة جواره.

- طبعا تريد أن تعرف من أنا ولماذا أنا هنا، ألم ترسل خطابا إلى السيد الرئيس؟

- أرسلت.

أجاب حمزة بشجاعة استمدها من الطريقة التى يتحدث بها الرجل، والهدوء الذى على وجهه.

- والرئيس يا سيد حمزة رد عليك..

- إذن سأتسلم ابنتى.

- ستتسلمها.

- اليوم؟

- بعد قليل.

كانت الأم تقف بالباب تسمع الحوار فاندفعت داخله تقبل يد الرجل الذى سحب يده بسرعة مستغفرا الله بينما تماسك حمزة الذى يغالب دموعه وقال.

- أنا كنت أعرف أن الرئيس عبد الناصر لن يخذلنى.

قال الرجل باسما.

- هيا إذن غير ثيابك بسرعة وتعال معى.

وقف حمزة ينظر حواليه. قال مرتبكا.

- ليس عندى غير هذا الجلباب الذى أرتديه.

كان يرتدى جلبابا أبيض وطاقية بيضاء قطيفة.

- إذن هيا بنا، وسنشرب الشاى فيما بعد..

خرجا والزوجة لا تصدق، لكن نوعا من الطمأنينة والسلام تركهما الزائر الغريب هذا خلفه. أوشكت الأم أن تطلق زغرودة لكنها جلست تبكى فى صمت ..

كان حمزة يخب فى الطريق يكاد يرمح حتى أن الرجل الطويل جدا بالنسبة إليه لم يكن قادرا على اللحاق به. كان يتأمله ويبتسم. عند كوبرى كرموز أوقف حمزة تاكسيا وسأل الرجل.

- إلى أين؟

- إلى أمن الدولة. دعنى أنا أرشد السائق.

لم يكن مع حمزة إلا جنيه واحد حتى آخر الشهر، لكن لا بأس أن يأخذ تاكسيا ليصل بسرعة إلى ابنته. قلبه انقبض وهو يسمع كلمة أمن الدولة، ثم عاد واطمأن.

لابد أنهم سينفذون ما يقوله الرئيس عبد الناصر لهم، والرجل قال انه سيعود بنوال.

همس الرجل فى أذن السائق بالعنوان فبان الذعر على وجهه، لكن ماذا يفعل. كان حمزة يعرف الطريق من كرموز إلى محطة مصر ثم الطريق إلى الشلالات، لكن بعد ذلك دخل التاكسى فى شوارع ضيقة جميلة وارفة الأشجار فلم يعرف أين هو بالضبط. والأضواء التى كانت

فى الشوارع بدأت تقل حتى وجد نفسه ينزل من التاكسى فى شارع شبه مظلم، لكن رائحة الأشجار الجميلة تنتشر فوقه وحوله، وأمام مبنى من ثلاثة طوابق، هو فى الحقيقة أحد القصور القديمة قبل الثورة، كان يقف عدد من الجنود شاكى السلاح، وعلى البعد عدد من السيارات اللامعة. المبنى المنخفض الجميل حوله حديقة صغيرة بها مصابيح تدور مع سورها وتضئ المبنى من الخارج، لكن المبنى نفسه من الداخل يبدو شحيح الضوء.

- لا تخف. اتبعنى.

مشى الرجل، ومشى حمزة خلفه. بدأ يرتبك ويتعثر وإن أعجبه للحظة أن أحدا لا يوقف الرجل الذى صعد به إلى الدور الثانى، ومن ثم لم يوقفه هو أيضا. فى صالة يجلس بها خمسة أفراد فى صمت رهيب أشار الرجل إلى حمزة أن يجلس ثم دلف من باب لا يكاد يظهر لم يغب خلفه أكثر من دقيقة ثم عاد ينحنى هامسا فى أذن حمزة.

- لا تذكر شيئا مما قلته لك.

ثم أشار إليه أن يدخل بعد أن فتح الباب الخفى. تردد حمزة للحظة. دخل ليصبح الباب خلفه وليجد نفسه وحده فى مواجهة غرفة واسعة طويلة فى آخرها يجلس رجل مهيب، إلى مكتب فخيم. كان الرجل مشغولا فى كتابة شئ ما لكنه أشار إلى حمزة أن يتقدم. حين وصل إليه وقف الرجل الطويل جدا، وصافح حمزة بقوة. لقد أحس حمزة بيده كأنما صُنعت من فولاذ. أشار إليه الرجل أن يجلس أمامه فجلس. كان الرجل الفولاذى الطويل قد خلع جاكت البدلة وظل بالقميص اللينوه الفاخر والحمّالة اللامعة والكرافتة الأكثر لمعانا. أخرج علبة سجائر كنت أميركية قدم واحدة منها إلى حمزة الذى اعتذر عنها قائلا «آسف. ماباغيرش» وأخرج علبة سجائره

«الجولدن ويست» فلم يتمالك الرجل نفسه وابتسم مندهشا، لكنه لم يتردد في إشعال سيجارة حمزة بولاّعته الذهبية.

– هيه، قل لى يا سيد حمزة، لماذا أرسلت خطابا إلى السيد الرئيس؟

ارتبك حمزة، تذكر ما قاله له الرجل الوديع فتشجع.

– يا فندم ما المسؤول بأعلم من السائل.

– صحيح. عندك حق. لكن لا أحد هنا يعرف شيئا عن ابنتك..

بدأ حمزة يرتبك أكثر، بل لقد اهتز بالمقعد، لكنه سرعان ما تماسك وأطفأ السيجارة فى المنفضة التى أمامه وقال..

– طيب ما دمتم لا تعرفون شيئا عن ابنتى اسمح لى أعود إلى البيت.

ووقف يهم بالانصراف فبان غيظ شديد على وجه الرجل الفولاذى ثم صرخ فيه.

– إجلس مكانك يا روح أمك. هل تعرف ماذا فعلت يا رجل يا تافه أنت؟ أزعجت رئيس البلاد من أجل بنتك التافهة الشرموطة.

كان الرجل الفولاذى قد وقف، وارتفع صوته فدخل عدد من المخبرين من أبواب لم يرها حمزة، بل لم يرهم وهم يدخلون، انشقت عنهم أرض الغرفة. وجد حمزة نفسه يقف مرعوبا يكاد يتلاشى.

صرخ الرجل الفولاذى وهو يشير إلى المخبرين أن يظلوا بعيدا..

– تريد ابنتك؟ ليس قبل أن تقول لى من نصحك بإرسال خطاب للرئيس، ومن هم الشيوعيون الذين يعملون فى السكة الحديد، والشيوعيون الذين يعيشون فى المساكن.

ضاعت صورة الرجل الوديع الذى صحب حمزة إلى هنا من ذهنه. ضاع كل شئ يربطه بالحياة. أدرك أنه فى محنة حقيقية. غريق يضرب بذراعيه فى بحر متلاطم. لكنه تكلم بصوت لا يكاد يخرج من فمه.

– يا سعادة البيه الناس فى المساكن غلابة وربما لا يعرفون حتى الآن أن الانجليز خرجوا من البلاد..

هنا كاد الضابط يضحك. حقا لقد كاد جسمه يهتز، لكنه تماسك وتحدث وإن بصراخ أقل بعد لحظات من الدهشة والصمت..

– وحياة امك؟. طيب. الآن سترى ماذا سنفعل بابنتك أمامك..

فتح باب ظهرت منه نوال ممسوكة بيدى اثنين من المخبرين فى حالة إعياء تام. تقدمت نحو أبيها لكنها سقطت على الأرض وجرى هو إلى قدمى الرجل الفولاذى.

– أبوس رجلك كله إلا بنتى. اقتلنى أنا ؟؟.

أمسكه الرجل من ياقته من عند قفاه وكاد يحمله عن الأرض.

– قل لى من نصحك بإرسال الخطاب.

كانت نوال قد استطاعت الوقوف فى ركن من الغرفة الواسعة.

– لا أحد، والله العظيم لا أحد غير غبائى..

بدا لحمزة أن الموقف لن ينتهى ابدا، لكن الرجل الفولاذى أشار لرجاله على نحو مفاجئ.

– خذوا أولاد القحبة ارموهم فى الشارع..

هكذا انتهى كل شئ. وفى التاكسى الذى استقله حمزة مع نوال كانت ذراعه حول كتفيها بينما نامت على صدره.

ترك هو دموعه تنزل على وجهه بغزارة، والسائق الذى كان يراهما فى المرآة بدا مندهشا جدا يهز رأسه فى استغراب وتأثر، أوشك يسأل حمزة عما به لكنه فكر أن يحترم الموقف بالصمت الجليل..

فى البيت كانت الأم قد استعدت لاستقبال نوال بذبح دجاجة وشراء زجاجة كوكاكولا من دكانة العنيبسى لتقدمها لها مع الأكل. حول الطبلية

عادت دموع حمزة تنزل وهو يتأمل ابنته التى تأكل فى حزن لا مثيل له. ثقيل كأنه جبل.

تكلمت نوال لأول مرة..

– لاتبك يا أبى..

تأملها مليا وقال..

– انت سليمة يا نوال؟

– سليمة مائة فى المائة.

اضطربت الام وقالت.

– هل كان ممكن أن...؟

سكتوا جميعا للحظات ثم قال حمزة.

– دول كلاب ممكن يعملوا أى شئ.. لكن ربنا لطف.

ثم خاطب نوال..

– انسى يا بنتى كل شئ والتفتى إلى عملك.

هزت رأسها فى أسف. لم ترد للحظات. ثم قالت..

– كيف أنسى يا أبى..؟

– ضربوكى يا نوال..

– صفعة أو صفعتين. لكن الضرب كان فى الغرف حولى طول النهار والليل. أصوات التعذيب لم تنقطع لا بالنهار ولا بالليل. تخيلت أنهم لم يتركوا شخصا فى الاسكندرية إلا ضربوه. تمنيت الموت لأنى فى كل لحظة كنت خائفة يعذبونى..

عاد حمزة وقال..

– حمدا لله على سلامتك يا بنتى.. إنسى ما مضى.

قالت أمها فى أسف..

- سامحينا يا نوال. لقد ألقينا الكتب التى وضعتيها فوق السندرة فى ترعة المحمودية. لقد جاءوا وفتشوا البيت ولحسن الحظ كنت نقلتها إلى السطح.

هزت نوال رأسها فى أسف ثم قالت..

- رغم أنى لا أعرف الانجليزية لكنى اتمنى الآن لو قرأت هذه الكتب التى تسببت فى هذا كله.

ثم فجأة ابتسمت وسألت أباها..

- لكن هل صحيح أنت أرسلت برقية للرئيس؟.

تراجع إلى الخلف فى زهو وقال..

- أرسلت خطابا كاملا..

- من الذى كتبه لك؟.

-أنا. بخطى. لكن الفكرة كانت فكرة سليمان عبد الباسط. قلت للرئيس من حمزة بن عبد الله إلى جمال عبد الناصر رئيس البلاد. أعرفكم أنه تم القبض على ابنتى الحكيمة نوال من قسم العمليات بالمستشفى الأميرى بالاسكندرية بتهمة الشيوعية التى لا نعرفها. ابنتى لا تعرف إلا الغناء لأن صوتها جميل، وهى تغنى للمرضى فى المستشفى، وأنا رجل عامل دريسه فى السكة الحديد لكنى علَّمت ابنتى فهل يكون جزائى أن تقبضوا عليها وبدلا من أن تزف إلى عريس تزف إلى السجن - وضحكت نوال وارتفع صوتها وضحك أخواتها حولها وبانت السعادة على الوجوه واستمر حمزة - وهل هذا جزائى أنا الذى تطوعت أيام العدوان الثلاثى فى الحرس الوطنى لأفدى الوطن بروحى. اننى لا أشكو لأحد بعد الله إلا لك وأنا على ثقة أن عذاب الله شديد لكل من ظلمنى وظلم ابنتى وحياتها وحياتى الآن بين يديك والسلام..

انطلق يضحك ملء شدقيه، وارتفعت أصواتهم، وقالت الأم «أبوكى طول عمره زكى ونبيه» ثم أطلقت زغرودة عالية تقاطر بعدها السكان من البيوت جميعها يهنئون نوال بسلامة العودة، حتى الدجاج ارتفع نقيقه فى العشش وارتفعت أصوات الماعز والغنم وأذّن أكثر من ديك والليل بعد لم ينتصف.

كان عدد من الاولاد لايزالون فى الشارع. دخلوا إلى المساكن متجهين إلى بيت عم حمزة ليروا نوال التى كان مقبوضا عليها بسبب السياسة!! وصل الخبر إلى بيت سليمان فذهب بسرعة ليهنئها. الوحيد الذى ظل فى مكانه هو حبشى ومعه بدرة ومراكبى غريب يحتسون الشاى. خرج حبشى ووقف على الشاطئ يستطلع وعرف من الاولاد أن نوال التى كان مقبوضا عليها عادت. نظر إلى المساكن الرابضة فى الظلام وهز رأسه دهشة. من يصدق أنه فى هذا المكان النائم على بعضه تقع كل هذه الأحداث. عاد إلى زوجته والضيف. كان عدد من الأولاد لايزال جالسا يغالب النوم، وعدد آخر نائما. لم يعد حبشى يعرف أبناءه من صلبه من اللقطاء.. لاحظ أن بصر بدرة لاينزل عن وجه المراكبى. لم تكن هذه أول مرة يتردد هذا المراكبى عليهم.

لم يدرك حبشى منذ اللقاء الأول وحتى الليلة أن شيئا ما سيحدثه هذا المراكبى فى حياته. وبالطبع لم يفكر أبدا أن الليلة ستنتهى القصة التى بدأت ولم يدر. لقد سأله حبشى.

– هل ستغيب المركب كثيرا فى كفر عشرى؟

أجاب المراكبى.

– حمولتنا قليلة من القمح. سنفرغها بسرعة ونعود. لن نحمل شيئا من الاسكندرية. ربما نحمل بضاعة من القاهرة إلى قنا.

سكت حبشى وراح يسحب أنفاسا هادئة من «الجوزة». صار معتادا أن يأتى هذا الرجل مع «الصندل» مرة كل ثلاثة أشهر. فى كل مرة يحمل إليه شيئا من حمولة الصندل. قصب. قمح. بصل. عسل. قطن، وغير ذلك مما تحمله بدرة وتبيعه إلى العنيبسى أو السيد خليل باستثناء القطن الذى يحمله حبشى إلى محل قطن فى كرموز. دعاه حبشى إلى شرب الشاى أول مرة منذ حوالى العام، وكانت المراكب قد اضطرت للانتظار كثيرا فى المحمودية لزيادتها المفاجئة، كان الصندل الذى يعمل عليه هذا المراكبى يقف أمام كشك حبشى مباشرة. الرجل أسمر مستدير الوجه صغير العينين بشكل لافت بحيث تتخيله ضعيف النظر من كثرة ما يرف أهدابه، على رأسه عمة كبيرة، لكنه دائما نظيف حليق اللحية ترك شاربا صغيرا خفيفا لا يكاد يبين.. للرجل صدر عريض وذراعان قويتان وجلبابه الصوف نظيف على غير عادة المراكبية فوق المحمودية ومن فتحة جلبابه يظهر على صدره صديرى أبيض نظيف، وفى قدميه حذاء لامع، أسود، وليس حافيا كمعظم المراكبية!

سأله حبشى حين التقى به أول مرة..

– هل أتيت إلى الاسكندرية من قبل؟

– هذه أول رحلة لى.

– الصندل ملكك؟

– ملكنا نحن جماعة من أولاد العم..

– مبروك .

– يبارك فيك لكن قل لى، هل تعيش هنا دائما ؟

– طبعا. أين نذهب يا ابن العم!؟

كان الجو شتويا، وحبشى قد وضع بينهم «قصعة» بها فحم مشتعل،

لاحظ أن الرجل بين الحين والحين يمد يده يسوى قطع الفحم المشتعل جوار بعضها بأصابعه! أو يضغط عليها عميقا داخل النار دون أن تصاب أصابعه بحروق من أى نوع، أو يبدو عليه أنه يتألم.. بل كان يتكلم مع حبشى وهو يفعل ذلك. ولاحظ حبشى أن بدره تتأمله بدهشة طول الوقت، وبعد أن غادر الرجل الكشك رأى حبشى بدرة تنتفض.

- مالك يا امرأة؟
- جسمى يا حبشى ماسكة فيه الكهربا..
- ثلاثة بالله العظيم انت مرة لبوة!

لكن بدرة كانت بالفعل تشعر بنار تسرى فى جسدها، نار تتردد كتيار كهربى من قدمها إلى رأسها تكاد تهزها كلها وتحرقها. لقد احمر وجهها بشكل غريب، وتمددت فوق الأرض وقالت «غطينى يا حبشى». غطاها بكل الاغطية الممكنة لكنها لم تكف عن الارتعاش حتى راحت فى نوم عميق..

لأيام وبدرة ذاهلة بعد ذلك. الصندل بعد أن أفرغ حمولته عند كفر عشرى عاد من أمام الكشك، ووقف حبشى يرسل تحيته بذراعه إلى الرجل الذى كان بدوره يحييه من فوق الصندل. رأى حبشى بدره تقف جواره حزينة مذهولة وهى تتأمل الرجل السابح مع الصندل فوق الماء. عافت بدرة الطعام بعد ذلك حتى أوشكت تموت. لكنها أكلت وعادت اليها عافيتها شيئا فشيئا. بعد ثلاثة أشهر عاد الصندل والرجل وسهر مع حبشى وبدرة التى جرى الدم فى وجهها وانطلقت منه البهجة. حكى لهم الرجل كيف تخرج للنوتية بالليل عرائس النيل بين البلاد ترقص على حواف الصندل وأحيانا تغنى بصوت جميل آسر غير مفهوم. وكيف ينزل وراءها بعض المراكبية إلى الماء فلا يعودون! فى كل رحلة «تنده» عرائس

البحر واحداً أو اثنين من النوتية. للعرائس دائما جسم السمكة ووجوه البنات الصغيرات اللاتى كن يُلقى بهن قديما ليفيض النيل وهن بعد عذارى لم يمسسهن بشر ولا جان.. وكيف حين يكون الريح شماليا يعاكس نزول المراكب من الجنوب، تخرج عرائس النيل خلف الصندل تدفعه برؤوسها فيزول خوف المراكبية وينطلقون فى الغناء والهتاف بالمواويل وأكثرهم يبكى حين تنصرف بنات النيل ويغبن فى الماء بعد أن تعتدل الريح. كلما اقترب المركب من المدن قلت العرائس يا حبشى. انها تخشى المدن وزحام الناس. النيل أسرار ياحبشى. تعرف طبعا قصة عمرو بن العاص لما فتح مصر مع النيل حين وجد المصريون يلقون إليه كل عام بفتاة جميلة ليفيض على البلاد. تعرف القصة أم لا يا عربى؟ أنا والله لا أعرف القصة يا ربانى. أنا اتعلم منك! تسمينى بالربانى يا حبشى؟ والله أنا أراك تمسك بالنار يا سيدنا! انت مبروك. اسمع يا حبشى القصة العجيبة. لقد تحير عمرو بن العاص فأرسل إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، هناك فى المدينة المنورة يطلب منه المشورة. عمر كان «واعر!». أرسل ورقة إلى عمرو وقال له أن يلقى بها فى النيل. الورقة كان فيها الآتى يا حبشى. من عمر بن الخطاب إلى نيل مصر. إذا كنت تجرى من عندك فلا تجر، وإذا كنت تجرى من عند الله فأهلا ومرحبا.. من يومها يجرى النيل دون بنات. تعرف لو لم يرسل إليه عمر بن الخطاب بالرسالة كان الماء امتلأ بالعرائس ولم يكن هناك مكان للسفن تمشى على الماء... يا سلام يا ربانى. حكايتك تسلب العقل، يعنى لولا الورقة دى يمكن ما كان تفضل فى بر مصر بنت بنوت. لكن رحمة ربك كبيرة. ونظر حبشى إلى بدرة وقال ضاحكا؟ ليته ما أرسل الورقة عمر بن الخطاب كنا ارتحنا من بدرة! ضحكوا، قال الربانى، تعرف أن

الناس فى قنا يسموننى أيضا بالربانى. حسبت انك تعرف لكنك قلت لى سببا لم يخطر ببالى. الناس فى قنا يسموننى بالربانى لأنى أول ما اشتغلت كان على غليون كبير، للسياحة، ويمكن أيضا لأنى يوم ولدت ولد جاموس البلد كله، العُشر وغير العُشر.. وكان اعجاب بدره بالرجل يزداد. حبشى يرى ذلك فى عينيها فى كل زيارة للرجل. ويراه فى الشحوب الذى يعتورها بعد رحيله وحتى يعود ليتحدث عن اللصوص الذين يهاجمون الصندل بالليل على طول النيل. وكيف أنه تقريبا لا ينام منذ خروجه من قنا حتى عودته، وبدرة كلما غاب الرجل قل اقبالها على الطعام وزاد على الماء من كثرة النار التى فى صدرها. تقول أنا لا أعرف ماذا جرى لى يا حبشى. يخيل إلى أنى سأشرب الترعة والبحر، وحبشى يأخذ الماء بالمجان من دكانة العنيبسى، ومنذ أيام ذهب يملأ «چركن» فمنعة العنيبسى وطالبه بدفع جنيه كامل. كيف يا رجل، لقد تعودت تعطينى الماء بالمجان، أجل، لكنك الآن تستهلك أكثر من چركن فى اليوم الواحد ولم تكن تفعل ذلك من قبل، وسعر المياه ارتفع، وجنيه ليس كثيراً عليك. يا رجل يا عنيبسى أنا طول عمرى أسرق لك بلاليص العسل وأبيعها لك برخص التراب، وحزم القصب وأجولة البصل والعدس والفول وحتى فول السودانى وغيره ولا تكرمنى فى الماء الذى خلقه الله للناس جميعا. صرخ فيه العنيبسى. أنا أسامحك فى صفيحة، لكنك تستهلك أكثر من ستين صفيحة فى الشهر؟ ماذا تفعل؟ ارحم شبابك وزوجتك؟ ضحك حبشى وأدرك سر غيظ الرجل. قال. يا رجل يا عجوز أنا استحم مع زوجتى فى الترعة بالليل. نحن نستعمل الماء فى الشرب فقط. تشرب صفيحتين وثلاثا فى اليوم؟ أنا لا أشرب حتى زجاجة ولكنها بدره يا عنيبسى. بدرة! أنت تستغفلنى. والله العظيم بدرة يا عنيبسى السبب،

العفريت الذى ركبها عطشان لا يرتوى فماذا أفعل أنا يا عنيبسى؟.

عفريت هو الذى يركبها يا حبشى أم أنت لا تعطى نفسك راحة؟ غريب أمرك يا هنيبسى يا ابن ديك الكلب، طيب ما نتبى أنا إذا كان انت لا تركب ويتاعك نشف وصار مثل جلدة الحنفية. امشى يا حبشى يا بن الكلب. الله يسامحك، بس سيبنى أخد ميًه الولية حتموت. خد ولا تربنى وجهك. وظهر الربانى هذه المرة كما يظهر كل مرة فعادت الروح إلى بدرة وتفتحت بشرتها وازدهرت عيناها.

هذه الليلة، حدثهما الربانى عن مصر الواسعة الكبيرة، فهو كل ليلة، والمركب نازل من الصعيد إلى بحرى، يصعد أعلى الصارى فيرى جنة الله لا تنتهى على الجانبين. والهواء فوق الصارى له طعم ماء زمزم، وحين ينزل من فوق الصارى، تكون الشمس صاعدة فى الدنيا، فيتعجب من هذه الجنة الهادئة كيف تتحول إلى جحيم يتقاتل فيه ابناء آدم بالنهار. هذه المرة أمضى الربانى معهم ثلاث جلسات عبر ثلاث ليالٍ وهذا شئ لم يفعله من قبل. تألقت بدره حتى كادت تنفجر من الابتهاج!، كل ليلة لاتنزل عينيها عن الربانى، وحينما خرج حبشى يستطلع أمر الصياح والجلبة التى يسمعها فى المساكن وعرف من الاولاد بعودة نوال، عاد هو إلى الكشك فوجد الربانى يمد يديه يمسح بهما دموعا فى عينى بدرة. لم يشعر بغيرة من أى نوع، فالرجل مبروك، لكنه اندهش من بكاء بدرة. بعد أن انصرف الربانى إلى سفينته سأل بدرة عن سبب بكائها فدخلت فى حضنه واخذته اليها بشدة. ما الذى جرى يا امرأة؟ إخلعى إذن ملابسك! لا، أنا لا أريد ذلك، لا تبتعد عنى الليلة يا حبشى، اتركنى فى حضنك حتى الصباح. وفى الصباح نهض حبشى على بكاء الأطفال. لماذا تبكون؟ أين بذرة؟ انهم ينادونها باسمها مثله تماما. خرج مسرعا

فلم يجدها على الشاطئ. ولم يجد الصندل ولا الربانى. سمع صوت أحد أبنائه يقول له، لقد باستتنى فى الفجر وقالت لى سأعود بسرعة يا طرزان. كان حبشى فى غاية الضيق يقول بصوت غير مسموع «بنت ديك الكلب».

تذكر الليلة كلها، الليالى التى أمضاها الربانى المجهول هذا معهم، حين عاد بالليل ليراه يمسح عن بدرة دموعها. كيف حقاً نسى اختفاء زوجته السابقة. كيف اطمأن للأيام والسنين؟. ثم، ثم من الذى نظم هذه الدنيا على هذا النحو العجيب؟ عادت نوال بالليل وغابت بدرة فى الصباح. يا رب، ياقادر لماذا يكون على حبشى من دون الناس أن يدفع ثمن الغياب. حبشى الذى جعل من قلبه للقطاء، ابنائك،مأوى ومسكنا.. وترك حبشى الطريق مفتوحا لدموعه الساخنة المريرة. لقد استيقظ الأطفال جميعا ووقفوا أمامه واجمين، فلم يميز اللقطاء من غيرهم، بل بدوا جميعا أمامه لقطاء حقيقيين.

(٨)

وجدت أبلة نرجس نفسها وحدها. دون اتفاق لم تحضر الچونى ولا نادية سلاَّم ولا حسنة ولا نوال. هل لأن الاسكندرية دخلت فى الخريف انكمش الجميع؟ أجمل السهرات كانت فى الخريف دائما والشتاء. ذلك الدفء الذى لا يعوض من الصحبة والألفة والاحاديث البريئة. هو طائر الحزن الذى حط على البنات..

انفرد كروان بركن من الغرفة يذاكر دروسه. لا يزعجه صوت ماكينة الخياطة. لقد تعود عليه بينما نام أبوه متعباً. عاد اليوم من رحلة عمل

طويلة فى الصحراء الغربية.

توقفت أبلة نرجس عن الخياطة، شرعت فى زخرفة قطعة من الثياب بخيط ملون. وضعت أكثر من «كستبان» فى أصابعها التى راحت تتحرك بالابرة والخيط بخفة لافتة للنظر حتى أن كروان كان يرفع رأسه عن المذاكرة بين لحظة وأخرى يتأمل هذه الأصابع المدربة. توقف عن القراءة ثم شرع يكتب ويفكر..

– عندك واجب كثير يا كروان؟

تساءلت أبلة نرجس فأجاب.

– لا. أنا فقط اكتب خطابا لخير الدين.

سكتت. اسم خير الدين مثير للشجن فى كل البيوت. لقد خرج من المستشفى بعد فترة طويلة هذه المرة؛ لكن احدا لم يصدق. صار واضحا أن خطبته للچونى لن تستمر طويلا، ويتمنى له الجميع النجاة وطول العمر.

– هل طلب منك أن تراسله؟

– أبدا. لكنى أحببت ذلك.

– مسكين خير الدين يعيش وحيدا فى القاهرة، لابد أنه سيفرح كثيرا بخطابك.

لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر بين لحظة وأخرى إلى ابنها معجبة حتى قالت..

– حدثنى يا كروان عن القصص التى أراك تقرؤها كثيرا هذه الأيام. هل تحب القصص إلى هذا الحد؟

– أحبها جدا. فى المدرسة يخصصون لنا حصتين فى الأسبوع للمطالعة الحرة فى المكتبة. اكتشفت بالمكتبة قصصاً جميلة، واشتركت

فى جماعة الموسيقى.

- الموسيقى؟!. لم تقل لى. ماذا تعزف؟

- ناى.

فتحت أبلة نرجس عينيها إلى غايتهما سعادة ودهشة واستمر هو فى الكلام.

- فى العام الماضى، وأنا فى سنة أولى، قرأت قصة جميلة للأطفال اسمها «الصياد التائه». قصة ولد صغير تاه فى الصحراء فى رحلة صيد وراح أهله يبحثون عنه. جلست أبكى لانهم تعبوا فى البحث عنه ولم يجدوه. سألنى المدرس عن سبب بكائى فأخبرته فسألنى أى صياد هذا الذى تاه وتبكى من أجله؟ قلت له هذا الذى فى الكتاب، اندهش وضحك ثم قال إنهم سيجدونه فى النهاية، المهم أن أصل إلى نهاية القصة، ثم أن ما حدث ليس حقيقة انما هو خيال فليس هناك فى الحقيقة صياد تاه. كنت أنا أحسب أن القصص التى أقرؤها حقيقية. أى والله. كنت أنسى نفسى واندمج فيها تماما.

وضحك وابتسمت وهى تتأمله بإعجاب ممزوج بالدهشة والسعادة معا. لقد أخذت الكتب كروان من الشارع وهذا يكفى، ومن يدرى ربما تصنع منه الكتب شخصا عظيما.. لكن كروان كان قد بدأ يتثاءب فقام وانحنى يقبلها على رأسها ودخل لينام لتبقى هى وحدها ويوغل المكان فى الصمت أكثر.

أبلة نرجس لا تشعل الراديو حين تكون وحدها، هى فى الحقيقة لا تهتم به كثيرا، ولولا حضور البنات وحبهن للأغانى لنسيت أبلة نرجس أمر الراديو تماما.. البنات هن اللاتى يجرين وراء الموسيقى، ويشغفن

بالاغنيات. هى تحب الصمت، ولو استطاعت لنشرته فى العالم. فقط تهفو نفسها من زمان إلى سيجارة تدخنها وحدها رغم أنها لم تفعل ذلك من قبل قط، ولا كان أبوها أو أحد من أخوتها مدخنا، كذلك زوجها لا يطيق التدخين. انها حقا تندهش من هذه الرغبة العجيبة حتى أنها تغمض عينيها لحظات تتخيل فيها أنها تأخذ نفسا طويلا من سيجارة وهمية وتنفث دخانا أبيض كثيفا مشوبا بالزرقة الهادئة فى الفضاء النسيم!. انها تنهض الآن واقفة وسط الصمت والفراغ ونسمة الخريف السكندرية الطرية المنذرة بالشتاء تدفعها دفعا إلى النوم الجميل. النوم على سرير من الزئبق، أو فوق بحيرة من القطيفة، يحملها ويهدهدها. يفتح طريق أحلام الطفولة. يا إلهى. ما هى هذه الرغبة العابثة فى أن تصعد إلى السطح.. السطح وحدها الآن والليل يكاد ينتصف؟ السطح يا نرجس؟!. أجل. السطح الذى فوقه الليل الساجى والسماء ذات ملايين العيون!. إنها حتى لم تفعل ذلك بالنهار، ربما مرة أو مرتين خلال العام. الآن تشعر بأنها رغبة جسدها كله وروحها معاً. ماذا يحدث لو رآك أحد يا نرجس؟. لا يهم.. هذا جنون!. أعرف، ولو! وكانت تصعد السلم الخشبى الموجود فى العشة الخارجية والذى يُفضى إلى فتحة تسلم إلى السطح مباشرة. هناك رجال يحبون بالليل أن يصعدوا إلى السطح ويدخنوا سجائرهم تحت السماء. لا فائدة فى الكلام، لقد بدأت تصعد السلم بالفعل! والرجال هنا ينامون مبكرين من التعب، شئ ما يساعدها على الصعود ويدفعها من أسفل، انها تشعر به يرفع عجيزتها لكنها لا تدرك ملمسه بالضبط!.

قمر كبير فى السماء هذه الليلة.. كيف حقا لم تر القمر كثيرا من

فوق الأرض. يا ألله! كأننا وسط النهار من الضوء. لكنه ضوء حان، والسطح ممتد أمامها طويلا عريضا مثل طريق خال مهجور. المساكن صفوف متعامدة ومتوازية تصنع بينها شوارع ضيقة. كل صف عشرة بيوت. كلها ستون بيتا وبيت. لا تعرف فى أى صف يوجد البيت الأخير. كل سطح يمتد فوق البيوت العشرة بلا حواجز. السطح مغسول بمطر سحرى سقط ولم يشعر به أحد. السطح بارد ومنعش. هى حافية والبرد المنعش يصعد من قدميها إلى فخذيها وينزل من أعلى وجهها وعنقها إلى صدرها وبطنها . البرد المنعش يسرى فى عظامها. انتشاء فائق يكاد يحملها عن أرض السطح. تترك المحمودية خلفها وتتجه إلى نهاية السطح المطلة على السكك الحديدية. على المساحة الواسعة من القضبان والقطارات التى تسلم إلى الميناء وإلى الأرصفة وإلى ورش منطقة الزيتون. كل ذلك سمعته ولم تره. يا إلهى. أكثر من عشرين سنة وهى تسكن هنا ولم يسبق لها رؤية هذا المشهد المهيب. اتساع غامض، فضاء أسود إلا من مصابيح متباعدة على الأعمدة والسيمافورات، أرض أشد سوادا لكنها تلمع تحت ضوء القمر. أرض مغطاة بالمازوت. قضبان تمتد إلى مالا نهاية، تتشابك وتنحنى وتتباعد. قطارات متوقفة وعربات بضاعة متناثرة وسيمافورات تلمع ألوان أذرعها البيضاء والقناديل الحمراء فوقها. أين الرجل الذى يشعل القناديل. ذلك الذى استمعت إلى قصته العام الماضى. كانت ليلة منعشة كليلتها هذه، صعد هو القناديلجى الذى لا يعمل إلا بالليل، بعد أن اشعل القنديل لم ينزل من فوق السيمافور. لمس خده سطح القنديل وهو ينزل فاستراح إلى برودته وسرى الانتعاش إلى جسمه كله فاحتضن السيمافور، ثم صعد وجلس فوقه رافضا

العودة مرة أخرى إلى الأرض. وجدوه معلقا فى الصباح. تركوه فلم ينزل حتى اليوم الثالث فصعدوا إليه قبل أن يموت من الجوع والعطش. ظل رافضا الكلام بعد ذلك مع الناس . وبعده فعل ذلك أكثر من قناديلجى حتى بات الناس لا يندهشون اذا رأوا فى الصباح أحدهم جالسا فوق السيمافور.. ماذا دهى الرجال ليفعلوا ذلك؟. سمعت صوت عربات بضاعة يدفعها قطار على مهل. إنه قطار طويل يتقدم فى بطء صوته ثقيل يمشى فى اتجاه الأرصفة ويتلوى مع القضبان التى تنحنى كدودة بحجم الدنيا. يقولون إن الديب يحرس هذه القطارات بالليل والنهار.. كروان يحدثها ويحدث البنات كثيرا عن حكايات الديب. إن ما يحكيه قليل بالنسبة لرجل يعيش معلقا فى الفضاء ويرمح به القطار فى أنحاء الدنيا. هؤلاء التعساء الذين ينامون تحتها الآن، بمن فيهم زوجها، هم الذين يمدّون هذه القضبان لتجرى فوقها القطارات مع الرياح إلى انحاء العالم. القطارات تجرى بالبضائع ليزداد العمران فى الدنيا ولا أحد يعرف أن القضبان انشأها رجال كالفئران تخرج من جحورها كل يوم فى الصباح لتعود فى المساء ولا تخرج إلا فى الصباح التالى. السور الطويل الأبيض الذى لا ينتهى بعيدا أمامها هو الذى يفصل منطقة السكك الحديدية عن بحيرة مريوط. يقول كروان إن المحافظة تبنى جسرا الآن وسط البحيرة يربط منطقة محرم بك بمنطقة القبارى. جسر كبير يدور خلف الاسكندرية يذهب كروان والاولاد يجلسون فوقه فى الاجازات يصطادون السمك. دنيا يا نرجس لا آخر لها. هذا هو البلوك الأصفر اللون الذى ينظم حركة مرور القطارات فوق القضبان، هو

المضاء أمامها الآن، ولابد أن بداخله عبد الباسط والد سليمان أو الرجل الأسود الجديد الذى نزل بالمساكن الذى اسمه غريب.. رجل واحد فى البلوك وسط هذا الليل والفضاء الواسع والصمت الراسخ. إنه أهم رجل فى الكون الآن. كل شئ فوق القضبان يخضع ليديه.. يالقوة الرجال الذين لا يخافون الليل ولا الوحشة ولا الفراغ.. لكنها أيضا قوية وإلا ما خرجت الآن وحدها إلى السطح.. هذا العالم الكبير الصامت هو الذى تفرقت فيه البنات، وستتفرق فيه الباقيات، وهى دائما لن تترك غرفتها، ربما بعد ثلاثين سنة تطويها الأرض، وربما بعد خمسين إذا عمّرت، والمؤكد أنه بعد مائة سنة لن يوجد أحد ممن تعرفهم على وجه الأرض.. يا الله! كيف حقا تصبح الدنيا خالية من الناس؟ اهتز جسمها للحظة وسرعان ما أدركت أن الدنيا سيملؤها كروان وأصحابه وأنها لن تفرغ أبدا من الناس. من كان يصدق أنها هى ابنة حى محرم بك والرصافة وجرين وشارع منشه تحبس نفسها فى هذا المكان الضيق. من شوارع نظيفة واسعة ترشها عربات البلدية كل ليلة ولا تنقطع فيها الإضاءة طول العام، وبيوت كبيرة ذات شرفات عالية وأشجار على جانبى الشوارع، من هذا كله إلى بيوت تتزاحم بالشجار وأزقة قصيرة جدا متربة بينها. من روائح الكافور والياسمين والتمرحنة فى الشوارع وعلى واجهات الفلل والبيوت إلى روائح الطير والحيوان والرجال المتعبين. من البنات الجريئات اللاتى يتسللن مع الأصيل إلى حديقة الشلالات وكازينو الشجرة والسيدات المتأنقات اللاتى يتجمعن فى الحفلة الصباحية لسينما محرم بك إلى سيدات ذاهلات عن الدنيا لا يرين فيها شيئا أبعد من

أزواجهن وأطفالهن، وبنات مكسورات الجناح، يرين الدنيا وهن جالسات لا يتعرفن إليها، ومن تفكر فى الخروج إلى الدنيا تقابلها بالقسوة. إنه سوء الحظ ترفرف رايته فوق البنات.. لكنهن اللاتى يؤنسن وحشتها، كن ومازلن، رغم اختفاء من بقى منهن فى بعض الليالى، ولا شك أنها ستسمح للبنات الأصغر أن يأتين إليها يتعلمن الخياطة على يديها، ويشغلن لياليها كالسابقات، والدنيا لن تتوقف. لكنها الليلة تريد أن ترى حكمت وعينيها المراوغتين، وشوقية ابنتها وضحكتها التى هربت منها فى الفراغ الحزين. كما تشتاق إلى بدرية الحمراء كالدجاجة التى دونها الآن صحراء وراء صحراء كما تتوق أن تخرج مشيرة من سجن حزنها على خطيبها، ونادية التى حبسها أهلها انتظاراً لمصير تعس، والچونى التى تتحدث عيناها دائما بالحزن الممزوج بالخجل. ماذا تفعل البنت الجميلة مع الفارس العليل. أنت معنورة يا چونى فيما لو تركت خير الدين.. قالت لها ذلك وكانت هى بدورها تنتظر أن يقول لها أحد ذلك لكنها حتى الآن لم تتخل عنه. نوال لم يعد يراها أحد، لم تعد تتكلم إلى أحد فيما يبدو. مسكينة ابنتى المطربة ذات الصوت الشجى. بدأت بالغناء للمرضى والذين بين الموت والحياة وانتهت إلى تهمة لا يعرفها أحد هنا. هل كان العالم ضيقا إلى هذا الحد الذى جعل أبوها تاجر المانيفاتورة ببوالينو يوافق على زواجها من على زين العابدين التاجرالشاب الصغير ذلك الوقت. ما الذى ألقى فى قلب ابيها بالحب لذلك التاجر الشاب ليهبها له؟ لا يستطيع أحد أن يرد طلبا لعلى، حتى الآن ينتصر فى كل بيع أو شراء بالهدوء والاتزان. لا يعرف أحد أبدا مشاعره الحقيقية. لا يكفى أبدا أن يكون فى الأصل من بلدة أبيها الذى هاجر من الصعيد إلى الاسكندرية منذ خمسين سنة. لقد أحبت هى على زين العابدين من أول

نظرة. أسرها هدوءه واتزانة وقلة كلامه، أسرها صمته الذى لم يوغل فيه بقدر ما يوغل منذ «العلقة» التى أخذها مع الرجال على كوبرى كفر عشرى. لكنها تفتح صدرها للهواء النقى، وتفتح فمها تكاد تشربه، وتعود إلى بداية السطح لتطل على ترعة المحمودية، وتهز ذراعيها القصيرتين أمامها وخلفها فى سعادة طفولية، ثم، ثم فجأة تجلس على أرض السطح الباردة. تريد أن تشمل البرودة المنعشة كل نقطة فى جسمها. فكرت أن تتمدد نائمة على ظهرها، ونامت بالفعل. ضحكت. كيف يكون شكلها الآن هى القصيرة البدينة. هل يمكن أن تقف وترى نفسها نائمة؟ ماذا يحدث لو رأت على زين العابدين يقف أمامها فجأة الآن؟ ليس مهما أى شئ فى العالم. لقد عادت تقف بعد أن تشبعت بالبرودة المنعشة، وبدت المحمودية أمامها ممتدة على الناحيتين مظلمة وسط شاطئين مضيئين بنور القمر. كيف حقا يعجز هذا النور عن إضاءة الماء. حتى مصابيح الشارع حطمها الأولاد. ليس ثمة شئ يضئ غير الماكينة الحمراء، المبنية من القرميد الأحمر، التى ترك الخواجة بطسو فيها النور مضاء قبل أن يعود إلى بيته. على الشاطئ الآخر الظلام كثيف، وليس من شئ مضئ غير ترام نسى سائقها أنوارها بينما تقف مركونة حتى الصباح. لكن شيئا يمشى وسط ظلام الماء. شىء يلمع بسرعة ويختفى وسط البحر الأبيض الخفيف فوق الماء. حوت يا نرجس أم تمساح أم سمكة كبيرة؟ ليس بالمحمودية غير اسماك البلطى والقراميط التى لا يأكلها أحد. انه حبشى هذا الذى يسبح بين الماء. يقولون إنه يسبح كل ليلة وسط الترعة هذه الأيام، وأحيانا يصرخ، ويهذى بكلام غير مفهوم منذ اختفت بدرة، إنه يضرب الماء بذراعيه فينفتح أمامه ويسبح مسافة طويلة متمددا فوق الماء كثعبان لا ينتهى طوله.

شخص عجيب حبشى هذا. تتركه النساء اللاتى تظهرن فى حياته فجأة، ويزداد الأطفال الذين يدخلون فى رعايته. يقولون انه كثيرا فى الصباح الباكر ما يمشى بطول المحمودية ويعود حاملا طفلا جديدا، لقيطا. كان يجد الأطفال قريبا من عشته كأن هناك اتفاقا بين الجناة وبينه، الآن لا يرسلون إليه أطفالا فيمشى هو باحثا عنهم. نوع عجيب من البشر حقا. لكن ما الذى يمنع أن يكون هذا الذى يسبح شيئاً آخر غير حبشى؟. تتراجع فى ذعر. أحست به يجذبها من جلبابها من الخلف. التفتت فرأته يمر من أمامها أبيض خاطفا، شئ كالأثير سرعان ما يعود ليقف أمامها هى التى صارت بعيدة الآن عن سور السطح ولم تعد ترى شيئا فى الدنيا غير هذا الواقف أمامها، خطوط ودوائر بيضاء غير متصلة أقرب إلى النقط تتحرك أمامها يمينا ويسارا وإلى الأمام وإلى الخلف، انها تبتسم ثم تضحك، ما الذى يدغدغها فوق اعطافها. الخيوط والنقط تقترب وتستطيل عالية وهى تنزل إلى الأرض ضاحكة والذى يدغدغها لا يتوقف وجسدها كله يهتز ويستسلم وينادى وعلى زين العابدين لم يعد على زين العابدين من العلقة وشمل الصمت كل أعضائه، ولا تفلح مساعدتها له بالغنج والحركة والأداء المبالغ فيه للشهوة والمواء والتنهدات والبارفان الشانيل خمسة!. الآن المارد الدرى الذى يقف أمامها يتضاءل نازلا إليها وتمتد أصابعه إلى عنقها، لقد بات فوقها تماما، ثم تمشى أصابعه الباردة إلى صدرها الذى يتسع عند طوق جلبابها وتشتعل فيها النار وتسرى فيها كهرباء اللذة وينفرط عقدها متمددة.. لا يتماسك فيها عضو بآخر من جسدها، ومن عجب أن جلبابها تمزق فى لحظة وانشق إلى نصفين، وتمزق تحته «الكومبين» واتسعت بطنها كواحة استراح عليها الشعاع المسحور وصارت تبتسم

وتتأوه وهو يعمل فيها بلا انقطاع. شملتها اللذة العجيبة الصاعدة من برودة السطح إلى مؤخرتها والصاعدة من الدفء المركز المصوَّب بين فخذيها. انها تفقد الوعى للحظات. أين كنت حقا يا نرجس. تقول لنفسها وهى تقف تلملم ثوبها فوقها. لقد رأته يبتعد إلى نهاية السطح من ناحية السكك الحديدية ثم يختفى فى ظلام الفضاء، لكنها سمعته يقول لها من بعيد إنه سيعود ولن يخذلها فى الليالى القادمة. راحت تبكى ويهتز جسدها ويكاد صوتها الذى تحاول جاهدة أن تكتمه أن ينفجر وسط الصمت الذى أوغل فيه الليل. من هذا الكائن الذى أشعلها بهذه اللذة السرمدية؟ وكيف لها أن تعرف وسط هذا الكون الواسع الذى لا يبدو أن هناك له نهاية...

(٩)

«الدنيا ما لهأ يا زعبلاوى، شقلبوا حالها فين المداوى». الواحد غرقان فى الحيرة غير قادر على فهم أى شئ. قال العربى لنفسه وهو يستمع للأغنية القديمة التى يبثها الراديو..

– هل سنمضى رأس السنة وحدنا هذا العام أيضا؟.

سأل كاتينا التى كانت فى أبهى زينة الليلة. أجابت..

– ستأتى اسمهان وچورچيت.. ستجلس بين ثلاث نساء يا عربى الليلة.

قال لنفسه بصوت مسموع «ولا هارون الرشيد» فسمعته وتساءلت.

– من الرشيد هذا..

– واحد صاحبى.

قال وهو يصب لها قدحا من النبيذ، ثم استطرد.

- أنا غير قادر على تحمل العطر الذى تضعينه الليلة كاتينا..

ابتسمت وهى تقترب منه وتنام برأسها على صدره.

- لازم تتحمل كل شئ عربى من الآن حتى أترك مصر.

- قرار نهائى كاتينا ؟.

- أسابيع قليلة وأسافر عربى.

هذا هو اليوم الذى يخشاه. ماذا سيفعل بعد كاتينا؟. لن تترك له الاتيليه، حتى لو فعلت فلن يستطيع ادارته. لم يحاول أن يتعلم شيئا. ستحضر الليلة چورچيت التى يبدو أنها ستفوز بكل شئ. انها على أى حال سيدة متدينة تذهب إلى الكنيسة المرقسية كل أسبوع، وتعيش مع زوجها التاجر فى سوق الخيط، ولديها طفل وطفلة تصحبهما معها إلى الكنيسة دائما لتلقى دروس الأحد. سمعها تقول ذلك أكثر من مرة، وهو يشك فى كون زوجها تاجرا بسوق الخيط. لابد أنه مجرد عامل عند أحد التجار. هذا كله لا يهم. إنه حتى لا يسأل كاتينا لماذا تأتى چورچيت تسهر معهما وحدها، ويكاد يقص على كاتينا مغامرته مع اسمهان منذ شم النسيم الماضى، لكنه يتراجع، فبرغم انها هى التى لفتت انتباهه إلى نزوات اسمهان لا يحب أن يجرح شعورها.. يا له من خائب. لن يجرح شعورها ولن تتأثر، انها لا تحبه أكثر من نزوة أيضا كأسمهان وإن تكررت، وهؤلاء الاجانب بهم ميزة الوضوح والصراحة وبرغم انهم عاشوا طويلا بين أولاد العرب إلا انهم لم يتخلوا عن ذلك، ولم يصابوا بالمجاملة الكاذبة أو الخجل المجانى، وكاتينا إذا كانت تحبه ستقول له ذلك، وهى وضعته فى مرتبة بين بين، بين الحبيب والصديق، لذلك لن يهمها اذا كانت اسمهان فازت به مرة أو أكثر، أو حتى وقعت فى غرامه

بحق وحقيق! كاتينا منذ بداية الشتاء تغدق عليه فى النقود، وهو صار ضيفا دائما على البارات والملاهى على الكورنيش، ولا تمر ليلة دون أن يخرج فى الثالثة صباحا صافقا باب الملهى أو البار خلفه ضابطا ياقة المعطف على رقبته وهو يواجه الريح ورذاذ الأمواج التى تصطدم بصخور الشاطئ وفى كل ليلة يتقدم إلى الشاطئ ويقف عند أقرب نقطة إلى الماء غير مبال أن تطول المياه ثيابه أو حذاءه، ويشعل سيجارة، ويقف ينفث دخانها فى هدوء، يفكر فى شئ يفكر فيه فلا يجد!، هماً يطرحه بعيدا عنه فلا يجد، فرحا يسعد به فلا يجد. لا يتحرك ذهنه ولا يدق قلبه ويمشى مندهشا من نفسه، لكنه يشعر بمذاق دخان السيجارة «البحارى» كأفضل ما يمكن تذوقه من تبغ. إن جسمه ليهدأ وروحه تنتشى، ولا يفكر أبدا أن ذلك قد يكون بتأثير الخمر التى شربها فى البار أو الملهى. لماذا تغدق عليه كاتينا الأموال؟ ليس أبدا لأنها تستثمر جسده، المؤكد لأنها ستترك مصّر. الاتيليه بحق يوشك على الخراب. أعداد النساء والفتيات فى تناقص شديد، ربما يمر الأسبوع فلا تأتى غير امرأة أو فتاة أو اثنتين على الأكثر لتفصيل ثوب واحد أو فستان واحد. نساء الطبقة الراقية السكندرية اللاتى كن يترددن على الاتيليه انقطعن.

بعض نساء الطبقة الوسطى بدأن يترددن على الأتيليه لكنهن يجدن الأسعار غالية فلا يعدن مرة أخرى. كاتينا لا تخفض أسعارها. والنساء المصريات من الطبقة الوسطى بدأن يخرجن إلى الملتقيات الأجنبية، لكن بعد أن شح الأجانب. لم يعد العربى يستمع إلى قصص الحب النارية الغريبة تحكيها النساء باللغات المختلفة، الأرمنية والمالطية واليونانية والتركية والسويسرية والنمساوية والروسية أيضا والعبرية. الأتيليه كان

مثل برج بابل تتطاير من حوله وفوق رأسه الحروف العجيبة للغات الغربية، ويبتسم هو، وتقول له كاتينا فيما بعد أو أسمهان «كلها قصص نسوان عن الرجال الخونة والغدارين». كل هذه الدنيا انكمشت، كان هو بينها مثل الفرس لكن غير جامح، ركز عينيه وروحه على كاتينا، كمهرة وحيدة .كانت نعماً إلهية يا عربى يا حمار!. الآن ستتركك كاتينا وما أنت إلا نزوة طائشة لأسمهان . كيف حقا لا تحب اسمهان صوت اسمهان؟. كلما استمعت إليه أشاحت بيدها ووجهها ثم هزت كتفها وابتسمت . ليس الاتيليه وحده هو الذى تغير. الملاهى والبارات قل روادها من الأجانب، يشاع أن عطيات حسين ستحول ملهاها إلى مطعم وصالة أفراح، أما السفينة فقد أغلق أبوابه تماما ولا يعرف أحد إلامَ سيصير، والكاب دور تحول بالفعل إلى مقهى. تلك أماكن فتحتها له راشيل بالخمسين جنيهاً وأغرقته فيها كاتينا فرآها وهى تأفل. لم تعد فرق الباليه الارمنية ولا الإيطالية تتنقل بينها. على أى حال لقد أكل السمان وشرب الويسكى وفتح مرة زجاجة چونى ووكر بخمسة جنيهات كاملة. الأسبوع الماضى سأل أسمهان هل يمكن أن تصحبه إلى السينما. قالت له إن هذه هى رغبتها أيضا. كان هو يحاول أن يوصل ما انقطع بينهما بعد اللقاء الوحيد الذى سمحت له به معها بعد شم النسيم أو كانت هى تحاول أن ترضيه قبل أن تترك البلاد!

خرجا من الاتيليه معا تحت بصر كاتينا، انحرفا معا إلى شارع مسجد العطارين والهواء يقابلهما ورذاذ خفيف يتطاير فوقهما. دخلا إلى شارع عبد المنعم، وأمام سينما ستار توقفا. ميدان المحطة خال تقريبا بسبب المطر، والأشجار المتفرقة غير لامعة الخضرة. سيارات حنطور قليلة تقف بعيدا أمام المحطة، وبضع سيارات تاكسى صفراء.

نظرت أسمهان فى ساعتها وقالت الساعة الآن السادسة ووضعت ذراعها فى ذراعه والتصقت به بشدة وهطل مطر متوسط ففتحت شمسيتها الصغيرة الملونة فوقهما معا. دخلا شارع النبى دانيال يمشيان تحت البلكونات وانحرفا إلى شارع فؤاد فى طريقهما إلى سينما أمير.

- أنت تحب سينما أمير؟

سألته. أجاب.

- دخلتها مرة. كان فيلم أوليس.

- ها ها. إنه فيلم مغامرات رائع.

- لقد ضحك أوليس على الوحش وقال إن اسمه لا أحد..

ضحكت، والتصقت به أكثر.. قالت:

- أنا أحب الافلام العاطفية. هل تعرف أى فيلم تعرض سينما أمير الآن.؟

- لا.. نتركها للحظ..

- حين نذهب إلى سينما أمير نخرج من الفيلم نتعشى فى بسترودس. سأعزمك الليلة على العشاء..

لم يعارض. إنه يعرف كيف يتعامل الأجانب. ليس عارا أن تعزم المرأة الرجل.

عدد قليل من الرواد أمام السينما التى ستفتح بابها بعد دقائق، يرتدون المعاطف الثقيلة، ومعاطف المطر، وقفازات جلدية ملونة فى أيدى النساء اللاتى يرتدين المعاطف الوثيرة. رائحة البارفانات تشع فى الفضاء أمام السينما التى فتحت أبوابها الزجاجية ليدخل الرواد يتوقفون فى الردهة الداخلية لاتقاء المطر. السينما تعرض فيلما عن ملوك

الكوميديا، قرأت أسمهان الأفيش وقالت إنه مقتطفات من أفلام شارلى شابلن ولوريل وهاردى وغيرهم من رواد السينما الصامتة فى الكوميديا. قالت إنها مبسوطة وأنها بالفعل فى حاجة إلى المرح الليلة..

جعله دفء المكيف، وأسمهان، يشعر بالراحة والانسجام. لم يتعود على السينمات المكيفة. الهمبرا وبلازا وماچيستيك وكونكورديا وبارك وريتس وركس والشرق كلها غير مكيفة. هى سينمات الدرجة الثانية التى يدخلها مبتعدا عن سينما الدرجة الثالثة فى الأحياء الشعبية. فى سينما الهمبرا يظل يفكر حتى يبدأ الفيلم كيف حقا تقيم أم كلثوم حفلاتها الغنائية فى هذه السينما ذات المقاعد الخشبية. قال له خير الدين مرة إنهم يضعون «شلت» صغيرة فوق المقاعد أثناء الحفلة، وقال محمود الملاح إن سينما الهمبرا تتميز بمساحتها الكبيرة و بأنها مستطيلة وليست عريضة لذلك لا يتشتت الصوت، كذلك تكون رؤية الجمهور لأم كلثوم أفضل. لكن العربى لم يكف أبدا عن التفكير فى هذا السؤال الذى يعرف أنه لا يهم فى شئ، فهو ليس من رواد حفلات أم كلثوم، وليس من مدخنى الحشيش الذين يجتمعون حولها فى المقاهى والبيوت، وأدهشه أنه لا يستطيع أن يتوقف عن هذا التساؤل فى كل مرة يدخل فيها سينما الهمبرا حتى يبدأ الشعاع يسقط من خلفه إلى الشاشة البيضاء التى تنفرج عنها الستائر الحمراء الثقيلة إلى الجانبين وتدق أجراس شركة فوكس أو يتثاءب أسد مترو جولد وين ماير!

فى سينما بلازا لا يرتاح كثيرا. يرى الفيلم الأول ويخرج فى الاستراحة غير منتظر للفيلم الثانى. لا ينسى عند خروجه أن يلقى بنظرة على الفتاة الجميلة داخل شباك التذاكر! فى الحقيقة هو لا يذهب إلى سينما بلازا إلا ليرى هذه الفتاة، ولا يعرف أين اختفت منذ سنوات، ولم

يعد يذهب إلى سينما بلازا. كذلك فعل مع سينما ماچيستيك. فوجئ أول مرة يدخلها بامرأة تجلس جواره فى الظلام. إنها سينما كبيرة جدا جمهورها قليل جدا لا يعرف لماذا. وبدون مقدمات مدت المرأة التى لا يراها يدها إلى سرواله تفك أزراره وتتوغل فيه. تركها مسلوب الروح من الصدمة والدهشة، والرغبة بعد لحظات، لاحظ أنها تفعل ذلك بيد وبالأخرى تقضم سندوتش فول اشترته من محل بنيامين المقابل للسينما فى الغالب. شعر بالسائل الساخن ينزل على فخذيه، وأدرك حجم الكارثة التى سببتها له هذه المرأة التى لابد لوثت سرواله تماما، وسمع صوتها الخشن وهى تطلب الأجرة قرش صاغ قدمه لها ولا يصدق ما جرى. رآها بعد ذلك فى الظلام تمشى كشبح بين المقاعد تجلس هنا ثم هناك. ترك الفيلم وراح يبحث عنها بعينيه فى الظلام. قبل النهاية بقليل رآها تمشى متجهة إلى باب الخروج. ازاحت الستارة لتخرج فسقط عليها الضوء. امرأة مهوشة الشعر جلبابها رث، وحافية أيضا. تذكر الرائحة الزنخة التى تركتها فى المكان، وانتهى الفيلم وهو يكاد يتقيأ ويفكر ما الذى يمنع أن تكون رجلا!؟ إن يدها خشنة وصوتها خشن وشعرها المنكوش الذى رآه وهى تخرج قصير ويمكن أن يكون مجرد باروكة. لقد خرج يبحث عنها أمام السينما. لماذا فعل ذلك حقا؟. مما كان يريد أن يستوثق؟. رأى شابا قذرا يجلس على الرصيف المقابل أمام صندوق مسح أحذية ويقف أمامه شخص يضع حذاءه فوق الصندوق لتلميعه. اقترب العربى حتى ارتفعت إليه الرائحة الزنخة التى تعجب كيف لا يدركها الشخص صاحب الحذاء. لم تكن امرأة إذن. ترك الشارع كله ولم يعد إلى سينما ماچيستيك أبدا بعد ذلك. فى الحقيقة هو لا يحب من سينمات الدرجة الثانية غير سينما الهمبرا. لكن لماذا يتذكر ذلك كله الآن

وهو يقف فى هذا الجو الأثيرى الجميل. هكذا نحن أبناء الأحياء الفقيرة يعز علينا الفوز بلحظات من الجمال. قال لنفسه وتهادى ماشيا الخطوات القليلة حتى الباب الداخلى للسينما الذى فتح الآن للرواد.. لقد ضحكا كثيرا تلك الليلة خلال الفيلم..

فى مطعم «بسترودس» خلف السينما سألها..

– ما رأيك فى النبيذ قبل العشاء؟

ابتسمت. تدرك أن العربى على دراية بالتقاليد الأوربية من معاشرته لكاتينا. قالت:

– موافقة. لكن لا تنسى إننى صاحبة العزومة.

تعشيا من فواكه البحر مع النبيذ الأبيض. لقد أعطى العربى البالطو إلى الرجل الواقف بالباب مثل أى بيه حقيقى، كذلك فعلت أسمهان مثل أى ليدى. إنه يتذكر ذلك الآن وهو يأكل. قال :

– بسترودس فى الصيف يفرش مقاعده فى الخارج. جلسة جميلة جدا.

قالت:

– أعرف. نحن كثيرا ما نأتى لنجلس فيه.

كان بالمطعم عدد كبير من الاجانب، يونانيون وطليان، شباب ورجال ونساء، لكن كان هناك ثلاثة من أبناء البلد مع أحدهم امرأة بدينة جدا وجهها ملئ بالأصباغ بينما يجلس الآخران كل منهما منفردا ويشرب الخمر بإمعان. كانت موسيقى شتراوس تحول المكان إلى حديقة مليئة بالفراشات..

– ما رأيك أن نرقص عربى؟

– ما رأيك أن أمضى معك ليلة أخرى أسمهان؟

– عربى، أنا أحب وحبيبى فى مصر الآن..

سكت قليلا وقال..

– إذن لن ترحلى..

– لقد جاء ليعود بى.

سكت من جديد بشكل أعمق وقال.

– كل الناس ترحل..

– أنت عربى لازم تعرف ماذا يحدث فى مصر.

– ليس مهما أن أعرف أسمهان، هل سيمنع ذلك أن أحزن؟ هل معقول أن تخلو اسكندرية من الأجانب..؟

– إنها بلدكم عربى وممكن لكم أن تجعلوها أفضل..

كانت تأخذ يده بين يديها. ثم وقفت وجذبته نحو الراقصين ليرقص معها ولو دقيقة واحدة. وجد نفسه بين الرجال والنساء السعداء فراح يتقافز معها بلا نظام وهى تضحك. توقفت الموسيقى لكنه كان يود لو استمرت. عادا إلى المنضدة وانشغلا بالأكل من جديد، مضت ثلاث ساعات كأنها من زمن مسحور رغم ما غشى العربى أكثر من مرة من ألم وهو يدرك أن عالمه القديم ينهار.

لقد وقفا تلك الليلة، الأسبوع الماضى، أمام بسترودس، يبتسمان، والعربى يقاوم الرغبة فى أن يحتوى اسمهان فى صدره وقالت له:

– ستتركنى الآن؟

– سأوصلك إلى البيت فى الأزاريطة.

– أريد أن أمشى على البحر.

– الآن فى هذا البرد.

– يا رب نموت من البرد..

هذه البنت تشبه چينا لولو بريچيدا. هكذا فكر وهما يسرعان بشارع صفية زغلول فى اتجاه البحر. كل المحلات فى الشارع مغلقة باستثناء الكافيتريات التى يتسلل الضوء شحيحا من خلف أبوابها الزجاجية. ايليت وسانتا لوتشيا وبتسيريا وتاڤرنا وقهوة البليارلو. صوت الكعب العالى لاسمهان يدوى بين الصمت وأضواء الشارع الخافتة. هذه البنت تشبه تماما چينا لولو بريچيدا! أنفها الصغير وفمها الصغير أيضا وعيناها الواسعتان وسرعتها فى الكلام وصدرها الناهد ودقة خصرها.. ياللعذاب الذى يتعذبه عربى. لم يستطع أن يتزوج واحدة ممن رآهن فى الاتيليه. مرت عليه النساء كأنه مجرد إشارة مرور!.

فى محطة الرمل كان عدد قليل ينتظر الترام. هواء البحر القادم عريضا يملأ الفضاء باردا جدا. لا يزال أثر النبيذ، أما أثر البالطو وأسمهان التى تتأبط ذراعه فلا ينتهى . على الكورنيش أدرك كم هى مجنونة وكم هو مجنون ليطاوعها. الموج يرتفع على الشاطئ ويعبره إلى منتصف الشارع، لكنهما أسرعا على الرصيف تحت الشرفات، بين حين وحين تفاجئهما موسيقى أحد الملاهى أو البارات، أمام ميرامار عند السلسلة تسمَّر العربى وهو يرى المرأة الصغيرة الجميلة الخارجة من الباب تقف أمامه مباشرة.

– ازيك يا عربى.

قالت دون تردد. رغم أنه كان واضحا سكرها فلا تكاد تقف، ويسندها شاب صغير ليس هو صفوت الجعفرى.

– ازيك يا حكمت..

قال ذلك وأسرع لا يترك ذراع أسمهان ولا يصدق. لابد أنها أيضا لا تصدق. هو يتأبط ذراعاً أجنبية وهى تستند على ذراع شاب غير زوجها

فكيف يصدقان؟..

ما كاد يبتعد حتى توقف ضاحكا..

– زمان يا اسمهان، فكرت مرة أرمى نفسى فى البحر.

– أنا أيضا يا عربى ..

– طيب أنا عندى أسباب، فقر وعدم تعليم وقلة خبرة بأى عمل وفشل فى الحب على طول الخط.

– أنا أيضا يا عربى عندى.أسبابى. بيت عشت فيه خمساً وعشرين سنة هى عمرى، وجيران شوام أحبونى وأحببتهم، وجيران طلاينة أصحاب لنا نسهر سوا كل يوم سبت، ونخرج سوا كل يوم أحد طول الزمن وفى كل حفلة وكل مناسبة حلوة أو وحشة وكل كريسماس، أكثرهم سافر والباقى كلامهم كله فى السياسة. حتى الشوام سافروا أمريكا اللاتينية – وسكتت قليلا ثم استطردت – وولد مصرى كان ساكن فى شارع طيبة ويدرس فى كلية الهندسة تعرفت عليه فى حديقة الشلالات وكان عمرى أربع عشرة سنة.

– أحببته ؟

– أكثر. أعطيته نفسى. كان أول رجل. بعد الامتحان اختفى ولم يعد إلى الاسكندرية.

– شئ ولا الخيال..

– كان صعيدى، من الصعيد يعنى، كان آخر سنة فى الكلية، وضحك عليَّ وقال لى أنه فى سنة أولى..

– شئ عجيب حقا..

– كيف أنسى هذا كله وأسافر؟ لكن الحياة أيضا حلوة ولازم نعيشها عربى..

- إلى هذا الحد تحبين مصر أسمهان؟.

- عائلة بابا هنا منذ مائة سنة. أسمع. المطر شديد، هيا نجرى، أو نقف حتى يأتى تاكسى..

وقفا وفردت من جديد مظلتها فوقهما. عبرت أمامهما سيارة فورد كبيرة محملة بالسكارى، عبرت بسرعة فتطاير الماء المتجمع على أرض الشارع ناحيتهما فتراجعا إلى الخلف بسرعة، ثم توقف تاكسى قديم بدا مثل شيخ عجوز قادم من بلاد لا اسم لها.

وجد نفسه وحيدا عند نهاية شارع السلطان حسين، أو بدايته فهو لا يعرف، أمامه كلية الطب وخلفه حدائق الشلالات المظلمة، وكل شئ من حوله صامت. لقد ترك اسمهان منذ لحظات وترك التاكسى ليقف ويقبلًها على الرصيف قبل أن تدلف إلى العمارة. لقد عاد بسرعة ناحية الترام، فى نيته أن يعبر الشارع إلى الكورنيش ليلقى بنفسه فى أول بار. ضاق بأحاديث السفر، وأحاديث الهجرة من مصر، وأحاديث السياسة. لماذا حقا يجهد نفسه فى علاقات لا معنى لها مع الأجنبيات؟ الليلة لن يسمح لواحدة منهن بالحديث عن السفر أو فى السياسة.

جاءت چورچيت أولا. بدت امرأة جميلة حقا الليلة. خلعت البالطو ليظهر الفستان الاسود الذى يخرج منه جيدها اللامع محاطا بعقد من اللؤلؤ الابيض الساحر. كيف حقا لم يلفت انتباهه جمال هذه المرأة من قبل. لقد بدت بشرتها أكثر بياضاً مما رآها من قبل خلال السنين الطويلة التى عملا فيها معا بالاتيليه. انه يرى كل شئ أفضل هذه الليلة. لقد وقف يقابل چورچيت وأخذ منها المعطف ليعلقه على المشجب البعيد ولم تنهض كاتينا من مكانها. انحنت چورچيت وقبلتها ورأى العربى مؤخرتها وهى تنحنى «محرودة كويس».. أحس برغبة غريبة أن يمشى

على ردفيها بيديه. أخّر ذلك إلى آخر الليل!! لقد جاءت چورچيت دون زوجها. هى فى الحقيقة امرأة غير طبيعية، تذهب إلى الكنيسة وتحافظ على دروس الأحد وتأتى لتحتفل برأس السنة دون زوج.. عندما انتهت من تقبيل كاتينا التفتت وفاجأته بتقبيله على خديه. لاحظ أنها بين القبلة الأولى والثانية نظرت إليه بعينين واسعتين حادتين. ماذا تريد منه النسوان الليلة؟ انه يعرف أن الليلة آخر احتفال بآخر العام سيحضره هنا، فهل يردن به شيئا لا ينسى؟ احتفال جنسى جماعى؟ لقد قالت له چورچيت بعد تقبيله.

- نفسى أبوسك من زمان يا عربى!!

انتعش وانفرجت أساريره كما يقال ومشى كالطاووس إلى دورة المياه ليتبول ثم عاد ليجد المرأتين تنظر كل منهما إلى الأخرى وتضحكان.. نسى أن يغلق باب دورة المياه وكان يوجه البول الكثيف إلى منتصف قاعدة التواليت فأحدث عند اصطدامه بالماء المترسب بالقاعدة صوتا قويا متصلا لا شك انهما سمعتاه ولذلك يضحكان. سمع چورچيت تقول لكاتينا.

- إذن ارتحتِ..

- ارتحت تماما.

تأمل العربى كاتينا مندهشا. ما الذى كان يتعبها ولم يعرفه. وجدته حائرا فقالت:

- عارف عربى أنا فى الاسبوع الماضى سخنت جدا ومسكتنى حمى ارعشتنى كثيرا. ذهبت إلى المستشفى اليونانى فأخبرنى الطبيب انها أعراض انقطاع الدورة الشهرية. لا تفهم ذلك أنت عربى. يعنى لم أعد قادرة على الإنجاب.

أدهشه ذلك. هل كانت تنجب أطفالا ولا يدرى؟ وعادت تقول له:

– أنت عربى واحد حمار. أى ست تزعل لما تنقطع الدورة حتى لو لم تكن متزوجة. انقطاع الدورة معناه انقطاع الأنوثة. سن اليأس يعنى يا عربى. لكن رغم هذا أنا مبسوطة لأنى هكذا استطيع أن أفعل ما أريد دون خوف من الحمل، أنا كنت أعمل طرقا جهنمية لأمنع الحمل. دلوقت خلاص!. أنا لا يمكن اتخلى عن الرجال. كل النسوان هكذا. أليس كذلك چورچيت؟.

– من تستطيع أن تتخلى عن الرجال كاتينا؟

أجابت چورچيت فقالت كاتينا للعربى..

– چورچيت مسكينة. زوجها أحب واحدة مسلمة.. أشهر اسلامه وتزوجها. لايريد تطليق چورچيت. الاسلام يعنى أربع زوجات. چورچيت تصر على الطلاق.

وضع العربى رأسه منكسا على كفه، ليس من صداع، ولا من تعب، لكن من عدم فهم ما يحدث حوله فى هذا العالم. ودق جرس الباب فنهض يفتح فى تباطؤ. يعرف أنها اسمهان. لكنه فوجئ بفتاة أخرى معها. كان يتوقعها وحدها، أو مع خطيبها الذى جاء من ايطاليا. دارت اسمهان بالقبلات على الجميع وقدمت لهم الفتاة الايطالية.

– چولييت حبيبة انطونيو لم تعرف انه مسافر إلى ايطاليا، جاءت لتراه.. مسكينة لم يتصل بها منذ سفره. لابد أنه انشغل بفتاة أخرى.

كانت تتحدث بالعربية فوقفت چولييت ذاهلة ومتحيرة وابتسمت لانهم ابتسموا. شربوا وأكلوا وتحدثوا عن العائلات التى تركت مصر، وعن الضباط، من الجيش والبوليس، الذين استولوا على فلل وقصور بأسعار لا تذكر، وأحيانا مجانا، من الأجانب الذين رحلوا، وعن أساليب الأجانب فى تهريب أموالهم، بشراء انتيكات ثمينة وتحف فنية، وعن حى

العطارين حولهم وكيف آلت أكثر محلات الموبيليا لمصريين من الصعيد، أكثرهم مسيحيون فى الحقيقة فهم الأشطر دائما فى التجارة، وأكثرهم كان يعمل عند الاجانب أصحاب المحلات من اليهود والايطاليين والشوام، ووجد العربى أن الأفضل له أن يطلق لذهنه العنان ليفكر فى حكمت التى رآها خارجة من بار ميرامار منذ اسبوع بالليل، وفى مصير بنات المساكن، الچونى ونادية سلاَّم وحسنة أخته العانس، ولما دقت الساعة الثانية عشرة فى الراديو واعلن المذيع عن بدء عام جديد، وسمعت أصوات المقذوفات من النوافذ على أراضى الشوارع، هرع كل منهم يلقى بما يجده فى طريقه مما يبدو لا حاجة لكاتينا به. تسابقوا فى القاء الزجاجات والصحون، وچولييت أيضا تحمست معهم وانطلقت فى ضحك عال متهتك، وفى لحظة ظن العربى انهم سيلقون بكل ما فى البيت من القديم والجديد، وكان ينظر إلى كاتينا التى سكرت تماما فتقول له «ارمى انت كمان عربى. عربى ممكن ترمينى لو حبيت. يالا يا نسوان نرمى العربى» ضحكن واندفعن يحملنه، كن قد ثملن تماما، لكنه كان لايزال واعيا، قاومهن وهو يضحك، لم يجدن أمامهن إلا أن يدغدغنه لتنهار مقاومته من الضحك، لكنهن كن يضحكن أيضا، فانهارت مقاومتهن قبله، ومعهن چولييت كذلك، وتساقطن على السجاد، وأصبح الصباح وهم متناثرون على الأرض، كل منهم بملابسه كما هى لا يشعر بالآخر، لكن كاتينا كانت فى حضن چورچيت، وأسمهان فى حضن چولييت، بينما العربى كان قد تدحرج من فوق السجادة ونام وحده على البلاط البارد...

(١٠)

وصلنى هذا الاسبوع خطابان من چين معاً، رغم أن الفارق الزمنى بين تاريخ كتابة كل منهما وخروجه من سيدنى باستراليا ستة أشهر. كيف اجتمعا إذن فى الطريق؟ تسألنى فى الخطاب الثانى لماذا لم أرد على خطابها الأول الذى كانت كتبته ردا على خطابى الذى حمل لها التهنئة بالعام الجديد، تقصد العام الذى ينتهى الليلة!. قالت فى الرسالة الأولى إن خطابى وصلها فى إبريل مما أدهشنى جدا، وقالت إنها تكتب لى فى الشهر نفسه. وفى الرسالة الثانية، التى كتبتها فى أكتوبر كانت تسأل عن الأولى وهل وصلتنى أم لا؟ وإذا كانت وصلتنى فلماذا لم أرد عليها؟. خطابى تأخر فى الوصول أربعة أشهر، وخطاباها تأخرا حتى نهاية العام، وظننت أنا أنها كفت عن الكتابة لى. خطاباها وصلا إلىَّ معا مما يشى أنهما كانا محجوزين فى مكان واحد. مكان واحد هو أيضا الذى حجز رسالتى قبل رسالتيها. لكن.. يبدو أن القائم بهذه المهمة ينقصه الذكاء. وصول رسالتيها إلىّ معا أمر يثير الريبة. تذكرت ما جرى لنوال. توقعت أن تطلب جهة أمنية ما استجوابى. دققت النظر فى مظروف كل رسالة. آثار الفتح ظاهرة. شئ من التدقيق يوضح كيف تم فتح المظروف. الأفضل ألا أكتب إلى چين مرة أخرى. إن چين تسألنى عن الأحوال السياسية والاقتصادية فى الرسالة الثانية. لعل ذلك ما جعلهم يطلقون سراح الرسالة الأولى. إن ردى لن يصل إلى چين، وأى كلام فى السياسة أو الاقتصاد يمكن اعتباره نوعا من التجسس. الأفضل أن أصمت. شيئا فشيئا ستيأس چين ولا ترسل إلىَّ.. اضطربتُ بعض الوقت، لكنى ظللت أجمع الاخبار التى أراها هامة لروايتى التى

أكتبها. إنها أكثر من رواية فى الحقيقة. أحياناً أكتب عن نفسى. أحيانا عن الناس حولى.. لابد من صياغة أخرى للرواية، من إعادة بنائها. الوقت أمامى متسع. لا أظن أن البيت سينهدم فوق رأسى كما انهدم البيت الذى كان يسكنه الفيلسوف يوسف كرم فى طنطا. لقد مات كما كتبت من قبل، لكنه مات حزينا بسبب انهيار بيته السابق على كتبه التى نشرها والتى لم ينشرها. كان يعيش مع أخته، ولم يتزوج، ويعانى من صداع مزمن لعله كان وراء كتابته لمؤلفاته الصعبة مثل «الطبيعة وما بعد الطبيعة» و«العقل والوجود». إنه أفضل من كتب عن تاريخ الفلسفة اليونانية، وتاريخ الفلسفة الأوربية فى العصر الوسيط. وهو نموذج للمفكر العصامى، فلم يكن حاصلا على شهادات عالية، مجرد البكالوريا التى سافر بعدها على نفقته إلى فرنسا، ودرس الفلسفة وعاد ليعينه طه حسين مدرسا بالجامعة، ليتخرج على يديه كتاب وفلاسفة، كان متشائما يرى المدنية الحديثة عقيمة، وكان زاهدا، لكنه مات وفى قلبه حسرة من الأوساط الثقافية التى لم توله حقه من التقدير..

هكذا كتبت الصحف فى رثائه كأنما تعتذر له. هكذا كل العقول الكبيرة فى بلادنا. ربما فى الشرق كله. لكن الحياة لم تخل من طرائف فى الأشهر الأخيرة لهذا العام. ففى مطار القاهرة صرخت إحدى المضيفات بسبب لدغة عقرب، وبدء البيع بالتقسيط للأراضى والشقق فى أجمل مصايف الاسكندرية، المعمورة، وتقرر إقامة تمثال لشاعرنا أحمد شوقى فى روما فى حديقة بورجيزى مع تماثيل شعراء العالم فيكتور هوجو وبايرون وجوته والفردوسى، وعرضت سينما مترو فيلم سجين زندا وخلعت فرنسية شابة ملابسها قطعة قطعة فى مطار القاهرة لتأخذ حماما شمسيا، عمرها ثمانية عشرة عاما وكانت فى طريقها إلى الهند

ورأت شمساً نادرة فى بلادها ، وعرض فيلم «شبح فرانكشتين» وظهر الراديو الترانزستور فى مصر، وأول سيارة مصرية اسمها رمسيس بينما أقام الشيوعيون المذابح للعراقيين فى كركوك، واكتشف الصحفيون مكمن بديعة مصابنى فى لبنان. إنها فى بلدة شتورة تبيع الجبن والزبد والكتاكيت فى محل كبير تملكه هناك بعد أن تركت مصر بسبب الضرائب وتخلت عن الرقص. لقد هرَّبها طيار انجليزى سنة ١٩٥٠ من صحراء بلبيس إلى فلسطين ثم إلى الاردن ومن هناك سافرت إلى بلدتها بلبنان. وأكد عبد الناصر فى خطاباته أنه لن تمر اسرائيل من قناة السويس ولن تفرض إرادتها علينا، وصرح وزير الصناعة عزيز صدقى أمام الرئيس بأن الخطة الجديدة تستهدف افتتاح مصنع جديد كل أسبوع. وصدرت رواية قصة حب ليوسف ادريس، والتهمتُها فى ساعات. لغة يوسف ادريس متدفقة مثل نبض القلب، ومشاعر أبطاله فياضة، وبطل هذه الرواية اسمه حمزة وأبوه يعمل عسكرى دريسة فى السكة الحديد، مجنون كأنه خرج من بيننا. وتمت سرقة عصى توت عنخ آمون من متحف الآثار المصرية. العصا مكتوب عليها بالهيروغليفية «من يحمل العصا تحصل له بركة الإله آمون ويمشى فى ركابه» وبدأ مشروع كبير لاستئصال مرض الملاريا من مصر، فى الوقت الذى فجع فيه شيخ الملحنين المصريين زكريا أحمد فى أكبر أولاده بينما لم يعد الابن الأصغر الذى اختفى منذ ثلاثة أعوام كما أصيبت ابنته فى حادث سقوط أوتوبيس بسوريا!

شئ لا يصدقه عقل تفوق حتى على الدراما اليونانية.. لقد مات ابنه الكبير يعقوب فى بيته بأثر الحبوب المنومة والخمر وقد ترك جواره ورقة كتب فيها بخطه (لعل الدار الأخرة هى التى فيها الشفاء) وكان بعد

شابا فى السادسة والثلاثين له محاولات فى التلحين ورشح نفسه فى الانتخابات الشعبية بمصر الجديدة ونجح إلا أنه فجأة انتحر!. وعادت فتيات الباليه الانجليزيات للرقص فى مصر بعد أن كن ممنوعات من الدخول بعد العدوان الثلاثى، وكتبت الصحف عن حب المليونير أوناسيس لمغنية الاوبرا ماريا كالاس، وبدأ عرض أضخم انتاج سينمائى مصرى، وهو فيلم «المرأة المجهولة» المأخوذ عن الميلودراما العالمية «مدام إكس» وما انتهى العام إلا بوفاة أدهم وانلى فنان الاسكندرية العظيم أخو سيف وانلى الفنان الأكثر شهرة. لقد كان أدهم شديد التأثر بالمدرسة التأثيرية، بديجا بصفة خاصة فى رسمه لراقصات الباليه. وتزوج شاه ايران من فرح ديبا فى ليلة من ليالى ألف ليلة وليلة بإيران، وسيبدأ العام الجديد بتفجير ثلاثين طنا من الديناميت بداية للعمل فى مشروع السد العالى.

فى المساكن وقعت أحداث لم نتوقعها. عاد الديب من إحدى سفراته صامتا جهما رفض كل توسلات الأولاد والشباب أن يحكى لهم شيئا، ولما سألته بعيدا عنهم قال «لقد زهقت من حياتى معلقا فى الفضاء» وسكت قليلا ثم قال «إن ما رأيته خلال العشرين عاما الماضية منذ بداية هذا العمل العجيب، ما رأيته يا سليمان يملأ مجلدات. إننى رجل النصف الثانى من الكون. النصف الأعلى. وانتم رجال النصف الأسفل، لكم الأرض ولى السما ولقد تعبت أريد أن تلمس قدماى الأرض مثلكم».

أدهشنى للغاية، وتركته تقديرا لرغبته أن يظل صامتا مع نفسه لا يكلمه أحد، على الأقل لعدة أيام. قال إنه يفكر فى أمر سيفيد حياته تماما وبعدها يمكن له أن يحكى لى عن الذى رآه وحده دون العالمين» كان اليوم التالى هو بداية الشهر الجديد، موعد صرف المرتبات، ودفع

الديون للعنيبسى أو للسيد خليل فالجميع هنا تقريبا، باستثناء على زين العابدين وغبريال والد نسيم ومريم وأسرتى، يشترون بالأجل، «شكك»، من الدكانتين. لا يخصص كل محل نوته لكل شخص كما يحدث فى الأرياف، لكن لدى كل محل كراس ضخم جعل لكل زبون صفحة فيه. الناس منقسمون بين الدكانتين، كل ورغبته أو مزاجه، الديب ضمن الذين يشترون بالأجل من دكانة السيد خليل.

- أنت حرامى أضفت إلى حسابى الكثير مما لا تستحق.

- أنت نصاب تشترى وتأكل أنت وأولادك ووقت الدفع تدعى علينا بالباطل.

- أنا لايمكن أبدا أن آكل وأولادى بعشرة جنيهات في الشهر ..لماذا؟ هل نأكل فلوساً ؟ غايته نصرف ثلاثة جنيهات! ..

هنا تدخّل خليل بن السيد خليل، وهو أطول من أبيه الطويل، له عين مقلوبة ، هو الذى قلبها في الحقيقة فلقد تعود أن يغلقها وينظر للبنات والنسوان بالأخرى بإمعان حتى جاء اليوم الذي فيه لم يستطع أن يعود إلى فتحها كاملة ! ، وخليل مصارع حصل على بطولة شركة الزيوت والصابون التى يعمل فيها ، وأشيع عنه أنه قبل أى مصارعة يدهن جسمه بالزيت فلا يكون هناك سبيل لخصمه لإمساكه ، وبالطبع يتعذر الإيقاع به!. تدخل خليل وأمسك بخناق الديب ليرفعه عن الأرض عاليا ثم يتركه ليسقط على مؤخرته بين ضحكات الأولاد والرجال الذين تجمعوا حول الشجار .. نظر إليه الديب من أسفل بغيظ، الحقيقة أنه لم يكن ينظر إليه، كان يمعن النظر في «كشكول» الشكك الموضوع على منضدة بعيدة، في لحظة قفز إلي الكشكول وأمسك به ثم أطلق ساقيه للريح. جرى وراءه خليل وأبوه السيد خليل وأخوه القصير السيد سيد خليل،

وكان الديب وهو يجرى يمزق فى صفحات الكشكول وينثرها فى الفضاء قطعا وارتبك السيد خليل وولداه بين محاولة جمع الأوراق الممزقة واللحاق بالديب. فى النهاية لحق به خليل، وجمع أبوه واخوه ما يمكن جمعه من الأوراق و«عجنوا» الديب. تركوه على أرض شارع قنال المحمودية غير قادر على الحركة مصابا بكسور فى ذراعيه وكدمات لا نهاية لها فى وجهه وكل جسمه.

فى مفكرة صغيرة كتبت يومها أن هذا يوم من أيام العرب، يؤرخ به هنا. لقد أضاع الديب أموالا كثيرة على السيد خليل الذى ترك عملاءه يدفعون ما يرونه مناسبا. كاد قلبه يحترق وهو يرى ما يدفعه كل رجل أقل مما يعرفه عن قدرته الشرائية.

ذلك اليوم نقلت الاسعاف الديب الذى لم يتهم سيد خليل وأولاده بشئ، قال إن عصابة مجهولة خرجت عليه فى الطريق وضربته، وعاد من المستشفى أبيض اللون من فرط الشاش والجبس الذى يحيط بأعضائه.

ما كاد الديب يفك الجبس عن ذراعيه حتى لجأ إليه مرعى، العامل فى محل العنيبسى، ليكتب له خطابا إلى أهله فى الصعيد. كتب له الديب الخطاب وأغلق عليه المظروف وكتب فوقه العنوان. بعد أسبوع جاءت عربة كارو محملة بالرجال المسلحين بالهراوات الذين تركوا العربة وهرولوا ناحية مرعى الذى بدوره هرول ليحتضن أباه واخوته وابناء عمومته ولا يصدق أنهم قبلوا دعوته بهذه السرعة لزيارة الاسكندرية. قابلت مرعى الهراوات والصفعات والركلات وكان يطير بين اقدامهم وأذرعهم وجرينا كلنا نصرخ ونحاول إنقاذه. كانوا يرتدون جلابيب سوداء، وعمماً ضخمة تهدلت على اكتافهم وعيونهم حمراء من الغيظ، وأمسك كبيرهم مرعى من قفاه يسنده حتى لا يقع على الأرض. كان

واضحا أنه أبو مرعى..

– هذا ولدنا ولا دخل لأحد فيما نفعله به، سنقتله هنا أمامكم..

كان كل مكان فى جسم مرعى يشخب دما. لم يكن من السهل رؤية وجهه تحت الدم المتفجر من كل ناحية فى رأسه، كان مشهدا محزنا حقا لم ينهه غير فلفل تاجر البهار الذى اندفع مرتميا على ساق والد مرعى..

– أبوس رجلك يا عم الحاج أن تعطينا فرصة لنعرف الحكاية، لو كان ابنك يستحق القتل سنقتله معكم..

– أعطوه الخطاب.

أمر والد مرعى أحد أبنائه الذى أخرج من صداره خطابا ناوله لفلفل وصرخ فيه.

– اقرأ ماذا كتب ولدنا.

راح فلفل يقرأ فى صمت ونحن حوله، وكل رجال المساكن الذين تواجدوا بالشارع والأولاد وحبشى وبدرة وكل النساء الخارجات الملاحة تجمعن أيضا حول الرجال يتفرجن على ما يجرى.

لا صوت لفلفل غير أن وجهه يتغير من الأحمر إلى الأصفر إلى الأخضر إلى الأسود ثم صرخ «مرعى لا يعرف الكتابة يا رجال، مرعى مظلوم لا يعرف الكتابة يا حاج»

نظر والد مرعى للرجال الذين معه لكن الأسف لم يصعد إلى وجوههم، وإن صعدت الحيرة. وقال فلفل:

– الآن اتركوا مرعى وتعال نجلس فى الدكان نعرف الحكاية بهدوء..

دخلوا دكانة العنيبسى التى اتسعت لعدد قليل، وانفض الزحام. بعد قليل صار الناس يضربون كفا بكف. لقد أملى مرعى على الديب كلاما وكتب الديب كلاما آخر.. مرعى يملى «والدى الحبيب» وكتب الديب

«والدى الحمار» مرعى يملى «أتمنى أن تكون بخير أنت وأمى وإخوتى والعائلة كبيرها وصغيرها» وكتب الديب «أتمنى أن يدهسك قطار وتغرق أمى فى الترعة أما اخوتى وعائلتى فتأكلهم الديابة فى الصحراء» مرعى يملى «وجدت عملا فى الاسكندرية مرتاح فيه وياليتكم تزورونى» وكتب الديب «وجدت عملا ولا أريد رؤية أحدكم لأنى لا أتشرف بكم فأنتم عار على المجتمع والثورة كما قال الرئيس جمال عبد الناصر!!»

لم ينم أحد تلك الليلة. اختفى الديب ولم يعد للظهور بعدها حتى اليوم. رأى الناس زوجته وطفليه يتركون المساكن بالليل.. ظل أهل مرعى فى الاسكندرية أسبوعا يبحثون عن الديب لقتله.. قيل إنهم أوصوا أقاربهم فى الوكالة ليقتلوه بعد رحيلهم. مرعى لايزال يعمل فى دكانة العنيبسى متيقظا لكل كلمة تقال عن الديب علّها تهديه إلى مكانه ليقتله. يا إلهى.!

إذا عدت إلى نفسى، فى محاولة أن أضع نفسى فى قلب المكان، فلم تتطور قصتى مع سعدة. حبسها المطر والبرد، فى الايام المشمسة القليلة كانت تصعد إلى السطح لترسل إلىّ الاشارة الضوئية. صار اخوتى يتعجبون وأبى وأمى معهم، لأمرى وأنا افتح طاقة سقف الصالة فى صباحات كثيرة فتدخل منها الريح وأحيانا يفاجئنا المطر. لم يفطن أحد حتى الآن لحيلتى. كلامنا وكل منا على السطح المقابل للآخر يكون همسا، أحيانا بالإشارة، أكثر الوقت نبتسم بلا سبب. لعله الفرح الذى يجتاحنى حين أراها، ولابد أنها تفرح أيضا، فهى لا تكف عن إرسال الرسائل، فى كل مرة رسالة تقريبا، ورقة صغيرة تطويها على زلطة أصغر ثم تقذفها إلىّ. إنها لا تجيد الكتابة عن الحب، مازالت طفلة، وأنا حتى الآن لا أرسل إليها أى رسالة، فلن تفهمنى، لكنى أحثها على قراءة

أى شئ يقع فى يدها، صحيفة أو كتاب، تفعل ذلك وتكتب لى عنى بضعة أسطر فى كل مرة. الاسبوع الماضى قذفت الرسالة. طوت الورقة على نفسها دون «الزلطة». حملت الريح الرسالة إلى منور البيت المجاور فسقطت داخله. بان الذعر على وجهها. خافت حتى كادت تتلاشى. البيت المجاور يسكنه عم كيرلس وابنه اسحق، وعم كيرلس يخرج من العمل إلى البار كل يوم ولا يعود إلا في منتصف الليل وكذلك يفعل اسحق فيما يبدو فهو يعود سكرانا بالليل مع ابيه. قلت لها ألا تقلق، اننى سأعالج الأمر، أن عليها أن تنزل إلى البيت. ونزلت أنا إلى الشارع أفكر فى العمل. قد يرى كيرلس الخطاب ويقرؤه بصوت عال وربما يدفعه السكر إلى ايقاظ الناس جميعا فى المساكن وتلاوة الخطاب عليهم . ستكون فضيحة حقيقية. كانت الماكينة الحمراء أمامى مغسولة ناضحة بالرطوبة والأرض الترابية على الشاطئ طرية ندية وجدران المساكن من الخارج مبتلة أيضا بفعل مطر الليلة السابقة، ولا أحد يبرز من دكانتى العنيبسى والسيد خليل، ولم يظهر تاجر البهار، وبالطبع لم يظهر محمود الملاح الذى سافر منذ شهور إلى القاهرة ولم يعد ولا أعرف من هو مصدر الإشاعة التى تقول إن محمود الملاح سافر إلى ايطاليا مع كومبارس إيطالية وهناك سيجرب حظه فى السينما العالمية..

كذلك لم يظهر محمود القزعة على الدرج المؤدى إلى القبو اليوم. تواطأ الجميع على الغياب، لكن الولد الصغير رمضان مرَّ من أمامى فجأه ليشترى شيئا من دكانة العنيبسى. بعد قليل عاد يحمل فى يده باكو شاى ماركة «الكوباية».

- تعال يا رمضان.

- نعم يا استاذ سليمان.

كان حافيا ويرتدى شورتاً فى هذا الشتاء. والده مشهور بالقسوة.

– سأعطيك ثلاثة قروش تدخل السينما وتشترى طيارة ورق أيضا.

اتسعت عينا الولد الذى لم يتجاوز السادسة من العمر بعد.

– ستصعد معى إلى السطح وتنزل بحبل من منور بيت عم كيرلس تحضر لى ورقة طارت منى وأنا فوق السطح.

– ولو رآنى عم كيرلس..

– يا رمضان لو عم كيرلس موجود كنت طرقت الباب!

– حاضر يا أستاذ سليمان، لكن امسك الحبل بقوة.

– لا تخف يا رمضان.

أحضرت حبلا، وصعدنا إلى السطح معا، ربطت رمضان من وسه بالحبل ورحت أدليه من المنور.

– أنا خائف يا استاذ سليمان.

– لا تخف أنا معك.

كان باكو الشاى فى يده لا يتركه وأنا أراه نازلا معلقا فى الفضاء حتى وصل الأرض بسلام. بسرعة امسك بالورقة المطوية ورحت أجذب الحبل أرفعه إلى أعلى. لقد كان رمضان ثقيلا بأكثر مما يبدو من جسده. ثقيلا فى النزول وفى الصعود. أرهقنى للغاية وأنا ارفعه شبرا شبرا. عدت قليلا إلى الخلف وصار الحبل يحتك بجانب المنور وأنا أسحبه على مهل. وصلت رأس كروان إلى السطح وهوب، انقطع الحبل وهوى رمضان بسرعة وسمعت صوت ارتطام جسمه بالأرض. آه يا استاذ سليمان. سمعت صوته يتألم وشملنى الرعب أن يكون أصابه كسر ما.

– رمضان. حاول تتحرك.

- ظهرى يا أستاذ سليمان. لا أستطيع.
- حاول أرجوك. حاول.

وسكتَ لحظات وقفت فيها متحيرا، لكنى سمعت صوته يقول:

- خلاص يا أستاذ سليمان أنا وقفت.
- حاول تمشى.
- مشيت. أنا سليم يا أستاذ سليمان.
- طيب يا رمضان سأنزل لك الحبل مرة أخرى.
- لا. أرجوك. سأظل هنا حتى يأتى عم كيرلس وأخرج من الباب.
- لكن كيرلس سيأتى فى منتصف الليل.
- مش مهم!.

رأيته يجلس على الأرض ويبدأ فى البكاء. ظل لوقت طويل يبكى وأنا فى حيرة على السطح، ثم تركته وجلست بالشارع حتى منتصف الليل أنتظر كيرلس الذى جاء وفتح الباب وأنا معه أشرح له كيف سقطت احدى الورقات المهمة من أحد الكتب وأنا أذاكر فوق السطح وكيف حاولت إخراجها بالحبل ورمضان، ولاحظت أن عم كيرلس لا يهتم بما أقول، بل بدا لا يسمع فسكتُ، وفتح الباب فخرج رمضان مسرعا لا يكلم أحداً. رمضان. رمضان. ناديت عليه فوقف بالشارع والقى لى الورقة على الأرض وأطلق ساقيه للريح. الفلوس يا رمضان. الثلاثة قروش. لا أريد يا استاذ سليمان. كان والده طوال هذا الوقت يبحث عنه وكلما مر من أمامى هو أو أحد أخوته أشيح بوجهى عنه، اسمعه يقول يائسا الولد خرج يشترى لنا باكو شاى فلم يعد، يكون اتخطف!؟ وأظل أشيح بوجهى عنه. ترى ماذا سيفعل أبوه معى إذا عرف القصة. لكن رمضان فيما يبدو لم يتكلم. ولا أعرف أى نوع من المعلومات وصلت إلى أسرة

سعدة جعلتها تخفيها عن المكان تماما. قالت لى أختها الصغرى انهم أرسلوها عند خالها فى الحضرة. فى أى مكان فى الحضرة؟ لا تعرف. هل تم ذلك لإبعادها عنى؟ هل يعرفون بالقصة؟. الأيام هى التى ستكشف لى الحقيقة. لكن ما هى هذه القصة العجيبة من الحب التى انفجرت بينى وبين هذه الطفلة. وكيف لا أستطيع أن اتحدث مع أحد عنها؟ هل يمكن؟. وهل سأتحمل غياب وجهها الصبوح الذى كنت أراه فوق السطح فيخيل إلىَّ انه هو الذى يضئ الدنيا من حولى. أمس رآنى تاجر البهار شارد اللب فقال لى يا استاذ سليمان عليك بلبان جاوة قلت له ما هو لبان جاوة قال اللادن، يحميك من الشر، وتطيَّب بالكافور فهو ينعش الدنيا حولك، وأشرب الدارصين، أى القرفة، أى خشب الصين، فهى تشرح صدرك، وقبل النوم اندغ ثلاث حبات من الحبهان وتنفس يتعطر فمك وتخرج كل روائح أكل النهار ولا تحرم طعامك من القرنفل، فالبيت الخالى من القرنفل ينمو فيه الفقر، وزامله بالزنجبيل وانتبه إلى السعادة التى تمشى فى دمك، وليتك تترك هذه البلاد وتأتى معى إلى سومطرة والهند والصين نبنى قصرا من أشجار البخور واللبان، قصرا مليئا بالبَركة، ونصطاد أيائل المسك الذكور على هضبة التبت، فأيائل التبت تحمل أفضل المسك لا يتعطر به إلا الملوك والأمراء.. يا استاذ سليمان لقد تركنى محمود الملاح بعد أن كنت جذبته إلى عالم المتعة السحرية، كنت أتمنى لو سافر معى على طريق التوابل لنصل إلى أرض الله المسحورة فى آسيا. الآن أريدك معى. أم لعلك توافقنى على أن أقاضى الدولة مطالبا بأراضى جدى عمر بن سليمان نجم الدين القاضى الدمامينى، صاحب الوكالة التى كانت أكبر من شارع فرنسا قبل شارع فرنسا وقبل فرنسا ذاتها!.

بدا لى تاجر البهار فى موقف عجيب، فكرت للحظة أن مسًّا أصاب عقله. تذكرت أن أحدا منا لا يعرف من أين جاء ولا متى ظهر فى المكان، وكيف قبلناه كحقيقة كونية، كشئ أنزله الله من السماء علينا. فكرت أى نوع من العذاب يمكن أن يحمله هذا الرجل الغامض لكنى رأيت عيد قادما من بعيد فى ثياب نظيفة ومعه خمسة من المجاذيب وعدد من أولاد المساكن يقابلونه ضاحكين.. بسرعة أحاطوا به ومن معه من المجاذيب الذين كانوا قد اقتربوا منا فى طريقهم إلى الملاحة. كنا نعرف أن عيد قد اختفى لأسابيع طويلة، وأنه صار ملازما لحارس المشرحة العمومية بكوم الدكة لا يتحرك إلا حين يتم نقل احدى الجثث المجهولة للدفن بمدافن عامود السوارى أو المنارة. يقف عيد ويساهم مع عدد من الذين يعملون بالمشرحة فى حمل النعش الذى يمشون به حتى المدافن. كيف توصل عيد إلى المشرحة؟! كيف انتهى إلى هذا العمل؟ لا أحد يعرف. لكن كان واضحاً أن عيد لا يتقاضى عليه أجرا. الذين رأوه قالوا إنه أحيانا يتعطف عليه بعض المشاركين فى الجنازة من المارة بقرش أو قطعة بخمسة قروش، لكنه يعطى الفلوس لأول امرأة تقابله وينظر فى عينيها فى الطريق. كان دائما يحمل النعش وعيناه تنظران إلى جانب الطريق حيث الرجال والنساء. وبدا دائما قويا، يدخل تحت ذراع النعش عند المشرحة فلا يخرج من تحتها إلا عند المقبرة بينما يتغير الثلاثة الآخرون كثيرا فى الطريق من طالبى الثواب والأجر من الله.. كان عيد أحيانا يشرع فى الهرولة الخفيفة، حتى بالميت الثقيل، فيهرول الآخرون، ويجرى فيجرون بالنعش فتتهلل الناس وتكبِّر فرحة بهذا الميت الخفيف المبارك من الله الذاهب طائرا إلى جنة الخلد، وعيد وهو يجرى لا يكف عن الابتسامة وتطل البهجة من عينيه وعلى وجهه. باغته مصطفى...

- إلى أين ياعيد مع هؤلاء المجاذيب؟
- إلى ربنا.
- نعم ؟
- إلى الملاحة نرى ربنا.

ضحك الأولاد ووقفت أنا أتأمل. قال بلَّك.

- ربنا مرة واحدة يا عيد ؟
- تعال وانت تشوف.

سكت الاولاد قليلا ثم هتف مصطفى على طريقة أنور وجدى فى الأفلام..

- يا للا بينا..

أسرعوا جميعا ينزلون السلالم إلى القبو المؤدى إلى الملاحة ولمحت دمعا فى عين تاجر البهار ودهشة على وجه محمود القزعة جعلت السيجارة تحرقه فيتركها هذه المرة بهدوء غير مبتعد عن شروده. مشيت خلفهم. خرجنا من القبو يسبقنا عيد بقفطانه الكستور الأخضر حافيا يسرع بيقين عجيب فى الفضاء ونحن وبيننا المجاذيب الذين اختلطوا بنا نحاول جميعا أن نلحق به. كان عيد يأخذ طريقه إلى بيت خميس الجمال، ثم تجاوزه إلى مقلب القمامة العمومى للمدينة هناك عند دوران بحيرة مريوط أمام الصحراء. الأرض على يميننا بيضاء من آثار الحجر الجيرى ومنخفقة تتناثر فيها مخلفات المدينة، وعلى يسارنا طينية زلقة هى بدايات البحيرة بينهما طرق جافة محاطة بالهيش والبوص والحلفاء. الأرض أمامنا ملحية وطينية يختلط فيها بياض الملح بسواد الطين وبعدها تبدو مياه البحيرة صافية ممتدة حتى الأفق البعيد وليس هناك صياد واحد الآن فى المساء.

وقف عيد ونحن خلفه وهتف.

- ها هو ربنا هناك أمامكم..

تأمله الأولاد لحظة، تأملوا أنفسهم لحظات. قال هو:

- انظروا بقوة إلى السماء هناك عند آخر المياه.

انفجروا ضاحكين يضربون كفا بكف وتقدم منه مصطفى وأمسك بقفطانه من عند كتفه وجذبه إليه صارخا فيه:

- فين ربنا ياله.. انت بتستعبط؟!

سكت عيد وإن صوب عينيه إلى مصطفى. كانت الشمس الذهبية تختلط أشعتها الأخيرة بسحب رمادية تتدافع إلى الأفق قادمة من الغرب والشمال، كانت فى الفضاء تشكيلات بصرية عديدة كأنها كائنات مبهمة، وحولهم نسمة باردة منعشة تبعث على الراحة. قال إبراهيم بلك.

- أنا شايف حاجات غريبة فعلا فى السماء.

هتف عيد:

- شفتم؟. انظروا بقوة مثل بلك.

وقفوا ينظرون بقوة، وأنا معهم، بعيدا عنهم قليلا، أتابع بسمة المجاذيب وعيونهم المشدوهة، والصمت الذى ران على الدنيا، والنهار الذاهب والليل القادم وشيئا فشيئا ظهرت خطوط حمراء شفافة لوجه مستدير كبير. قال عيد:

- كل مساء، بالصيف والشتاء، يظهر هذا الوجه. كل مساء فى الصيف والشتاء يبتسم لى. انتظروا.

بدأت تظهر وسط الوجه نقط هلامية سمراء أشبه بالأنف والعيون. قال مصطفى:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، عيد اتجنن فعلا يا جماعة.

واستمر عيد يتكلم.

- إنه وجه لا يتغير لا بالصيف ولا بالشتاء. انظروا إنه يبتسم لكم.

بدأ صوت يتهادى قادما من الفضاء. صوت غير واضح كأنه سنابك خيل بعيدة، تزداد شيئا فشيئا من كل اتجاه. اقترب منى كروان وقال:

- شئ عجيب، هيا من هنا يا سليمان.

قلت له:

- لا تخف.

الحقيقة إننى شعرت بعدم القدرة على الحركة. صرخ كروان.

- لا أستطيع رفع قدمى.

- اسكت.

هتف فيه عيد زاجرا وابتسم فابتسم المجاذيب وارتفعت اصوات سنابك الخيل وبان الذعر على وجوه الأولاد جميعا، وبدأ الوجه البعيد عند الأفق يبتسم بوضوح ويكاد يشتعل ومرت قافلة من الطيور فوق رؤوسنا تبعتها قافلة ثم عدة قوافل راحت تدور فوقنا بعيدا وتصرخ غاق غاق غاق! إنها نوارس وطيور سوداء أيضا كالغربان والصوت الذى كان لسنابك الخيل بدأ يتركز فى نقطة واحدة فى الفضاء ويزداد ويزداد والاولاد فى ذعر لا يستطيعون الحركة ولا الصراخ وعيد مبتسم سعيد ينظر إلى الأفق والمجاذيب الخمسة اقتربوا منه وراحوا يندهشون مثله سعداء ثم ابتعد صوت سنابك الخيل فى الفضاء بسرعة حتى تلاشى وتفرقت الطيور مرفرفة فى الاتجاهات الأربعة. كان عرق كثير قد تفصد على وجهى ووجوه الأولاد وبدأ الوجه الكبير الأحمر الباسم عند الافق يتلاشى مع سقوط الشمس فى الماء ودخل الظلام ثقيلا فصفق عيد بقوة وبعده صفق المجاذيب الخمسة ولم يستطع مصطفى أو غيره أن يعلق

بكلمة وقال عيد:

- ربنا يحبنى ويحبكم، شفتوه وما حدش جرى له حاجة.

وهنا صرخ عبده:

- هيا يا أولاد ديك الكلب نجرى من هنا قبل أن يسخطنا ربنا خنازير يبيعها خميس الجمال.

أطلق ساقيه للريح فتبعه الجميع بينما مشى عيد ضاحكا بهدوء وحوله المجاذيب الخمسة وأنا خلفهم لا يفطنون لوجودى ولا يشعرون بى. بدأ مطر خفيف يتساقط فأسرعت وتجاوزتهم بينما ظلوا هم يمشون على مهل فى صمت عجيب. شعرت للحظة وأنا أمشى تحت المطر إننى قد انفصلت عن الدنيا، إننى تلاشيت، ثم فطنت إلى أننى فى الطريق إلى البيت!!

أعاد سليمان قراءة ما كتبه فاكتشف أنه لم تتسرب إليه أى جملة من الجمل غير المفهومة، المجنونة، التى تسربت من قبل فى كل ما كتب. هذا تغير له معنى يا سليمان. إما انك على الطريق الصحيح وإما انك ذاهب إلى التلاشى.. قال لنفسه وتذكر أن هناك شيئا كان عليه أن يضيفه فأمسك بالقلم وعاد إلى الكراسة..

من المهم جدا أن أقرر أنه قد خرج من الاسكندرية فى النصف الأخير من هذا العام خمسة عشر ألف أجنبى، أكثرهم من التجار الصغار، وتم تمصير خمسين شركة ومؤسسة، وسجلت الشركة الخديوية للنقل البحرى أربعين رحلة بحرية إلى اليونان وإيطاليا، بزيادة على ما تم فى النصف الأول من العام، لكن فى الوقت نفسه ازدادت مواليد المواطنين المصريين فبلغوا ألفى طفل، وازدادت وفياتهم فبلغت مائتى ميت، وظل مواليد الاجانب فى انكماش فسجلت وزارة الصحة عشرين

مولودا، وقلّت أيضا وفياتهم فقد مات عشرة أشخاص فى ستة أشهر بينهم خمسة ماتوا بالتسمم الكحولى. لقد ظهر لأول مرة الغش فى الكحول، وتم القبض على الشركة الوهمية التى تصنع البراندى فى إحدى الخرابات من الكحول الميثيلى.. لقد شاع الذعر من المشروبات الروحية المحلية، مثل زوتوس وبولاناكى، وارتفعت اسعار الويسكى فبلغ سعر الزجاجة من الڤات أو الچونى ووكر سبعة جنيهات بعد أن كان خمسة»..

(١١)

أخى وصديقى الأديب الفيلسوف سليمان

أدامك الله وبعد.

مع بداية هذا العام أرجو لك دوام الصحة وأن يكون عام خير وسعادة لك ولأسرتك ولكل أهالينا فى المساكن. اقرأ عن أمطار غزيرة هطلت على الاسكندرية الجميلة. المطر خير على أى حال، تعودنا عليه مع نهاية وبداية كل عام، نوّة الميلاد، وإن كان يبدو غير عادى هذا العام. حلوان خالية من المطر وجافة، رغم أنها ملائمة تماماً لصحتى إلا إنى شديد الحنين لمطر الاسكندرية، للدنيا حين تطلع الشمس بعد المطر وتصعد النساء على الأسطح، خاصة الچونى ، فيتلألأ ضوء النهار، ويملأ الأولاد الطرقات..

فى اشتياق إلى رسائلك.

المخلص

خير الدين خير الدين خير.

أخى خير الدين

تحياتى القلبية وبعد

أشكرك على تهنئتك الرقيقة بالعام الجديد. حقا أن الأمطار هذا العام غير عادية، أغلق بوغاز الميناء، وبلغت سرعة الرياح أكثر من ستين كيلو مترا فى الساعة. وقعت حوادث تصادم كثيرة لعلك قرأت عن بعضها فى الصحف ، لكن الكارثة الحقيقية كانت نوبان بعض البيوت القديمة فى المنشية وبحرى. مات خلق كثير، لكن الصحف لم تذكر ذلك. كنت سعيداً لأن العام بدأ بداية قوية بالنسبة إلى الأمة المصرية، فلقد أعلنت الصحف أن مصر تدخل عصر الذرة ببدء العمل فى مفاعل «أنشاص» النووى للأعمال السلمية، كما تم ادخال أو ل ستة أجهزة طبية تعمل بالطاقة الذرية إلى مستشفياتنا لعلاج الأنواع المستعصية من الأمراض. إنها بداية قوية للأمة المصرية كما قلت لك، لكن بالنسبة لى شخصيا بدأ العام بالحزن لمصرع الكاتب الفرنسى الوجودى البير كامى فى الرابع من يناير هذا فى حادث سيارة جنوب فرنسا. إن البير كامى صغير، فى السابعة والأربعين من عمره، وحصل منذ ثلاث سنوات على جائزة نويل فى الآداب، فهو أصغر من حصل عليها حتى الآن، ولقد قرأت له رواية «الغريب» بالإنجليزية وكذلك مسرحية «سوء تفاهم» ، ومنذ ذلك الوقت لم أعد كما كنت، تغيرت نظرتى إلى الدنيا يا خير الدين. هذا موضوع يطول شرحه.

على أى حال ، لقد كان من غرائب الأمطار أيضا نفاذها إلى غرفة العرش الملكية بقصر رأس التين. ساء حظ الملكية حتى فى الأثاث والمبانى! دار الزمن دورة عنيفة حقا على الملوك، ولعلك سمعت كيف رفضت المحكمة الابتدائية والاستئنافية فى الاسكندرية حكم النفقة الذى

كانت الملكة ناريمان قد حصلت عليه فى محاكم بيروت ضد زوجها الدكتور أدهم النقيب الذى تزوجها بعد طلاقها من الملك فاروق.

ناريمان الملكة لا تجد نفقة تعيش بها! لقد تأثر تاجر البهار جدا وكاد يبكى حين قرأ الخبر معى فى الجريدة، أما محمود القزعة فقد ظل ساهما لا ينطق حتى حرقت السيجارة أصبعيه، ثم لعن الدنيا وثورة يوليو التى لم تكتف بإذلال الملك، بل تركت ناريمان المصرية للذل أيضا. محمود القزعة على وشك الجنون، أمس ظل يتكلم طول النهار بكلام غير مفهوم ، معظمه لعنات لوزير التموين بسبب قرار إلغاء وحدة الأقة والرطل كمقياس فى الوزن واستخدام الكيلو جرام والجرام. رأيه أن هذه سرقة علنية للشعب لأن الكيلو نصف أقة لكن سعر الكليو هو سعر الأقه، حاولنا أن نفهمه أن الكيلو ثلاثة أرباع الأقة وليس نصفها وأن السعر سيتغير إلى الأقل لكنه يعتبر أن كلامنا كذب وتدليس. الثورة التى أذلت الملوك والباشوات ستتفرغ لاذلال الشعب. هكذا يقول القزعة.. ما علينا. أردت فقط أن أنقل إليك صورة مما هو جار فى المساكن أو حولها. وإلى أن نلتقى لك أجمل أمنياتى.

المخلص

سليمان

صديقى كروان.

أهديك كل سلامى.

أشتاق إليكم جدا. لنسمة العصارى والجلوس على شاطىء ترعة المحمودية. أنا هنا مبسوط والحمدلله. زاد مرتبى جنيهين فصار عشرة جنيهات. أسكن فى شقة مع اثنين من زملائى وندفع جميعا ثلاثة

جنيهات فى الشهر، أى أننى أدفع جنيها واحداً. الشقة قريبة من محطة حلوان، جوار فندق جلانز. مرضى للمرة الثانية أخافنى جدا . لا أصدق أنى نجوت. لايضايقنى هنا غير الوقت. طويل يا كروان. يبدو لى أطول مما هو فى الاسكندرية. ربما لأن القاهرة مدينة واسعة بالنسبة لشاب مريض نحيل مثلى. أمضى معظم الوقت آخر النهار فى الحديقة اليابانية حيث تماثيل كثيرة للإله بوذا. حديقة جميلة فى حلوان . وأنا لا أعرف هل بوذا هذا إله حقا أم نبى؟ يخيل إلىّ أنه واحد عادى مثلنا !. زرت الجمعة الماضية متحف الشمع. التماثيل الخالق الناطق أصحابها. شىء معجزة . أزور العيون الكبريتية أحيانا. يسمونها الكابريتاچ. أظن الكلمة فرنسية. صحتى تتحسن فيما يبدو. لن أستطيع الحضور قبل العيد الصغير. هل لا يزال محمود القزعة يتفرج على سيقان النساء؟ . النساء فى القاهرة شىء آخر. لو حضر القزعة هنا سيجن. تحياتى للجميع..

أخوك

خير الدين خير الدين خير.

أخى الكبير خير الدين

أهديك أجمل التحيات.

أنت أيضا أوحشنى فراقك. أوحشنا كلنا . نتذكرك دائما. لازلنا نتعجب كيف تعيش وحدك فى القاهرة. لقد صرت قدوة لنا نحن الأصغر سنا، صرت مثلنا الأعلى فى التحدى والقوة. ومادمت أنت سعيد فنحن جميعا سعداء. قرأت قصصا قصيرة جميلة لمحمود تيمور، قرأت مسرحية عطيل لشكسبير مترجمة إلى العربية، وكذلك مسرحية تاجر

البندقية. أخذتنى القراءة من كل شىء. فى انتظار رسائلك التى تطمئننى دائما عليك.

أخوك الصغير

كروان.

أخى خير الدين

تحياتى القلبية وبعد.

الليلة نفتقدك بشدة، فغدا يبدأ الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك، الناس كلها سهرانة رغم البرد حتى أن الأولاد يملأون الشارع تحت أعمدة النور. لكنى أشعر بالوحشة الشديدة، وكأننى وحدى فى ظلام واسع لأسباب قد أشرحها لك يوما. كنت اتمنى لو سهرت معنا هذه الليلة، ربما بددت وحشتى التى أزادها أنى شاهدت أمس فيلم أريد أن أعيش لسوزان هيوارد. فيلم إنسانى مؤلم عن إعدام امرأة جميلة مظلومة. فيلم عن قوة الرغبة فى الحياة وبؤس الإنسان أمام الموت.

قرأت خبرا عجيبا عن سيدة شابة فى أسيوط صدر عليها حكم بالإعدام فصرخت بأنها بريئة وأن القاتل هو زوجها الذى تحبه. لقد خدعها وقال لها إن المحكمة لا تصدر حكما بإعدام النساء لذلك تقدمت واعترفت بأنها القاتلة. هذه امرأة أكثر بؤسا من سوزان هيوارد لأنها جاهلة، لكن الموت المرعب جعلها تصرخ بالحقيقة. لا أعرف كيف تقع ثلاث كوارث جوية فى يوم واحد ، هو يوم أمس ، حيث انفجرت طائرة ركاب فوق إيطاليا، وانفجرت طائرة عسكرية برتغالية فوق لشبونة، لكن

المأساة العبثية هى اصطدم طائرة كانت تقل فرقة موسيقى عسكرية أمريكية بطائرة أخرى فوق خليج ريو بالبرازيل. كان فريق الموسيقى فى طريقه إلى السفارة الاميركية بريودى چانيرو ليعزف هناك لمناسبة زيارة إيزنهاور للبرازيل.

هذا العبث يقابله عبث مصرى، مضحك مبكى، يتمثل فى هذه القضية التى تنظرها المحكمة غدا بعد تداولها فى المحاكم لأكثر من ثلاثين سنة. كانت وزارة الأوقاف قد طالبت صاحب قطعة أرض فى ماسبيرو بالقاهرة بإيجار ثمانية جنيهات فماطل فى الدفع فرفعت الوزارة عليه دعوى ظل يعارض فيها والوزارة تقدم مستنداتها حتى مات الرجل، فانتقل حق الوزارة إلى الورثة، الذين بدورهم طعنوا فى مستندات الوزارة واستمر الأمر حتى مات الورثة، ثم انتقل للأحفاد وغدا تصدر المحكمة حكمها فى أمر الثمانية جنيهات التى صرفت الوزارة من أجلها أكثر من ألف جنيه حتى الآن. أليس هذا هو سوء التفاهم بأجلى معانيه. أى عبث! لا تلمنى على هذا المزاج السوداوى هذه المرة. على أى حال فى ايطاليا تجرى محاكمة لأنيتا إيكبرج الممثلة الجميلة ذات الصدر العالى لأنها رقصت عارية فى ملهى ليلى. لقد دعتها راقصة الملهى التركية التى كانت تخلع ملابسها قطة قطعة أمام الرواد فقامت أيضا وفعلت الشىء نفسه فدخل البوليس وتم توجيه تهمة الخروج على الآداب إليها وإلى الراقصة التركية. كان ذلك عام ١٩٥٨، والقضية مستمرة حتى الآن، ولاشك أن هذا يسعد قراء الصحف فى إيطاليا. فى الأسكندرية يعرض أيضا فيلم جميل هو البعض يفضلونها ساخنة، سأجد الفرصة لمشاهدته لينشلنى من هذا المزاج. لقد وضعت بريچيت باردو مولودها الأول الشهر الماضى ولا زالت الصحف تتحدث عن ذلك،

لكن أعجبتنى زيارة بول برينر لمعسكرات اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان باعتباره سفيرا متجولا للأمم المتحدة ، كذلك أعجبتنى زيارة عبد الحليم حافظ إلى ليمان طره وغناءه للمساجين. دعنى أحاول التخفيف عنك وعن نفسى. يقولون إن هذا العام هو عام أفريقيا بسبب حركات الاستقلال. منذ ثمانين سنة كانت الصيحة تدفقوا إلى افريقيا، الآن فهى أخرجوا من أفريقيا. أدهشنى أن حسنى مورو قاتل أمه تبرع بعينيه لبنك العيون بعد أن يتم إعدامه بشرط عدم تركيبها لامرأة، طبعا. لكن خذ هذه الإحصائية المدهشة التى نشرتها الصحف عن الخضار الذى استهلكته الاسكندرية العام الماضى:

١٤ مليون أقة بطاطس و ٤,٥ مليون أقة باذنجان و ٥,٢ مليون أقة كوسة و مليون أقة بامية و٦,١ مليون أقة ملوخية، و١,٣ مليون أقة فاصوليا و ١,٤ مليون أقة قلقاس، ومليون أقة بسلّة و ١,٤مليون كرنبة، و١,٢مليون قرنبيطة و٤,٥ مليون خرشوفة، و ٣٣,٥ مليون أقة طماطم و ٥,٢ مليون أقة خيار......

الإحصائية طويلة لم تترك صنفا من الخضر إلا وذكرته ، ولا أعرف معنى لنشرها ونحن على أبواب رمضان، هل هى تحذير من الإسراف فى الخضر؟ وما معنى قولهم أن أهل الاسكندرية أكثر الناس أكلا للخضر؟ ما معنى هذا الحسد الأحمق؟ طيب لماذا لا يتحدثون عن الأراضى الزراعية جنوب خط الرمل التى بدأت تتآكل ويغزوها الغرباء من شمال وجنوب مصر؟ انها مراكز صغيرة جدا الآن لكنها ستكبر وستقضى على الخضرة وستصبح مناطق عشوائية نموذجية وأوكارا للإجرام، واللى يعيش ياما يشوف! لماذا لا يتحدثون عن عمليات تهريب النقد التى تتم على قدم وساق من قبل الأجانب الذين يستعدون لمغادرة البلاد، ولماذا لايتحدثون عن الدعارة التى لاتزال تمارس علنا فى

الشوارع القريبة من الكورنيش ولماذا لايتحدثون عن مئات الأطفال الذين يتسولون فى الطرقات أو يجمعون أعقاب السجائر؟

لا أريد أن آثقل عليك، أردت أن أغير مزاجى الاكتئابى بذكر بعض الطرائف فلم أفلح. يكفى هذا الآن. لعلك لو كنت بيننا هذه الليلة المباركة لكانت أفضل. إن شاء الله نراك فى العيد فى أحسن حال.

أخوك

سليمان

أخى الكبير خير الدين

أهديك أجمل التحيات

أمس كانت الچونى سهرانة عندنا مع أمى ونوال وحُسنة. فى رمضان يحلو السهر كما تعرف. قرأت لهن خطابك الأسبق. سامحنى . ما عدا، طبعا، حديثك عن محمود القزعة وسيقان النساء! تأثرت الچونى وقالت إنها ستراسلك فى أسرع وقت ، وإنه لا يؤخرها عن ذلك غير أنها لاتعرف كيف تكتب الرسائل، وإنها اشترت كتاب اشهر الرسائل الغرامية كى تحل هذه المشكلة! كنَّ فى حزن شديد بسبب رحيل نادية سلاّم. زوَّجها أهلها بالعافية لقريب لهم فى الصعيد. رأتها أمى قبل سفرها. أخبرتها نادية أنها حاولت الانتحار أكثر من مرة وفشلت . لم تطاوعها نفسها على قتل روحها. أمسكت صفيحة الدى.دى. تى ولم تستطع أن تشربه. سكبت على نفسها الجاز ولم تستطع اشعال عود الكبريت. انتهت الليلة ببكاء جماعى من البنات وأمى أيضا!. نوال التى لم تعد تتكلم كثيرا كانت أكثرهن بكاء، وأخرجت من شنطة يدها علبة سجائر سحبت منها سيجارة وأشعلتها ثم راحت تدخن كأحسن مدخن بين دهشة الجميع. قالت إنها منذ القبض عليها وهى تدخن السجائر

وتشرب القهوة السادة، وأن الضابط الذى قبض عليها لا يريد أن ينساها، أرسل واستدعاها أكثر من مرة وطلب منها أن تكتب تقارير عن زملائها من الممرضات والأطباء والمرضى أيضا إن أمكن، وأن هذه هى الطريقة الوحيدة المضمونة لدخولها إلى الإذاعة. نوال قالت أيضا إنها لم تعد قادرة على الغناء. ولم تعد تحبه، وصوتها صار خشنا لكن الضابط لا يرحمها ويهددها.

تقول إنها حتى الآن لا تنفذ رغباته، وإنها بالليل تغنى للمرضى فيصفو صوتها ويصير كالبللور. نوال قالت فجأة «لازم أعمل أى حاجة» وبدت شاردة. خافت عليها أمى والچونى وحسنة وأنا أيضا شعرت بالخوف عليها. لكن لماذا أنقل لك هذه الصورة الصعبة؟. سميرة خرجت من حزنها على خطيبها وصارت تسهرعندنا رغم عدم حضورها أمس. تقول إن مدرساً زميلا للطفى أخيها سيتقدم لخطبتها، المشكلة أن لطفى وهو يجلس معه بالمقهى سقط من فوق المقعد فانكسرت فخذه مرة أخرى.

المخلص

كروان

حبيبى خير الدين

ربنا معاك وقلبى معاك. لم يعجبنى كتاب الخطابات الغرامية. كلامه حلو لكنه ليس كلامى. سامحنى يا خير الدين إذا كان أسلوبى مش ولابد! أنا والله أحبك أكثر من عدد نجوم السماء، وأحب أسمع عبد الحليم حافظ وهو يغنى على قد الشوق اللى فى عيونى ياجميل سلِّم، وأحب دائما أهديها إليك خصوصاً لمّا يقول «دمعى شهودى جَرّح

خدودى فى ليل سهادى» خذ بالك من صحتك يا خير الدين ، الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لايدركه إلا المرضى. بعد الشر عنك يا ح. ب. ي. ب. ي.

المخلصة إلى الأبد

الچونى

حبيبتى الچونى..

لك من قلبى أرق الأمنيات وأحلى الهمسات..

إذا كان هناك شيء واحد حلو بقى من الإنجليز فى مصر فهو اسمك الذى صار عنواناً على الجمال. أشتاق إليك با لليل والنهار، خطابك أعطانى قوة تهد جبال. وجهك لا يفارق خيالى. أعمل وقتا إضافيا أتقاضى عنه ثلاثة جنيهات شهريا. أوفر الآن ستة جنيهات كل شهر بعد مصاريف السكن والمأكل والملبس ، لذلك سيكون معى خلال عام ونصف على الأكثر المائة جنيه التى التزمت بدفعها مهراً لك. بعد ذلك سيكون أمامنا عام آخر حتى نتزوج. ما رأيك فى فستان فرح ديبا التى تزوجها شاه إيران آخر العام الماضى؟ فستان من محلات كريستيان ديور فى باريس. ياخسارة . قبل العدوان الثلاثى الغاشم كانت منتجات كريستيان ديور موجودة فى مصر. السياسة ضيعت علينا فرصة شراء الفستان! ما رأيك فى هذه النكتة؟.. والله أنت عندى أجمل من فرح ديبا، والفستان الذى ستعده لك أبلة نرجس أحسن من كريستيان ديور. ثم اسمعى الجورنال كتب إيه عن فستان فرح ديبا:

«فستان مخيب للآمال الذى ارتدته فرح ديبا فى فرحها. لقد ظل الفستان الذى صممه كريستيان ديور سراً حتى يوم الزفاف فكان مفاجأة لكل بيوت الأزياء. لقد أعاد موضة «الأمبير» التى أنتهت من

سنتين ، وهو يشبه قميص النوم، وعبارة عن فستان بسفرة مرصعة بفصوص من اللولى والمجوهرات ينزل عنها چيب بكُسَر بسيطة، والچيب ليست واسعة وليست ضيقة، أما الديكولتيه فهو مدور وبدون أكمام يلبس فوقه بالطو بأكمام طويلة ومطرز يشبه «الليزوز» ينتهى بذيل طويل مرصع كصدر الفستان تماماً» وأنا طبعا مش فاهم يعنى آيه «الأمبير» والليزوز، لكن ربما تعرفينه أنت أو أبلة نرجس. قالت الصحفية فى النهاية إن الفستان جاء مخيبا للآمال.. رغم أى شىء أريدك تقرئى هذه التفاصيل لأبلة نرجس حتى تصنع فى الوقت المناسب فستاناً أجمل لك. المهم يا حبيبتى بمناسبة عبد الحليم حافظ أحب أهديكى أغنيته الجديدة «باحلم بيك»، أسمحى لى أغنيها لك رغم صوتى الخشن!!.

المحب المخلص الولهان

خير الدين خير الدين خير

صديقى كروان

أهديك كل سلامى

هل تعرف كيف كان الوقت الذى أمضيته بينكم فى العيد الصغير؟

كان كأنه فى الجنة. هى ثلاثة أيام فقط لكنها كانت أجمل ثلاثة أيام فى عمرى يا كروان . صحيح أنى لم أرك غير دقائق ولا سليمان ، ولا أحد غير الچونى، لكنك ستعذرنى . هل سيعطينى الله فرصة مرة أخرى فى قضاء ثلاثة أيام جديدة فى هذه الجنة؟ ياليت!.

لقد عدت فرحانا جدا ونشيطاً جدا إلى حلوان . أخذت من الچونى طاقة كبيرة على الحياة.. هل تعرف إنى ذهبت إلى نوال فى المستشفى؟ فاجأتها فى العيد فاندهشت جدا. حدثتها عن كلامك لى فى خطابك

الأخير وطلبت منها أن تتماسك وألا تخشى شيئا، قلت لها إننى أعيش فى حلوان لكن الطريق سهل جدا بالمترو إلى باب اللوق، ثم من على الكورنيش يمكن أن اركب المترو إلى منشية البكرى حيث يسكن الرئيس جمال عبد الناصر، والمشوار كله لا يستغرق أكثر من ساعة ونصف، واستطيع أن أقدم إليه شكوى بالحاصل معها. قالت نوال إن عم حمزة سبق له وقدم شكوى للرئيس حين قبضوا عليها وأنه لذلك أفرجوا عنها، وهى لا تظن أن الرئيس متفرغ لها ، كفاية عليه مشاكل البلد مع الاستعمار!. وقالت لى أنها قوية وستنتصر. والحقيقة يا كروان أننى وجدتها كذلك . بل إنها هى التى اعطتنى شيئا من القوة. قالت لى ألا اتحدث فى هذا الموضوع مع أحد حتى لا يصيبنى أذى، قلت لها أنا لايهمنى شىء، العمر واحد والرب واحد. يا سلام يا كروان . لقـ أحسست هذه المرة أن ربنا خلقنا كلنا، سكان المساكن، من أم واحدة وأب واحد، وهذا سر الألفة والمحبة التى بيننا جميعا، بنات وصبيان. اقرأ الآن كتابا جميلا عنوانه «دع القلق وابدأ الحياة» . سامحنى سأغيب عنك برسائلى قليلا حتى أعطيك فرصة للمذاكرة فالامتحانات على الأبواب. هل نسيت يا كروان؟

أخوك

خير الدين خير الدين خير

(١٢)

اندفع العربى يبكى فى حضن كاتينا بصوت مقهور. قالت فى ألم.

– لا فائدة يا عربى .انتهى كل شىء.

حقا انتهى كل شىء وعليه أن يدرك ذلك. هذه هى الحقيقة التى عليه مواجهتها. غدا سترحل كاتينا وستتركه وحيدا فى الهواء. منذ بداية العام وهى تستعد للرحيل وهو يكذّب ما يرى بعينيه. الآن آل الأتيلييه إلى چورچيت، من الغد هى السيدة الأولى، من الغد سيترك الأتيلييه. سيتلقفه الفراغ لكن لن يبقى فى مكان لم تعد فيه كاتينا.

كانت چورچيت تنتحب فى ركن من الصالة ، وهو لا يصدق دموع چورچيت، أما اسمهان فقد سافرت بعد بداية العام ولم يتأثر بغيابها. سفر كاتينا هو الغياب الفاجع. جذبته كاتينا إلى صدرها وراحت تمشى باصابعها فى شعره بحنان وتتكلم،

– عارف عربى أنا زعلانة أكثر منك . أنا حاسة أنى شجرة يخلعونها من الأرض بالقوة، جذورها تتقطع وهى ماسكة فى الأرض لا تريد أن تتركها.. أنا حزنى أكثر منك عربى. أرجوك لا تبك أمامى . ثم أنت رجل عربى والرجال مثل الجبال لا يبكون . أنا واحدة ست كبيرة. أكثر من خمسين سنة عربى. من زمان أقول لك أنا خمسين سنة . الحقيقة أن أنا دلوقت اكتر. شوف عربى. أنا جربت رجال كتير لكن لم أنس زوجى. ياناكيس عربى. ياناكيس كان عظيم لا يعوض. كان شيوعى عربى. أنت تعرف يعنى إيه شيوعى طبعا دلوقت. تعرف يعنى إيه يسارى عربى. يعنى يكره ملك فى كل مكان. ملك مصر ملك يونان ملك إنجليز. كان يكره الرأسمالية والاحتلال النازى. يكره الاستعمار. مات فى جبال اليونان عربى. كان وطنى كبير. تمام زى جمال عبد الناصر. عارف رغم إن كتير من الأجانب يمشى من مصر لكن الحقيقة إن جمال هذا يحب بلدكم عربى.لازم حد يدفع ثمن هذا الحب. نحن الأجانب ندفع الثمن. غير مهم. نحن عندنا بلاد نسافر إليها. المشكلة عربى أن هناك أجانب

غير فاهمين، ومصريين يكرهون كل حاجة من الأجانب، حتى النظام حتى النظافة حتى الحرية. هذا غلط عربى. لذلك لازم تحصل مشاكل كتير فى مصر مع الدول الأجنبية.

المهم الآن عربى أن تحافظوا على بلدكم. على اسكندرية الجميلة عربى. أنا أمشى غيرى يمشى لكن اسكندرية لا تمشى. ثم إنه ممكن جداً أرجع حتى وأنا عجوزة كركوبة أزور اسكندرية وأمشى فى الشوارع وأقابلك تانى لكن لا نتكلم فى الحب أو فى الجواز. أنا وكل الأجانب غير زعلانين من اسكندرية. اسكندرية بلد تحب الأجانب من أول يوم. اسكندرية يعنى أجانب عربى. لكن المصريين لازم يتمتعوا باسكندرية.

عارف عربى كيف بنى الاسكندر اسكندرية. فتح محارة كبيرة طلعت منها اسكندرية. اسكندرية بلد مسحور عربى . الأجانب حافظوا كتير على اللؤلؤة التى طلعت من المحارة. على اسكندرية يعنى. المهم أنتم أيضا تحافظوا عليها. إياكم أن ترجعوا اللؤلؤة للمحارة وترموها فى البحر!

لازم اسكندرية تفضل واسعة جميلة بيضاء نظيفة . الاسكندرية الآن تبكى على أصدقائها الأجانب. أنا أعرف اسكندرية جيدا عربى. أنت مسكين عربى لاتعرفها . لم تجلس فى كلوب محمد على ولا فى نادى سبورتنج ولا فى أى كلوب للأجانب. إنت لم ترقص فلامنكو ولا سامبا ولا رومبا ولا روك آند رول ولا شفت رقصة الكان كان عربى. أنت لا يجب يخاف لما كاتينا تمشى . تقدر تشتغل اشغال كتير. أنا عارفة إنك لايمكن تنبسط مع چورچيت - رفعت چورچيت إليها عينيها تعاتبها فقالت لها معلهش چورچيت أنا أعرف عربى كويس واستمرت تتحدث

إليه - أنت اسكندرانى، يعنى شجاع عربى لايخاف. هيا قم نشرب ميتاكسا. هيا نسكر عربى. هذه آخر ليلة.

قام العربى ثقيلا وأحضر زجاجة البراندى والكؤوس. قالت چورچيت إنها ستشاركهما بكأس واحد. قامت كاتينا وأحضرت حقيبة صغيرة وأخرجت ما فيها وقالت.

- شايف عربى أنا واخده إيه من اسكندرية. عُملات، مئة جنيه، عشرين جنيه، عشرة جنيه، خمسة جنيه، جنيه، نص جنيه، ربع جنيه. بريزة. شلن . عملات معدنية كمان. نصف فرنك. قرش صاغ. قرش تعريفة، مليم أحمر. هذا جنيه السلطان حسين الفضى، شوف ثقيل قد إيه، وهذا جنيه الملك فؤاد، وهذا جنيه الملك فاروق، وهذا جنيه جمال عبد الناصر عليه صورة نسر، جنيه السطان حسين كان يشترى دولاب، وجنيه الملك فؤاد أيضا، جنيه الملك فاروق كان يشترى تايير، جنيه عبد الناصر يشترى بلوزة عربى. الدنيا تغيرت كتير. تعرف أنا سأترك كل ما فى الشقة لچورچيت، وأنت لك خمسين جنيه.. خمسين جنيه كاتينا أحسن من خمسين جنيه راشيل عربى. لازم تبدأ بها حياتك. تعمل أى مشروع. أنا سوف آخذ من اسكندرية اللوحة هذه الملفوفة في ورق، لوحة غير أصلية طبعا لفنان كبير اسكندرانى اسمه محمود سعيد، لوحة فيها بنات بحرى . اسمها بنات بحرى. لوحة تفكرك طول العمر باسكندرية، أيضا اشتريت صورة كبيرة لميدان المنشية وتمثال محمد على فى وسط الميدان وطبعا صورى التى تصورتها فى اسكندرية طول عمرى مع ياناكيس ومع أصحابى ومعك أنت أيضا، لكن أهم شىء أخذته عربى هو هذه.

وأخرجت من الحقيبة زجاجة صغيرة بها رمل وقالت وهى تنتحب.

- زجاجة رمل من شاطىء ستانلى سأحتفظ بها طول عمرى عربى.

هنا انتحب الجميع، وارتفعت حرارة أجسادهم ولما كاد العربى ينفجر من الحزن وقف وفى يده كأس البراندى وهتف وهو يغمغم.

- الليلة آخر ليلة لكاتينا الجميلة فى الاسكندرية عروس البحر المتوسط. الليلة لازم تكون أحلى ليلة، رغم إن اسكندرية كلها زعلانة علشان كاتينا. كرموز وبحرى والسيَّالة وخط الرمل كله والمنشية وحارة اليهود وسوق الخيط والميدان. اسكندرية الماء والهواء. اسكندرية محمود الملاح و سليمان وفلفل مطحون والبنت الحلوة حكمت والتى هى أحلى وأحلى الجونى وحتى حُسنة أختى . اسكندرية محمد على باشا وإسماعيل باشا والملك فاروق باشا وجمال عبد الناصر باشا!

وأمسك بزجاجة الرمل ورفعها إلى أنفه يشمها ويهتف ويغمغم.

- اسكندرية ماريا وترابها زعفران. اسكندرية كاتينا الجميلة التى لبّست أجمل النسوان والبنات. أعظم خياطة، ملكة العطارين وأميرة السمّان والميتاكسا والشقاوة. الليلة لازم تكون أحلى ليلة. يعنى ننزل كلنا نأكل سمان ونطلع على البحر نركب حناطير لحد الصبح، وياريت نستحم فى البحر. نعوم . نعوم لحد اليونان. أى والله اليونان..

وسكت الجميع . جلسوا فى صمت عجيب يشربون ويأكلون.

- حط لى اسطوانة الآهات لأم كلثوم عربى.

نهض العربى على مهل ووضع الأسطوانة على البيك أب.

- دلوقت تمشى، أنت وجورجيت.

- من يوصلك المطار كاتينا بكره الصبح؟

- أنا مسافرة مع ثلاثين واحد وواحدة من الجالية اليونانية، ثم أننا سنسافر بالمركب.

– طيب أسهر آخر ليلة معك كاتينا.

– لا حبيبى عربى. أرجوك. أنا عايزه أكون لوحدى.

– لماذا كاتينا؟

– لأنى عايزة أقعد أبكى لوحدى طول الليل. أرجوك عربى..

لم يستطع حتى أن يكمل الليلة فى بار اللؤلؤة الرزقاء، دمرً عشرين جنيهاً من الخمسين فى أقل من ساعة. فتح ثلاث زجاجات ويسكى لثلاث نساء ونهض يبصق على كل شىء . منذ قليل أخذ كاتينا فى حضنه لآخر مرة. ضمها بشدة كأنه يريد إخفاءها فى صدره. قبَّل رأسها ووجهها وعينيها وأنفها ويديها، وهى أيضا فعلت ذلك، ثم خرج جاريا تاركا چورچيت تودع كاتينا على مهلها.

لن يرى چورچيت مرة أخرى ولا يريد . لن يمر من هنا.

أخذ طريقه إلى محطة الرمل، والتقطه التاكسى إلى اللؤلؤة الزرقاء. لم يستطع البقاء. كان يشرب الويسكى من الزجاجة ويسمع صوت زخات المطر الخفيفة فى الخارج ولا يغيب عن باله صوت كاتينا جالسة وحدها فى البيت تشرب الميتاكسا وتسمع آهات أم كلثوم وتبكى، كاتينا التى لا علاقة لها بالتمصير ولا تخشى التأميم الذى يتحدث عنه الأجانب كخطوة قادمة بعد عام أو اثنين على الأكثر ، كاتينا الآن اكتشفت إنها منذ مات ياناكيس كان عليها أن ترحل، أو على الأكثر منذ سافرت فيدرا مع زوجها إلى اثينا واستقرا هناك.. لاتزال هناك يونانيات ويونانيون فى الاسكندرية، فلماذا دون الجميع وجد عملا عند كاتينا التى كانت أسرع من الجميع فى الرحيل؟.. كيف حقا بدأ العمل عند كاتينا؟. هذا تاريخ قديم ما فائدة أن يتذكره ؟. لقد كانت سنوات العمل عندها أجمل سنين عمره على أى حال. ماذا يمكن أن يعمل الآن؟ لا شىء. لا شىء. لا أحد أيضا!

أجل الاسكندرية الآن نائمة ، اللمبات واهنة فى الطرقات. لا أحد يمشى إلا هو والريح الباردة، وهو ليس صاحب المدينة. لا شىء ولا أحد. عليه أن يفكر كيف يجد عملا جديدا. عليه أيضا أن ينفق الثلاثين جنيهاً الباقية فى البارات. كما جاءت تضيع . حقا هى أهم من نقود راشيل، لكن لم يكن من المناسب أن يترك حياته تمضى على هذا الشكل.فليبحث عن عمل دائم، عمل مصرى، مع مصريين ، ووسط مصريين. ولابد أنه سينجح فى ذلك.

لكن العربى أنفق عدة أسابيع جالسا بجانب دكانة العنيبسى مع تاجر البهار ومحمود القزعة وسليمان فى بعض الأحيان والآخرين من الصيَّغ الذين لايعرف مصدرهم أحد! كان حزينا لا يكلم أحداً، يبدو شاردا فى أكثر الوقت حتى جلس معهم لطفى السائح لعدة دقائق على غير عادته وهو فى طريقه إلى البيت. كانت ذراعه اليسرى فى الجبس هذه المرة وسأل العربى.

– أراك دائما هنا يا عربى على غير العادة.

– كاتينا سافرت، تركت مصر.

قال العربى ذلك بصوت خفيض دون أن ينظر إلى لطفى الذى قال..

– الناس كلها تسافر هذه الأيام. أنا لا أعرف ما هذا الهلع الذى أصاب الأجانب؟

ارتفع صوت لطفى فدخل محمود القزعة فى الحديث.

– ألا تعرف يا سى لطفى؟ السياسة ياحبيبى. بكرة نشوف ماذا سيفعل أولاد البلد بالبلد، سيخربون كل شىء..

قال تاجر البهار.

– ما هذا يا معلم محمود؟ هل أنت ضد السياسة الاقتصادية للبلد؟

- لا يا حبيبى أنا لست ضد أى شىء، أنا فقط أسأل نفسى لما بلد مليانه ناس عواطليه مثلك كيف تتقدم؟

ضحك الجميع. لم يزد العربى عن ابتسامة. قال سليمان..

- الهلع يا لطفى من الإشاعات عن التأميم. الأجنبى الآن لا يعرف ماذا سيحدث غدا لمصنعه أو ورشته.

قال لطفى

- أنا على أى حال تارك البلد أيضا لكن إلى الصومال.

- نعم؟

تساءل سليمان فقال لطفى.

- إعارة للتدريس فى الصومال العام القادم.

قال تاجر البهار.

- بلاش الصومال يا سى لطفى . لامؤاخذة الصومال حَرّ، والحر ضار لصحتك. أجل ممكن جدا عظامك كلها تفرقع مرة واحدة..

سكتوا قليلا يتأملون تاجر البهار ثم انطلقوا يضحكون ، وضحك العربى معهم وفاجأهم محمود القزعة قائلا.

- إسمع يا سى عربى أنا عندى شغل لك، ليس عندى أنا، لكن ما رأيك أن تذهب غدا إلى المحافظة وتقدم طلب تشتغل فى البلدية، سمعت أنهم يطلبون عمالا الآن.

قال تاجر البهار محتجاً.

- ماذا يفعل فى البلدية يا معلم محمود؟ يشتغل كنّاس؟ العربى يشتغل كناس!؟

تضايق محمود القزعة ونفخ السيجارة التى فى فمه على الأرض وقال..

- الفرجة على النسوان أحسن و أفيد من الكلام معكم.

نهض العربى شاعرا بالمهانة. احمر وجهه ومشي حزينا. ظل يمشى ناحية كوبرى كرموز لا يشعر بأى شىء حوله. أخيرا يا عربى أدركت إنك ضيعت حياتك فى عمل لا معنى له. حتى لو كنت بدأت كناسا منذ عشر سنوات كنت الآن مراقباً كبيراً. على أول مقهى قابله جلس. شرب شايا ودخن سيجارة ونهض يقول لنفسه لا بأس.

لدهشته فى اليوم التالى وجد عملا فى البلدية ، عاملا فى إدارة التخطيط! ثلاثة أيام فقط قضاها فى إعداد الأوراق المطلوبة ثم تسلم العمل.

- هل تعرف قيادة الموتوسيكل؟.

سأله الملاحظ

- أجل..

كان يفعل ذلك فى بعض الأحيان فى أول سنى شبابه.

- ستأخذ هذه اللافتات الجديدة وتقوم بوضعها بدلا من القديمة. نحن بصدد تغيير معظم أسماء شوارع مدينة أسكندرية. سنعطيك خارطة بالشوارع وكشفاً بأسمائها القديمة والجديدة.

كان للموتوسيكل جزء ملحق، صندوق على جانبه مثل موتوسيكلات عمال البريد. وضع فيه عشرات اللافتات الجديدة وأخذ الخارطة واتجه إلى الشوارع المطلوب تغييرها فى المدينة القديمة. كرموز وراغب والعطارين والعمرى واللبَّان.. راح يؤدى عمله بهمة ونشاط وسرعة فائقة. نريد تغيير شوارع المدينة كلها فى أسرع وقت، هناك مكافأة على السرعة. هكذا قال له الملاحظ صباح أول يوم عمل.

شارع هيلين وشارع أثينا وشارع مينرڤا وشارع ڤينوس تحل محلها لافتات تحمل أسماء شارع الياسمين و شارع الفُل وشارع الزنبق. شارع

كفافيس وشارع بابا دوبلو وشارع هيرودوت يحل محلها شارع عمرو بن العاص وشارع أبو عبيدة بن الجراح وشارع سعد بن أبى وقّاص. شارع أجاممنون وشارع أخيل وشارع رومولوس وشارع فيلوكتيتس يحل محلها شارع خالد بن الوليد وشارع المثنى بن حارثة الشيبانى وشارع موسى بن نصير وشارع طارق بن زياد. شارع شيفاليه دور فيتى يحل محله شارع الأحرار، شارع الموسيًات وشارع ألكترا يحل محلهما شارع الفنون وشارع الرشاقة. شارع.. شارع.. شارع.. شوارع كثيرة راح يغيرها العربى كل يوم. شرق وغرب ووسط المدينة. كان يعرف أن هناك عددا آخر من زملائه يفعلون ذلك فى كل مكان .

الاسكندرية مدينة كبيرة رغم أنه يراها دائما عكس ذلك، ومهمة تغيير أسماء الشوارع تبدو لا تنتهى.. كثير من هذه الشوارع التى يغير العربى أسماءها سمع بها تتردد فى حوارات كاتينا مع أصدقائها من اليونانيين والإيطاليين. كفافيس اسم شاعر يونانى كبير كان يعيش بالأسكندرية ومات منذ عشرين سنة. شارع هيلين هو شارع البنت الجميلة التى قامت من أجلها الحرب. لقد شاهد الفيلم المثير عن هذه الحرب ومعه كاتينا ذاتها. شارع جوبيتر شارع باسم إله، أصبح اسمه شارع بطرس الآن. أسماء شوارع كثيرة سمعها من قبل فى أتيليه كاتينا كان يتصور أن أصحابها جميعا أحياء. اليوم فقط أدرك إنها أسماء لأبطال أموات، اليوم تأكد له موتهم إلى الأبد! لكن العربى كان كلما غيًر لافتة أحس بالضوء ينكسر فى الشارع ويسرى فيه شىء من الغبش. بل يصبح الشارع أكثر ضيقا من ذى قبل وأقل هواء. كل يوم ينتهى العربى من العمل وهو يشعر بالاختناق. تصير شوارع المدينة كلها ضيقة باردة رغم أنه كل صباح يسمع الملاحظ يقول له وهو يسلمه

اللافتات الجديدة، هذه أسماء أهلك وبلادك، الحقيقة أنه لايكره الأسماء الجديدة، ولا حتى يحب الأسماء القديمة، إنه فقط يحب كاتينا ولا يبدو إنه سينساها يوما ما. العربى اليوم ، ومنذ الصباح الباكر يتلكأ فى العمل، قرر بالفعل أن يطلب من الملاحظ اعفاءه من هذا العمل ، وتحويله إلى أى عمل أخر، حتى لو صار كناسا، هذه اللافتة الأخيرة للشارع الأخير، شارع عنتر بن شداد التى ستحل محل لافته شارع هرقليز.. هرقليز!؟ إنه يعرفه. شاهد الفيلم فى سينما الهمبرا .سمع اسمه كثيرا يتردد فى بيت كاتينا بين الرجال فى الحفلات ، لعله أكثر الأسماء التى سمعها. لايريد أن يغير هذه اللافتة. ماذا يحدث لو تركها كما هى. لا يظن إن أحدا يراقبه بدقة. المراقب يدور بسرعة على عدد من الشوارع يراها كعينات على الإنجاز، لكنه لا يدور على كل الشوارع، وقد لا يمر أبدا بشارع هرقليز هذا، ثم إن هرقليز كان بطلاً لايقل عن عنترة بن شداد، فما معنى أن ينزع اسم بطل ليضع محله اسم بطل آخر؟. لكنه لايستطيع حقيقة أن يترك اللافتة. قد يكون سيىء الحظ فلا يأتى المراقب إلا إلى هذا الشارع. لابد من حيلة . لابد من تمويه.

اتجه إلى محل دهان وجده قريبا واشترى دهانا أبيض بلون اسم الشارع المكتوب على اللافتة، ودهانا أزرق بلون أرضية اللافتة، واشترى فرشاة صغيرة وطمس حرف الزاى الأخير فى اسم هرقليز باللون الأزرق ثم الحق بالياء حرف الشين فصار اسم الشارع «شارع هرقليش» وقال لنفسه هكذا صار الشارع عربيا!

ترك اللافتة مكانها وأخذ طريقه إلى البيت فوق الموتوسيكل. كان الطريق غائما أمام عينيه، للحظة فكر أن النهار قد مضى بسرعة، وليل الشتاء سيعود يهجم على المدينة، لكنه أدرك أن دموعا تترقرق فى عينيه..

(١٣)

أدمنت نوال تدخين السجائر، وأدمنت الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية. كلما وجدت نفسها فى البيت أخذت الراديو جوارها وراحت تبحث عن الإذاعات التى تشوش عليها الحكومة المصرية، صوت اسرائيل، لندن، صوت مصر الحرة، التى لا تعرف من أى البلاد تأتى. تفشل فى التقاط صوت اسرائيل إلا قليلا، ولدقائق، تنجح فى التقاط لندن كثيرا، وصوت مصر الحرة بعض الأوقات، ونوال لم تستطع النوم أمس رغم أن لديها اليوم اختبار أصوات بالإذاعة، وتحتاج إلى راحة تامة وهدوء أعصاب ،. لم تكن قلقة من الامتحان ، لكنها سمعت إذاعة لندن تعلن أن السلطات المصرية الديكتاتورية قد قتلت عددا من اليساريين المحبوسين فى سجون مصر من جراء التعذيب الوحشى، وإنها تتكتم أخبار هذا القتل، لكنها لن تستطيع ابدا أن تخفى نبأ مقتل الشاعر الشاب المناضل عصمت مفتاح، فصوت الشاعر سيصحو ويعلو فى الفضاء فى كل الدنيا، وأبداً فصوت الشاعر لن يموت. وراح صوت قوى يبث قصيدة المرأة الثورة..

إن ديلاكروا الذى انتهى للتو
من رسم الحرية وهى تقود الشعب
قد خرج يجرى فى الحدائق
فرأى المرأة التى انتهت لتوها من صنع الثورة
فبكى بين يديها أن تنتظر.
فالحرية الحقة لم يرسمها بعد.

ازداد التشويش فلم تعد تسمع، ولم تعد مكانها، راحت تمشى فى

الحجرة غيرمصدقة، انفتح الطريق من عينيها لدموع حرًى وبكاء مكتوم.
ستذهب إذن للإذاعة غدا، انطلاق صوتها هو الذى سيعطيها القوة على المقاومة رغم أنها تعرف أن دعوتها للإذاعة لن تزيد عن فخ منصوب. لقد دق جرس التليفون فى حجرة المرضات بالمستشفى منذ ثلاثة أيام. كان هناك شخص على الطرف الآخر يطلبها.

– لكن يا افندم أنا لم أتقدم بطلب للإذاعة هذه الأيام.

– ليس مهما أن تقدميه بنفسك، شخص يقدرك فعل ذلك، هل السبت القادم موعد مناسب للاختبار؟.

– مناسب جدا. إنه يوم أجازتى؟

انتهت المكالمة ولم تفكر نوال كثيرا، أدركت على الفور أن الضابط السياسى الكبير هو الذى وراء هذه الدعوة. أسلوب آخر جديد بعد أن رفضت تماما كتابة أى تقرير عن أى أحد. رشوة من الصعب أن ترفضها. ستذهب، وسينطلق صوتها من الإذاعة، ولن تكتب تقريرا عن أحد. ستنتصر إذا سمع الناس صوتها. هذا الضوء الواهن للفجر يعطيها القوة، جافاها النوم ثم طردته بعد أن سمعت نبأ مقتل عصمت مفتاح، الشاعر النحيل الوجه الذى كان يشبه المسيح، ومقاطع من القصيدة تعود إلى ذاكرتها بقوة وترددها فى صمت.. لكن النوم غلبها فى النهاية. نامت لساعة أيقظتها بعدها أمها وأبوها. لايعرفان أنها لم تنم معظم الليل. يريدانها أن تستعد للإذاعة أحسن استعداد.

فى الساعة العاشرة كانت أمام باب محطة إذاعة الإسكندرية فى باكوس.

كان الواقف على الباب فى انتظارها. أخذها إلى حجرة صغيرة مبطنة بالفلين الرمادى فى وسطها منضدة صغيرة يتوسطها ميكروفون.

هذه حجرة اختبار الأصوات يا نوال. يبدو أن الأمر حقيقي.

جلست على مقعد من المقاعد الثلاثة حول المنضدة . فُتح الباب الثقيل ودخل منه رجل مهيب الطلعة والثياب وسيدة في حوالي الخمسين يبدو عليها التعب.

– أهلا آنسة نوال، أنا عبد الفتاح سليم مدير البرامج ومعي ماما لطيفة كبيرة المذيعين.

كانت نوال قد وقفت مرتبكة . أشار إليها بالجلوس. جلست لكن ازداد ارتباكها. ما هذه الفرصة المفاجئة. إنها لم تتدرب منذ وقت طويل، ولابد أن التدخين ترك أثره السيىء على حنجرتها. هي إذن زيارة فشنك!

– هل تغني شيئا لأم كلثوم؟

– ياريت ابدأ بسيد درويش.

تطلع مدير البرامج إلى كبيرة المذيعين رافعا حاجبيه في دهشه، ونوال بدورها لم تعرف لماذا قالت ذلك . تذكرت الدكتور أحمد منذ قليل، بل تذكرته طول الليل بعد سماع نبأ مقتل عصمت مفتاح.

– وهو كذلك. تفضلي.

بدأت نوال بيا عشاق النبي صلوا على جماله، ثم الحلوة دي قامت تعجن في البدرية، ثم أنا هويت وانتهيت، وبدا عليها شيء من التعب.تساءلت..

– هل يكفي ذلك؟

أجاب الرجل الذي لمس بالفعل جمال صوتها رغم مظاهر التعب.

– لا يابنتي، نحب أن نسمعك أكثر.

بدت الطيبة في نبرات صوته، أحست نوال أن صوتها قد سلك وزالت عنها الرهبة والتعب. غنت لعبد الوهاب «أخي جاوز الظالمون المدى»

والرجل فى غاية الدهشة، فوجئت بالسيدة كبيرة المذيعين تخرج من حقيبة يدها قطعة من السكر النبات تقدمها إليها، فوقفت نوال وغنت لأم كلثوم وتسلطنت:

أنا فى انتظارك خلّيت

نارى فى ضلوعى وحطيت

إيدى على خدى وعدّيت

بالثانية غيابك ولاجيت

ياريت ياريت يار يت يا ريت

ياريتنى عمرى ما حبيت.

بكت وأبكت المرأة والرجل قاوم الشجن وحين انتهت قبّلتها المرأة بينما بدا الغم على وجه الرجل الذى قال.

- يكفى هذا اليوم.

- هل أصلح للإذاعة.

تساءلت نوال فى قلق.

- سأخبرك بكل شىء فى حينه.

أمام باب الإذاعة كان النهار مضيئا أكثر من كل يوم. أخذت طريقها فى الشارع الخالى فى اتجاه طريق الحرية، التى قررت أن تعبره إلى الكورنيش. تريد أن تقف قليلا على شاطىء البحر. تريد أن تتنشق هواء الدنيا كلها.

كانت تشعر بالقوة والزهو والفخر رغم أن ما سمعته من الرجل قد يشى بغير ذلك. انها على يقين من وصول صوتها للناس .

وبدأت مقاطع من قصيدة عصمت مفتاح تقفز إلى ذاكرتها وهى تنظر إلى الموج القوى.

هنا. هنا فى الاسكندرية
التى ينزل عليها المطر يغسلها
لترى السماء وجهها فى الأرض
أى مدينتى العبقرية
مدينة النزق والجنون والاستشهاد
كيف دخلتك الخيول العجوز
محملة بكل هذا الغباء والتراب
كيف فتحتِ أبوابك للبرابرة
وتبعثرت فيك النساء
هبينا مدينتى القدرة على الثورة
أطلقى مدينتى أسْر المرأة الذكية
دعيها تصنع الثورات
وتشوى بصلا على الفحم
وتوزع الخبز على جنود النهار..

ظلت نوال لعدة أيام تطير كفراشة مليئة بالقوة والرشاقة والتفاؤل. للحظة تقفز إلى وعيها صورة عصمت مفتاح يصرخ تحت الضرب بالشوم والكرابيج، وقد ترفع يدها أمام عينيها حتى لا ترى المشهد، لكنها سرعان ما تعود إلى حالتها العجيبة هذه من القوة والأمل.

للحظة أيضا ترى الدكتور أحمد جالسا حزيناً فى ركن من السجن، تكاد تقفز من عينها دمعة، وسرعان ما تعود إلى تفاؤلها. سينطلق صوتها من الإذاعة، وسيملأ الأثير فى كل البلاد ،وستغنى فى كل المدن المصرية مدينة بعد مدينة ويخرج لها الشعب فى كل مكان يصفق طربا لأغانيها. إنها المرأة التى ستصنع الثورة ، التى ستوزع الخبز على جنود

النهار. ولقد كان سلوكها فى المستشفى مدهشا للجميع. تساءلوا عن سر السعادة التى انسكبت فى روحها بهذه السرعة وإقلاعها عن التدخين وارتفاع ضحكاتها طول الوردية وتشجيعها للمرضى وغنائها لهم فى أى وقت، والنكت العجيبة التى صارت ترويها أيضا، واحد أعور دخل السينما اشترى كحكاية أكّلها اللى جنبه، واحد صعيدى اتعلم إنجليزى ودخل السينما سمع بياع البوفيه فى الاستراحه ماشي بين الكراسى ينادى شيبسى شيبسى قاله تعالى هنا يا بتاع المراكب! واحد أطرش قابل واحد أطرش سأله أنت رايح فين قال له رايح البيت قال له ياه أنا كنت فاكرك رايح البيت، واحد دخل السينما ظهرت صورة جمال عبد الناصر على الشاشة فى فيلم تسجيلى السينما كلها صقفت إلا هو، قام اللى جانبه قال له صقف ليمسكوك ، السينما كلها مباحث . هاهاها..

و لم يفهم أحد هذا السلوك الجديد من التحرر والانطلاق لنوال حتى أن بعض زميلاتها قلن إن مخها فيما يبدو ضرب!.

عشرة أيام على الأكثر وبدأت نوال تعود إلى هدوئها القديم. عادت إلى التدخين والصمت، فى يوم أجازتها توقفت سيارة ملاكى فيات فى شارع قنال المحمودية أمام المساكن ونزل منها عبد الفتاح سليم الرجل المهيب، مدير البرامج بإذاعة الاسكندرية، فوجد نفسه محاطا بعشرات من الأطفال الحفاة شبه العراة يتفرجون عليه كما كان يتفرج سكان الليليبوت على جاليفر حين رأوه لأول مرة.

كانوا يضحكون حوله ولايعرف السبب فاضطر أن يبتسم إليهم. الصدفة جعلت سليمان خارجاً من المساكن فرآه مرتبكا. ابعد عنه الأطفال وعرف إنه يريد الآنسة نوال حمزة فصحبه إلى بيتها. تردد

الرجل قليلا لكن سليمان قال:

– لا تخف السيارة فى أمان.

كان الرجل لا يشعر بالأمان على نفسه هو لكنه مشى خلف سليمان الذى دخل به إلى زقاق معتم ضيق بين العشش وتوقف أمام بيت نوال ودق الباب.

– أستاذ عبد الفتاح!

كانت نوال هى التى فتحت الباب. أدهشها مرأي مدير البرامج وارتبكت. كانت ترتدى جلبابا منزليا بسيطا، لكن لحسن الحظ أنها كانت قد أخذت للتو حماماً لذلك بدت يانعة نشيطة. صحبت الرجل إلى الحجرة الداخلية واعتذر سليمان عن الدخول لكن أم نوال صممت على دخوله فحمزة غير موجود ولابد من رجل يجلس مع هذا الغريب.

جلس عبد الفتاح سليم على طرف الكنبة مثل طفل مطيع بينما ارتبكت نوال من رقة الحال. فوجئت به يقول:

– أنا أتذكر الآن حياتى . كان أبى مجرد مزارع بسيط فى وسية الخواجة ايفانچيلوس بمحافظة الغربية. وبالمناسبة يا نوال كل العظماء بدءوا من الصفر. عبد الحليم حافظ تربى فى ملجأ، وأم كلثوم كانت تطوف تغنى فى الأفراح والموالد فى طفولتها مع أبيها وأخيها.

تشجعت نوال وقال سليمان.

– ومحمد عبد الوهاب بدأ حياته مطرباً غلباناً فى ملاهى روض الفرج حتى أخذه أمير الشعراء أحمد شوقى فتغيرت حالته.

تأمله الرجل سعيداً بمعلوماته وقالت نوال.

– الأستاذ سليمان يعتبر كأخى تماما، وهو أديب ومثقف كبير..

– هذا واضح.

قال الرجل وسكت . كانت الأم قد أقبلت بصينية الشاى الذى رفضه الرجل تماما وبطريقة بدت فجأة استفزازية مما جعل نوال تشير إلى أمها أن تعود بالشاى لكن سليمان الذى فكر أن الرجل قد يكون خائفا من شرب الشاى فى مكان فقير كهذا مدً يده وأمسك بكوب راح يتلذذ بالاحتساء منها مما جعل عبد الفتاح سليم يبتسم مخففا من أثر الموقف كله ثم بدأ يتكلم..

- نوال يا بنتى لقد جئت هنا لأنى مؤمن جدا بموهبتك..

تهللت أسارير نوال وسليمان معا. كانت الأم قد خرجت إلى الصالة وجلست وحدها.

- أنا لم أسمع مثل صوتك من قبل وأرى أنك لابد أن تتركى الاسكندرية.

- أتركها إلى أين؟

تساءلت نوال بصوت مختنق.

- إلى القاهرة . القاهرة هى مكانك وهى التى تليق بصوتك. تحدثت مع أحد زملائى هناك وسوف يسهل لك الطريق.

اندفع سليمان فى الحديث.

- أنا رأيى من رأى الأستاذ، الاسكندرية مدينة منسية .القاهرة هى المجد الحقيقى لأى كاتب أو فنان.

قالت نوال.

- انتظر يا سليمان ، المسألة ليست هكذا بالضبط . استاذ عبد الفتاح يخفى سراً، أرجوك صارحنى، أنا أعرف من يطاردنى..

قال الرجل..

- يا بنتى إسمعى كلام الأستاذ سليمان وهو مثقف كما تقولين،

إذاعة اسكندرية إذاعة محلية لكن القاهرة شىء آخر.

تأملته نوال للحظات ثم قالت..

- هل ترى أن الذى يطاردنى هنا لن يطاردنى هناك؟

بدا سليمان مندهشاً ومرتبكا من هذا الكلام عن المطاردة فى الغناء.

وبدا أن الرجل مشغول الفكر للحظات . ما الذى جعله حقا يأتى إلى هنا؟ هذا الحماس للحق الذى لا يستطيع أن يتخلص منه. كيف حقا فاته أن الذى يطاردها هنا سيطاردها هناك . قال بصوت هادىء.

- لقد حاولت إنقاذك يا ابنتى. الاختبار الذى أجريناه لك كان بأوامر من جهة أمنية الغرض منه وضعك على حافة السكين. هل تعرفين معنى ذلك؟ ترين المجد كم هو قريب ثم لا يعطيك أحد فرصة الوصول إليه. لقد وافقت فى البداية كعمل روتينى. لم أتوقع حلاوة صوتك. قلت لنفسى ماذا يحدث لو جاءت واحدة هاوية غنت ومشت؟ نرى مثل ذلك كل يوم، لكن صوتك أشعرنى بالذنب. صوتك هدية من السماء ولا يجب ابدا حبسه. لقد أخبرت مسؤول الأمن الكبير بأن صوتك يستحق أن يكون هدية لشعب مصر فنظر إلى باستخفاف. قال لى أنسى الموضوع. لكنى يا ابنتى لا أستطيع فدعينى أساعدك.

خيم طائر الصمت على الحجرة. كانت الأم تسمع فى الصالة فيما يبدو فارتفع صوت بكائها ليصل خفيضا إليهم. قال سليمان فى غيظ مكتوم.

- وهل البلد سايبت إلى هذه الدرجة؟ أنا استطيع أن أكتب للصحف عن هذا الظلم.

- يا أستاذ سليمان، دعنا ننقذ الموقف بهدوء. إذا تسرب صوت نوال من الإذاعة لن يستطيع أحد أن يتعرض لها فى شىء - وأخرج

كارتا من جيبه - هذا تليفونى يمكن أن تتصلى بى حين تقررين..

قام وصافحها. كانت صامتة تفكر فى هذا الرجل الشجاع.

أمسكت بيده لحظات طويلة ثم قالت.

- أشكرك جد يا أستاذ عبد الفتاح، أشكرك من كل قلبى، يكفيني موقفك النبيل.

خرج الرجل مسرعا لا يستطيع سليمان أن يلحق به. ما كاد يخرج من باب المساكن المعتمة إلى شارع قنال المحمودية الباهر الضوء وإلى الفضاء الواسع الأبيض أمامه حتى وقف فى حالة من الذهول.

- ما هذا؟

هتف غير مصدق ما يرى. كان سليمان الذى لحق به الآن يقف جواره مغتاظا غير مصدق.

- يا أولاد الكلب.

هتف سليمان بينما كان الصبية الصغار جدا والأطفال يقفون على الناحية الأخرى من الشارع ظهورهم إلى الترعة ووجوههم إلى بوابة المساكن يضحكون بلا توقف. لقد أفرغوا العجلات الأربع لسيارة عبد الفتاح سليم من الهواء.

بعد لحظات لم يتمالك سليمان نفسه من الابتسام وقال.

- سأساعدك يا أستاذ، سأنقل العجلات واحدة بعد أخرى على عربة كارو وأملأها لك بالهواء فى كرموز وأعود، لكنك ستضطر أن تمضى اليوم بيننا. ستزيدنا شرفا على أى حال..

كان الرجل فى حالة يأس بالغ، بل بدأ الخوف يتسرب إلى قلبه، وكاد يفقد السيطرة على أعصابه. فى الحقيقة لم يكن يريد أن يستمع إلى أحد.

(١٤)

أخى خير الدين

تحياتى القلبية وبعد

أسعدنى خطابك الجميل الذى كتبته من قلبك تهنئنى بالنجاح. تهنئتك لى أفضل من النجاح ذاته. للأسف لم أحصل على غير خمسين بالمائة من درجة النجاح، وهذا يعنى أننى لن التحق بالجامعة كما تمنيت لى، وكما كنت اتمنى أنا فى الحقيقة.

لكن لا بأس . المهم أننى نجحت . الأدب والفلسفة لايحتاجان إلى شهادة من الجامعة أو غيرها . إن ما حدث لى فى العامين السابقين وهذا العام يؤكد أنه كانت هناك مؤامرة ضدى ، مرة يتم تسريب الامتحانات وفى الموعد الجديد للامتحان تصيبنى الحمى، وفى المرة الثانية يصيبنى عَمَى مؤقت لعين، وهذا العام تم تسريب امتحانات الرياضة كما تعلم، وكدت أيأس ولا أدخل الامتحان فى الموعد الجديد، لكننى صممت على مواجهة المؤامرة اللعينة . بل لقد كدت من البداية لا أدخل الامتحان بعد أن مات بوريس باسترناك فى آخر مايو الماضى . لقد مات قبل الامتحانات بأيام قليلة ، وكان حزنى عليه شديدا رغم أنى لم أقرأ له شيئا، ولا حتى روايته التى فازت بجائزة نوبل دكتور چيڤاجو. إنها لم تترجم ولم أعثر على نسخة بالانجليزية لها فى مصر. يخيل إلىَّ أن الدولة لا تسمح بدخولها إرضاءً للاتحاد السوفييتى فالرواية كما قرأت عنها تسيىء إلى الشيوعية. هل رأيت أو قرأت حديث الصحف عن الاستقبالات الكبيرة للرئيس عبد الناصر فى اليونان. اليونانيون شعب طيب، رغم أنهم يغادرون بلادنا يوما بعد يوم فهم يحبون بلادنا جدا،

ويحبون الاسكندرية أكثر، بل يعتبرونها مدينة يونانية. الإشاعات تسرى بأن التمصير سيتحول إلى تأميم وأن تهريب النقد يزداد يوما بعد يوم من مصر. إذا تحقق التأميم لن يبقى فى مصر أحد، لا يونانى ولا إيطالى ولا حتى شامى. ربما يبقى العدد القليل المسكين من اليوغسلاف الذين هربوا من جحيم الشيوعية بعد الحرب العالمية الثانية وفتحوا محلات فول وطعمية فى الاسكندرية. هل تعرف انهم فى الزيارة الأخيرة لتيتو تم القبض عليهم عدة أيام فى مديرية الأمن ثم أطلق سراحهم بعد رحيله؟! ما علينا من السياسة. يقولون إن مارلين مونرو أفسدت الريچيم القاسى الذى تتبعه وأكلت قطعة بقلاوة، وأن آرثر ميلر، زوجها، غضب منها جدا. آرثر ميللر هذا مؤلف مسرحى مشهور فى أميركا وينام مع أجمل امرأة فى العالم.. هل يتكرر ذلك معنا؟! لقد ظهرت نتيجة جوائز الدولة فى الفنون والآداب وفاز العقاد بالجائزة التقديرية فى الأدب، وفاز فنان الاسكندرية الكبير محمود سعيد بالجائزة التقديرية فى الفنون.

رأيت فيلم شرخ فى المرآة، تمثيل أورسون ويلز وچولييت جريكو. هذه أول مرة أرى فيها أورسون ويلز وكذلك چولييت جريكو التى قرأت عنها انها مطربة الوجوديين فى فرنسا. ربما لذلك ذهبت لأرى الفيلم. شاهدت أيضا فيلم آلة الزمن. الفيلم أجمل من الرواية. يا له من شعور بالضياع حين يجد الإنسان نفسه فى عصر آخر لا يعرفه ولا يجد لغة للتخاطب مع الآخرين فما بالك لو حدث ذلك للإنسان وهو يعيش فى عصره الطبيعى. إن ذلك يحدث كثيراً فى الحقيقة، وإن روحى حزينة رغم أننى عثرت على سعدة أخيرا. لقد كتبت لك من قبل كيف أحببتها، وشرحت لك كيف أخفوها عنى شهورا طويلة. عثرت عليها عند عمها فى الحضرة.

رحنا نتقابل سراً مرة كل اسبوع فى حديقة الحيوان. الأسبوع الماضى رآنا جدها. تصور جدها وليس أحد آخر! طلب منى الابتعاد عن البنت الصغيرة التى كانت واقفة لا تبالى.

قال لى إننى سأعلمها أشياء أكبر من عمرها. فى الحقيقة لم أجد ما أقوله للرجل المسن كما لم ألم نفسى على هذا الاندفاع فى حب بنت لم تبلغ بعد. اذا سألتنى أقول لك اننى لازلت أحبها. لكن يمكن أن يكون سلوكى غير طبيعى. الأدباء شخصيات جانحة فى كثير من الأحيان. لقد رأيت نجيب محفوظ يمشى فى شارع صفية زغلول على عينيه نظارة سوداء وينظر إلى الأمام ولا يكلم أحداً ولا يقف.. لكن عمى كان الأكثر غرابة بين كل أدباء العالم. هيمنجواى اكثر من قام برحلات خارج اميركا كان يعود. عمى لم يعد من أواسط أفريقيا. لم يرسل حتى رسالة واحدة. هل أكلته الأسود؟ أنا لن أترك الاسكندرية فى أى يوم. هنا نبتت موهبتى وفى هذا المكان نشأت. هذا المكان هو سر موهبتى، موهبتنا جميعا. ربما اكتب إليك يوما عن لماذا نحن موهوبون. انتبه إلى صحتك يا خير الدين.

المخلص

سليمان

أخى الكبير خير الدين.

أهديك أجمل التحيات.

استقبل خطاباتك كما استقبل ماء الحياة. تعطينى دائما القوة والأمل خاصة هذه الأيام التى أرى فيها أبى حزيناً حزنا لا يفسره لى ، ولا

أمى أيضا تعطينى تفسيرا لذلك. عافت نفس أبى التجارة، حتى الديون التى له عند الناس لم يعد يطالب بها. تحدث منذ أيام عن خروجه إلى المعاش العام القادم فهل ذلك هو السبب؟ اننى قلق جدا على أبى هذه الأيام.

المخلص

كروان

حبيبى خير الدين...

حاسة بيك مش قادر تكتب. حاسة بيك تعبان. أوعى تكسفنى يا خير الدين وتمرض تانى. ابعت لى جواب اطمئن عليك. كروان كان يطمئننى عليك دائما. كروان يقول انك لم تعد تراسله منذ فترة. أنا حيرانة خالص. أسأل أمك وأخوتك ولا يعطوني جواب . ايه اللي جرى لك ياحبيبي خير الدين.

المخلصة للأبد

الچونى

أخي خير الدين

تحية من القلب وبعد ...

تأخرت رسائلك في الفترة الاخيرة، لعل المانع خيراً. اسمح لي ياصديقي أن أكتب اليك دون انتظار لرسالة منك، فأنا أعرف مشاعرك الجميلة نحوي وأنه لايمنعك شيء قوي. ثم أن كتابتي إليك تعوضني عن

التـأليف الذي توقفت عنـه. أجل ، فى البداية أردت أن أكتب قصـة عن مـغنية تمر عليـها احداث النصف الأول من هـذا القرن، لكن المغنيـة من الفصـل الأول وقفت عـاجـزة عن الـغناء وانتـهت القصـة. بعد ذلك شـرعت اكتب قصـة المكان الذي نعيش فيه والمدينة من حولنـا، لكن سـرعـان مـا اقتحمتني قصة الحب المجنون مع البنت الصغيرة سعدة التي انتهت من حيث لا أتوقع أبداً. أيقظني الجد القادم من الماضي البعيد على حقيقة طفولة البنت ورجولتي ، والذي أخفيته عنكم جميعاً هو علاقة كان يمكن أن تكون عميقة مع فتاة انجليزية فرقت بيني وبينها السياسة، كل ذلك لم يعد يـهمني الآن، ولا أحب إن اتذكره لأنـه يعنى شـيئـاً واحـداً هو أنـى فاشل تماما.

دعني ياصديقي أحدثك عن حبشى ذلك الساكن على شـاطئ ترعة المحمودية لايكاد الزمان يشعر به. صـارت لـه زوجة جديدة بعد اختـفاء بدرة، وكثر أولاده من اللقطاء. إن حبشي الآن لايجدهم بالصدفة. في كل صبـاح يخرج يمشى على الشـاطئ يبحث عنهم. إنـه يبتـعد كثيراً على الشاطئ ، ويتجاوز منطقة محرم بك وأحيانا كوبري الناموس، وكثيراً ما أقابله عائداً حـاملاً طفلا لقيطا بين يديه. الغريب أن حبشي أيضـاً صـار يقطع المدينة باحثـاً عن اللقطاء فى شمـالها. أحيانـاً على شـاطىء البحر، وغالباً جوار المساجد الكبرى. يترك عشتـه كل ليلة فـي منتصف الليل، وقبل أن تنسكب على الدنيا أضـواء الفجر يكون هو عند مسجد المرسي أبو العبـاس ، أو سـيدي تمراز، أو سيـدي جابر أو أبو الـدرداء. يدخـل يصلى الفجـر في المسجد الذي يتواجد عنده ثم يعود. في كثـير من الاحيان يـعود بلقيط ، غـلام أو فتـاة، ضـجـرت زوجتـه الجديدة من هذا

الزحام، فبدأ يبني كشكا آخر، منذ أيام عثر على لقيط جميل، غلام أشقر، في عنقة سلسلة ذهبية عليها حرفان ، سين ونون، ومعه "بوك" صغير به خمسون جنيهاً وورقة مكتوب فيها "سيأتي يوم ونلتقي". شيء ولا الأفلام. أطلعني حبشى بنفسه على السلسلة والخمسين جنيهاً والورقة والغلام. لكن حبشى صار كهلا فجأة، بان عليه التعب، ولم يعد يقوم برياضته المفضلة ، السباحة ، كثيرا في الترعة ، وإن لم ينقطع عن متابعة أولاده وهو جالس على الشاطئ في زهو ...

ألا تلاحظ أننا لم نتطرق بالحديث أبداً إلى محمود الملاح. لقد انقطعنا حتى عن سيرته في جلساتنا على السلالم عند مدخل القبو. آخر الاخبار أنه سافر إلى إيطاليا ليجرب حظه في السينما هناك. إن أحداً لايصدق ذلك. أما تاجر البهار فقد وجد طريق المحاكم مسدوداً . كان يود أن يسترد شارع فرنسا باعتباره من أملاك اسرته. قال انه عثر على كنز ولن يعود إلينا مرة أخرى. لقد انقطعت ايضاً أخباره.

لكن عيد المشعور لايزال يأتي كل مساء بالمجاذيب والمعتوهين وينزل بهم القبو ويأخذهم الى البحيرة خلف بيت خميس الجمال يجلسون يتفرجون على "ربنا" الذي يرونه عند الافق كما يقول عيد. المدهش ان عيد لايزال يعود دونهم، لكنه في اليوم التالي يظهر قادماً وهم معه. متى عادوا وكيف التقى بهم ومن أي طريق ؟ لا أحد يعرف.

خميس الجمال اشترى تليفزيون عشرين بوصة ولما رآهم يجلسون جماعات يحملقون فى الأفق ركبه الرعب. فكر أن يتجنب أى أذى متوقع منهم فأخرج لهم التليفزيون أمام البيت وراحوا يتفرجون عليه. ذهبت بنفسي ورأيت ذلك. يظلون مبتسمين طول الوقت، لكنهم فجأة قاموا

يضحكون وحملوا التليفزيون ومشوا به وخميس الجمال يصرخ لإيقافهم، فانخلع التليفزيون من الاسلاك الموصلة به، واقتربوا من الماء وألقوه ثم جلسوا يبتسمون ويبحلقون في خط الأفق يتفرجون على "ربنا".

آخر الاخبار هو حلول مُسفَّر جديد محل الديب الذي اختفى، وللمسفر الجديد زوجة جميلة جداً. بدأ الاولاد ، مصطفى وعيد وبلك وحتى كروان، يتابعونها. انهم يجلسون الآن كثيراً على شاطئ الترعة يعطون وجوههم الي البيوت لا إلى الترعة حتى إذا فتحت زوجة المسفر الجديد النافذة رأوا وجهها الجميل. أنا شخصيا لا أعرف من أين حصلت هذه المرأة الصغيرة على كل هذا الجمال. لها عينان واسعتان سوداوان مكحولتان دائماً، ووجه خمري مستدير وشفتان مكتنزتان مدهونتان دائما بالروج الثقيل ، ولها أنف صغير بشكل غريب يا أخي وتلبس دائماً جلباباً مفتوحاً عند الصدر عاري الذراعين وشعرها الأسود الغزير ينسدل على كتفيها، إنها كتلة من نار حطت في المساكن، يقال إن المسفَّر الجديد حين يخرج في مأمورية يأتي بأمه العجوز لتبقى مع زوجته ويأمرها ألا تفتح النافذة أبداً حتى يعود. هذه قصة جديدة، وهذه المرأة لو طال بها الوقت هنا ستشعل النار في الجميع. إلى أن اتلقى منك رسالة ... لك خالص أمنياتي الطيبة.

المخلص

سليمان

أخي الحبيب سليمان

أدامك الله وبعد ...

أرجو ألا تفشي هذا السر إلى أحد. أنا غير قادر على كتابة الرسائل. بالكاد ارسلت الي الچوني حتى لاتقلق. أنا الآن في مستشفى الصدر بحلوان. تستطيع أن ترسل إليّ على المستشفى . سأغيب فيها عاماً كاملاً كما قرر الاطباء. العنوان سهل . مستشفى الصدر بحلوان، عنبر رقم ستة الدور الثاني. المصنع يدفع تكاليف علاجي. لم استطع الكتابة إلى كروان. لاتخبره بشيء ، أرى دموعه أمامي. لكني متفائل يا أخي ، ليس من المعقول أن ينتهى كل شيء بهذه السرعة. أنا لم أخطيء في حق أحد.

المخلص

خير الدين

الاخ الحبيب سليمان

بعد التحية العطرة وأزكي السلام

حاجات كتير بتحصل يا سليمان ولاتكن في الحسبان. طبعا أكيد عرفت بسفري إلى إيطاليا. لازم يكون الخبر انتشر من بيتنا من زمان. أنا فعلاً في إيطاليا. تعرفت قبل السفر في القاهرة في ستوديو نحاس على كومبارس إيطالية عايشة في اسكندرية ! شوف العجب ياسليمان . لم أتعرف عليها فى الاسكندرية التي نعيش فيها معاً، السينما جمعتنا في القاهرة، ويمكن الفقر ... أكيد الفقر. رجعت معاها اسكندرية وعشت معاها في شارع تانيس في شقة واسعة وهاوية ونظيفة. عشت معاها شهر جميل لغاية ما تركنا اسكندرية، دلوقت عايش معاها في روما.

أكلمك عن ايه ولاً ايه ياسليمان !

من ساعة ما جئت وأنا بامشى ابص حواليا على المتاحف والبيوت والميادين والنسوان. طبعاً تلاقيك لاتصدقني وعايز تتأكد كيف هى إيطالية وكانت عايشة في اسكندرية لوحدها ... شوف ياسيدي ، هي كانت متجوزة راجل فحَّام على مركب. كان قوى جداً لدرجة انه لما كان يحب ينام معاها كان يمسكها من وسطها بيديه ويقف وسط الصالة ويرفعها ويفضل طالع نازل من غير مايتحرك سنتيمتر واحد من مكانه. تخيل أنت كان فحل أد ايه ! المهم صاحبك الفحل هذا كان غبي، وريحته "كوك" على طول ! وفي يوم وقع من مدخنة المركب واتخنق. ساب لها بنت جميلة وفقر كتير ! اضطرت تشتغل كومبارس لحد ما حوشت قرشين وسافرت معايا ومع بنتها. بنتها عندها عشر سنين، وكانت تروح معاها الاستوديو دائماً وتنام معاها في اللوكاندة في شارع كلوت بك. لما عرفتها قلت لها أنا مش قد الفحام، ضحكتْ وسكتت. في شقتها في شارع تانيس شفت العجب. نسوان مالها أول من آخر تشتغل في الملاهي على الكورنيش بالليل وبالنهار تيجي الشارع وتدخل الشقق علشان تنام . ساعات من كتر النسوان كان يتهيأ لي إن اسكندرية كلها تشتغل في الملاهي والبارات. لكن الحمد لله معظمهن من الأجانب . دا اللى شفته على الأقل ! أنا أكتب لك هذا الكلام حتى تبلغه لفلفل مطحون. لو قعد هناك عند أي مكوجي في شارع تانيس سيعيش عيشة الملوك مع النسوان. ياترى ماهى أخباره فلفل مطحون ؟ وحشني جداً. وحشتوني كلكم ياسليمان رغم أني زعلان منك من زمان. من ساعة ماجئت احكي لك قصة فيلم عن بورسعيد فكلمتني عن وجود الانسان

وعدم وجوده ! على أي حال أنت عقلك كبير ياسليمان. أكبر عقل في الحتة. ودلوقت أحب أقول لك أني تقدمت جداً في العمل في السينما. أخذت دوراً صغيراً في فيلم اسمه "السبعة ضد طيبة" قصة قديمة لكاتب يوناني. سمعتهم بيقولوا كده ! أنا طالع بدور واحد من آلهة اليونان، أكبر إله ، اسمه زيوس . لبسوني لبس آلهة، فروة مقطعة على صدري ومايوه مش باين، وأعطوني فخذ خروف وقعدت أكله قدام النار على جبل ومراتي اللي اسمها هيرا تشوي قدامي فخذة الخروف الثانية. الفيلم سيعرض في مصر هذه السنة أكيد. لاتنسى اسم الفيلم، عايزكم تشوفوني وأنا إله. حاجة ثانية خالص غيري وأنا بهدومي. والله عايز أعيط يا سليمان. أجمل أيام عمري كانت في مصر. مش عارف ايه اللي لحس مخي كده ! الله يخرب بيت يوسف شاهين وبيت أم اللى يشتغل مع يوسف شاهين. لكن مين عارف. يمكن مصيري ارجع نجم كبير ياسليمان وأوعى ماتشوفش الفيلم. سلم لي على محمود القزعة وعلى كل النسوان اللي طالعة ونازلة إلى الملاحة، واهم سلام للديب الذي لو حضر هنا سيخطفونه خطف وكل يوم يؤلف لهم فيلم جديد. سلم لي حتى على الولد عيد المشعور اطيب ولد في الحتة، وعلى جَدَى خميس الجمال ! يعني سلم لي على الحيوان والإنسان والجماد والطير الساب في الفضاء.

هذا باختصار ياسليمان وإلى اللقاء.

صاحبك الذي لن ينساك ،

محمود الملاح...

(١٥)

استيقظ الجيران على صوت الصراخ والعويل. لقد وصلت إلى المساكن سيارة عند الفجر تحمل جثة خير الدين، فى اللحظة التى كانت فيها سفينة كبيرة تشق المحمودية قادمة من ناحية الميناء، يرتفع صاريها، وشراعها الكبير الأبيض مفرود إلى نهايته، والريح الصباحية تدفعها فى تصميم غريب خارج المدينة.

خرج الرجال من البيوت كالجرذان، قصار القامة مهدلى الاكتاف، يبسملون ويحوقلون ويضربون كفا بكف فى إثرهم النساء تسبقهن دموعهن إلى بيت خير الدين. كثير من الأولاد والبنات لم يذهبوا إلى المدرسة اليوم، وفى بيت الچونى انشغلت الأم بابنتها التى فقدت الوعى، بينما خرج الأب مكسور القلب لينضم إلى الرجال المواسين لوالد خير الدين.

سرعان ما صعدت الشمس. بدأ الجميع يفكرون جديا فى سرعة إجراءات الدفن. كان كروان بين مصطفى وعبده وبلك وبقية الصبية والشباب يبكى بلا انقطاع، بينما الآخرون الذين فاجأهم هذا الموت لا يعرفون لماذا حقا لا تنزل من عيونهم دموع. صعد سليمان وحده فو ، السطح ينظر ناحية سطح سعدة التى لا تزال عند أقاربها، وترك دمعة تنزل على خده وهو ينظر إلى السماء، وبعض عصافير صباحية تطير تحتها فى الكون الواسع، وقليل من السحب البيض تمشى على مهل . وقال مختنقا بالأسى «الوداع يا خير الدين».

شوهد بعض الرجال يمشون ناحية كرموز لإنهاء إجراءات الدفن

والاتفاق مع متعهد فراشة ليقيم سرادق عزاء بالشارع، والآخرون مشوا إلى أعمالهم التى لا يستطيعون أن يتأخروا عنها، تاركين والد الچونى مع والد خير الدين عازمين على العودة بسرعة قبل الظهيرة للمشاركة فى الجنازة.

فتح العنيبسى دكانته مبكرا كالعادة، حامداً شاكرا لله على كل ما يأتى به، متذكرا تقدم سنه وقرب نهايته، مستسلما لقضاء الله، وأشعل الراديو يستمع إلى قرآن الصباح ثم بعد ذلك أطفأه. كذلك فعل السيد خليل بينما خرج حبشى من عشته على سفح شاطئ الترعة ووقف وسط الشارع لا يصدق موت خير الدين. لقد صرخ حين علم بالنبأ هاتفا يارب، يارب خير الدين طيب وجدع، والدنيا مليانة ناس مالهاش لازمة، يارب كنت خلى لنا خير الدين..

اندهش الأولاد جدا حين رأوه يصرخ بكل هذا الألم، تراجعوا قليلا إلى الخلف ليتقدم هو ويقف وسط الشارع رافعا يديه إلى السماء مستمرا فى الهتاف..

يا رب يا مرسل الطير فى السماء، يا منبت الشجر فى الأرض الخراب، يا ربنا الذى نعبدك ونخطئ كثيرا فى حقك وتسامحنا، نهمل فى الصلاة والصوم وتغفر لنا، نسرق وننهب ونأكل بعضنا وتسامحنا، يا رب يا واضع اللقطاء فى طريقى كل صباح لأكون سببا فى حياتهم التى سوف يكرهونها بعد ذلك حين يكبرون ويعرفون انهم أولاد حرام!، لكنها حكمتك، يارازق من تشاء، يا معزّ من تشاء، يا مذل من تشاء، يا من خلقت العنيبسى والسيد خليل والسيد الأعرج والديب وتاجر البهار ومحمود القزعة والولد عيد المشعور يا رب يا ربنا الذى أراه كثيرا بالليل

فوق مياه المحمودية ناراً ونوراً، يا منجى من المهالك، صبَّر أم خير الدين، ووالد خير الدين، وأخوة خير الدين، وخطيبة خير الدين، على موت خير الدين الذى كنت أحترمه غاية الاحترام، وكان يحيينى كلما مَرّ أمامى فى الصباح أو فى المساء، ويناديني دائما وهو مبتسم صباح الخير يا طرزان، مساء الخير يا طرزان!!

دخلت المنطقة فى صمت طول النهار، حتى العويل فى بيت خير الدين كان جليلا من فرط الألم! كان عويلا مخلوطاً باليأس، أما البكاء فى البيوت الأخرى فكان أشبه بالعجز الشديد. لقد أحس الجميع بالفاجعة كأمر غير واضح وغير مفهوم وشديد القسوة. إلى جانب الصمت كانت هناك دائما حركة. انتشر الخبر بين عمال وموظفى السكة الحديد فى المناطق الأخرى، بالقبارى والمكس ومحرم بك فحضروا فى الظهيرة زرافات للمشاركة فى تشييع الجنازة، وظهر أقارب خير الدين قادمين من الريف ولا يعرف أحد كيف وصل الخبر إلى حكمت فحضرت من كامب شيزار، وإلى فاطمة فحضرت من الحضرة مع رشاد، وإلى شوقية فحضرت من كفر الدوار. لكن الأكثر إدهاشا كان حضور بدرية من ليبيا فى اليوم نفسة لزيارة أهلها فكانت صدفة عجيبة يندر أن تحدث فى الزمان.

بسرعة أقيم سرادق العزاء، جلس فيه الرجال والشباب قبل التحرك بالنعش إلى المدافن. لقد تم نقل الجثمان من السيارة إلى النعش منذ قليل وعادت السيارة إلى القاهرة. مرافقو السيارة قالو انه تم فى القاهرة غسل الجثة وتكفينها على نفقة الشركة، وتركوا مائة جنيه مصاريف للجنازة تدفعها الشركة فى مثل هذه الحالات. قرأ المقرئ ربع

قرآن فقط وعلى عجل مرجئاً القراءة الكبيرة إلى المساء، وحمل الرجال النعش وأسرعوا إلى مقابر عامود السوارى طابورا طويلا من الحزن. أول الطابور الرجال مستغرقون فى الصمت، بعدهم نساء يبكين بحرقة دون أن تعلو أصواتهن فيكدن ينفجرن حقا من الألم. آخر الطابور كانت الچونى وقد اشتعل وجهها الأبيض من البكاء وحولها شوقية وحكمت وفاطمة وحسنة وبدرية ومنيرة اللاتى لم يكنَّ أقل منها بكاء على خير الدين لكن الهلع والذهول كله كان على وجه الچونى. من الشرفات، فى شارع عمود السوارى بكرموز، كانت نساء يتطلعن إلى الموكب الحزين، تقع عيونهن على الچونى المشتعل وجهها بالألم العميق فتنسال دموعهن ويتمتمن بكلمات لا يسمعها أحد. الچونى طول الطريق تقول جملة واحدة، مع السلامة يا خير الدين، وتصل الدموع إلى شفتيها وتدخل إلى فمها وتبلعها حارقة مالحة...

كان مصطفى وعبده يسرعان أحيانا لحمل النعش مع الآخرين، كذلك فعل سليمان أكثر من مرة. لم تكن هناك اجازة بالمدارس ولا بالجامعات، لكن نسيم ظهر قادما من المعهد الزراعى بمشتهر وتناوب معهم حمل النعش، كان لطفى السائح يتمنى لو حمل النعش معهم لكن كان ذلك مستحيلا فمشى مضاعف الحزن يحاذر أن يصطدم بأحد، بينما كان تاجر البهار الذى ظهر بعد انقطاع قد حمل النعش من البداية ولا يريد أن يتركه، وبالفعل لم يتركه لأحد. كانت فيه قوة مسحورة. لقد سبق حبشى الجميع إلى المقابر لتجهيز المقبرة مع اللحَّاد، فتحها ورشها بماء الورد، وحرق فيها البخور، بينما كان محمود القزعة متأخرا عن الجميع يمشى وراء الجنازة يشعل سيجارة من سيجارة ويأخذ من كل واحدة

نفسا أو اثنين على الأكثر ثم يلقى بها. كان مذهولا من هذا الموت الذى ظهر فجأة فى المنطقة التى لم تعرف غير البهجة واللعب والفرجة على النسوان... كانت الجنازة بعد أن عبرت كوبرى كرموز قد انضم اليها خلق كثير من المقاهى، فالجنازة لشاب صغير كما هو واضح من تجهيز النعش، ووضع الطربوش الأحمر أعلى النعش من الأمام، والجنازة تجرى بهم لأن النعش يجرى بهم والنهار أبيض وكلما اقتربوا من باب المقابر اسرعوا أكثر وارتفعت الصيحات الله أكبر الله أكبر غير مصدقين خفة النعش الطائر إلى الجنة، ماكادوا يدخلون من باب المقابر، وترى النساء مئات المقابر المتناثرة على كل ناحية حتى ارتفع عويلهن وبكاؤهن وأغمى على الچونى للمرة الثانية اليوم فانشغلت بها البنات وبعض النساء، لكن الرجال كانوا قد وصلوا إلى المقبرة، فاخرجوا الجثة فى هدوء من النعش. ما إن ارتفعت بين أيديهم حتى صرخ حبشى «وحدوه» وأسرع الرجال يوارون الجثة فى المقبرة، زاد النحيب فملأ الفضاء، وقف تاجر البهار قبل أن يغلق باب المقبرة يلقى بالكلام على رأس الميت، اللهم ادخله فسيح جناتك، اللهم اجعله شفيعا لأهله واخوته يوم القيامة، اللهم اغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، اللهم صبّر أهله وعشيرته، اللهم أوقد له فى قبره شمعة، ونجِّه من عذاب القبر، من كل ثعبان وشيطان، من كل ناكر ونكير، خير الدين بن خير الدين خير الأمير الجميل الوسيم اللطيف. وخنقته العبارات فلم يستطع أن يكمل فراح ينثر المسك من زجاجة صغيرة معه على المقبرة وعلى القريبين من الناس، ثم ناول اللحاد زجاجة عطر أخرى قائلا.

- من فضلك ضع هذه الزجاجة من العطر مع المرحوم. إنه عطر

البلسم الذى سيجمع حوله الحور العين فى الجنة بإذن الله.

تناولها اللحاد مندهشا، وضعها فى طية من طيات كفن خير الدين وخرج من المقبرة قافزا. قبل أن يغلقوا بابها ظهر خمسة رجال وامرأة قادمين بسرعة ناحيتهم ينادونهم أن ينتظروا. انتظروهم فى دهشة. كان أحد الرجال يحمل طفلا صغيرا ميتا بين ذراعيه، ملفوفاً فى كفن أبيض.

– ارجوكم ادفنوا ابننا هذا مع ابنكم، انه طفل برىء ونحن ناس فقراء لا مقابر لنا فى الاسكندرية..

ازداد نحيب النساء من هذه المفاجأة. خير الدين مع الأبرار أيها الناس. هتف حبشى فى الجميع. لا يبكِ أحد فخير الدين مع هذا الطفل ضمن مكانه فى الجنة مع الأبرار. لا يبكِ أحد. اطلبوا الرحمة لموتانا.

ثقل الموقف على الأولاد والشباب الذين لم يكونوا يعرفون كيف يبكون فاندفعوا فى البكاء. لم يكونوا من قبل حقا يعرفون الموت، ولم يعلموا بوجوده إلا اليوم. ثقيل هو الموت كليل لا ينتهى، حجر لا ينزاح عن الصدر، ودهر لا يمر. وقف والد خير الدين وبعض أقاربه فى طريق الخروج يأخذون عزاء المشاركين فى الجنازة، ورأى الجميع قريبا منهم عيد المشعور يقف وحوله عدد كبير من المجاذيب، بينهم مجنون الغناء، ومجنون العلم الذى صار يرتدى شورتاً الآن وفانلة رياضية، ومخالى اليونانى الذى غلط فى الحساب وآخرون لا يعرفون من أين جاء بهم عيد، كانوا جميعا ينظرون نظرة لا نهائية إلى الناس، وبينهم عيد وقف ينتحب ويتمتم «خير الدين مشى، خير الدين راح، حبيبى خير الدين».

ارتفعت الشمس فوق الدنيا، اتسع الفضاء، عاد الناس متعبين، واغلقت النوافذ والشرفات فى الطريق. اخذت حكمت الچونى فى تاكسى

ومعها شوقية وعدن بسرعة إلى المساكن. ظهرت سحابة سوداء كبيرة دخلت فضاء الاسكندرية فغامت الدنيا لحظات تخيل فيها الناس أن السحابة قد استوت فوق المدينة لا تتحرك وأن المدينة دخلت فى الليل فى عز النهار فهتف البعض باسم الجلالة وانفرطت دموع النساء من جديد، وسجد بعض الرجال يصلى ركعتين فوق الأرض وكانت السحابة تبتعد على مهل عن المدينة والشمس تتسيد الفضاء من جديد فيزداد بياضاً واشراقة والناس تتساءل فى دهشة، كل هذا حدث من أجلك يا خير الدين اليوم؟ أيقنوا إنه ذاهب إلى الجنة دون حساب، وتمنى كبار السن لو كان يومهم مثل يومه فى الخفة والمفاجآت الطيبة. اكتشفت النساء والبنات أن نوال لم تشارك فى الجنازة. لم تظهر قط اليوم. «مسكينة نوال اللى فيها مكفيها» قالت بعضهن، ودخل الجميع البيوت التى جثم عليها الصمت..

على جانب السلالم المؤدية إلى القبو جلس سليمان وتاجر البهار وعدد قليل من الصيع الذين يظهرون كل يوم ممن شاركوا فى الجنازة، كانوا صامتين، بينما راح، فى صمت أيضا، محمود القزعة وعماله يجهزون طاولات السمك بالثلج المناسب لشحنها فى العربات إلى المحلات البعيدة.

– كنت نويت اليوم أن أبدأ فى الصباح رحلتى إلى آسيا، لكن هاتفا أسر إلىّ بموت خير الدين فأجلت الرحلة إلى الغد.

كان تاجر البهار يتكلم مفاجئا سليمان الذى لم يجد شيئا يقوله. كان شاردا يفكر كيف حقا لن يرى خير الدين أو يكتب إليه أو يتلقى منه رسائل، لكن تاجر البهار ظل يتكلم.

– الكنز الذى عثرت عليه حقيقى يا استاذ سليمان، لكنه ليس كنزا من النقود أو الذهب.

هنا وجد سليمان نفسه يرفع إليه عينيه.

– انها مجموعة من الوثائق، أوراق أكلت الأرضة كثيرا من أطرافها، عثرت عليها فى بدروم بيت قديم أقيم محل أحد الفنادق التى كان يملكها آل الدماميني، أهلى، فى شارع فرنسا. أوراق فيها كلام واضح عن ساحل ملبار فى الهند، الساحل الغربى، بلاد الفلفل، وعن ميناء قاليقوط، وعن قصر من الرخام غرفه جميعا مطلية بالذهب، عليها رسوم لصور حيوانات وطيور وانسان وكلام الله فى القرآن، وحول القصر حديقة بها اشجار وزهور وجداول سحرية من ماء رقراق، حديقة تزيد مساحتها على عشرة أميال، تتوزع فيها النافورات واقفاص الحيوانات البرية التى كان يجمعها الدمامينى الكبير يغذى بها الصقور والسناقر التى كان يزهو بها، فى الأوراق رسوم رسمها فارسى يدعى ميرزا للدمامينى، انه يشبهنى والله يا استاذ سليمان، رسم القصر وأعمدته الرخامية المطلية بالذهب والمرسوم عليها أفيال تضحك، والحريم تتفرق فى الحديقة تلهو وتعزف على الأعواد، إن رسوم الحريم تكاد تكون مرسومة بالأمس فقط، فالنعمة الآلهية تكاد تنسكب من وجوههن وأذرعهن الغضة اللامعة تحت الملابس الشفافة. كان الدمامينى يختار من يشاء من الحريم، وترك هناك فى الهند أطفالا كثيرين لابد انهم باعوا القصر، لكن الجزء الطلسم من الأوراق يتحدث عن كنوز من العاج والذهب والفضة واليشم مدفونة فى قبو لا يصل إليه غير الدمامينى، ومن دخله لم يستطع الخروج.. لقد فهمت الطلسم، ولم يبقَ لى إلا فهم طريق القبو، وأنا من زمان روحى

تهفو إلى السفر إلى الهند بلاد الروح فما بالك إذا كان هناك كنز قد أفوز به. فى ساحل ملبار، فى ميناء قاليقوط، سأجد من يعاوننى بالتأكيد، ومن يدرى ربما أجد هناك من يمتلك مخطوطا عن عائلة الدامينى. تصور أنت يا استاذ سليمان حين يظهر لك أخوة أو أقارب فى الهند فجأة. يا له من حلم هذا الذى يراودنى ويحفزنى فى اكتشاف كنوز طريق التوابل القديم، الكنوز الخفية التى هى مختوم عليها باختام من صنع الجان.

كان سليمان قد انتبه إليه، بعد لحظات لم يعد مندهشا من كلامه. هذا رجل منذور إلى الريح، لذلك لم يندهش حين رأى الرجل يرتعش بشدة بعد أن انتهى من الكلام ثم ينهض لينصرف فى صمت. صافحه سليمان وضمه الرجل إلى صدره بقوة لكنه لم يتكلم، كذلك فعل مع محمود القزعة ومشى ناحية كرموز فى عزم، بدا الرجل لسليمان شخصاً لا يمكن أن يعود إلى الوراء.

مشى سليمان بدوره إلى البيت صامتا. لمح عيد المشعور قادما من ناحية كرموز وحوله رهط من المجاذيب بينهم مجنون الغناء ومجنون العلم ومخالى أيضا، أدرك أنهم فى طريقهم إلى الملاحة لرؤية «ربنا» كما يفعلون كل يوم. قال لنفسه «لله فى خلقه شئون» وأصابه حزن يكاد يفجره فأخذ طريقه بسرعة إلى البيت فى ضيق، جلس إلى مكتبه فى الجزء الخاص الذى اقتطعه من العشة وامسك بالقلم وكتب فى كراسته.

«قصة سوريالية»

«الأفيال تخرج صامته من القبو، فى طابور طويل يقوده الممثل الهندى سابو، الجالسون على جانب السلالم يصيبهم الفزع، يجرون إلى

كل ناحية، النساء القادمات لشراء السمك تعدن مهرولات لا ينقطع صراخهن. سابو يضحك مفرقعا بالسوط الطويل الذى فى يده فى الهواء. الأفيال تصعد السلالم، محمود القزعة يجرى أمامها وعمّاله، الأفيال تدوس على طاولات الثلج والسمك فيتطاير مافيها وينطحن تحت أقدامها، الأفيال تصطف على رصيف الشارع، ترفع خراطيمها عاليا، وتحرك أذانها العريضة، وتصرخ كلها، سابو يتقدمها ويشير إليها أن تتبعه إلى شاطئ الترعة. الأفيال تقف على الشاطئ، تمد خراطيمها فى الترعة، تشرب الماء كله، ترتوى وتنتعش وتنفض أجسادها وتعود للصراخ، فى سعادة هذه المرة. الترعة الآن صارت خالية من الماء، السفن تسقط إلى قاع الترعة. النوتية يقفزون يخوضون فى وحل القاع ويصعدون إلى سفح الشاطئ الآخر، يجرون كخيل قذرة صارخين رافعين أذرعهم إلى السماء من الرعب. فى قاع الترعة تظهر نساء عجائز قابعات ينظرن إلى الفضاء الأبيض، إنهن عرائس النيل اللاتى ألقى بهن قديما إلى النهر استقرت أجسادهن أخيرا فى الترعة. صرن عجائز الآن. يقفن فى الطين، يتحولن إلى عصافير، تكبر وتصير غرباناً، تطير مرفرفة فوق رؤوس الأفيال، وفوق البيوت، تنتهى إلى الملاحة فوق رؤوس عيد والمجاذيب الذين ينتظرون رؤية وجه ربنا. سابو يأخذ الأفيال ويعود إلى القبو. الماء يعلو وتعلو السفن فوقه فى ترعة المحمودية. الرجال يعودون إلى الجلوس على حافة السلم المؤدى إلى القبو، النساء تعدن لشراء السمك ضاحكات منتعشات، محمود القزعة يتابع أردافهن الصاعدة الهابطة، الأسماك تحمل الثلج على رؤوسها وتعود تقفز داخل الطاولات، العمال يقومون بتحميل الطاولات على العربة التى ستحملها

إلى دكاكين المدينة. الرجال فى مقاهى المدينة يتركونها إلى محطة الرمل، فى شارع سعد زغلول ظهرت كيلوتات حريمى ممتلئة بأعضاء النساء الجنسية. فى شارع صفية زغلول ظهرت سراويل الرجال تباع ممتلئة بأعضاء الرجال... الرجال يذهبون إلى شارع سعد زغلول يشترون كيلوتات النساء، والنساء تذهبن إلى شارع صفية زغلول يشترين سراويل الرجال، المدينة انقسمت نصفين، فى الشرق عاش الرجال مع الكيلوتات الممتلئة وهجروا النساء، فى الغرب عاشت النساء مع السراويل الممتلئة وهجرن الرجال، المدينة ظهرت لعماراتها عيون وتدلت من نهاياتها ضفائر وشعر منسدل، ظهرت تحت العمارات والبيوت أقدام حملتها ومشت بها جميعا لتقابل كل واحدة الأخرى وتبكى وتشد شعرها أمامها. العمارات أمضت اليوم كله فى النحيب ثم عادت إلى مكانها. فى الليل جاءت الرياح الأربع حملت المدينة وطارت بها، راح الرجال يلقون من فوق الريح بكيلوتات النساء، والنساء يلقين بسراويل الرجال. أخذت الرياح الأربع الرجال والنساء والبيوت والعمارات وغيبتهم فى الكون الواسع، دخلت بهم مجرّة بعد أن عبرت بهم عشر مجرات. على الأرض ظلت الكيلوتات والسراويل لكنها صارت ممتلئة بالفئران تخرج منها وتدخل ضاحكة وترتفع صأصأتها حتى امتلأ الفضاء باللهو والصخب.. حملت الفئران السراويل والكيلوتات على ذيولها وجرت بها إلى الميناء تختبئ فى الغرف السفلى للسفن حيث الأفران والأجهزة والمسافرون الفقراء. دب الهلع فى السفن وراح الركاب يلقون بانفسهم إلى الماء..!!»

توقف سليمان الذى لم يستطع أن يجد مخرجا جميلا لما يكتب. أدرك إنه لن يصل إلى نهاية سعيدة لهذه القصة التى لم يهيئ نفسه لكتابتها.

تذكر انه كان قد انقطع على غير إرادة عن كتابة الجمل التى لا يعرف لها معنى أيضا حين يكتب. لابد انها تجمعت فى مكان ما فى قلبه لتقفز هذا اليوم الصعب، وتمنحه هذه القصة التى لا يعرف أى معنى لها. أغلق الكراسة وجلس صامتا لا يعرف ماذا يفعل حتى يحل موعد العزاء فى السرادق فى المساء.

فى المساء ارتفع صوت المقرئ بالقرآن وجلس الرجال والشباب والصبية جميعا فى صمت. ظهر المسفَّر الجديد الذى حل محل الديب الذى اختفى بعد الخطاب العجيب الذى كتبه لمرعى، عرف الناس انه استقال من العمل فى السكة الحديد كلها، وعمل تبَّاعا فوق عربات نقل «حمَّاد» الثرى المعروف بالقبارى. الديب منذور للريح. الصدفة جعلت المسفر الجديد يجلس جوار مصطفى الذى كان قد بدأ يتماسك مدركا إنه لا حيلة لأحد أمام الموت الذى هو أقوى شئ فى الدنيا. بدا المسفر الجديد حزينا جدا على موت خير الدين، وبشكل كبير.

– أهلا وسهلا. كنت هنا فى الصباح ؟

تساءل مصطفى وهو يميل ناحيته.

– لا . كنت مسافر.

– مسافر؟ وكيف عرفت؟

– انتشر الخبر فى السكة الحديد ووصل إلىَّ، كنت فى قطار متجه إلى اسوان، كنا بالكاد غادرنا الأقصر، أى والله.

سكت مصطفى ثم فتح عينيه فى دهشة بعد أن أدرك البعد الشديد للمسافة، أكثر من ألف كيلومتر، قال.

– كنت قرب أسوان وحضرت هنا فى نفس اليوم! ركبت طيارة ولاَّ إيه؟!

اوشك مصطفى أن يضحك بحق. كتم ضحكته بصعوبة فاهتز جسده. قال المسفر الجديد.

– كنت فوق القطار فقفزت على أقرب سحابة متجهة إلى الشمال فحملتنى إلى هنا، أى والله، هناك كما تعرف سحب تجرى من الشمال إلى الجنوب، وسحب تجرى من الجنوب إلى الشمال. ركبت واحدة منها، وكله بإذن الله سبحانه وتعالى هو الذى سخر لنا الخيل والانعام والسحاب لنركبها وزينة!

أخذ مصطفى نفسا عميقا حتى لا ينفجر بالضحك. قام ومشى تاركا السرادق وصوت المقرئ المستغرق فى القراءة يملأ الفضاء بالألم!. مشى مصطفى حتى وصل إلى الماكينة الحمراء فاستند على جدارها ونظر إلى مياه الترعة وترك نفسه يضحك ويهتز. اخرجه المسفر الجديد من رهبة الحزن. ابن ديك الكلب حضر على سحابة من اسوان!؟ ويختارنى أنا من دون الناس ليجلس جوارى ويقول لى ذلك، يريد أن يجننى. شئ ما فوق القطارات يذهب بعقول الناس. الله يرحمك يا خير الدين ارتحت من هؤلاء المجانين، والله يكون فى عون ثورة يوليو ويكون كمان فى عون ربنا على الشعب!

(١٦)

– ياه يا بنات، كنت أشتاق لكن كثيرا. كنت أشتاق لليلة تجمعنا مثل ليالى زمان. يرحمك الله يا خير الدين جمعت بين الأحباب. كان قد مضى اسبوع على موت خير الدين، وكانت حكمت قد عادت مرة أخرى

لتطمئن على الچونى وعلى نوال التى لم تجد فرصة يوم الجنازة لتراها.
كانت بدرية لاتزال فى زيارة أهلها، كذلك شوقية لم تعد إلى بيتها فى كفر الدوار، كن منذ موت خير الدين يجتمعن كل ليلة عند أبلة نرجس، الساعة الآن تقترب من العاشرة، قالت حسنة.

- أنا خائفة على الچونى يا أبلتى.

كانت حكمت قد أمضت مع الچونى جزءا كبيرا من النهار تقريبا ومعها شوقية التى قالت:

- الچونى عادت إلى الأكل والشراب المهم المسكينة نوال.

لكن حسنة اندفعت وقالت.

- اسمعوا. اسمعوا آخر خبر . أنا تقدم لى عريس.

ابتسمت أبلة نرجس. تهللت وجوه الأخريات. قالت بدرية.

- صحيح يا حسنة؟

- صحيح والله، زميل أخى العربى، أرمل وعنده ولد وبنت.

- معقول يا حسنة، هل أنت عانس حتى تتزوجى من أرمل؟

تساءلت حكمت فقالت حسنة بهدوء.

- حتى لو لم أعنس كثيرا، لم أعد استطيع الحياة هنا، زهقت من الظلام، عايزه مكان فيه نور، العربى أخى أيضا سيتزوج.

- لابد انه سيتزوج قريبة لخطيبك أو أخته حتى يسهل له زواجه منك.

- أبدا. العربى طول عمره يشتغل مع الأجانب، سيتزوج واحدة يونانية اسمها چورچيت.

- چورچيت !

تساءلت شوقية مستغربة الاسم فقالت حسنة.

- هو يقول ذلك، لكن أنا قلبى حاسس انها مصرية، وقبطية أيضا.
كنت اسمعه أحيانا يتكلم عن اليونانية التى كان يعمل عندها وفى الكلام يأتى ذكر واحدة قبطية اسمها چورچيت. العربى لئيم لا يبوح بأسراره بسهولة.

تساءلت بدرية فى دهشة.

- وهل ينفع يتزوج قبطية؟

قالت الست نرجس.

- طبعا، الرسول تزوج من ماريا القبطية وخلف منها ولد..

سكتن للحظات طويلة حتى قالت حكمت.

- ربنا يوفقك يا حسنة. هيا بنا نزور نوال، المرة الماضية لم أجد الوقت، لازم نوال ترجع لصحتها.

قبل أن تتحركن قصت عليهن حسنة ما جرى لنوال فى الأيام الأخيرة. كيف اقتنعت بكلام مدير البرامج بالإذاعة وسافرت إلى القاهرة للرجل الذى حدثها عنه، والذى قابلته بسهولة حيث وجدت تصريحا باسمها على باب الاذاعة، فدخلت إليه فرحانة، وطلب لها كوبا من الليمون، واستمع إلى صوتها بالمكتب، ثم قال لها «دائما عبد الحميد بيه يتحمس فى غير مناسبة، يا مدموازيل نوال انت صوتك لا يصلح أبدا للغناء.» وتركها فى المكتب وخرج. عادت نوال إلى التدخين من جديد، أكثر من ذى قبل، أهملت فى عملها لكن مدير المستشفى الذى أشفق عليها أعطاها سنة أجازة بدون مرتب حتى لا تتعرض للفصل من كثرة الغياب.

قالت حكمت بثقة.

- كل هذا يمكن حله، أنا الآن أعرف ناس كبار فى البلد وأستطيع أن أساعدها. هيا نراها بسرعة. الساعة تقترب من الحادية عشرة. خرجن جميعا وظلت ابلة نرجس وحدها. كان كروان قد نام مبكرا فى الحجرة الداخلية. فوجئت به أمامها يقول أنه لا يستطيع النوم وسيخرج يشم قليلا من الهواء على المحمودية. كان يمسك بالناى الصغير فى يده كانت تعرف مدى حزنه على خير الدين. رقَّت له وتركته يخرج. كانت فى حاجة إلى الصعود إلى السطح هذه الليلة عليلة النسيم تتفتح فيها مسام جسدها للنشوة رغم الألم الذى يسكن البيوت. كانت فى حاجة إلى ذلك الأثيرى الغامض وتلك اللذة السرمدية. كان كروان للتو قد أغفى لحظات رأى فيها خير الدين يقف على ناصية الشارع يناديه مشيرا إليه بذراعيه، كروان، كروان، تعالى معايا يا كروان، فقام مفزوعا من النوم خائفا لكنه لم يقص رؤيته على أمه. على الشاطئ وجد سليمان جالسا على حجر يتأمل الماء الساكن والبخر الأبيض الخفيف السابح فوق الماء. هل رأى سليمان رؤياه أيضا؟. جلس جواره، وراح سليمان يتكلم..

- أسبوع الآن منذ موت خير الدين وأنا أفكر فى مغادرة الإسكندرية، مغادرة مصر كلها، والسفر إلى انجلترا أو استراليا. فكرت أسافر إلى أواسط أفريقيا أبحث عن عمى وأكتب معه حكاية الامبراطورية المصرية، فكرت ألحق بتاجر البهار واكتب قصة طريق التوابل، فى آسيا، انتهيت للسفر إلى أوربا بمساعدة چين بانكروفت!

لم يكن كروان يفهم تفاصيل ما قاله سليمان، الذى راح بدوره يشرح له كل شئ، وكروان فى دهشة كبيرة مما يسمع، فى الوقت الذى كانت فيه حكمت وبدرية وشوقية وحسنة جالسات حول وأمام نوال الصامتة.

كان مشهدها مخيفا فى جلستها الجامدة فوق الكنبة، وشحوبها الشديد، والسيجارة التى تهتز بين اصبعيها وبين شفتيها. انحنت كل منهن تقبلها ونوال لا تتحرك، ولا تبادلهن القبلات أو التحية، تنظر بعيدا فى الحائط المقابل ولا تحرك عينيها.

– نوال. أنا بدرية حبيبتك. أنا شايلة العقد الكهرمان فى رقبتى حتى الآن. شايفاه؟ دائما أفتكرك يا نوال. احضرت لك فستان فرح إيطالى، احتفظى به ليوم فرحك يا نوال.

– نوال بصّى لى. أنا حكمت. قولى لى من ضايقك وأنا أقدر أضربه لك بالشبشب. أنا أعرف ناس كثير مهمة فى البلد يا نوال. صدقينى.

– نوال أنا شوقية. أنا خلفت ولد جميل اسمه على باسم أبى، ياريت تقومى معى تشوفى على عند ماما يا نوال.

لكن نوال لا تتحرك. أطفأت سيجارتها وبدت لا تسمعهن ولا أمل فى أن تسمعهن.

– بصّى لاصحابك يا نوال. تكلمى يا بنتى أنا خائفة يجرى لك حاجة. ارحمينى وارحمى أباك وأخواتك.

قالت الأم باكية لكن لا فائدة. طال الصمت وانتحبت الأم اكثر فأخذن فى تهدئتها، لما هدأت ثقل الصمت اكثر. من يقطع هذا الصمت الآن؟ لا أحد. على شاطئ ترعة المحمودية كان كروان مذهولا من المعلومات التى أخبره بها سليمان، من الرواية التى كان قد شرع فى كتابتها ولم يتمها، من رسالة محمود الملاح إليه. وقال سليمان.

– غدا فى الصباح سأعطيك كل الرسائل، حتى رسائل خير الدين لى، وسأعطيك ما كتبته من الرواية، من يدرى ربما تظهر لك ميول فى

الكتابة، ساعتها أرجو لك حظا أحسن، وأرجو أن تذكرني إذا استفدت مما أعطيته لك.

راح كروان ينفخ في الناي بهدوء، وسرى في الصمت والظلام الصوت الشجي للناي.

لقد تقدم كروان في دروس الموسيقى كثيرا فهو يعزف بتمكن وتلقائية. تأثر سليمان حتى إنه لم يعد يشعر بأي شيء حولهما حتى رأيا شيئا يسبح في الماء على مهل. لم يكن حبشي كما ظن كل منهما. كانت زوجته الجديدة، كانت عارية تماما تقترب من الشاطئ وتضحك لهما ثم تعود وتغطس ضاربة الماء بذراعيها لتختفي لحظات ثم تظهر بعيدا حمراء بين البخار الأبيض ثم من جديد تقترب منهما وتضحك... لم يكن هناك صوت في كشك حبشي ولا كشك الأولاد المجاور، الجميع نيام، والمرأة وحدها، اقتربت منهما كثيرا هذه المرة ثم أشارت لهما أن يبتعدا فهي تريد أن تخرج من الماء. كان الوقت منتصف الليل تقريبا، تركا مكانهما عائدين كل منهما إلى بيته لا يصدقان ما رأياه. في بيت نوال قامت البنات يائسات ورحن يقبلنها مودعات. انسالت دموع هادئة من عيونهن وغادرن الحجرة ونوال جامدة في مكانها. في منتصف الصالة الخارجية جاءهن الصوت الملائكي العذب الجميل حزينا واهنا محملا بالعذاب.

دخلت مرة جنينة
اشم ريحة الزهور
وأهني نفسي الحزينة
واسمع نشيد الطيور

وقفن وقد علا وجوههن الفرح. عدن بهدوء. كانت نوال لاتزال جالسة جامدة فى مكانها تنظر إلى الحائط ولا تشعر بهن.

بصيت لقيت على الغصون
بلبل وياه وليفته
واقف معاها فى سكون
أنا فرحت أما شفته

قامت واقفة وراحت تفرد ذراعيها كجناحين وتحركهما بهدوء كما لو كانت راقصة باليه تطير فى الفضاء وتغنى ذاهلة عنهن لاتزال ويعلو صوتها الجميل.

وقال لها يا ملاكى
اللى تعوزيه أطلبيه
روحى وعقلى فداكى
حبيبك أوعى تسيبه

وانكمشت وخبأت رأسها بين ذراعيها ورق صوتها وازداد ألما.

وبعد مدة طويلة
فى شرب كاس الوصال
لقيت حبيبته الجميلة
ساقت عليه الدلال
طارت ماسألتش فيه
وخلّت الكون عذاب

اقتربت من حكمت، نظرت اليها نظرة مهزومة، انشرخ صوتها وامتزج بالغناء البكاء، هن تركن دموعهن تنزل هادئة على خدودهن

وعادت نوال تجلس إلى الكنبة وهن يقتربن منها وهى تحاول أن يصفو صوتها.

واللى كمان زاد عذابه
وليفته لافت بغيره
وزودت له مصابه
وداق ياروحى مصيره

لكنها لم تنجح أن تتخلص من البكاء، بل زاد صوتها نشيجا.

خرجت صعبان علىّ
حالته تبكّى الجماد
حفظ ودادها وهى
خانت عهود الوداد.

انفرط عقدها فلم تعد قادرة على كبح البكاء. نوال. نوال يا حبيبتى. رحن يقبلنها من كل ناحية وبكت الأم وفرحت معا وهى تقول.

- الحمد لله يا بنات، البكاء أول الشفاء.

فى الصباح الباكر خرجت نوال إلى العمل قوية، تشعر أن العالم كله حقل واسع وهى المهرة الوحيدة التى ترمح فيه فى كل الاتجاهات. صار العالم الآن ملك يديها بهذه القوة التى دبت فيها. كان النهار صاعدا أبيض من كل يوم، الفضاء أوسع من كل يوم، وما إن خرجت من باب المساكن إلى شارع قنال المحمودية الخالى فى مثل هذا الوقت من كل صباح حتى وقفت قليلا ليراها الرجال الخارجون إلى أعمالهم والتلاميذ الذاهبون إلى مدارسهم، بدا لها الكون بهذه الحركة الهادئة حولها جميلا وديعا فمشت فى عزم إلى المعدية، رأت على الشاطئ حبشى واقفا جوار

الكشك يلقى بتعليماته لعدد كبير من الأولاد والبنات العراة إلا من السراويل عن فائدة الاستحمام فى الترعة فى الصباح الباكر، وكيف يساعد الأكبر الأصغر منهم على تعلّم السباحة. بدا لها حبشى مثل ملك فى مملكة صغيرة، شعبه هو أطفاله، وأرضه هى أرض ربنا، قالت له ضاحكة «صباح الخير يا طرزان» ولم تكن من قبل قد قالت له ذلك، هو أيضا فوجئ واستولت عليه الدهشة فقال مرتبكا صباح النور، صباح النور يا سستر نوال، وسبحت بها المعدية يدفعها المعداوى الصامت وحبشى يتابعها بعينيه معجبا بجمال جسمها ولاتزال بسمتها وهى تتكلم معلقة أمامه فى الفضاء، قفزت نوال إلى الترام الواقف التى ما إن بدأت تتحرك حتى تنهدت نوال بعمق وأغمضت عينيها، وجدت نفسها ترتل مع إيقاع صوت عجلات الترام.

من أنت أيتها المرأة اللغز؟

قالت أنا التى اعتصر جويا حليبى

وقام مجنونا ليرسم فريق الاعدام

ويجرى فى الشوارع مع الثيران

يا رفاق..

الثيران عرفت جويا وأوسعت له الطريق

ووصل جويا إلى حافة النهر فرحان

هيا نصلى جميعا وراء جويا

هيا نصلى جميعا وراء جويا

فى الوقت نفسه كان سليمان قد صعد إلى السطح حزينا يلقى نظرة على الفضاء الذى يعشقه لآخر مرة، لدهشته وجد سعدة جالسة فوق

السطح المقابل تنتظره. رأته فوقفت فرحانة تبتسم ومن وجهها تشع البسمة والفرحة تنتقل إليه، ولدهشته قذفت إليه بورقة صغيرة ملفوفة حول زلطة التقطها وفتحها يقرؤها غير مصدق «أنا مش صغيرة يا سليمان. أنا كبيرة وباحبك وما فيش أى حاجة فى الدنيا حتمنعنى عنك المهم انك أنت يا سليمان لا تتراجع».

وضع الورقة فى الجيب الأيسر لجاكت البيجامة فأحس بقلبه ينبض.

– هل ستبقين هنا دائما؟

سألها فقالت.

– حتى لو أخفونى مرة ثانية سأعود، المهم تنجح أنت فى الحياة، ساعتها لن يستطيع أحد أن يخفينى..

ولتكمل سعادته ارسلت إليه قبلة نفختها على راحة يدها فقفز فى الفضاء يتلقاها بفمه فضحكت وسرى صوتها المبهج وسط الضوء فاشتعل سليمان من السعادة الغامرة وهتف.

– لن أذهب إلى أى مكان. سأبقى هنا، وسأكتب قصتى وسأنجح.

قالت

– هو كنت نويت تسافر؟

قال.

– هذه حكاية صارت قديمة الآن.

– إذن انزل أنا بسرعة حتى ألحق بالمدرسة.

نزلت وظل هو واقفا سكرانا من النشوة. كان الحامل الذى أقامه وركب عليه المرآة قد سقط من زمان فشرع فى إصلاحه وإعادته إلى مكانه. قرر بعد أن ينتهى من ذلك أن يخرج يمشى فى المدينة على غير هدى، يقطعها كلها من كرموز إلى محطة الرمل ثم من محطة الرمل إلى

قصر المنتزه ويعود بعد ذلك إلى الأنفوشى، ثم يركب الترام حتى الحضرة ويعود مشياً على شاطىء المحمودية حتى يعبر المساكن إلى كفر عشرى والقبارى والورديان والمكس ثم يعود بالترام إلى المدرسة التليانية عابرا مينا البصل ، ثم يدخل فى كرموز من جديد. الاسكندرية مدينة سهلة، طويلة حقا، لكنها مستسلمة للمشاة وللركاب، لسكانها وللمهاجرين من كل الدنيا، ومن شمال وجنوب البلاد. كانت مديرية الصحة قد أعلنت اليوم أن المواليد زادت من المصريين بنسبة ١٠٪ بينما قلت مواليد الأجانب بنسبة خمسين فى المائة، وفى الوقت الذى تجاوز فيه سكان الاسكندرية الخمسمائة وخمسين ألف مواطن تناقص الأجانب إلى ثلاثين ألف مواطن، وأعلنت إدارة الميناء أن الرحلات البحرية قد زادت فصارت هناك خمس رحلات شهرية بدلا من أربع إلى صقلية وأثينا ورودس واللاذقية وبيروت، وأعلنت الغرفة التجارية أن مصر شهدت أكبر حركة تمصير منذ بداية هذا العام بحيث لو استمر الأمر على هذا النحو سيتم تمصير كل المؤسسات والشركات والورش والبنوك والمحلات الأجنبية خلال أربعة أعوام على أقصى تقدير، وفى المساء عرف كروان أن سليمان لن يبرح البلاد، ومن ثم لن يعطيه شيئا مما كتب أو احتفظ به من رسائل لخير الدين ومحمود الملاح، ولم يندهش كروان، بل اندهش من نفسه كيف صدق حقا أن سليمان يمكن أن يرحل إلى أى مكان آخر، وفى منتصف الليل وجد نفسه يخرج إلى شاطئ ترعة المحمودية دون سبب. لكنه حين رأى زوجة حبشى الجديدة تسبح أمامه عارية وتقترب منه وتضحك اهتز جسده وأدرك أن هذا هو السبب. فى اليوم التالى خرج كروان مرة أخرى فى منتصف الليل، وكانت المرأة فى انتظاره. فى اليوم الثالث فعل ذلك أيضا، وظل يفعل ذلك كل يوم

ويندهش من هذه الرعشة اللذيذة التى تسرى فى جسده وهو يرى المرأة تسبح أمامه فى الماء عارية. ولما شعرت أمه وأبوه بخروجه راح يتظاهر بالنوم حتى إذا ناما خرج متسللا وحده حافيا كيلا يصدر صوتا، وحتى بعد أن ينتصف الليل بكثير كان يجد المرأة فى انتظاره فى الترعة وحدها دائما، لم يجد حبشى معها مرة واحدة، صارت ما إن تراه حتى يتهلل وجهها وتقفز فى الماء تغطس وتطفو كسمكة حقيقية سعيدة،، دعته أكثر من مرة أن ينزل معها فكان يشير بأصبعه السبابة رافضا فراحت تسبح ناحية كوبرى كرموز وهو يمشى جوارها على الشاطئ شاعراً بملمس الأرض البارد ينعش قدميه، ورغم دخول الخريف، كان بخر الماء الأبيض لا ينقطع، وهى تسبح فوق الماء وبينه عارية بلحمها الوردى وهو يمشى على الشاطئ لا يرفع عينيه عنها، حتى تعود إلى الكشك فيعود هو إلى البيت. احتفظ بسره فهذه الحلاوة التى تنطلق فى روحه لو عرف سرها أحد لتبخرت وراحت بلا رجعة، ولم يعد قادرا أن تمر به ليلة دون أن يتسلل إليها خارجا فيجدها تنتظره، لم يدرك أنها وهى تسبح ناحية كوبرى كرموز كانت تزيد المسافة ليلة بعد ليلة، وهو يمشى معها غير شاعر بالتعب ولا بالجوع ولا بالعطش..

انتهت

تنويه :

● اعتمدت هذه الرواية فى عدد من المعلومات السياسية والاقتصادية والتاريخية على كتب عديدة وبحوث متنوعة وصحف ومقالات من أبرزها.

١ – تجارة التوابل فى مصر فى العصر المملوكى   تأليف : د. محمد عبد الغنى الأشقر
سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ١٣٧

٢ – الرأسمالية الصناعية فى مصر   تأليف : د. عبد السلام عبد الحليم عامر
من التمصير إلى التأميم   سلسلة تاريخ المصريين عدد رقم ٥٩

٣ – وجوه سكندرية   تأليف : حسن المناويشى
الناشر : الملتقى المصرى للابداع والتنمية

٤ – تاريخنا القومى فى سبع سنوات   تأليف : عبد الرحمن الرافعى
الناشر : دار المعارف المصرية

٥ – أربعون عاما على العدوان   تأليف : كمال القلش
بور سعيد أيام المقاومة   كتاب الأهالى رقم ٥٩

٦ – مصر. وَلَع فرنسى   تأليف : روبير سوليه
ترجمة : لطيف فرج
الناشر: دار المستقبل العربى

٧ – صحيفة الأهرام، وصحيفة الأخبار،
ومجلة المصور، ومجلة آخر ساعة
سنوات ١٩٥٦ – ١٩٦٠.

٨ – الاقتباس الأول من بودلير من قصيدة

«شجن Spleen » من ديوان أزهار الشر.

٩ – الاقتباس الثانى لهارى تزالاس

من فصل "Am Ahmed était Concierge"

المنشور فى مجلة Méditerranéennes

عدد ٨/٩/ خريف ١٩٩٦.

رقم الايداع : ١٧٣٧٩/ ١٩٩٩

I.S.B.N

977-07-0692-2

العدد القادم من روايات الهلال :



تصدر : ١٥ فبراير ٢٠٠٠



إبراهيم عبدالمجيد

- من مواليد الاسكندرية.
- حاصل على ليسانس الآداب قسم الفلسفة عام ١٩٧٣.
- يشغل الآن منصب رئيس تحرير سلسلة كتابات جديدة الصادرة عن هيئة الكتاب.
- له ثمانى روايات منها «المسافات» والصياد واليمام» و«قناديل البحر» و«ليلة العشق والدم».
- حصلت روايته «البلدة الأخرى» على جائزة نجيب محفوظ من الجامعة الأمريكية عام ١٩٩٦.
- فازت رواية «لا أحد ينام فى الاسكندرية» الصادرة بروايات الهلال بجائزة رواية العام بمعرض القاهرة الدولى للكتاب كما ترجمت رواياته إلى لغات عديدة.
- له أربع مجموعات قصصية منها «الشجرة والعصافير» و«إغلاق النوافذ».

هذه الرواية

طيور العنبر

هى أول رواية عربية تصدر فى الألفية الثالثة للروائى إبراهيم عبدالمجيد. وهى رحلة جديدة للاسكندرية، أرض وسماء الكاتب الاسطورية، وإن كانت روايته المهمة السابقة «لا أحد ينام فى الاسكندرية»، حول المدينة إبان الحرب العالمية الثانية، حين اجتمعت بها كل أجناس الارض.

لكن «طيور العنبر» تحلق فى سماء المدينة الاسطورة بعد حرب السويس، حين خرجت منها كل الأجناس.

فى هذه الرواية يتابع المؤلف جهوده من تصوير روح المكان / الزمان من خلال عدد كبير من الشخصيات المصرية والأجنبية شخصيات حالمة، لدى كل منها حلم للامساك بطائر العنبر الخرافى، ولا تدرى انها تسبح فى وسط من الصراعات الكونية. يحدد لها مصائر أخرى.

إنها ملحمة للنبل، والحب والفراق، وأغنية عذبة لمدينة تمتد فى الزمان.